المركز القومى للترجمة

اختراق الجزيرة العربية

"سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية"

تأليف: ديفيد چورج هوجارث
ترجمة: صبرى محمد حسن
مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

المشروع القومى للترجمة



الطبعة الثانية

2/897



يعد كتاب "اختراق الجزيرة العربية" لمؤلفه ديڤيد هوجارث بمثابة سجل يكاد يكون شاملا لتطور معرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية عبر أربعة قرون من المغامرة والعلم، وعلى وجه التحديد منذ بداية القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن العشرين.

والكتاب كما هو واضح من عنوانه لا يهتم بسواحل الجزيرة العربية التى كانت معروفة لدى الأوربيين منذ وصول البرتغاليين إليها فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر - وتبعتهم القوى الأوروبية الأخرى من إنجليز وهولنديين وفرنسيين - ولكنه يعنى بالتركيز على دواخل الجزيرة العربية التى ظلت بعيدة عن مجال المعرفة الأوروبية، واحتاجت إلى جهود مكثفة للتعرف عليها قام بها العديد من المغامرين والرحالة الأوروبيين، يدفعهم إلى ذلك العديد من الدوافع العلمية أو السياسية أو التجارية أو غيرها من دوافع أخرى. ومهما كانت تلك الدوافع فإنها أدت فى النهاية إلى الكشف عن كل ما يتعلق بشبه الجزيرة العربية: حضارتها القديمة وآثارها وجغرافيتها وجيولوجيتها وطبوغرافيتها وغيرها.

تصميم الغلاف: سليم صبرى

اختراق الجزيرة العربية

"سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية"

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٩٧/ ٢
- اختراق الجزيرة العربية "سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية"
- ديفيد چورچ هوجارث
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة

The Penetration of Arabia
by: D. G. Hogarth

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St.. Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

اختراق الجزيرة العربية

"سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية"

تأليـــــف: ديفيد جورج هوجارث

ترجمــــــة: صبرى محمد حســـن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٨٩١ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 4 - 415 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

فهرس الصور

تقديم المراجع

يعد كتاب " اختراق الجزيرة العربية " لمؤلفه ديفيد هوجارث بمثابة سجل يكاد يكون شاملاً لتطور معرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية عبر أربعة قرون من المغامرة والعلم ، وعلى وجه التحديد منذ بداية القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن العشرين . والكتاب - كما هو واضح من عنوانه - لا يهتم بسواحل الجزيرة العربية التى كانت معروفة لدى الأوروبيين منذ وصول البرتغاليين إليها فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر - وتبعتهم القوى الأوروبية الأخرى من إنجليز وهولنديين وفرنسيين - ولكنه يعنى بالتركيز على دواخل الجزيرة العربية التى ظلت بعيدة عن مجال المعرفة الأوروبية ، واحتاجت إلى جهود مكثفة للتعرف عليها قام بها العديد من المغامرين والرحالين الأوروبيين ، يدفعهم إلى ذلك العديد من الدوافع العلمية أو السياسية أو التجارية أو غيرها من دوافع أخرى . ومهما كانت تلك الدوافع فإنها أدت فى النهاية إلى الكشف عن كل ما يتعلق بشبه الجزيرة العربية ، حضارتها القديمة وآثارها وجغرافيتها وجيولوجيتها وطبوغرافيتها وغيرها .

وأيًا كان موقفنا من الدوافع السياسية أو الاستغلالية التى حفزت أولئك الرواد والرحالين إلى القيام برحلاتهم ، أو على الأحرى بمغامراتهم ، فإنه ينبغى أن نقدر ما تحملوه من مشقة وتضحيات فى سبيل الوصول إلى نتائج عادت بالعديد من الفوائد على العلم والمعرفة ، وخاصة فيما يتعلق بالكشف عن الحضارة العربية وحياة الشعوب القديمة سواء فى جنوب الجزيرة العربية أو فى شمالها ، إلى جانب التعرف على النقوش الكتابية التى أدت إلى حل رموز العديد من الأبجديات الحميرية والآرامية والنبطية وغيرها .

لقد ظلت الجزيرة العربية لقرون عديدة فى حكم القارة المنسية أو المهملة لدى المعرفة الأوروبية ، ومن ثم كانت أشبه ما تكون بعالم مفقود يثير الشوق إلى اكتشافه والتعرف عليه . وليس من شك فى أن جهل الأوروبيين بشبه الجزيرة العربية ، أو على الأحرى إهمالهم لها كان يرجع إلى العديد من العوامل ، من بينها أن الفاصل بين أوروبا والشرق بصفة عامة وشبه الجزيرة العربية بصفة خاصة قد ازداد عمقا واتساعا منذ ظهور الإسلام ، وما تبع ذلك من حركة الفتوحات الإسلامية ، بحيث لم يعد هناك اهتمام بالجزيرة العربية سواء من فبل الأوروبيين أو حتى من قبل أبنائها الذين استوطنوا خارج حدودها ، وأصبحت لهم عواصمهم الجديدة فى بغداد ودمشق والقاهرة وطليطلة . ثم جاءت الحروب الصليبية لتزيد من عوامل الانفصال بين أوروبا وشبه الجزيرة العربية ، وقد تكون حقيقة أن الصليبيين وصلوا إلى حدود مناطقها الشمالية ، إلا أنه لم يُتح لهم أن يتصلوا اتصالاً مباشراً بمناطقها الداخلية .

وعلى الرغم من أن العثمانيين نجحوا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر فى بسط نفوذهم على معظم أقطار العالم العربى ، فإن شبه الجزيرة العربية ظلت - باستثناء بعض مناطقها فى الحجاز واليمن - بمنأى عن السيطرة العثمانية ، ويرجع السبب فى ذلك إلى طبيعتها الصحراوية القاحلة التى هلكت فيها جوعاً وعطشاً الجيوش التى حاول بعض السلاطين العثمانيين توجيهها إليها . كما كان للصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية فى حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أثره فى تعميق الانفصال بين العالمين المسيحى والإسلامى . وليس من شك أيضا فى أن سياسة العزلة التى فرضها العثمانيون على العالم العربى بصفة عامة والجزيرة العربية بصفة خاصة بحجة المحافظة على الحرمين الشريفين ، ومنع الأوروبيين من الوصول إلى موانئهما ، كانت من الأسباب التى أدت بدورها إلى تعميق عوامل العزلة والانفصال . يضاف إلى ذلك أن ظروف الجزيرة العربية الطبيعية بما تميزت به من صحارى قاحلة وأوضاع مناخية قاسية كان لها أثرها فى ازدياد عزلتها .

وعلى أثر خروج أوروبا من ظلمات العصور الوسطى وبداية حركة النهضة الأوروبية الحديثة ، أخذت شبه الجزيرة العربية تثير شوق الأوروبيين لاكتشافها والتعرف عليها ، ووجدوا ضالتهم فى الكتب الدينية ، التى تضمنت الكثير من المعلومات والقصص عن الشعوب القديمة التى استوطنت الجزيرة العربية كقوم سبأ وعاد وثمود والتبابعة وغيرهم . وإضافة إلى تلك الكتب الدينية المقدسة كانت هناك المصادر الكلاسيكية - الإغريقية والرومانية - التى عمد الأوروبيون إلى ترجمتها وإحيائها ، والتى تميزت بتوافر كم كبير من المعلومات عن بعض مناطق شبه الجزيرة العربية ، من ذلك ما ذكره مؤلف مجهول من المحتمل أنه كان بحارا إغريقيا عاش فى الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى "٦٠ م" فى دليل ملاحى له بعنوان " الطواف حول البحر الإرتيرى " عن الطرق التجارية التى كانت تربط ما بين مملكة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية وبين مدينة البتراء عاصمة مملكة الأنباط فى الشمال وبين تلك المملكتين وعمان وحضرموت والجرهاء على سواحل الخليج العربى . كما أورد المؤرخ الرومانى بلينيوس فى القرن الثانى للميلاد أسماء لبعض المدن والقرى والقبائل العربية ، هذا إلى جانب الأطلس الجغرافى الذى وضعه بطليموس السكندرى الذى كان يشتمل على خريطة جغرافية لشبه الجزيرة العربية .

وليس من شك فى أن ما توصل إليه الأوروبيون من بعض المعارف والمعلومات عن شبه الجزيرة العربية ، زاد من حماسهم إلى عدم الاكتفاء بما اطلعوا عليه فى الكتب الدينية المقدسة أو فى المصادر والخرائط الكلاسيكية ، أو فى بعض ما ترجم فى ذلك الوقت من مصنفات إسلامية ، أو فيما قرأوه عن كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية كتابات اختلط فيها الواقع بالخيال ، وامتزجت فيها الحقيقة بالمغالطة ، ولكنهم أخذوا يتحرقون شوقا إلى الرؤية بأعينهم .

ولم تقف الظروف الطبيعية القاسية التى تتصف بها الجزيرة العربية ، وعدم استقرار الأمن فى ربوعها ، حائلاً دون إثارة روح المغامرة والمجازفة التى دفعت العديد من المغامرين الأوروبيين إلى الرغبة فى اكتشاف مجاهلها ، وهو الأمر الذى

شكل إغراء قويًا لديهم ، ومن ثم تركز الاهتمام على داخلية الجزيرة العربية أما فيما يتعلق بسواحلها فقد أصبحت معروفة لدى الأوروبيين منذ بداية العصور الحديثة . ولعل مما يسترعى الانتباه أن البرتغاليين على الرغم من وصولهم إلى سواحل الجزيرة العربية ، إلا أنهم لم يبذلوا أى جهد للتوغل فى داخلها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الإمبراطورية البرتغالية تميزت بكونها إمبراطورية ساحلية ، امتدت عشرات الآلاف من الأميال من لشبونة إلى سواحل الهند الغربية ، كما كان الصراع والتنافس بين القوى الأوروبية التى خلفت البرتغاليين من إنجليز وهولنديين وفرنسيين يتركز فى سواحل الجزيرة العربية والخليج ، سعيا وراء مصالحهم التجارية والاستعمارية وطرق مواصلاتهم الإمبراطورية إلى الهند والشرق الأقصى .

ولعل أكثر ما كان يشد الرغبة لدى الأوروبيين لاختراق الجزيرة العربية هو التعرف على مدينتى الإسلام المقدستين - مكة والمدينة - وكيفية تأدية شعائر الحج . وعلى الرغم مما فرضه العثمانيون على هاتين المدينتين المقدستين من حراسة مشددة خشية أن يتسلل إليهما أحد الأوروبيين ؛ إذ كان محذورًا على غير المسلمين تحت طائلة عقوبة الموت دخول تلك الأماكن المقدسة ، فإن ذلك لم يمنع العديد من الرحالين والمغامرين الأوروبيين من دخول تلك المدن بل وتأدية مناسك الحج تحت غطاء إسلامى ، أو على الأقل ادعائهم اعتناق الإسلام .

ومما يستلفت الانتباه أن الارتياد الأوروبى لشبه الجزيرة العربية ، وإن كان قد بدأ منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، فإنه تميز آنذاك باتخاذه شكلاً فرديا وغلب عليه طابع المغامرة ، غير أنه بتطور المعرفة ونتيجة للنهضة العلمية الأوروبية أخذت الجزيرة العربية تجذب إليها الأنظار ، وغدت بصحرائها الشاسعة وروح المغامرة التى تحيط بها بمثابة إلهام للأوروبيين ، خاصة منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر حين بدأت أوروبا تعيش عصرًا رومانسيًا مما أشغف الكثيرين بالشرق بصفة عامة وبالجزيرة العربية بصفة خاصة ، التى لم تعد تمثل فى أذهانهم كثبانا رملية تتهادى عليها الإبل ، بل غدت فضاءً شاسعًا يتيح انطلاق الفكر والخيال ،

وبصدد ذلك ظهرت العديد من الدراسات والدوريات التى تحفز الرحالين والمغامرين إلى اختراق ذلك العالم المنسى أو المجهول .

ومن ناحية أخرى أخذت الجزيرة العربية تجذب إليها العديد من الدوائر والهيئات العلمية ، مما أضفى على ارتيادها منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر طابعا علميا . ولم تلبث بعد ذلك أن أخذت الدوافع السياسية وغيرها من دوافع أخرى ترتبط بالدوافع الاستكشافية والعلمية . ولعل البعثة العلمية التى أرسلها فردريك الخامس ملك الدانيمارك إلى الجزيرة العربية فى عام ١٧٦٣ كانت أول من فتح الباب للارتياد العلمى المنظم للجزيرة العربية . وترتب على تلك البعثة التى كان كارستن نيبور من أبرز أعضائها ، أن أصبح الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية معروفًا لدى الأوروبيين بحكم ما ألقاه نيبور من أضواء ساطعة على اليمن بصفة خاصة .

ومع أن هوجارث خصص فصلاً كاملاً فى كتابه لرحلة نيبور، فإنه لم يتعرض بالتفصيل لما ورد فى هذه الرحلة من معلومات تميزت بقدر كبير من الغزارة ، وإنما انتقى منها الأجزاء التى ترتبط باهتماماته بوصفه عالمًا فى الآثار والنقوش ، وما توصل إليه نيبور من معلومات نباتية وحيوانية وجغرافية وعلمية وغيرها . كما قصر تركيزه على المناطق التى زارها نيبور بنفسه فى اليمن ومسقط ، ولم يهتم بما نقله من معلومات سمعها عن مناطق وأقاليم أخرى ، ومن أبرزها هجرات العرب إلى السواحل الشرقية للخليج مما أكد عروبته من جانبيه الشرقى والغربى .

وفى أعقاب رحلة نيبور بدأ الاهتمام الأوروبى يتزايد بغية التعرف على أواسط الجزيرة العربية . وليس من شك فى أن التحولات الدينية والسياسية التى ظهرت فى ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربية ، ونعنى بها ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما تبعها من قيام الدولة السعودية الأولى كانت من أكبر الدوافع التى حفزت الإنجليز بصفة خاصة على الاهتمام بما حدث نتيجة لتلك التحولات التى كان لها مساس بمصالحهم التجارية فى منطقة الخليج العربى ، ومن ثم كانت الرحلة التى قام بها رينو الذى أوفد إلى الأمير السعودى فى عام ١٧٩٩ من أجل تحسين العلاقة بينه

وبين الوكالة البريطانية التجارية فى البصرة ومنع الاعتداء على مستودعاتها التجارية فى الكويت . ومن ثم قدر لرينو فى رحلته هذه التعرف على الأمير السعودى وزيارة الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى.

وتبع رحلة رينو الرحلة التى قام بها الرحالة الإسبانى دومنجو باديا لبليخ إلى الحجاز فى عام ١٨٠٧ ، الذى اعتبره بعض الباحثين جاسوسًا للإمبراطور نابليون الأول ، الذى لم يتوقف على الرغم من فشل الحملة التى قام بها على مصر والشام ، عن محاولاته التخطيط لمشروعات توسعية فرنسية فى الشرق ، ومن ثم كان الهدف من رحلة ذلك المبعوث الإسبانى أن يتعرف الإمبراطور نابليون الأول على موقف مسلمى الشرق من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وإلى أى حد يمكن أن تؤثر تلك الدعوة على خططه التوسعية فى الشرق . وأيا كانت هناك من دوافع سياسية لتلك الرحلة ، فإن هذا المبعوث الإسبانى قدر له نتيجة اعتناقه الإسلام بل وادعائه الانتماء إلى السلالة العباسية - حتى إنه أطلق على نفسه لقب على بك العباسى - تأدية مناسك الحج وزيارة الحرمين الشريفين ، ومن ثم عاد إلى أوروبا حاملاً معه معلومات عن شعائر الحج إضافة إلى العديد من المعلومات الجغرافية المهمة . وتبع على بك العباسى ، الرحالة الألمانى أولريش جاسبار سيتزن الذى أشهر إسلامه فى القاهرة ، ولقب نفسه بالحاج موسى وصحب قافلة الحج المصرية المتجهة إلى الأراضى الحجازية فى عام ١٨٠٩ .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان للحملات المصرية على الجزيرة العربية على عهد محمد على ، وعلى وجه التحديد بين عامى ١٨١١ -١٨٤٠ ، دورها الكبير فى إلقاء مزيد من الضوء على أواسط الجزيرة العربية وجنوبها ، ولا غرو فى ذلك فقد كانت القوات المصرية أول من اخترقت الجزيرة العربية من الغرب حتى وصلت إلى سواحل الخليج العربى فى الشرق ، كما امتدت الحملات العسكرية إلى اليمن والمناطق الجبلية فى عسير التى لم يصل إليها أى مستكشف منذ رحلة كارستن نيبور فى عام ١٧٦٣ . وكان لذلك الامتداد المصرى أثره فى التعرف على

مناطـق وأقاليم جـديـدة كان يجهلهـا الكثيرون من الجغـرافيين سـواء القدماء منهم أو المعاصرين .

وفي ظـل الحكم المصـرى لقسـم كبير من أقســام الجـزيـرة العربيـة ، وبفضل ما أشـاعه من الأمن والنظام قام العديد من الرحـالين بالتجول فى الجزيرة العربية علانيـة وبدون تنكر ، كمـا حرص بعضـهم على زيارة الحرمين الشـريفين ومن بينهم الرحالة السويسرى لودفيج بركخـاردت فى عام ١٨١٤ الذى لم يكتف باعتناقه الإسلام بل حرص على التفقه فى الشريعة الإسلامية ولقب نفسه بالشيخ إبراهيم ، وجدير بالذكر أن بركخـاردت لم يقتصر فى الرحلات التى قام بها فى الجزيرة العربية على زيارة الحـجـاز فحسب ، وإنما نجح فى الكشف عن الآثار الحضارية فى الصحراء الشمالية الغربية المعروفة بالعربية الصخرية ، وتمكن من التعرف على مدينة البتراء عاصمة مملكة الأنباط القديمة .

وبالإضافة إلى ما أسهمت به حملات محمد على فى تقدم المعرفة الأوروبية عن العديد من مناطق وأقاليم الجزيرة العربية بطريق مباشر ، فقد كان إسهامها بطريق غير مباشر حيث صحب تلك الحملات العديد من العلماء الأوروبيين الذين كشفوا عن العديد من معالم شبه الجزيرة العربية ، وفضلا عن ذلك ففى عام ١٨٤٢ أوفد محمد على – الذى ظل يتطلع إلى الجزيرة العربية على الرغم من انسحابه منها – جورج أغسطس والين فى مهمة استطلاعية إلى جبل شمر ، وتبع والين فى مهمته هذه الرحالة الإيطالى كارلو جوارمانى ، وبفضل هذين الرائدين تم اكتشاف جبل شمر ، وإن لم تكن الشهرة من نصيبهما بل كانت من نصيب وليم جيفورد بالجراف ، الذى كان ممولاً فى رحلته من قبل الإمبراطور نابليون الثالث ١٨٥٢-١٨٧٠ ، الذى أوفده فى عام ١٨٦٣ إلى جبل شمر للتعرف على مدى النفوذ الذى يتمتع به آل رشيد ، وهى الأسرة المنافسة لآل سعود .

وتبع بالجراف فى رحلته العديد من الرحالين الأوروبيين كان من أبرزهم الرائد الكبير شارلز دوتى ١٨٧٩ ، واللورد ولفرد سكاون بلنت وزوجته اللادى بلنت ١٨٨٠ ،

الذين حرصوا على التحقق من روايات بالجراف التى أثيرت حولها العديد من التساؤلات ، واختلف عليها النقاد فمنهم من قلل من أهمية ما جاء به من معلومات ومنهم من اعتبر كتابه الذى سجل فيه رحلاته أعظم كتاب وضع عن وسط الجزيرة العربية وشرقها . وفى إطار التنافس الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى فى شبه الجزيرة العربية ،كانت رحلة لويس بلى المقيم البريطانى السياسى فى الخليج إلى الرياض فى عام ١٨٦٥ الذى استهدف من رحلته إيجاد تفاهم بين بريطانيا والإمام السعودى فيصل بن تركى من أجل تحسين العلاقات بينهما فى منطقة الخليج .

يتضح إذن أن هناك العديد من الدوافع التى حفزت العديد من الرحالين على اختراق الجزيرة العربية ، ومن بينها الدوافع العلمية والسياسية والتجارية ، وتمثلت الدوافع الأخيرة ونعنى بها الدوافع التجارية فى أن بعض أولئك الرحالين اتخذوا من مهمة شراء الخيول العربية الأصيلة سواء لمحمد على أو لخلفائه أو للإمبراطور نابليون الثالث غطاء لنواياهم السياسية الحقيقية . وإلى جانب تلك الدوافع التجارية والسياسية والعلمية ،كان هناك دافع آخر ارتبط بالجانب الرومانسى من باب التعاطف الخيالى مع المجتمع البدوى ، كما يبدو ذلك واضحا فى رحلة الليدى آن بلنت إلى نجد، وإن كانت ما أسفرت عنه تلك الرحلة قد أفادت إلى حد كبير علوم الجغرافيا والتاريخ والاجتماع .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الجزيرة العربية لم تجذب انتباه الرحالين الأوروبيين فحسب ، وإنما جذبت إلى جانب ذلك اهتمام المبشرين خاصة الأمريكيين منهم الذين كان لديهم اقتناع بأنهم يعملون لخدمة رسالة المسيح ، ومن أجل الرغبة فى استرداد شبه الجزيرة العربية وإنشاء كنيسة المسيح الكبرى هناك ، انطلاقا من اعتقادهم أن الجزيرة العربية كانت ذات يوم جزءاً من العالم المسيحى . غير أن اهتمام المبشرين بالجزيرة العربية لم يظهر إلا متأخراً فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أمثال شترن وزويمر وبول هاريسون وإليانور كالفرلى وغيرهم ، كما أنهم اقتصروا فى عملياتهم التبشيرية على أقطار الخليج العربى بصفة خاصة ، ولم يقدر لهم الامتداد فى داخل الجزيرة العربية مكتفين بسواحلها ، ومن ثم لم يوجه هوجارث اهتماما

بمـا توصلـوا إليه من معلومات أو اكتشافات خاصـة بتلك الأقطار تمشيا مع المنهج الذى وضعـه فى كتابه من حيث التركيز على داخلية الجزيرة العربية دون التعرض لسواحلها .

ويتـضح من السـجل الذى وضعـه هوجـارث عن الرواد الأوروبيـين توقفـه عند السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، إذ إن الكتاب صدر فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، وعلى وجه التحـديد فى عام ١٩٠٥ . ومن ثم كان من الطبيعى أن يظل المجـال مفـتوحـا لعـمليـات الارتيـاد الأوروبى خـلال السنوات التـاليـة من القـرن العشرين ، وخاصة بعد أن نجح الأمير عبد العزيز - الملك عبد العزيز فيما بعد - فى توحيد الجزيرة العربية وإشاعة الأمن والقانون فى ربوعها ، مما أدى إلى توافد العديد من الرحالة الأوروبيين من أمثال ألويس موسل وجون فيلبى وغيرهم كثيرون . ومن ثم يمكننا اعتبار الكتاب الذى وضعته جاكلين بيرين بعنوان " اكتشاف جزيرة العرب " ، وتمت ترجمته إلى اللغة العربية فى عام ١٩٦٣، بمثابة استكمال للسجل الذى وضـعه هوجارث عن تقدم معرفة الغرب بشبه الجزيرة العربية .

ومن المفيـد أن نؤكد فى هذا المقام على إنه منذ النصف الأول من القرن الماضى لم تعـد الجزيرة العـربية ، نتيـجة التطورات السيـاسـية والاقتـصادية التى حـدثت فى ربوعها ، من المناطق المهملة أو المجـهولة لدى المعرفة الأوروبية كما كان حالها من قبل . ومما لاشك فيه أن التطور العلمى والتكنولوجى الذى تميز به عالمنا المعاصر قد ساعد على اكتشـاف مـا لم يتم التـعرف عليـه من خبـايا الجزيرة العـربية بفـضل استـخدام الأجـهزة الإلكترونيـة الحديثة والأقـمـار الصناعيـة ، التى لم تترك شـبـرا من أراضى الجزيرة العربيـة إلا وتعرفت عليه . ولعل المرء يشفق على الجهد الذى بذله الرواد الأول الذين على الرغم مما حـققوه من اكتشـافات قيمة ، لم يكونوا مسلحين بأكثر من آلات بسيطة لم تتعد البوصلة المنشـورية وأدوات متواضـعة لقيـاس القاعات والارتفـاعات والانخفـاضـات ، كمـا كان قيـاس المسـافات يتم عن طريق السـاعة أو الشـمس أو على تقديرات سير الإبل وغير ذلك من أساليب بدائية .

وعلى الرغم من أن هوجارث قدم عرضًا جيدًا للرحلات والمغامرات الأوروبية التى نجحت فى اختراق الجزيرة العربية عبر أربعة قرون من الزمان ، فإن وجهة نظره فى بعض ما أورده من آراء أو مسلمات لا تتفق مع وجهة نظرنا العربية . وقد يكون حقيقة أنه أنصف الدعوة السلفية التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وخالف بذلك ما ذهب إليه كل من بالجراف وشارلز دوتى اللذين وصفا تلك الدعوة بالتشدد والتعصب بل وصل بهما الأمر إلى التندر على دعاتها من المطاوعة ورجال الدين ، وذلك على عكس هوجارث الذى اعتبرها حركة إصلاحية ضد ما انتشر فى نجد بصفة خاصة من موروثات وثنية لا تتمشى مع التعاليم الإسلامية الصحيحة ، غير أنه تمادى فى وصفها بالدين الجديد بل واعتبر مؤسسها نبيا جديدا . وكثيرا ما نجده يكرر عبارة الدين الجديد أو المذهب الوهابى ، والأصح التعاليم السلفية ؛ إذ من المعروف أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يؤسس أو يبتدع مذهبا دينيا خاصا به إذ كان هو نفسه من أتباع مذهب ابن حنبل ، أحد المذاهب السنية الأربعة . ومن الواضح أن التعاطف الذى أظهره هوجارث تجاه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ينبع من كونه وضع كتابه فى الوقت الذى بدأ يتألق فيه نجم عبد العزيز بن سعود ، الذى استرد الرياض فى عام ١٩٠١ وأخذت إمارة آل رشيد منذ ذلك الحين تسير تدريجيا فى طور الانهيار .

ومع أن هوجارث كانت له اهتمامات سياسية إضافة إلى كونه عالما من علماء الآثار والنقوش ، فإن السياسة لم تعنيه فى هذا الكتاب فهو يتعرض إلا بإشارات عابرة إلى الأهداف السياسية التى كانت من وراء الرحلات التى قام بها العديد من الأوروبيين ، وبصفة خاصة رحلات كل من رينو وسادلير وبالجراف وبلى وغيرهم ، بقدر ما كان يعنيه ما توصل إليه كل منهم من اكتشافات أثرية أو جغرافية أو طبوغرافية . ويمكن القول بصفة عامة أن الكتاب ، وخاصة فى قسمه الثانى الذى يبدأ بالفصل الثامن ، يركز على المعالم الجيولوجية والجغرافية والطبوغرافية أكثر من تركيزه على الجوانب التاريخية أو السياسية .

وإضافة إلى ما وصف به هوجارث دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب باعتبارها دينًا جديدًا ، هناك العديد من التعبيرات الأخرى غير الصائبة ، التى استخدمها فى بعض الموضوعات التى تعرض لها ، من ذلك وصفه قبائل الساحل الجنوبى للخليج بالقراصنة ، وهذه التهمة رفضها كثير من الباحثين العرب مؤكدين أن ما كان يقوم به القواسم من عمليات بحرية ضد السفن البريطانية إنما كانت نوعا من المقاومة أو الجهاد الدينى دفاعا عن مياههم وأرزاقهم . ولعل مما يثير الانتباه اتهامه قبائل بنى ياس بممارستهم السلب والقرصنة أكثر مما يتهم به قرنائهم القواسم ، وذلك على الرغم من أن بريطانيا وجهت معظم حملاتها البحرية ضد القواسم وليس ضد بنى ياس . كما يتحدث عن دور بريطانيا فى إشاعة السلام فى الساحل العمانى الذى ظل يعرف فى الخرائط الأوروبية حتى منتصف القرن التاسع عشر بساحل القرصان ، وقد استخدم هوجارث تعبير السلام البريطانى عقب نجاح بريطانيا فى قمع القوى العربية البحرية وتفكيك المنطقة إلى العديد من المشيخات والإمارات الضعيفة ، التى لم يعد فى مقدورها مواجهة البحرية البريطانية . ومن الواضح أن ما أشار إليه هوجارث من تحقيق الأمن والسلام ، كان لخدمة المصالح البريطانية وليس من أجل مصالح المنطقة أو سكانها .

ولعل هوجارث كان موضوعيًا فى إنصافه للتدخل المصرى فى الجزيرة العربية على عهد محمد على ، واعتبر هذا التدخل كانت له فائدة محققة من حيث تقدم المعرفة الأوروبية عن شبه الجزيرة العربية ، وأشاد بصفة خاصة بالعلماء الأوروبيين الذين رافقوا الحملات العسكرية المصرية ، وما أسهموا به من وصف جغرافى وطبوغرافى لكثير من أقاليم شبه الجزيرة العربية، وما قدموه من أبحاث علمية فى تلك المجالات ، ونوه بصفة خاصة إلى كل من منجن وجومار ، إلا أنه ندد على الرغم من ذلك بالتدمير الذى أحدثته قوات إبراهيم باشا فى الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ ، دون أن يأخذ فى اعتباره أن القوات التى حطمت الدرعية أو غيرها من مناطق نجدية أخرى لم تكن قوات مصرية خالصة ، وإنما كانت تتشكل فى غالبيتها من أخلاط من مرتزقة الألبان والأرناؤوط وغيرهم ؛ إذ لم يكن الجيش المصرى قد تكون بعد .

والجدير بالذكر أن هـوجارث ، وإن كان قد أفاض فى عرضه للتقدم المصرى فى أواسط الجزيرة العربية وجنوبها ، فإنه لم يتعرض لتقدم الحملات المصرية إلى سواحل الخليج العربى ، تمشيا مع منهجه فى قصر الكتاب على المناطق الداخلية وليست المناطق الساحلية ، التى كانت معروفة لدى الأوروبيين الذين طرقوا تلك السواحل ، بداية من السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى .

ولعل هوجارث كان موضوعيا فى تقديره للمصنفات العربية الإسلامية التى سبقت المعرفة الأوروبية ، وأدت إلى تغيير وتعديل جهل الغرب بالجزيرة العربية ، وبصدد ذلك أشاد بابن بطوطة باعتباره رائداً أول من رواد الجزيرة العربية ، كما ذكر أن كتاب أبو الفدا " وصف جزيرة العرب " ، التى صدرت أول ترجمة فرنسية له فى عام ١٧١٧ كان خير مرشد لكارستن نيبور عندما كان يجول فى بلاد اليمن . كما نوه بالدور الذى قامت به مطبعة آل مديتشى فى إيطاليا حين أصدرت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر العديد من مؤلفات العلماء المسلمين ، التى كان من شأنها إلقاء مزيداً من الضوء على تقدم المعرفة الأوروبية بشبه الجزيرة العربية ، ومن بين تلك المؤلفات مختصر كتاب الإدريسى وخريطته الجغرافية ، إلى جانب مؤلفات ياقوت الحموى والإصطخرى والمقدسى وغيرهم كثيرون .

يتضح من خلال ما عرضناه أن كتاب هوجارث " اختراق الجزيرة العربية " لا يزال بحاجة إلى تحقيق وتحليل لما ورد فيه من معلومات ، وخاصة فى ظل التقدم العلمى الحديث ، الذى كشف كثيراً عن خبايا الجزيرة العربية سواء فى جوانبها الحضارية أو الأثرية أو التاريخية ، أو فيما يتعلق بتركيبتها الجيولوجية والطبوغرافية ، جبالها ، وسهولها ووديانها ، وهيدروغرافيتها وكل ما يتعلق بتضاريسها . كما يحتاج إلى تصحيح بعض الآراء الاستعمارية التى وردت فى الكتاب بما فى ذلك الأخطاء ، أو على الأحرى الكبوات التاريخية ، ومن بينها على سبيل المثال ما ذكره أن قوم عاد عاشوا فى مدائن صالح ، والصحيح قوم ثمود وليس قوم عاد ، الذين عاشوا فى منطقة الأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية وليس فى شمالها .

وإضافة إلى ما قمنا به من تعليقات على بعض الآراء التى وردت فى الكتاب، راعينا وضع شروح وتحقيقات على ما أورده هوجارث من موضوعات رأينا أنها فى حاجة إلى ذلك ، كما حرصنا فى الوقت نفسه على تحقيق وضبط ما صادفناه خلال مراجعتنا للترجمة العربية للكتاب من أسماء الأعلام ، سواء كانت أسماء أشخاص أو مدن أو قبائل أو معالم طبيعية ، معتمدين فى ذلك على العديد من المصادر والأطالس التاريخية الخاصة بشبه الجزيرة العربية .

بقى أن نشير إلى أن هوجارث ليس غريباً عن تاريخنا العربى ، فمن المعروف أنه قضى سنوات الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ فى القاهرة بصفته أحد رؤساء المكتب العربى ، وممثلاً خاصًا للمندوب السامى البريطانى فى مصر . وبرز كأحد المخططين لثورة الشريف حسين فى عام ١٩١٦ . وكان من رأيه أن الثورة العربية لو لم تؤد إلى شىء أكثر من تعطيلها الزحف المشترك الذى قام به الترك والألمان نحو جنوب بلاد العرب لكان لها دور إيجابى ، من حيث كونها قد استطاعت عزل القوات العثمانية الرئيسية فى الشام عن الجيوب العسكرية العثمانية فى جنوب الجزيرة العربية ، خاصة فى اليمن وعسير .

ومما يذكر أيضًا أنه كان لهوجارث دور سياسى عقب صدور تصريح بالفور فى عام ١٩١٧ ، حين طلب الملك حسين من المكتب العربى فى القاهرة تعريفا لمعنى التصريح ، وأجيب إلى طلبه بإيفاد هوجارث إلى الحجاز ، الذى تمكن بمراوغته السياسية تهدئة الملك حسين وطمأنته مؤكداً له أن الاستيطان اليهودى فى فلسطين لن يكون مسموحا به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . وكان من نتيجة تلك التهدئة أن بعث الملك حسين إلى القائمين بالثورة مؤكدا لهم أنه تلقى تبليغا من الحكومة البريطانية بأن الاستيطان اليهودى لن يتعارض مع استقلال العرب . وليس ثمة ما هو أشد من ذلك التبليغ الذى نقله هوجارث إلى الملك حسين نفاقًا وتغريراً .

وأخيراً لا يفوتنا ونحن بصدد إنهاء تقديمنا للترجمة العربية لكتاب هوجارث من أن نشيد بالجهد الكبير الذى بذله الدكتور صبرى محمد حسن فى ترجمة هذا الكتاب ،

وذلك على الرغم مما حفل به من العديد من المصطلحات الجغرافية والجيولوجية والطبوغرافية ، كما استطاع المحافظة على شخصية المؤلف فى طريقة عرضه ، بحيث لا يكاد المرء يجد فارقا بين النص الإنجليزى للكتاب والنص المترجم، كما لمسنا ذلك بأنفسنا أثناء مراجعتنا للترجمة العربية .

ومن المؤكد أن تمرس الدكتور صبرى بترجمة الرحلات الأوروبية فى الجزيرة العربية مكنته من بلوغ هذا المستوى الرفيع من الأداء ، الذى يدركه كل من يقرأ تلك الترجمة ، التى ليس من شك فى أنها سوف تضيف الجديد إلى المكتبة العربية بصفة عامة ، وإلى أدب الرحلات بصفة خاصة .

وما زلنا نتطلع إلى إضافة المزيد لإثراء المكتبة العربية من تلك الرحلات الكلاسيكية ، التى للأسف لم يوجه إليها الاهتمام إلا فى السنوات الأخيرة رغم مرور سنوات عديدة، أو على الأحرى عدة قرون عليها على البعض منها. وفى تقديرنا أن الترجمة العربية لكتاب هوجارث وغيره من كتب الرحلات ، سوف تسهم إسهاما إيجابيا فى تعريف الباحثين العرب بالعديد من الجوانب التاريخية والأثرية والحضارية لشبه الجزيرة العربية ، كما سوف تفيد إلى جانب ذلك الباحثين فى العلوم الطبيعية الأخرى.

والله ولى التوفيق ،،،

جمال زكريا قاسم

مقدمة المترجم

هوجارث: الرجل والأعمال

اسمه بالكامل ديفيد جورج هوجارث ولد فى العام ١٨٦٢ وتوفى فى العام ١٩٢٧ ، أى امتد به العمر طيلة خمسة وستين عامًا . وهو إنجليزى من علماء الآثار القديمة ، وعمل أمينًا للمتحف الأشمولى Ashmolean فى أكسفورد فى الفترة من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٧ . امتد نشاط ذلك العالم الفذ إلى الاستكشاف والتنقيب خارج حدود بلاده فى الفترة من ١٨٨٧ إلى العام ١٩٠٧ . هذا يعنى أن ذلك العالم الفذ ظل طوال سبعة وعشرين عاما يستكشف وينقب : فى جزيرة قبرص ، وجزيرة كريت ، وفى مصر ، وفى سوريا بل وفى أماكن أخرى أيضًا . ومن بين كبريات أعماله المنشورة كتاب (الباحث الجائل) الذى نشر فى العام ١٨٩٦ الميلادى ، وكتاب (أيونيا Ionia أو الشرق) الذى نشر فى العام ١٩٠٩ ، وكتاب الشرق القديم ، الذى نشرت طبعته الأولى فى العام ١٩١٤ الميلادى وطبعته الثانية فى العام ١٩٥٠ ، وله كتاب آخر بعنوان : أختام الحيثيين ، نشره فى العام ١٩٢٠ ، وفى العام ١٩٢٢ الميلادى نشر هوجارث كتابه المعنون : بلاد العرب ، وفى العام ١٩٢٦ نشر كتابًا آخر بعنوان : ملوك الحيثيين .

هذا العالم الشهير كان محط اهتمام الكثيرين من العلماء والباحثين الذين تناولوا حياته بالأبحاث تارة ، وتأبينه وبيان قدره تارة أخرى . وهذا هو جى . اتشن برستد ، يكتب عن هوجارث مؤبنًا إياه فى العام ١٩٢٨ ، فى المجلة الجغرافية العدد رقم ١٨ ، وعلى امتداد صفحتين : من ١٥٩ - ١٦١ مقالاً بعنوان "ديفيد جورج هوجارث" . وهذا هو فلتشر Fletcher سى . آر . ل . يكتب فى العام ١٩٢٨ الميلادى فى العدد رقم ٧١ من مجلة الجرنال الجغرافى دراسة على امتداد ٢٣ صفحة (من صفحة "٣٢١ - ٣٤٤"

بعنوان : ديفيد جورج هوجارث ، رئيس الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية فى الفترة من " ١٩٢٥ - ١٩٢٧" ، وهذا هو اتشن . آر . هول Hall يكتب مقالاً على صفحتين (١٢٨ - ١٣٠) فى العدد رقم ١٤ من مجلة "جورنال الآثار المصرية" بعنوان ديفيد جورج هوجارث . وهذا هو جى G فريدريك كينيان Kenyan يكتب فى العام ١٩٣٧ الميلادى ، مدخلاً على صفحتين (٤٢١ - ٤٢٣) عن ديفيد جورج هوجارث فى قاموس آلسير الوطنية الذى نشرته جامعة أكسفورد فى الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٣٠ . وهذا أيضاً بى P لوك Lock يكتب عن هوجارث فى العام ١٩٩٠ ليقول عنه أنه "... متخصص فى علم الآثار القديمة" .

وقد نشر هذا المقال فى حولية المدرسة البريطانية فى أثينا. وفى عام ٢٠٠٠ يطلع علينا جى J أوريليا Aurelia بيرى Perry بدراسة عنوانها (إعادة اكتشاف ديفيد جورج هوجارث) : هذه الدراسة عبارة عن سيرة لواحد من علماء الآثار القديمة فى الشرق الأدنى ودبلوماسى من دبلوماسيى الحرب العالمية الأولى . وفى مجلة نشرة تاريخ الآثار ، نجد دونالد بى ريان Ryan يكتب فى العام ١٩٩٥ مقالاً بعنوان (ديفيد جورج هوجارث فى أسيوط ، بمصر ، فى الفترة من " ١٩٠٦ - ١٩٠٧" ، وفى العام ١٩٢٧ كتب أرشيبالد هنرى سايس Sayce عن ديفيد جورج هوجارث ، مدخلاً فى أربع صفحات ٣٧٩ - ٣٨٣ ضمن مجلة محاضر الأكاديمية البريطانية العدد رقم ١٣ .

ديفيد جورج هوجارث له أكثر من ست وخمسين مطبوعة ما بين دراسة وبحث . ومن بين هذه الدراسات والأبحاث ما كتبه مستقلاً لوحده ، ومنها ما هو مشاركة مع بعض الباحثين الآخرين . من هذه الأعمال على سبيل المثال ، مسرحية الضفادع التى ألفها أرستوفانيز والتى اقتبسها ديفيد جورج هوجارث ، هو وجون هوخام فريرو Frere ومعهما إيه . دى . جود لى ليجرى تمثيلها على مسرح جامعة أكسفورد بواسطة جمعية الدراما فى الجامعة فى العام ١٨٩٢ - ومن هذه الأبحاث أيضاً البحث الذى قام به مع كل من برنارد Bernard بى جرينفل ، أرثر Arthur اس S هنت Hunt ، جى ل جى G ملنى Milne فى العام ١٩٠٠ الميلادى ، عن "مدن الفيوم وبردياتها" ، لحساب صندوق الاستكشاف المصرى .

اختراق الجزيرة العربية

كتاب كتبه مؤلفه ديفيد جورج هوجارث فى العام ١٩٠٤ الميلادى ويقع فى ثلاثمائة وتسع وخمسين صفحة من القطع الكبير ، وصدر عن دار ألستون Alston ريفرز Rivets اللندنية فى العام ١٩٠٥ الميلادى .

مؤلف الكتاب هو ديفيد جورج هوجارث المؤرخ البريطانى الشهير ويتناول فيه مسألة استكشاف المناطق الداخلية من الجزيرة العربية بالوصف والتدقيق ، وبالتالى لا يتعرض الكتاب للمناطق الساحلية إلا فى أضيق الحدود ، ولا للرحالة الذين زاروا الموانئ وتوقفوا عند ذلك الحد .

ومؤلف الكتاب يجد لزامًا عليه أن يقر بأنه لم يكن من بين أولئك الذين اخترقوا شبه الجزيرة العربية ، فضلاً عن أن معرفته الشخصية بسكان هذه الجزيرة ولغتهم تعد معرفة صغيرة ومحدودة . والتحفظ الوحيد الذى يركن إليه المؤلف فى كتابة قصة استكشاف المناطق الداخلية من الجزيرة العربية يتمثل فى دراسته لأدبيات الرحلات الغربية ، التى اضطره سحر موضوعها وجاذبيته إلى تتبعها واقتفاء أثرها طوال سنوات عدة . من هنا يمكن القول إن الكتاب يعد مقالاً فى تسليط وشد انتباه جمهور القراء إلى الأعمال التى قام بها الآخرون فضلاً عن تقييم تلك الأعمال وتقديمها أيضًا إلى جمهور القراء .

هذا الكتاب يعد المجلد الثانى ، ضمن سلسلة تتناول هذا الموضوع ، وهو على العكس من المجلد الأول لا يمكن أن يروى أو يتحدث عن إنجاز مهمة من المهام وذلك من منظور أن "الجزيرة العربيه ما تزال إلى حد بعيد جدًا بعيدة عن أعين الغرب" (*) .

فى العام ١٩٠٥ الميلادى ، أى قبل بداية الحرب العالمية الأولى بحوالى تسع سنوات كان استكشاف المناطق الداخلية من الجزيرة العربيه قد توقف توقفًا ملحوظًا ، الأمر الذى شد مؤلف الكتاب إلى الاستفادة من تلك الوقفة المناسبة فى جرد المعرفة

(*) تصدير الكتاب

وصولاً إلى تفاصيلها . يضاف إلى ذلك أن التغييرات والهزات السياسية التى يرجع القسم الأكبر منها ، فى ذلك الوقت إلى التقدم المستمر الذى كانت تحرزه القوة العثمانية فى شبه الجزيرة العربيه ، كان سببًا من أسباب ذلك التوقف . مما جعل المؤلف يؤكد أنه "إذا ما توقفت تلك التغييرات عن إزعاج مجتمع شبه الجزيرة العربية"، سوف يكمل الغربيون ، بلا أدنى شك ، اختراق شبه الجزيرة العربية (*) .

الكتاب ينقسم إلى قسمين رئيسيين أولهما الرواد وثانيهما خَلَفُ الرواد ، أو إن شئت فقل الذين جاءوا بعد أولئك الروّاد . وفى القسم الخاص بالرواد يلقى المؤلف نظرة سريعة فى ثمان وثلاثين صفحة على شبه الجزيرة العربية فى فترة ما قبل الاستكشاف وينهيها بقائمة المراجع التى رجع إليها ، ثم يتناول بعد ذلك فى خمسة وعشرين صفحة الرحلة التى قام بها نيبور الدانيماركى إلى اليمن ، وفى الفصل الثالث وعلى امتداد ثلاثة وثلاثين صفحة يتناول هوجارث أولئك الذين دخلوا منطقة الحجاز متنكرين على هيئة حجاج ، وينهى الفصل بقائمة المراجع التى رجع إليها . والفصل الرابع الذى يقع فى عشرين صفحة عنوانه "المصريون فى نجد" . أما الفصل الخامس عنوانه "المصريون فى الجنوب الغربى" ويقع فى أحد عشرة صفحة . "الجنوب المجهول" هو عنوان الفصل السادس من الكتاب ، ويقع فى ثلاثة وعشرين صفحة ويتناول المؤلف فيه النقوش الحميرية . والفصل السابع بعنوان "الشمال المجهول" ويقع فى عشرين صفحة .

القسم الثانى من الكتاب بعنوان : الخلف أو من جاءوا بعد الرواد . وهو مقسم إلى ستة فصول : الفصل الثامن بعنوان "الحدود الغربية" ويقع فى ثمان وعشرين صفحة . "الحدود الجنوبية" هو عنوان الفصل التاسع الذى يقع فى ثمانية عشر صفحه . والفصل العاشر بعنوان "الحدود الشرقية" ويقع فى عشر صفحات . وقد أعطى المؤلف الفصل الحادى عشر عنوان "الشمال الأوسط" ويقع فى إحدى وعشرين صفحة أما الفصل الثانى عشر الذى يمتد من صفحة ٢٦٥ إلى ٢٩٥ ، أى يشتمل على ثلاثين صفحة فقد أعطاه المؤلف عنوان "الوسط" . الفصل الثالث عشر تحت عنوان "الجنوب الأوسط" ،

(*) تصدير الكتاب

ويقع فى خمس وعشرين صفحة . الفصل الرابع عشر الذى يقع فى خمس عشرة صفحة يندرج تحت عنوان "المجهول من الجزيرة العربية" وفى الفصل الاخير من الكتاب الذى يقع فى تسع صفحات يحاول إيجاز ما اشتمل عليه الكتاب ، ويتبع ذلك بثبت للكتاب .

والكتاب موثق توثيقًا جيداً ، وعلى مستوى الخرائط فقد أورد مؤلف الكتاب تسع خرائط منها الخريطة التى رسمها بطليموس للجزيرة العربيه ، وقد أخذها المؤلف نقلاً عن سبرنجر Springer ، كما أورد المؤلف أيضًا الخريطة التى رسمها بيرتلو للجزيرة العربيه فى العام (١٦٣٥) الميلادى ، أى فى القرن السابع عشر . كما أورد أيضًا الخريطة التى رسمها دانفل للجزيرة العربيه فى العام (١٧٥٥) ، وكذلك الخريطة التى رسمها نيبور لليمن فى العام (١٧٦٣) . ولم يغب عن بال المؤلف أن يورد الخارطة التى رسمها جومار لمنطقة عسير فى جنوب الحجاز . ويشمل الكتاب أيضًا الخريطة التى رسمها ولستد لعمان فى العام (١٨٣٨) الميلادى ، كما أورد المؤلف الخريطة التى رسمها فون مالتزان لمسارات فون فيردى . وأورد المؤلف ضمن الكتاب الخريطة التى رسمها ريتر للجزيرة العربية وشرقها .

وعلى مستوى المخططات أورد المؤلف اثنى عشر مخططًا أولها المخطط الذى رسمه يورينفيندز لتلال البن فى اليمن ، وثانيها المخطط الذى رسمه نيبور الدانيماركى لصنعاء ، وثالثها المخطط الذى رسمه بيرتون للمدينة المنورة ، ورابعها المخطط الذى رسمه بركخاردت لمكة . أما خامس تلك المخططات فهو المخطط الذى رسمه ستروس Struys لمدينة مسقط فى العام (١٦٥٥) ، والمخطط السادس يتناول مسارات والين ، أما المخطط السابع فقد رسمه مازونى لمدينة صنعاء فى العام (١٨٧٩) ، والمخطط الذى رسمه بالجريف لمنطقة الهفوف يحمل الرقم ثمانية بين تلك المخططات . أما المخطط التاسع فهو خاص بواجهة مقبره من مقابر منطقة الحِجْر ، أما دوتى فقد رسم المخطط العاشر وهو لمنطقة خيبر فى العام (١٨٧٧) ، كما أورد المؤلف أيضًا المخطط الذى رسمه بالجريف لمنطقة حائل فى العام (١٨٦٢) ، وكذلك المخطط الذى رسمه بالجريف لمدينة الرياض فى العام (١٨٦٢) أيضًا .

وعلى صعيد التوثيق باستعمال الصور أورد المؤلف اثنتى عشرة صورة لكبار المستكشفين الذين يتناول الكتاب أعمالهم بالتقييم ، فقد أورد صورة للدانيماركى كارستين نيبور ، وصورة لأولرشن جاسبارسيتزن ، وصورة لجوهان لودفيج بركخاردت ، وصورة لجورج أوجستوس والين ، وصورة لريتشارد بيرتون ، وصورة للهولندى جون ستوك هيرجرونجي ، وصورة لجوزيف هاليفى ، فضلاً عن صورة أخرى لكل من بالجريف البريطانى والسيدة آن بلنت ، ويوليوس إيوتنج ، وشارل مونتجو دوتى ، ثم صورة للأمير عبد الله بن سعود عندما كان فى الأسر فى مصر . كما أورد أيضًا صورة لشارلز هوبر .

ومن باب التوثيق باستعمال الصور الجماعية أورد المؤلف ثلاثة صور منها صورة لحجاج مكة يصلون فى المسجد الكبير . وصورة مستقلة أيضًا لبعض حجاج مكة . وصورة لحجاج مكة عند قبر ستنا ميمونة ، ثم صورة لحجاج مكة وهو يقيمون فى معسكر خارج المدينة .

كما أورد المؤلف ثلاثة صور لكل من الكعبة والمدينة المنورة وثلاثة صور أخرى واحدة منها لمنازل صنعاء فى اليمن ، ومدينة مسقط فى عمان ، ثم صورة لحجر تيماء وأخيراً صورة لمدينة جده .

ترى ما السبب وراء إكثار مؤلف الكتاب من الخرائط والصور والمخططات ؟ هذه الصور والخرائط والمخططات ليست من عنديات المؤلف ، وإنما وضعها أو ألتقطها الرواد أو من جاءوا بعدهم ، فضلاً عن أنها توضح متن الكتاب توضيحًا دقيقًا يضاف إلى ذلك أن كثيراً من أولئك الرواد وعلى رأسهم سى . رسوان استطاعوا تفسير حكاية القبائل البدوية المترحلة باستعمال آلة التصوير ، تفسيراً دقيقًا وواضحًا ، شأنهم فى ذلك شأن دوتى عندما سبقهم إلى تصوير تلك الصور ولكن باستخدام القلم .

ومن باب الإجادة فى توثيق الكتاب عن طريق التدوين لجأ المؤلف فى تدوين الأسماء الجغرافية فى الكتاب (باستثناء قلة قليلة من الأسماء التى بلغت من الذيوع حداً يستحيل معه تغيير تدوينها) إلى النظام الذى كان متبعًا فى الجمعية الجغرافية

الملكية البريطانية فى ذلك الوقت . ويجدر التنويه هنا أن ذلك النظام ليست به أحرف صامتة ، هذا يعنى أن صوت الجيم فى اللغة العربية يقابله صوت J فى الإنجليزية ، يضاف إلى ذلك أن الصوت الإنجليزى المركب au يتحول فى العربية إلى الصوت ow كما هو الحال فى اللغة الألمانية . استعمال هذه المنظومة يُسَهِّل على القارئ العربى قراءة النص الإنجليزى إن كان يحسن القراءة بالإنجليزية كما يُسَهِّل أيضًا فهم معنى الاقتباسات بدون عناء كبير . أما الأسماء العربية غير الجغرافية فقد ترجمها المؤلف ترجمه صوتية طبقًا لأصول علمية دقيقة . ولكن النص الإنجليزى وردت فيه بعض الأسماء التى دخلت اللغة الإنجليزية بشكلها وتسجيلها العربى كما هو الحال فى النبى المكى Meccan Prophet ، كما وردت صور مختلفة لهجاء الاسم محمد فتاره نجد Mohamet وتارة أخرى Mehemet وكذلك Mahammad وكذلك الحال فى الاسم على Ali أو Ali ، وكذلك كلمة وهابى Wahhabi التى وردت أيضًا Wahhab .

ومؤلف الكتاب استعمل لمصطلح البدو Bedawin و Bedawins وذلك بدلاً من الكلمة الفرنسية Bedouin . والكلمتان الإنجليزية والفرنسية ليستا عربيتين .

واضح أن مؤلف الكتاب بذل فيه جهداً يستحق الثناء ويجعل منه إضافة طيبة إلى المكتبة العربية إن رأى النور من خلال ترجمته إلى العربية .

صبرى محمد حسن

تمهيد

يهدف هذا الكتاب إلى وصف استكشاف الجزيرة العربية من الداخل . ومن ثم سيخلو هذا الكتاب من الكلام عن استكشاف المناطق الساحلية ، وعن الرحالة الذين زاروا موانئ الجزيرة العربية فقط . وكان لزاما على مؤلف الكتاب أن يقر أنه ليس من بين أولئك الذين اخترقوا الجزيرة العربية ، وأن معرفته الشخصيه بسكان شبه الجزيرة ولغاتها صغيرة جداً . وسند المؤلف الوحيد فى تسجيل قصة استكشاف الجزيرة العربية أنه يرتكز ويعتمد على أدبيات الرحلات التى شدته وجعلته مسحورا بها طوال سنوات عده . من هنا يمكن أن يكون الكتاب بمثابه مقال توجيه الاهتمام بشبه الجزيرة ، وتقييم ذلك الاهتمام وتقديمه للجمهور باعتبار ذلك من الاعمال الرائدة .

هذا الكتاب ، وعلى العكس من الكتاب الأول الذى صدر ضمن هذه السلسلة ، لا يمكن أن يكون مجرد سرد للمعرفة أو سعى إليها . والسبب فى ذلك أن الجزيرة العربية ما تزال أجزاء كبيرة منها بعيدة عن أعين الغرب ، ولكن اللحظة الراهنة ، التى تحين وسط التوقف الملحوظ المؤقت ، مناسبة جداً لجرد المعرفة التى جنيناها أو توصلنا إليها . وفى هذه اللحظة التى توقفت فيها التغييرات السياسية ، والاهتزازات السياسية ، التى تعود بدرجة كبيرة إلى التقدم المستمر للقوة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية ، عن إزعاج مجتمع شبه الجزيرة ، سوف يستأنف الأوروبيون ، وبلا أدنى شك ، استكمال اختراقهم للجزيرة العربية . وأنا مدين لكثيرين ؛ فى أجزاء كبيرة من صفحات هذا الكتاب ، كما أنى مدين لهم أيضاً بالكثير من عناوين الصور الواردة فى الكتاب . أما فهرس الكتاب فهو من إعداد زوجه مؤلفه .

ديفيد جورج هوجارث

لندن فى ١٩٠٤

ملاحظة عن التدوين

جرى تدوين أسماء الأماكن الجغرافية فى هذا الكتاب (باستثناء قله قليلة من هذه الأسماء بلغت من الذيوع حداً يستطيع معه تغييرها) طبقًا للمنظومة المستخدمة فى هذا الصدد فى الجمعية الجغرافية الملكية . ويتعين علينا هنا لفت انتباه القارئ إلى أنه ليست هناك حروف صامتة : هذا يعنى أن الحرف إفى العربية له مقابل إنجليزى ، كما أن الصوت المركب au ينطق على أنه ow ، كما هو الحال فى اللغة الألمانية .

هناك الأسماء العربية والكلمات العربية الأخرى التى جرى تدوينها حسب نطقها الصوتى ، وذلك طبقًا للمنظومة العلمية المعمول بها فى هذا الصدد أيضًا ، والتى يتعين على أن أتقدم بوافر شكرى وتقديرى للعلامة جى Guy لسترانج Lestrange العلامة المتخصص فى العربيات ، على هذه المنظومة . وهناك قله قليلة من الأسماء العربية والكلمات العربية التى دخلت الإنجليزية بأشكال غير علمية ، وبالتالى ما زالت تحتفظ بهجائها فى بعض الحالات الخاصة ، والتى منها على سبيل المثال 'النبى المكى' Meccan Prophet 'وصهره' Son- in- Law ، ومؤسس الأسرة المالكة المصرية الحالية . ومن بين الأسماء التى دخلت الإنجليزية بطريقة غير علمية ، الاسم الدال على 'محمد' الذى يدون أحيانًا بصور مختلفة : Mehemet, Mahomet وأحيانًا Muhammad ؛ وكذلك الاسم الدال على 'على' : Alî ' Ali ؛ وكذلك الاسم الدال على 'وهابى' : Wahabi ، Wahhab . كل هذه الأسماء سوف تصادف القارئ فى النص الإنجليزى . وأنا أستعمل كلمة Bedawin وكلمه Bedawins بدلاً من الكلمة الفرنسية Bedouin . والكلمتان الفرنسية والإنجليزية ليستا عربيتين .

وأنا عندما أقتبس عن الكتاب الآخرين ، ألجأ إلى طريقتهم فى التدوين ، حتى عندما تختلف مع الطريقة التى انتهجتها أنا فى متن الكتاب .

ديفيد جورج هوجارث

الجزيرة العربية

القسم الأول : الرواد

الفصل الأول

قبل الاستكشاف

أرض الجزيرة العربية ، أكبر من أرض شبه جزيرة الهند ، وهى تقع فى قلب العالم القديم . هذا بالإضافة إلى طريقها الرئيسى وتجارتها ، ولكننا لا نعرف الكثير عن الجزيرة العربية ، شأننا فى ذلك شأن معرفتنا عن القارة القطبية . وأرض الجزيرة العربية تبلغ من الانحناء والانحدار حدًا يجعل التجارة الدولية لا تعلق عليها آمالاً كثيرة ، كما أن وعورة هذه الأرض هى التى تجعل الدوران حول هذه الأرض عن طريق البحر أفضل من أى طريق برى عبرها . ومع ذلك فإن قلة قليلة من المناطق والأقاليم هى التى لعبت دوراً مهمًا فى تاريخ الجنس البشرى .

شبه الجزيرة العربية ، إذا ما قصرناها على أبعادها الصغيرة المحدودة بدائرة عرض ثلاثين ، تصبح مساحتها ما يقرب من مليون وربع المليون من الأميال المربعة ، وهى من الناحية الطبيعية تتحد مع الإقليم القارى الذى تعتمد عليه ؛ هذه الأرض ترتفع ارتفاعًا مفاجئًا من ناحية البحر الغربى ، وتنحدر ناحية الشرق انحداراً طويلاً هينًا ، وبذلك تكون استمراراً للرف الأرضى السورى . انحدار الجزء الغربى من الجزيرة العربية من هذا الرف يكون فى ناحية الشمال الشرقى ، والارتفاع يكون بشكل عام فى اتجاه الجنوب . والسطح يتكون بشكل عام من الحجر الرملى ، الذى يشكل قشرة رقيقة فوق الأحجار الجيرية ، ولكن هذا السطح وعر فى كثير من المناطق بفعل الصخور الجوفية النارية الدخيلة ، أو قد يكون مستوراً بمادة من المقذوفات البركانية ؛ وهذه التركيبة السطحية الغريبة تتضافر مع بعض الأحداث الخاصة بموقع هذا السطح الأمر الذى يسفر عن تلك القحولة العامة التى تشتهر بها شبه الجزيرة العربية .

الجزيرة العربية تحدها البحار من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب أيضًا ؛ ولكن هذه البحار تبلغ من الضيق حدًا تعجز معه عن كسر التواصل المناخى مع الكتل القارية الآسيوية والأفريقية التى لا تسقط عليها الأمطار عند خط العرض هذا . وإذا كنا نجد أن سوريا جافه بفعل اعتراض الكثير من بخار البحر المتوسط وسقوط الأمطار على المنحدرات الغربية العالية ، فإن الجزيرة العربية أسوأ حالاً . وذلك القليل الذى يعطيه البحر الغربى يتبدد قبل أن يصل إلى منحدرات شبه الجزيرة فى اتجاه الشرق . صحيح أن المحيط الجنوبى ، قد يجلب بل يجلب الأمطار فعلاً ؛ ولكن الرياح الموسمية لا تضرب الجزيرة العربية إلا فى المنطقة التى يكون فيها سطح الأرض فى أعلى مناطقه وأكثرها مباغتة ؛ وبناء عليه ، إذا كانت الرياح الموسمية تهب على المنحدرات اليمنية المتجهة ناحية البحر هى وعسير بواقع مرتين فى العام (بالرغم من أن ذلك لا يكون بصورة منتظمة دومًا ، نظرًا لقرب الأراضى الإفريقية العالية) ، فإن قدرًا صغيرًا من الرطوبة هو الذى يتبقى للمنحدرات الداخلية ، فضلاً عن أن القطرات الأخيرة يجرى استنفادها فى النصف الجنوبى من شبه جزيرة العرب . ولكن عمان تسقط عليها أمطار كافيه ؛ ولكن كتلة وسط جزيرة العرب يتعين عليها الاعتماد على الأبخرة غير المضمونة التى من هذا القبيل والتى يمكن أن تأتى من الخليج الفارسى الضيق ، أو تكون مصاحبة للتيارات الهوائية الشمالية والشرقية ؛ هذه التيارات بعد أن تعبر أراضى أخرى ، هى أيضا تعانى من العطش ، يتعين عليها أن تواجه أو تلتقى بالتأثير المخفف الذى يترتب على الرمال فائقة السخونة . من هنا لا يمكن للجزيرة العربية الهروب من كونها واحدة من بلدان الأرض التى لا تسقط عليها الأمطار ، وبالتالى تصبح أيضًا بحكم انخفاض خط عرضها ، واحدة من أكثر المناطق حرارة . يضاف إلى ذلك أن خط الإيزوثيرم (*) لأعلى درجه حرارة فى شهر أغسطس يمر عبر شبه جزيرة العرب . ليست كل هذه هى العيوب الطبيعية لشبه الجزيرة العربية . يزاد على ذلك أن القسم الأكبر من تلك الكمية الصغيرة من الرطوبة التى يحصل عليه الرف

(*) الإيزوثيرم : مصطلح جغرافى يقصد به خط تساوى درجات الحرارة . (المراجع)

العالى ، يجرى امتصاصها وتشربها بواسطة الأحجار الجيرية الأمر الذى يؤدى إلى ضياع هذه الكمية الصغيرة من الرطوبة ، لتظهر من جديد عند سفح المنحدر الشرقى ، فى منطقة الأحساء الحارة وفى مصادر القطيف ، أو تحت سطح البحر فى البحرين . يضاف إلى ذلك أن حجمتلك الينابيع المتجهة صوب الساحل غير كاف للمحافظة على مجرى دائم واحد للرى يمتد ناحية البحر . وبالرغم مما قاله بطليموس ، فإن الجزيرة العربية ليس بها ، ولم يكن بها نهر حقيقى فى هذه المساحة الشاسعة كلها .

يلى ذلك أن الحياة المستقرة تتناثر فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وتقوم حياة فى هذه المناطق المتفرقة على اعتبار أن هذه المناطق تعد مستجمعات صغيرة للمياه الجوفية التى تنساب عليها من المناطق الواسعة المحيطة بها ، هذا يعنى ، أن الجزيرة العربية ليس بها مناطق زراعية مستمرة أو متواصلة ، اللهم باستثناء المناطق الساحلية الجنوبية ، وأن المناطق الزراعية ليست سوى واحات على نطاق صغير ، وأن كل واحة من هذه الواحات مفصولة عن الواحة التالية لها بصحراوات شاسعة ، هى بحكم تكوين سطحها ، تعد مانعًا طبيعيًا . يضاف إلى ذلك أن الرحالة لا يتعين عليهم فقط مصادفة رقعًا شاشعه من السهوب الصحراوية الشاسعة صحراوية النبوت ، من قبيل تلك السهوب الجيرية التى يطلق العرب عليها اسم حاميد hamid (أو حمد Hamad) ، والتى يمكن الحصول على الماء فيها من أبيار عميقة جدًا ، لاستغلالها فى الإبقاء على حياة السكان القليلين جدًا فى هذه المناطق ؛ ولكن هؤلاء الرحالة ، إن أرادوا الدخول ، إلى أعماق المناطق الداخلية ، فإنهم يتعين عليهم مواجهة تشكيلتين مختلفتين من الصحارى الوعرة .

تتمثل التشكيلة الأولى فى تلك الرقع والأراضى البركانية ، التى يطلق الناس عليها اسم الحرات (*) ، وهى تؤلم كلاً من الإنسان والحيوان ، طبقًا لمدى تكسر هذه الصخور ووعورتها ، وطبقًا أيضًا لحرارة الإشعاع ؛ هذه الصخور هى والمسافات

(*) الحرات : مفردها حرة ، ومن أشهرها حرة خيبر التى تعرف بحرة النار التى أشار إليها ياقوت الحموى فى معجم البلدان . (المراجع)

القصيرة التى تفصلها عن بعضها البعض ، تشكل حاجزًا واسعًا من ناحية الغرب يفصلها عن كل من مدين ومكة ؛ أما التشكيلة الثانية فهى تتمثل فى مناطق الكثبان الرمليــة العاليــة ، المكونــة من الحجـر الرملــى المفكك ، الذى حملته الرياح من الغرب (النفود ، الدهناء ، أو الأحقاف) ؛ هذه الكثبان الرملية تشكل حلقه داخلية حول قلب الجزيرة العربية ، وفى الناحيتين الشمالية والجنوبية يتواصل امتداد تلك الأحزمة الرملية ويزيد أتساعها . هذا النفود الشمالى لا يمكن عبوره إلا بصعوبة كبيرة ومعاناة شديدة (*) ، وهذا هو ما سنراه فيما بعد ، بل إن هذه النفود الشمالية جرى عبورها بالفعل بواسطة ما لا يزيد على عشرة من الأوروبيين . أما الصحراء الرملية الجنوبية فيتعين اجتيازها عن طريق غريب من الغرباء ، ونحن ليس لدينا ما يؤكد بأن أحداً حتى ولو من الوطنيين قد عبـر هـذه الصحـراء من قلبها . هذه الصحراء الجنوبية اسم يثير الفزع والخوف فى كل أنحاء الجزيرة العربية . هاتان الرقعتان المخيفتان تنضمـان من ناحية الشرق عن طريق حزام صحراوى يضيق إلى أبعد الحدود فى اتجاه الشمال الشرقى ، حيث يكثر الجرانيت والبازلت فى جبل شمر ، ويقل وجود الرمل على امتداد مسافة قصيرة ، وهنا أيضًا تستطيع القوافل التوجه إلى كل من الكويت والبصرة سيراً على أرض يقل فيها الماء ولكنها صلبه إلى حد ما . وبالطريقة نفسها نجد على الجانب الغربى من الجزيرة العربية حيث توجد الحرات ، أن الصخور البركانية تحمى قدراً كبيراً من الحجر الرملى السطحى من تأثيرات التعرية والتآكل إلى حد أن المادة المكونة للكثبان الرملية تكاد تكون منعدمة وقليلة جداً ، ومن هذه المنطقة يستطيع الحجاج الفرس المضى قدمًا إلى المدينة المنورة أو إلى مكة المكرمة ، ولا يصادفون فى طريقهم سوى أرض وعرة وسهول مترامية الأطراف صحراوية النبوت وكلها من الحجر الجيرى .

(*) تقع صحراء النفود فى شمال الجزيرة العربية ، وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمة اللينة التى يصعب على المرء أن يسير فيها ؛ إذ يبلغ ارتفاع بعض هذه الكثبان نحو مائة وخمسين متراً . وتمتد صحراء النفود على مساحة كبيرة من الأرض حيث يبلغ طولها من واحة تيماء إلى الشرق نحو ٤٥٠ كيلومتراً وعرضها من واحة الجوف إلى جبل شمر ما يقرب من مائتى وخمسين كيلومتراً . (المراجع)

هذه السمات المميزة للأرض ، لها تأثيرها أيضًا على السكان ، إذ تجعل السواد الأعظم منهم متنقلين وغير مستقرين ، كما تجعلهم أنانيين ومتفردين إلى حد بعيد ، كما تزيد أيضا من غيرتهم وحميتهم على أسرار الماء والمرعى اللذان تعتمد حياتهم عليهما ، كما يتفاخرون أيضًا بحريتهم المطلقة التى لم يجر انتهاكها أو الاعتداء عليها منذ أزمان طويلة . يضاف إلى ذلك أن التأثيرات العرقية والمناخية والطبوغرافية ، التى لا نستطيع تحليلها هنا ، هى التى جعلت هؤلاء السكان ، على حد معرفتنا للتاريخ ، يعبرون عن أنفسهم بمذاهب توحيدية متشددة ، ويفرضون هذه المذاهب والمعتقدات بقوة السيف . بنو إسرائيل عندما كان ينتقلون من بئر إلى بئر فى شمالى الجزيرة العربية بقوة يهوه Yahweh (الإله) ، لم يكن شمال الجزيرة العربية مفضلا أو مرغوبًا من أى غريب من الغرباء ، أو لأى مصرى من المصريين أو لأى لإنسان آخر ، عما كان عليه طوال القرن الذى ذاعت خلاله تعاليم كل من محمد (ﷺ) ومسيلمة المتنافسة (*) ، كما أنها لم تكن أفضل حالاً من الفترة التى أعقبت الغزو الذى قام به القرامطة (**) ، فضلاً عن إنها لم تكن أفضل حالاً من الحقبة الحديثة التى شهدت قيام الشيخ المكرامى (***) بنشر مذهبه فى المنطقة ما بين نجران والإحساء ، أو عندما قام الأمراء والوهابيون باكتساح الجزيرة العربية باسم لا إله إلا الله .

(*) مسيلمة : لم يصل الأمر إلى درجة التنافس بين تعاليم النبى (ﷺ) والادعاءات الزائفة التى أتى بها مسيلمة الذى عرف فى المصادر الإسلامية بمسيلمة الكذاب . (المراجع)

(**) القرامطة : من حركات المعارضة التى حملت مضمونًا اجتماعيًا ضد الدولة العباسية فى عصورها المتأخرة ، واعتبرها بعض المؤرخين جزءًا من الحركة الإسماعيلية . وتنسب حركة القرامطة إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط الذى بدأ حركته حوالى عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٢ م ، وانتشرت من جنوب العراق إلى بادية الشام واليمن والحجاز حيث استولى القرامطة على الحجر الأسود ونقلوه إلى عُمان ، كما امتدت الحركة إلى البحرين وغيرها من أقطار الخليج العربى . (المراجع)

(***) الشيخ المكرامى : قام الشيخ المكرامى بحركة دينية إصلاحية بين شيعة نجران حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ولعله كان متأثرًا بالحركة الإصلاحية التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد فى ذلك الوقت . (المراجع)

من هنا ليس فى الأمر غرابه عندما نسم دور المستكشفين الأوروبيين بالقصر فى الجزيرة العربية ، أو عندما نعرف أن أسماءها القديمة إنما تعد هى الأخرى حديثه العهد ، أو عندما نعرف أن الجزيرة العربية تحتوى على قله قليلة جداً من الأشياء التى تدل على فئات بعينها من الرواد الذين قاموا بفتح أكثر مناطق الأرض ظلمة وظلاماً . هذه الفئات هى الجنود المغامرون ، والمبشرون بالمسيحية ، وكذلك التجار . ونحن عندما نتحدث عن الفئة الأولى ، أو بالأحرى عن الجنود المغامرين ، نجدنا نضع بعد إليوس Ælius جالوس Gallus (*)، وفى شىء من الشك ، واحداً أو اثنين من الجنود الانكشارية المارقين أوالمماليك ، ومن بعدهم الضباط الفرنسيين والضباط الإيطاليين الذين جرى إلحاقهم على الجيوش المصرية فى الفترة ما بين ١٨١٢ و١٨٤٠ ، وكل هؤلاء ، لم يقدموا لنا معلومات كثيرة . وعندما نتحدث عن الفئة الثانية ، أو بالأحرى المبشرين بالمسيحية ، والذين جاءوا بعد بالجريف اليسوعى ، نجد أنهم لم يترحلوا فى الجزيرة العربية بصورة علنية أو خفيه فيما يتعلق بهدفهم الدينى الحقيقى ، وبالتالى لا نجد من بينهم اسماً شهيراً يمكن أن يوضع داخل هذا السجل . يضاف إلى ذلك أنى لم أسمع عن اسم تاجر أوروبى واحد ، أضاف لما نعرفه شيئاً يذكر عن هذه الأرض ؛ السبب فى ذلك ، أن هؤلاء الرحالة ، الذين زاروا نجد ، على سبيل المثال ، وكانت عيونهم مركزه على الحصان العربى ، كانوا إما من أمثال والين Wallin، بالجريف Palgrave، وجوارمانى Guarmani ، أو مبعوثين سياسيين لأمراء أجانب ويحملون مهاماً وتكليفات أوسع ، أو أنهم شأنهم شأن كل من آل – بلنت (**) Blunts ونولد Nolde ، لم يكونوا تجاراً على الإطلاق ، وإنما هم مجرد هواة متحمسين لهذه السلالة من الخيول . هذا يجعلنا نقول : إن غالبيه مستكشفى الجزيرة العربية إنما اضطروا إلى الذهاب إليها بدافع من فضولهم الشخصى أو بدافع من أمراء أجانب وتجمعات أجنبية ، سواء أكانوا حجاجاً إلى أمكانها المقدسة ، أم علماء للآثار ، صريحين أو متنكرين ، أو مجرد مراقبين عابرين لمجتمعات الجزيرة العربية .

(*) إليوس جالوس : ثانى حاكم رومانى على مصر . (المراجع)

(**) المقصود بآل بلنت هنا هما : بلنت وزوجته اللذان قاما برحلة إلى الجزيرة العربية . (المترجم)

وعلى الرغم من قصر قائمة المستكشفين ، إلا أن القارئ يجد أنها تحتوى على أسماء كثيرة ، وأن هذه الأسماء تروى حكاية غير عادية لأناس أصحاب مواهب كبيرة ومتباينة ، - هذه القائمة تضم أناسًا مثل نيبور Niebuhr ، وسيتزن Seetzen ، وبركخاردت Burckhardt ، ووالين ، وبيرتون ، وبالجريف ، وهاليفى ، وبوتى ، وبلنت Blunt ، وهيوبر Huber ، وإيوتنج Euting ، وهيرجرونجى Hurgronje ، وجلاسر Glaser ، - هؤلاء الرجال أصحاب أذهان جاده انطوت على حب المغامرة أو حب الشيء الممنوع . ترى ما الذى جعل هؤلاء يخاطرون بحياواتهم وأنفسهم فى أرض جرداء لا يتطلع إليها أحد ؛ أرض بلغت حدًا كبيرًا من الرتابة بفعل تأثير المؤثرات الطبيعية إلى حد أنها لم تعد تخفى أى سر من الأسرار الحساسة أو الخطيرة ؛ أرض لا يسكنها سوى مجموعة مخلخلة من السكان الفقراء الذين هم كلهم على وتيرة واحدة ونمط واحد ؟ كيف كانت الجزيرة العربية تبدو لأعين هؤلاء المستكشفين عندما يقارنوها بأراضى أخرى ؟

هذا الأمر لم يكن يعنى هؤلاء المستكشفين وحدهم إنما كان يهم أناسًا آخرين فى بلد أخر . لو أن العرب نشروا الإسلام وحده ، لو أن العرب عرفوا فقط تلك الفترة من فترات ذلك التوسع العظيم التى استوعبوا بل وامتصوا خلالها من خلال عقيدتهم ولغتهم ، بل وحتى من خلال نمطهم الطبيعى المزيد من الأجانب وذلك على العكس من أية سلالة جاءت قبلهم ، أو حتى بعدهم ، بما فى ذلك أيضًا الهيلينيين ، والرومان ، والأنجلو - سكسونيين أو الروس ، لقبوا أيضًا أصحاب التأثير الأكبر والأول على المصالح الغربية . ولكننا عندما نتذكر أن سكان الجزيرة العربية هم الذين أصّلوا اليهودية باعتبارها مصدر السامية وأساسها، وأنهم هم الذين حددوا ، وإلى حد بعيد ، طابع اليهودية وطابع المسيحية أيضًا ، وأنهم هم أيضًا الذين حددوا توسع وانتشار المفهوم العربى عن علاقة الإنسان بربه وعن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان (التى هى باختصار المنظومة الاجتماعية العربية) عندما نتذكر كل ذلك نجد أن الدعاية العربية مازالت تمضى بخطى أسرع وإلى آماد أبعد من أية دعاية أخرى ، إذا عرفنا كل ذلك هل يكون هناك مبرر لعجبنا من أولئك الرجال أصحاب الأذهان الحصيفة والخيال الخصب عندما يتشجعون ويقومون بدراسة هؤلاء السكان فى وطنهم ؟

وأنا هنا أجدنى منساقًا وإلى حد بعيد ، إلى التأمل فى أسباب القوة الاجتماعية فى الجزيرة العربية . وأنا هنا أجد نفسى أقول : لو أن العرق هو المحدد الرئيسى ، فإن الظروف الجغرافية للأرض لابد أن تكون مسئولة عن ذلك إلى حد ما . دم هذا العرق البشرى هو وحياته الاجتماعية اللذان يؤكد الرحالة جميعهم ، أنهم وقفوا عليهما فى أفضل أحوالهما ، يثبت أن هذا العرق من البشر هو أنقى الأعراق القوقازية ، وأن ذلك راجع إلى الحواجز الطبيعية المحيطة "بجزيرة العرب" ، والتى حالت بين تلوث سكان هذه الأرض بالملوثات الأجنبية التى سرت بين الأعراق الأخرى التى تعلو الأعراق المتوحشة غير المتحضرة ؛ يضاف إلى ذلك أن العربى يدين بذكائه فى بعض أجزائه إلى الظروف المناخية الفريدة التى كونت لدى هذا العربى مرارًا وتكرارًا مفهومًا مبسطًا عن الله (سبحانه وتعالى) وقويًا على نحو مقنع لمختلف الأجناس البشرية الغريبة عن هذا المفهوم .

أغلب الظن ، أن هذه الأرض الفريدة لم تكن مجهولة مطلقا للغرب ، منذ أن بدأت فيها الحضارة ، وعلى نحو يجعله يتيه شغفًا وفضولاً إلى بيئتها . فقد سبق لأوروبا استكشاف الجزيرة العربية ، ثم تناست أوروبا قسمًا كبيرًا منها ، ثم أعادت اكتشافها مرة أخرى . ويبدو أن الفينيقيين أبلغوا هيرودوت أن عرقهم جاء أصلاً من "البحر Sea المتورد Ruddy" ، وهو المصطلح الذى كان يطلق من قبل على ما نعرفه نحن حاليًا باسم الخليج الفارسى . وهيرودت يقول لنا أيضا : إن هؤلاء الفينيقيين أنفسهم هم الذين كانوا ينقلون منتجات جنوب الجزيرة العربية فى البحر الأحمر ، ولكنه هنا ربما يكون يتكلم فى شىء من المواربة عن اليهود ، الذين كان لهم ميناء على خليج العقبة ، فى المرحلة الباكره من حياة مملكتهم ، وكانت لهم اتصالات مع الجزء الجنوبى من شبه جزيرة العرب . وفيما يتعلق بالمصريين ، وكيف تعرفوا على الساحل الشرقى من البحر الأحمر نجد أن العالمين بأسماء الأماكن المدونة باللغة الهيروغليفية يشككون فى ذلك ؛ ولكن من الصعوبة بمكان تصديق أن بلاد بنت Punt التى كانوا يجلبون منها التوابل ، لم تكن حتى ولو مجرد جزء من أجزاء الجزيرة العربية .

المعرفة الفينيقية ، والمعرفة العبرية ، وكذلك المعرفة المصرية لها دخل أيضًا بهذا الأمر بقدر تأثيرها على الغرب ؛ هذا يعنى مدى الشكل الذى وصلت إليه هذه المعارف عند الجغرافيين اليونانيين القدامى ، ومدى انتشار هذه المعارف فى أوروبا على أيدى هؤلاء الجغرافيين . ونحن نرى أن التاريخ الذى كتبه هيرودوت فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) لابد من أن يكون هو نقطه البداية . فقد قيل إنه بالرغم من معرفة هيرودوت لساحل كامل من سواحل الجزيرة العربية ، والذى يطلق عليه اسم الساحل الأبعد من بين السواحل الجنوبية للأراضى كلها ، وبالرغم أيضًا من وصف هيرودوت للبضائع التى جرى إحضارها من الجزء الجنوبى من هذا الساحل ، فإن "بلاد العرب" Arabia التى قصدها هيرودوت كانت تقع إلى الشمال تمامًا من شبه الجزيرة الحقيقية . هذا الخطأ يرجع إلى تفسير لا داعى أو مبرر له لمقطوعة واحدة من المقطوعات ، تجاهل هيرودوت فيها ذكر الخليج الفارسى الأمر الذى جعله ينظر إلى الجزيرة العربية باعتبارها امتدادًا لبلاد فارس . ولكن هيرودوت ، فى تلك اللحظة ، كان يعبر عن وجهه نظر واسعة تشمل الكتل القارية الكبيرة ، ولم يكن يتوقع أن يتهمه الناس بتجاهل الخليج الذى قال : إن "سكاى لاكس" Scaylax أبحر فيه ، أو أنه تجاهل أيضًا الامتداد الجنوبى للجزيرة العربية . وفى هذا الصدد ، وعلى حد قول هيرودوت ، فقد أغفل الرجل "الخليج العربى" Arabian Gulf إغفالاً تامًا ، كما أنه كان يعرف وجود هذا الخليج حق المعرفة كما كان يعرف أيضًا مداه وامتداده . والسبب فى ذلك أن هيرودوت كان يعرف أن تلك الشروم الساحلية الضيقة ، والتى لا تعدو أن تكون مجرد شروم تحيط بها الأرض ، لا يتحتم أن يكون لها تأثير على ترتيب القارات . الأرجح هنا أن هيرودوت كان يعرف البحر Sea الشرقى Eastern بشكله الحقيقى وامتداده على أنه الشكل الحقيقى والحجم الحقيقى للجزيرة العربية ؛ ولكن المؤكد أن هيرودوت عندما كان يتحدث عن أرض التوابل إنما كان يقصد جزءًا من شبه جزيرة العرب التى مازلنا نطلق عليها الاسم نفسه Arabia ؛ ولم يكن يقصد الحماد Hamad الجنوبى .

وأغلب الاحتمالات هى أن أحدًا من الإغريق لم ير الجزيرة العربية إلا بعد مضى قرن من الزمان . كان الجزء الأول من الأرض الذى جرت مشاهدته ورؤيته يتماثل

فى صخرة رأس مسندم Musandam الوعرة الشامخة التى بدت أمام نيرخوس Near-chus (*) وبحارته كشيء مخيف عندما دخلوا مصب الخليج الفارسى فى أواخر العام ٣٢٥ . وقد بلغنا أن أدميرال الإسكندر الأكبر كان على وشك التوقف عند الخليج الذى تبدى له على الناحية اليمنى وأنه كان على وشك تجاهل ذلك الخليج أيضًا ؛ وبالرغم من أسف ذلك الأدميرال وندمه ، وبالرغم أيضًا من بقائه على الشط الذى كان يقف عليه ، إلا أن التقرير الذى أرسله ذلك الأدميرال عن وجود ساحل يمتد ناحية الجنوب فيما وراء الخليج ، أوحى للإسكندر الأكبر بوجود عالم جديد يتعين عليه القيام بغزوه والاستيلاء عليه ، أو ربما يكون قد أوحى له بطريق جديد يؤدى إلى العالم القديم . وفى العام الأخير من حياه هذا الإمبراطور أوفد الرجل سفنا استكشافيه إلى الخليج ؛ والأرجح أنه فعل ذلك كى يتأكد من وجود ذلك الامتداد الأرضى المستمر ، على الجانب الجنوبى الغربى من هذا الخليج . ويبدو أن قادة الإسكندر الأكبر كانوا قد وصلوا إلى البحرين أو إلى بعض الجزر البعيدة عن ساحل Coast القراصنة (**) Pirate ، وأنهم زاروا أيضًا الجرهاء (***) Gerra التى كانت محطة تجاريه مزدهرة فى ذلك الوقت ؛ وبناء على التقرير الذى وضعه هؤلاء القادة ، وضع الإمبراطور خطته غير العملية التى بناها على أساس القيام بحمله ساحليه حول شواطئ الجزيرة العربية وصولا إلى مصر حتى يتسنى له إخضاع ذلك الشعب العربى الذى لم يرسل له ما يفيد خضوعه له ولحكمه ؛

(*) نيرخوس : قائد الحملة التى أرسلها الإسكندر الأكبر لفتح بلاد الهند ، ويرجع إلى نيرخوس السبب فى تسمية الخليج بالفارسى ؛ إذ إنه مر بسواحله الشرقية التى تطل عليها فارس ، ولم يتعرف على سواحله العربية . (المراجع)

(**) ساحل القراصنة : يمتد هذا الساحل من جنوب شبه جزيرة قطر إلى شبه جزيرة مسندم . وقد ظلت تلك تسمية تطلق على هذا الساحل فى الخرائط والمصورات الجغرافية حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حين فرضت بريطانيا سلسلة من الاتفاقيات البحرية على شيوخ هذا الساحل التى أصبح على أثرها يعرف بساحل الهدنة Trucial Coast أو ساحل الصلح البحرى ويعرف حاليًا بساحل الإمارات العربية المتحدة . (المراجع)

(***) الجرهاء : كانت الجرهاء أو الجرعاء من أهم الثغور التجارية القديمة فى الخليج ، ولعلها الآن العقير أو القطيف الواقعة على ساحل الأحساء . وكان أهلها من أغنى سكان العالم القديم حيث كانوا يمارسون نشاطًا تجاريًا مهمًا مع الهند وفارس والعراق وبلاد العرب الجنوبية . (المراجع)

ولكن أجل الإسكندر الأكبر لم يمهله حتى يخبر بنفسه المعاناة الشديدة والفشل الذريع الذى كان يمكن أن يترتب على ذلك .

ومع ذلك ، ونظراً لأن الأوروبيين كانوا قد استولوا على مصر قبل ذلك بعشر سنوات ، فقد بدأ الإغريق (اليونانيون القدامى) يعرفون ويتعلمون الكثير من أسرار الجزيرة العربية عن طريق التجارة . ونحن نستطيع الوقوف على ما قاله فى الإسكندرية ربابنه البحر الأحمر ، وبعضهم من الإغريق ، هم ورؤساء القوافل من الأنباط والسبئيين ، من خلال المعرفة الواسعة التى كشف عنها إراتوسينيز Eratos-thenes ، ذلك الجغرافى العلمى الكبير ، طوال قرن من الغزو المقدونى . هذا الجغرافى العلمى الكبير يرى ، على حد علمه غير الكامل ، أننا يتعين علينا ، فى عصرنا الحاضر ، أن ننسب الفضل إلى كتابه الأصيل الذى ضاع وخسرناه ، ولم يعد يتبقى لنا منه سوى بعض المقتطفات القليلة والمواجيز المختصرة التى أعدها استرابو Strabo لبعض فصول ذلك الكتاب ؛ ولكن هذه المقتطفات والمواجيز من بينها بعض المقطوعات التى تتصل بجزيرة العرب بصفة خاصة . استرابو هذا الذى كان واحداً من أمناء مكتبة الإسكندرية كان يعرف حقائق الطابع العام للحماد Hamad (الصحراء) الجنوبية القريبة من بيترا Petra (بالرغم من مبالغته فى عرض واتساع تلك الحماد (الصحراء) وقياساتهامن الغرب إلى الشرق) ؛ كما أنه كان يقدر طول شبه الجزيرة الشاسعة بحوالى مائه ميل . كما كان الرجل على علم أيضاً برقعة شاسعة من الأرض القاحلة ، تقع جنوب الحماد ، وتتكون فى معظمها من الرمال ، وفيها حياة نباتية شوكية ، وقله قليلة من الأبيار وواحات النخيل ، ويسكنها مربو الإبل الذين يسكنون الخيام - وهى الرقعة التى تحولت فيما بعد إلى منطقة فيها وفرة ونماء كثير . كانت تعيش فى تلك المنطقة حياة حيوانية كبيرة ولكن الحصان العربى لم يكن من بين حيوانات هذه الحياة . كما كان استرابو يعرف أيضاً شيئاً عن أمم هذه المنطقة ، ومنها أمة سبأ والقبائل المنيائية Minaean وحضارتها فى اليمن ، كما كان يعرف بعض الأشياء أيضاً عن أرض البخور فى حضرموت ، وعن طرق القوافل التى كانت تتجه من الجزيرة العربية

إلى كل من الجـرهـاء Gerra على الخليـج الفـارسـى ، وعـبـر تهـامـة (*) إلى رأس خليج العقبة .

فى كل الأحـوال ، أصبـح البحـر الأحمـر معروفـاً تمامـاً للإغريق المصريين مثلمـا كانت أوكساين Euxine معـروفـة للبيزنطيين . ويبدو أن كلاً من أجثارشيدس Agatharchides هـو وأرتيموردوروس Artimdorus ، وهـذا نقـلاً عمن جاءوا بعدهما من الكتّـاب ، كانت لديهما معـرفـة مفصلـة عـن شاطئ البحر الأحمر . ومع ذلك تردد الربابنه المصريون على امـتـداد سنوات كثـيـرة ، فى زيارة أى جـزء من أجـزاء سواحل الجزيرة العربية التالية لباب المندب ؛ كما كان التجار الإغريق المقيمون فى منطقـة الخليج الفـارسى ، وبخاصـة فى منطقة الجرهاء ، يرسلون بضـاعتهم بصورة مستـمرة إلى مدينة بيترا (**) Petra عن طريق البر . ولكن التجـارة المحيطية مع الصومال والأجزاء القصية من إفريقيا ، ومع الهند ومع سيلان بقيت لمدة طويلة فى أيدى عرب اليمن وحضرموت ؛ وكان جنوب غرب الجزيرة العربية ، ما يزال تحت الحكم المسيحى ، والمصدر الرئيسى للأحجار الكريمة والمعادن ، والصمغ والتوابل ، التى كانت تمثل فى العالم القديم آخر صيحات الترف والبذخ . وذاع صيت اليمن السعيد وأصبح يعرفه القاصى والدانى ، الأمر الذى أدى إلى إثارة حفيظة روما . كان عرب ذلك الزمان ، شأنهم شأن الساميين الآخرين ، ينظر الناس إليهم باعتبارهم مصاصى دمـاء الغرب ، ومن هنا أيد الرأى العام أوغسطس Augustus فى قراره الذى اتخذه بشأن تحرى ثروات هؤلاء العرب وثراء أراضيهم ، والاستيلاء على تجارتهم وما لديهم من ذهب إذا ما تطلب الأمر ذلك .

(*) تهامة : تطلق على المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوبًا إلى العقبة شمالاً وتحجزها عن داخل شبه الجزيرة العربية سلسلة جبال الشراة - أعظم جبال العرب - وسميت تهامة بذلك الاسم من «التهم» ، وهو شدة الحرارة وركود الرياح ولانخفاض أرضها سميت بالغور . (المراجع)

(**) بيترا : أو البتراء وهى عاصمة دولة الأنباط والاسم فى حد ذاته ترجمة حرفية للكلمة اللاتينية Petra التى تعنى الصخرة أو الحجرة . (المراجع)

وتحت قيادة إيليوس Aelius جالوس Gallus ، حاكم مصر ، والذى ربما يكون هو الآخر قد نصح الإمبراطور بالقيام بهذه المغامرة ، جرّد الإمبراطور أول وربما آخر قوة عسكرية أوفدتها قوة أوروبية لغزو الجزيرة العربية من الداخل (*) . وهنا يتعين علينا الثناء على استرابو Strabo ، الذى كان من أصدقاء قائد هذه القوة ، الرواية التى أوردها عن هذه الحملة . وبعد إنفاق الوقت والأموال على إقامة وبناء أسطول حربى ، أبحر جالوس Gallus على رأس هذا الأسطول من السويس ، وقام بإرشاده وتوجيهه أمير الأنباط الذى سبق أن نسق معه هذه الخطة ، إلى ميناء يدعى ليفكى Levke ، ويقع على الساحل الشرقى للبحر الأحمر . وقد أسفر هواء تهامة المحمل بالأوبئة عن تأخير طويل وانتشار المرض مثلما حدث للحملة المصرية التى قام بها طوسون باشا فى العام ١٨١١ الميلادى ؛ وترتب على ذلك القيام بمسيرة شاقة عبر أراضى شحيحة الماء ، وصولاً إلى منطقة نجرانا Nagrana الخصبة . واستولى جالوس على تلك المنطقة بسهولة ويسر . وبعد ذلك بستة أيام دارت معركة على نهر من الأنهار ، وأمكن هزيمة العرب غير المسلحين تسليحًا جيدًا ، هزيمة ساحقة ، وأجبروا على فتح الطريق المؤدى إلى بعض المدن المبنية بناء حسنًا ، والتى كانت مارابيا Mariaba المدينة الرئيسة بين هذه المدن . ومن مدينة أخرى هى مدينة كاربيتا Caripeta ، ورد تقرير يفيد أن أرض بلاد البخور لا تبعد عن هذه المدينة سوى مسير يومين . ولكن الرومانى كان يسير ويواصل سيره طوال ستة أشهر ، ولذلك عانى الكثير ولم يعثر إلا على القليل من تلك الثروة التى جاء إلى هنا باحثًا عنها ، ومن هنا تبددت أحلام هذا الرومانى وأوهامه عن ما يسمى اليمن Araby المبارك Blest . عاد الرومانى مرة ثانية إلى نجران ، ثم اتجه منها ليصل بعد ستين يوما إلى الحجر Hegra ، الواقعة داخل الحدود النبطية الصديقة ، ثم نقل قواته بالقوارب خلال أحد عشر يومًا إلى مايوس Myos هورمز Hormos ، على الشاطئ المصرى ، ليترك الجزيرة بعد ذلك وإلى الأبد ، وراح يلعن كل أولئك الذين

(*) يرجع تاريخ هذه الحملة إلى عام ٢٤ ق. م. ونتيجة لفشل تلك الحملة عدل الرومان عن معاودة الكرة وعملوا على توثيق علاقتهم التجارية بالملوك الحميريين فى اليمن بدلاً من سياسة الغزو . (المراجع)

أرشدوه فى تلك الأرض . ونجد استرابو يكرر وبلا أى حرج شكاوى صديقه من خيانة الأنباط ؛ ولكن يبدو أن الرومانى بعد أن بدأ بفكرة غير حقيقية وزائفة تمامًا عن أرض الجزيرة العربية ، وبعد أن رآها على حقيقتها ، أراد أن يستفيد من فشله على أفضل نحو ممكنٍ ؛ ولو استمر هو ، أو السلطات الرومية ، فى تصديق أن هناك الدورادو (*) Eldorado أخرى فى الجزيرة العربية ، وأن المرشدين الزائفين منعوه منها ، فإنه لا هو ولا أى شخص آخر يمكن أن يحاول من جديد العثور على ذلك البلد الخيالى المليء بالذهب .

مسألة الطريق الذى سلكه إيليوس جالوس والمكان الذى ذهب إليه جرت مناقشتها مناقشة مستفيضة . فى هذه الأرض ثابتة الأسماء نجد أن نجرانا Negrana بواحتها الخصبة هى مرادف نجران Nejran وأن مرادف مرايبا Mariaba هو مأرب Marib ، الذى هو الموقع الحقيقى لمدينة مارايبا السبئية (١) ؛ كما أن هناك تطابق أيضًا بين المسافة التى تقدر بمسير يومين إلى أرض البخور والمسافة التى تفصل وادى مأرب عن وديان حضرموت العليا ؛ وهذا يدل على أن اليمن بمثابة الهدف النهائى الذى كان الرومانى يبتغيه ؛ وهذا هو ما يسلم به الرحالة الأوروبى الوحيد الذى عاش فى كل من مأرب ونجران ، ألا وهو جوزيف Joseph هاليفى Halevy ، ومن بعده جلاسر Glaser . من هنا فإن الحجر Hegra لا يمكن تحديد مكانها فى أى موقع قريب من المكان المخصص لمدينة ليفكى Levke ، أى على دائرة العرض الخامسة والعشرين ، وفى مواجهة مايوس Myos هورمز Hormos ؛ لأن أى جيش من الجيوش لا يمكن له الوصول من نجران إلى هذه البلدة خلال ذلك العدد الصغير من الأيام والذى يقدر بستين يوما ، يقطع الجيش خلالها قرابة الألف ميل فى أرض مثل أرض الجزيرة العربية ؛ ولكن يجب أن لا يغيب عنا أن الوجود فى حوراء Haura ، التى هى الميناء الداخلى للحجر ، يعنى أن إنفاق أحد عشر يومًا فى الرحلة من الحجر إلى مايوس هورمز ليست بالشىء القليل أو الكثير .

(*) الألدورادو El Dorado : مدينة من نسج الخيال تعج بالذهب (المترجم)

التقرير الذى ورد عن هذه الحملة لابد أن يكون قد أضفى المزيد من الدقة على الآراء الغامضة المعاصرة المتعلقة بغربى الجزيرة العربية ، نظراً لأن هذا التقرير أورد معياراً دقيقاً وسليماً للمسافة . وهذه هى المرة الأولى ، التى نجد فيها أن ساعات القوافل متطابقة مع ساعات المسيرة العسكرية الرومانية . يضاف إلى ذلك ، أن الجانب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، أصبح معروفاً تماماً ، وذلك بفضل الحملات البحرية التى يعزو بلنى Pliny القيام بها إلى "إبيفانس" Epiphanes ، الذى ربما كان هو الملك أنطيوكس Antiochus الرابع ، ملك سوريا . فى ذلك الوقت كان البحارة الإغريق – المصريون قد بدءوا يتجاسرون ويخرجون من البحر الأحمر ، ويبحرون بمحاذاة الساحل فى اتجاه الهند ، وذلك بطول الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ؛ وفى ذلك الوقت نفسه تعين على هيبالوس Hipalus القيام برحله من سوقطره إلى بلاد السند Indus . هذا المؤلف المجهول الذى ألف الكتاب المعنون (*) Periplus of the Red-sea ، فى أواخر القرن الأول من عصرنا الذى نعيش فيه ، كان يعلم أن من المفيد له أن يتعرف الساحل الغربى من الجزيرة العربية . فقد تكاثرت وتراكمت علَى وجه السرعة خلال هذا القرن الأخبار الخاصة بمسارات القوافل وأخبار المحطات فيما بين بيترا ، والجرهاء وأرض سبأ وفيما بين الجرهاء وعمان وحضرموت . يضاف إلى ذلك أننا نجد فى مؤلفات بلنى قوائم بأسماء القبائل التى فى داخل الجزيرة العربية ، وبعض أسماء قليلة خاصة ببلدان وقرى وسط الجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى رؤية أوثق وأوضح لكل من العرب الرحل والعرب المستقرين ؛ ولكن ذلك الجغرافى الرومانى ، كان يكتب قبل أفول السلطة القديمة بوقت قصير ، ولذلك سار على نهج المصادر نفسها ، إلى

(*) Periplus of the Red Sea : يعد هذا الكتاب من المصادر المهمة التى تحدثت عن التعاملات التجارية القديمة بين جنوب الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها .

ويعرف هذا الكتاب باسم الطواف حول البحر الأرتيرى Periplus Maris Erythraei ، والبحر الأرتيرى – الذى عرفه هوجارث بالبحر الأحمر – كان يطلق عموماً على الجزء الغربى من المحيط الهندى . والكتاب وضع منذ حوالى تسعة عشر ونصف قرن ، ومن المرجح أن يكون مؤلفه أحد الأفارقة الذين عاشوا فى الإسكندرية فى القرن الأول للميلاد (٦٠ م) . (المراجع)

الحد الذى يجعلنا نتخطاه وننتقل إلى أعمال ومؤلفات كلوديوس Claudius ، بطليموس Ptolemy ، الذى أدى استعراضه للعالم المعروف لنا ، إلى تحديد الأفكار الجغرافية عند كل من الأوروبيين والآسيويين لقرون قادمة .

أما بطليموس السكندرى ، الذى كان من علماء الرياضيات والفلك ، والذى ذاع صيته بعد قرن تقريبا من وفاة بلنى Pliny ، عندما كانت الإمبراطورية الرومانية قد وصلت إلى أوجها فى ظل حكم أسرة أنطونياين Antonine الملكية ، فقد آل على نفسه تحمل مسئولية القيام بعمل أطلس للعالم المأهول . لم يكن بطليموس السكندرى جغرافيًا وصفيًا ، ولذلك أراد لكتابه أن يكون مجرد تعليق على خرائطه . هذه الخرائط لم نحصل عليها لا من يده ولا من يد أى من معاصريه ؛ ولكن الذى بقى لنا هو تعليقه على هذه الخرائط ، وقد أمكن إعادة رسم هذه الخرائط عن طريق تلك التعليقات . وقد سار بطليموس على الدرب نفسه الذى سار فيه كلٌ من هبَّاركوس Hipparchus وإراتوسينيز Eratosthenes ، ولكنه أدخل على أسلوبهما شيئًا من التحسين ، فقد قسم بطليموس السكندرى العالم عن طريق دوائر العرض ، محسوبة من خط الاستواء ، وخطوط الطول محسوبة من خط السمت أو الزوال الذى رسمه خلال أبعد نقطه معروفة له على سطح الأرض فى المحيط الغربى ، أو بالتحديد فى جزيرة فرولُ Ferrol . ونحن عندما نتتبع جغرافيًا أحدث عهدًا ، هو مارينوس Marinus الصورانى (*) ، الذى ضاعت مؤلفاته ، نجد أنه كان يرمى إلى ربط كل النقاط المهمة التى لديه معلومات عنها ، بدوائر العرض وخطوط الطول التى رسمها بطليموس السكندرى . خلاصة القول هى : أن مارينوس استفاد من الدلائل الموجودة فى زمنه سواء أكانت بيانات أم حسابات قام بها الجغرافيون السابقون ، أو كشوف أو بيانات بحمولات السفن ، أو تسجيلات لمسارات الجيوش والتجارة ، والمستكشفين ، ورجال القوافل أو تقديرات مبنية على ملاحظات لاستمرار ضوء الشمس ، أو المواقع النسبية للنجوم فى بعض المواقع من الجهات الأصلية ، استفاد من كل ذلك بأن وقَّع حصيلته من الأسماء

(*) نسبة إلى مدينة صور فى لبنان (المترجم)

الجغرافية على خرائطه ، وراح يدون بعد ذلك على شكل جداول المساويات الرياضية للمواقع المحددة لهذه الأسماء ولم يفعل مارينوس أكثر ولا أقل مما يفعله رسامو الخرائط فى أيامنا هذه ، عندما يقومون بتسمية نقاط محدده فى مناطق لم يجر مسحها ؛ ويعطون كنتورات تقليدية لتضاريس الأرض ، ثم يحددون منحنيات الأنهار التى لا يعرفون مساراتها الدقيقة أو المضبوطة .

على أية حال ، ونظراً لأن بطليموس السكندرى أضاف إلى خرائطه تعليقات على شكل جداول ، فقد جرى اتهامه فى الوقت الحاضر بأن دقته تقوم على الغش والخداع ؛ كما لو كانت جداوله التى أضافها ترمى إلى الإيحاء بأن كل موقع من المواقع قد جرت مراقبته مراقبة فلكية . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن بنبرى Bunbury اتهم بطليموس بأنه فرض تحشيه على الفراغات التى فى خريطته السادسة ، أو بالأحرى خارطة الجزيرة العربية تتمثل فى أسماء خيالية ، كان يهدف من ورائها إلى استعراض لا طائل من ورائه ولا نفع منه إذ لا يعدو أن يكون مجرد مواقع خيالية . هذا الاتهام ، جاء بمثابة وصمة على جبين العمل الفذ الذى قام به بنبرى Bunbury ، ولكن يمكن أن يعزوه بالقدر نفسه إلى سوء فهم بنبرى للطابع الحقيقى للكتاب الذى ألفه بطليموس السكندرى ، وبالشكل الذى سبقت الإشارة إليه ، كما يمكن أن يعزو ذلك أيضاً إلى جهل بنبرى بذلك الذى جرى تعلمه مؤخراً عن الجزيرة العربية من الداخل ، وذلك عن طريق الحملات المصرية التى جُردت على الجزيرة العربية فى الجزء الأول من القرن التاسع عشر . وكل أولئك الذين يعرفون المعلومات التى استقاها منجن Mengin وجومار Jomard من الأوروبيين الذى صاحبوا تلك الحملات المصرية ، ومن المفكرة التى أعدها سادلير Sadlier ، والتى جرى استقاؤها أيضاً من التقارير الوطنية الموثوق بها لا يمكن أن يقولوا :

"لم تكن هناك مستوطنات فى جزء كبير من الأراضى التى حُدِّدت لهم (المقصود هنا أسماء الأماكن الداخلية من الجزيرة العربية عند بطليموس السكندرى) وإذا كان حصر هذه الأسماء يقوم بحق على أساس محدد ومتين ، فإن المواقع التى جرى

تحديدها بهذه الطريقة يمكن أن تكون مجرد أبيار كانت بمثابة أماكن يتوقف عندها البدو ، أو مجرد بقاع خصبة في الوديان ، التي كانوا ينصبون فيها خيامهم ويرعون فيها قطعانهم ." (٢)

كان حصر بطليموس السكندرى لحوالى مائة وأربعة عشر مدينة أو قرية فى اليمن السعيد ، وذلك فى ضوء ما ورد على لسان سبرنجر Sprenger فى العام ١٨٧٥ الميلادى ، فى بحثه العلمى القيم المعنون "الجغرافيا القديمة للجزيرة العربية" . ويجب أن لا ننسى أن سبرنجر استعاد الثقة والشهرة والمصداقية ، التى كان بطليموس يحظى بها فى العصور الوسيطة . ولم يثبت سبرنجر أن بطليموس السكندرى كان على علم فقط بطابع شبه الجزيرة العربية ، والأطراف الوعرة لسواحلها ، بما فى ذلك بروزها من الطرف الجنوبى الشرقى ، التى كان بلنى يجهله تماماً ؛ وإنما حصل الرجل أيضاً من أولئك الذين سبقوه ومن أفراد القوافل ، على قوائم حقيقية بالمحطات ، التى حقق مواقع الكثير منها ووقعها بدقة بالغة على الخارطة التى قام هو بإعدادها ، وبحيث يمكن التعرف عليها فى ضوء المستوطنات الواحيه القائمة بالفعل . وفى كثير من الأحيان نجد أن الإلحاح على اسم من الأسماء يسفر عن توكيد هذا الاسم توكيداً تاماً . وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة دوماثيا Dumaetha ، التى حدد بطليموس مكانها خارج الحدود الشمالية لليمن السعيد ، لابد من أن تكون هى تلك المدينة التى كانوا ، فى العصور الوسيطة ، يطلقون عليها اسم دومت (*) Daumet، التى هى حاليًا بمثابة القرية الرئيسة فى واحة الجوف (**) . والحجر Hejr (***) التى اشتهرت فى "أزمان الجاهلية" بأنها كانت مقراً للمملكة (****) ، والتى هى الآن مدائن

(*) دومت : المقصود بها دومة الجندل . (المراجع)

(**) واحة الجوف : تقع هذه الواحة على بعد متساو من مختلف تخوم الجزء الشمالى من الجزيرة العربية وجنوبيها والرياض والمدن المقدسة ، ويفتخر سكانها بتسميتها «جوف الدنيا» . (المراجع)

(***) الحجر : من أهم الحواضر التى عاشت فيها قبائل ثمود ، وهى عبارة عن منطقة صخرية قاحلة تغطيها جبال منعزلة يطلق عليها اسم الأثالب . وقد ارتبط اسم مدينة الحجر بالنبى صالح ، ولكن الباحثين المحدثين حددوها بمدينة الخريبة التى تبعد عن مدائن صالح بنحو عشرة أميال . (المراجع)

(****) المملكة : المقصود بها مملكة الأنباط التى كانت تمتد من خليج العقبة إلى المناطق الداخلية من الصحراء . (المراجع)

صالح Medayin Salih ، هى المدينة نفسها التى أطلق عليها بطليموس السكندرى اسم إجرا Egra . كما أن المدينة التى أطلق عليها بطليموس السكندرى اسم ثيم Thaim هى مدينة تيماء الحالية ، والتى كشفت نقوشها عن إنها كانت تحتوى على معابد وعلى شكل من أشكال الحضارة يعود إلى العام ٥٠٠ قبل الميلاد . تيماء هذه هى تيماء Tama (سيدنا) أيوب الصديق . ومدينة لاثاربًا Latharippa ، التى تحدد مكانها فى الداخل بعد مدينة أيامبيا lambia (ينبع حاليًا) ، تذكرنا بمدينة lathrippa التى تحدث عنها ستيفن Sephen البيزنطى ، كما أن مدينة يثرب Yathrib التى وردت فى الموروث الغربى القديم ، هى الآن المدينة المنورة ، مدينة المدائن . ومع وجود وتوفر الكثير من هذه التحقيقات ، من هو الناقد العاقل الذى يمكن أن ينكر أن خارطة بطليموس السكندرى قد رسمها صاحبها بقصد طيب ونية سليمة ، وأنها كانت تمثل بالفعل حقائق عصره ؟ كما أنه لا يحق لأى ناقد عاقل أن يقلل من شأن هذه الخارطة لعيوبها الواضحة . وإذا كان الجغرافيون ، فى أيامنا هذه ، يجدون أن مسارات الرحالة ، التى جرى تحديدها باستعمال البوصلة المنشورية والساعة ، معرضة للأخطاء التى من قبيل المبالغة ، ومن قبيل العيوب ، الأمر الذى يجعلها غير ذى قيمة عند رسم الخرائط ، فما بالنا بدقة خارطه جرى رسمها اعتمادا على تقديرات سير الإبل ، والتى كان القياس فيها يتم عن طريق ضوء الشمس ؟ المواقع التى من هذا القبيل والتى يجرى تحديدها بتباين يقل عن خمسين ميلاً من أماكنها الحقيقية تعد شيئًا جميلاً ومبهرًا .

بدأ بطليموس السكندرى ، شأنه شأن من سبقوه ، بإفراط عام فى تقديره لخطوط الطول الخاصة بكتله الأرض القارية فى كل من أوروبا وآسيا ؛ وهنا ينبغى علينا أن نتوقع شيئًا من المبالغة فى أقسام قياس الغطاسين الشرقى والغربى . ونحن نجد ، على سبيل المثال ، فراغـًا كبيرًا بين كل من الساحل المصرى والساحل الكارمينى Carmanian ؛ وفى الشمال ، وبخاصة فى المناطق التى تأكد فيها أفراد القوافل من عرض اليابسة ، نجد أن التجاوز كان يجرى التعامل معه عن طريق توسيع البحر الشرقى الذى لم يكن معروفًا معرفة كاملة ، وفى البحر الجنوبى الذى اشتهر بسوء سمعته عند البحارة منذ أيام نيرخوس Nearchus ، وأن خليج إريتريا Erythraean

قد انكمش إلى مجرد مضيق ، وهنا تعين على بطليموس توسيع الأرض غير المعروفة أو المجهولة . هذا الخطأ الكبير ، إضافة إلى الشك فى طبيعة خط الساحل ، على حد قول رسام الخرائط الحديث ، وعندما لا تتوافر له أبحاث عن إمارة البحر كى يسترشد بها ، هما اللذان شوها شكل شبه جزيرة العرب فى الخارطه التى رسمها بطليموس السكندرى ، وهما اللذان أديا إلى ذلك الخطأ الحتمى فى المواقع النسبية للمحطات الداخلية . وبالتالى كان لابد من حدوث ذلك الخطأ العرفى أو الاصطلاحى فى ترتيب هذه المحطات . وفى المواقع التى كان يجرى فيها تحديد المواقع اعتماداً على السماع عن الغير وباستخدام معيار القياس ، الذى يصبح غير دقيق لا بتغير القدرات والظروف الخاصة بمختلف المشائين Marchers ، وإنما بفعل الحقيقة التى مفادها أن تضاريس الأرض لا تسمح فى أغلب الأحيان بالمشى المباشر من نقطة إلى أخرى ، وهنا يصبح هناك متسع للتعديل والتغيير الذاتى ، وإقحام الحب العزيزى للتناسق وكراهية الفراغات الخالية . ونحن عندما نتدبر وندرك أن هذه الميول والاتجاهات لم يجر التغلب عليها إلا بصورة طفيفة فى أحدث الخرائط التى رسمت لجزيرة العرب ، سوف لا نقسو على بطليموس لمجرد أنه ضيق الصحراء الشمالية (وهذا الخطأ جرى تصحيحه فى جيلنا نحن) ، وإزاحته لنجران إلى أقصى الجنوب .

وفيما يتعلق بالأنهار ، فقد أوضح بطليموس السكندرى مصادر خمسة منها ، كما حدد أيضًا مصبات ثلاثة من هذه الأنهار . ومن هنا حقت عليه إدانة النقاد له عندما قالوا وعارضوا بحق وجود أية أنهار فى شبه الجزيرة العربية . كان يجدر بهؤلاء النقاد أن يثنوا على بطليموس من ناحية أنه لم يحدد عدداً أكبر من الأنهار فى تلك الأرض العامرة بالوديان الكبيرة ، التى تمتلئ وتفيض فى بعض المواسم والفصول ، ومن ناحية أخرى لأنه أوضح فى كل هذه الحالات الخمس وبلا أدنى شك وجود وديان بعينها والتى تنقل مياه أكثر من أية وديان أخرى فى جزيرة العرب . وإذا كان ذلك الذى أشار إليه بطليموس السكندرى باسم باتيوس Batius هو وادى Wady حمد Hamd ، فإن القائمين على أمر قافلته كانوا على صواب عندما استخلصوا ذلك الوادى من بين الينابيع الفياضة فى حرة خيبر . (ونهر) لار Lar عند بطليموس ، ينساب مارا بنجارا

Nagara (نجران) إنما يمثل وبلا أدنى شك المياه التى تتجمع من عسير ونجران فى وادى الدواسر ، ثم تجرى بعد ذلك فى اتجاه الشمال الشرقى إلى مكان ما يزال غير مؤكد إلى يومنا هذا . ولو جعل بطليموس ذلك المجرى يمتد متجهًا مباشرة إلى الخليج الفارسى ، وقد أوضح بطريق الخطأ امتنانه لانخفاض الأرض بشكل عام ، كما كشف أيضًا عن معرفته لوادى حنيفة الكبير فى العارض ، كما كشف أيضًا عن معرفته لتلك التدفقات المائية الغامضة المتجهة شرقًا والقادمة من هضبة نجد ، والتى كانت تتجمع ، وإلى وقت قريب ، فى كل الخرائط ، على شكل نهر دائم هو نهر عفتان Aftan . واقع الأمر أن النظرية البطلمية عن وجود تصريف سطحى مستمر عبر شبه الجزيرة العربية ، يبدأ من وادى الدواسر ويتجه صوب الخليج ، هذه النظرية لم يتخلَّ عنها بعد كل الجغرافيين .

نحن نتعرف فى النوافير التى أشار إليها بطليموس السكندرى فى مدينة ستيكس Styx ، والتى لم يعزو إليها أى تسرب خارجى نحو الساحل ، نتعرف فى هذه النوافير على المياه الدائمة فى بلاد سبأ ، التى صادف فيها إيليوس Aelius جالوس Gallus نهرًا . فى هذه المنطقة أيضًا سجل كل من أرنود Arnaud وهاليفى Halevy اكتشاف مياها جارية ، تجمعت ذات يوم على شكل مستودع خلف سد مأرب العظيم ، هذه المياه الجارية يجرى حاليا تبديدها فى رمال الجنوب الشرقى . وهذا الذى أطلق عليه بطليموس السكندرى اسم برايون Prion ، ويقع على الساحل الجنوبى هو وادى حضر موت بلا أدنى شك ، وقد ورد ذكر هذا الوادى فى مؤلفات كل من هيرش Hirsch وآل بنت Bents ، على إنه مجرى دائم فى الجزء العلوى من مجراه . والجزء المنخفض من مجرى هذا الوادى ما يزال مجهولاً ؛ ولكن إذا كانت مياه هذا الوادى لا تصل إلى البحر فإن مياه المنخفض الكبير فى هذا الوادى تصل فعلاً إلى البحر . يضاف إلى ذلك أن الينابيع الموجودة عند أعالى برايون Prion قد حدد بطليموس مواقعها بدقة بالقرب من ينابيع لار Lar ، ولكنها تعد بعيدة جدًا من ناحية الشمال ومن ناحية الشرق والسبب فى ذلك هو الخطأ الذى ارتكبه بطليموس ، فيما يتعلق بخطوط الطول ، والذى ترتب عليه ترحيل نجران Nejran ناحية الصحراء الكبرى . وأخيرًا هناك أيضًا نوافير

أو ينابيع عمانوم (*) Omanum التى لا يمثلها بطليموس أو يشير إليها بأنها دائمة وتصل إلى البحر ، وهى تمثل مجرد مجموعة واحدة من مجموعات نوافير عمان كثيرة العدد التى توجد فى الجبل الأخضر ، ولكن مياهها تصل إلى الساحل من تحت مجرى الوادى : وهذا هو أيضاً حال المجارى المائية المتقطعة لكل من وادى سمايل Semail ووادى طين Tyin .

لقد قلنا وأوردنا أكثر من المطلوب لنثبت أن خارطه بطليموس السكندرى كانت تمثل فى واقع الأمر أفضل المعلومات التى تيسرت لرجال القوافل ، سواء جمعها بطليموس هو بنفسه ، أو قام البحارة بجمعها ، أم جمعها الجغرافيون القدامى يوم أن كانت القوافل تنتقل حرة عبر صحراوات وواحات شبه الجزيرة العربية ، وذلك على العكس من تقييد حركة تلك القوافل بعد ذلك طوال قرون كثيرة جداً بعد ذلك ؛ وبالرغم من عيوب خرائط بطليموس ونقائصها ، يتعين علينا التسليم بأن هذا الرجل حقق تقدماً علمياً مذهلاً على معرفة أولئك الذين سبقوه ، أو بالأحرى على المعارف التى جاء بها ذلك السلف . وإذا كانت نظرية أو طريقة بطليموس لم تشر إلى المحطات الداخلية ، أو الجبال ، أو الوديان فى أماكنها الصحيحة ، فإنها خدمت فى تحديد المواقع النسبية لهذه المحطات ، أو الجبال أو الوديان ، أو إنها ، فى أسوأ الأحوال حددت رأى بطليموس الشخصى فى تلك المواضع . ولو كان موقع هذا المواضع ، أكثر خطأ مما هى عليه ، لكنا مازلنا نجدها أكثر فائدة من حيث إنها أكثر تحديداً عندما نتعامل معها ؛ وهذا أقيم لنا ، مما لو تعاملنا مع هذه المواضع ، اعتماداً على البحث العلمى الوصفى الذى انتهجه بلنى Pliny ، على نطاق واسع داخل حدود الجزيرة العربية الشاسعة .

(*) عرفت عمان فى المراحل التاريخية المختلفة بأكثر من اسم ومن أبرز أسمائها "مجان" و"مزون" "وعمان" ؛ حيث يرتبط كل منها ببعد حضارى أو تاريخى محدد . فاسم "مجان" ارتبط بما اشتهرت به من صناعه السفن وصهر النحاس حسب لغة السومريين حيث كانت تربطهم بعمان صلات تجارية وبحرية عده . وكان السومريون يطلقون عليها فى لوحاتهم "أرض مجان" أما اسم "مزون" فانه ارتبط بوفرة الموارد المائية فى عمان فى فترات تاريخية سابقة وذلك بالقياس إلى البلدان العربية المجاورة لها . وكلمة "مزون" مشتقة من كلمة "المزن" وهى السحاب والماء الغزير المتدفق ولعل هذا يفسر قيام وازدهار الزراعة فى عمان منذ القدم وما صاحبها من حضارة أيضاً . (المترجم)

أما الجغرافيون الإغريق والرومان الذين جاءوا بعد ذلك ، والذين أمكن الحفاظ على ما قالوه عن جزيرة العرب ، فلم يتخطوا بطليموس السكندرى . ولو قدر للبحث الذى كتبه مارسيان Marcian تحت عنوان : Periplus أن يقابل بحظ أوفر ، فلربما تمكنا بفضله من وضع المزيد من التفاصيل على خريطة ذلك السكندرى . ولكن الذى تبقى لنا من تلك الأسماء لا يعدو أن يكون عشرة أسماء فقط وذلك من بين أسماء أربعة وخمسين قبيلة ، وأسماء مائة وستين بلدة وقرية ، وخمسة عشر سلسلة جبلية ، وأربعة أنهار رئيسية ، إلخ التى زعم جغرافى القرن الخامس أنه حدد مواضعها فى اليمن السعيد Arabia Felix . يضاف إلى ذلك أيضًا أن ستيفن Stephen البيزنطى ، الذى أورد أسماء عربية كثيرة ، ولم يشر إلى مواضعها إلا على نحو شديد الغموض ، لم يحدث تقدمًا فى العلم . ستيفن هذا الذى يعد أول من ألف معجمًا جغرافيًا – وهذه عملية مضنية ، تبعه فيها مسلمون كثيرون – لم يسهم فى طبوغرافية الجزيرة العربية سوى بتصحيح مدينة لاثريا Lathrippa التى وردت عند بطليموس السكندرى ، إلى شكل يجعل هذه المدينة تنطبق على يثرب yathrib – المدينة Medina التى لا تقبل الشك أو الجدل . ولكننا نعرف من ستيفن أنه كانت هناك معلومات مدونه عن شبه جزيرة العرب ، فى عصر ذلك الرجل ، وأن تلك المعلومات لم تصل إلينا وبخاصة ذلك الكتاب الذى ألفه جلاوكس Glaucus تحت عنوان "شئون الجزيرة العربية" Arabian Matters .

مؤرخو أواخر الإمبراطورية لم يضيفوا شيئًا . فى عهد بطليموس السكندرى دُفعت الإدارة الرومانية إلى مسافة بعيدة داخل شبه الجزيرة العربية . وعندما حول تراجان Trajan أرض الأنباط إلى مقاطعة من مقاطعاته ، لم يضف إليها ملحقات الحَمَد Hamad الجنوبية البعيدة ، اللهم باستثناء تلك الملحقات التى كانت على ساحل البحر الأحمر . ففى هذه الملحقات التى على البحر الأحمر ، أدت الأسباب المالية إلى الاحتفاظ بميناء على خط عرض ٢٥° ، ولم يجر التخلى عن هذا الميناء إلى أن جاء عصر جوستينيان Justinian . وبقيت بقية الجزيرة العربية خارج نطاق مجال الأسلحة الرومانية ، كما بقيت أيضًا – إلا فى أحيان نادرة جدًا – خارج نطاق مجال

الدبلوماسية الرومانية . ومع ذلك ، كانت الحكومة البيزنطية تهتم اهتماماً مباشراً بالقوى العربية فى شمال الجزيرة العربية . وهؤلاء هم شعراء الجاهلية من أبناء المنطقة يتحدثون عن علاقات مع الرومان فى بُصترة Bostra وفى دمشق ؛ كما اهتمت الإمبراطورية ، فى فترة من الفترات ، بشئون القسم الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، وذلك عندما حرضت ملك الحبشة على التدخل فى اليمن نيابة عن المسيحيين . ولكن المؤرخ بروكوبيوس Procopius أورد حقيقة مفادها أن حملة حبشية تقدمت من أرض حمير الغجيبة إلى أن وصلت إلى مكة ، وأن شبه الجزيرة جرى اجتياحها بواسطة كسرى Chosroes أنوشيروان Nushirvan ، دون أن يلقى ولو شعاع واحد من الضوء على الجاهلية الجغرافية فى ذلك العصر . بروكوبيوس ، هذا لا يقول لنا أى شىء عن الجزيرة العربية ؛ لأنه هو نفسه لم يكن يعرف عنها أى شىء ، غير أنها كانت أرض الذهب والبخور والثعابين المجنَّحة ، لم يعرف بروكوبيوس شيئًا غير ذلك الذى عرفه كل من آميانوس Ammianus وديونسيوس Dionysius و بيرجيتى Periegete وهيرودوت Herodotus . مؤرخو أحداث هذه الحضارة التى لم تهم حبًا وفضولاً إلى بيئتها ، والذين كانوا بمثابة أواخر الكتاب البيزنطيين كانوا هم أيضًا أكثر جدبًا عندما كانوا يتناولون العالم الخارجى .

فى القرن السابع الميلادى كان ورثة الحضارة الرومانية فى شرق الإمبراطورية وغربها معنيون بلا شىء سوى الجزيرة العربية وحدها ، والعجب العجاب ! وهذا نفسه لم يكن منتظرًا أو مرغوبًا ، أن جزيرة العرب ، هى نفسها بدأت تهتم وتشغل نفسها بهؤلاء الورثة أنفسهم . النتيجة الأولى التى ترتبت على هذا التغيير أسفرت عن عدم زيادة معرفتنا . وبالرغم من أن أوروبا التى أصابتها المفاجأة بدأت تعرف الكثير من الأسماء العربية ورأت وشاهدت أيضًا وجوهًا عربية ، إلا أن هذه المعرفة الجديدة كانت أكبر بكثير من أن تتعادل مع انسحاب شبه الجزيرة العربية من الوصول الأوروبى إليها بكل أشكاله . ومع طرد السواد الأعظم من المسيحين واليهود من الجزيرة العربية ، ومع ارتداد أو عزل البقية الباقية منهم فى أقصى الجنوب الغربى ، ومع دخول مصر فى الحكم الإسلامى ، انقطع الاتصال بأوروبا ، وأصبحت تجارة الجزيرة العربية كلها

فى أيدى وطنية ودام ذلك قرابة الألف عام . يضاف إلى ذلك ، أن قسمًا كبيراً من الجزيرة العربية ، ظل لفترة من الزمن ، يصعب وصول الشرقيين إليه ، وذلك على العكس مما كان عليه الحال أيام "الجاهلية" . وهنا سرعان ما انتقلت بؤرة الحضارة الإسلامية من موطن الإسلام الأصلى ، عن طريق تفعيل القانون الذى يجيز أن الساميين من أمثال الهيلنيين هم الذين يتعين عليهم تمثل الأفكار ولكن الآخرين يتوجب عليهم تحقيق هذه الأفكار وتحويلها إلى منظومات عملية .

وهكذا تُركت الجزيرة العربية حرة لتتأمل أفكارها من جديد ، وخسرت وحدتها القوية بسبب الحروب القبلية ، التى دارت حينًا فى نجد ، وحينًا أخرا فى الأحساء القرموطية ، وحينًا ثالثًا فى عمان وحينًا رابعًا فى اليمن ؛ ودخلت الأجزاء الداخلية من الجزيرة فى ظلام دامس . وعندما كان خليفة من الخلفاء الأقوياء يقوم بفتح الطريق أمام الحجاج عبر الجزيرة العربية ، سرعان ما كان يعود إلى حاله الأولى ويتوقف استعماله ، وذلك عندما يكون الخليفة الذى جاء بعده ضعيفًا أو أقل تدينًا . وتوقفت تمامًا قوافل التجارة التى كانت تنتقل بصورة منتظمة من شواطئ الخليج إلى اليمن وإلى مصر ، كما توقفت أيضًا الملاحة الإغريقية الماهرة التى كانت تعمل فى بحار الجزيرة العربية . وجرى تخريب منتجعات المفاوضين negotiatores القديمة ، الذين سبق أن أخذ بلنى معلوماته عنهم . وأصبحت الجرهاء Gerra أثرًا بعد عين ، كما أصبحت بيترا مجرد اسم فقط ، لا يعرف له مكان ، إلى أن صادف بركخاردت واديها القحل بعد اثنى عشر قرن من الزمان .

على كل حال ، أصبحت جزيرة العرب ، فى الوقت نفسه محطًا لاهتمام العالم على العكس مما كانت عليه من قبل ؛ وعندما أصبح توسعها مصحوبًا بحضارة جديدة وطلب جديد على العلم ، توجهت إليها أنظار العالم التواقة إلى معرفة المزيد عن الأرض ، وذلك بدافع من التقوى وبحكم الضرورة أيضًا . وقد أدى الاستيلاء على منابع ومستودعات العلم الإغريقى ، إلى وضع مؤلف بطليموس السكندرى ، وربما الأبحاث الجغرافية الأخرى التى ضاعت منا ، بين أيدى المسلمين . وراح الحجاج الذين كانوا

يقطعون الطرق المكية ذهاباً وإياباً قادمين إليها من سوريا ، ومن مصر ، ومن اليمن ، وبصورة غير منتظمة من شواطئ الخليج ومن العراق ، ومعهم رهط كبير من التجار ، راح كل هؤلاء ينشرون معارف شبه الجزيرة فى كل أنحاء الشرق . ونشروا أعمالاً جرى تأليفها قبل العام ١٠٠٠ الميلادى بواسطة الهمدانى (*) ، وابن حوقل ، والإصطخرى ، والمقدسى Mukaddasi ، وهذه الأعمال كلها تتناول طبوغرافية الجزيرة العربية وجغرافيتها أيضاً . وقد وصلت إلينا هذه الأعمال كلها ؛ وخلال القرون الستة التى تلت ذلك أضاف المسلمون والعرب كتباً أخرى كثيرة ، كانت فى معظمها مبنية على نظرية بطليموس السكندرى ، بل وأدخلت تفاصيل على مخططاته ، وهى مدينة فى دقتها إلى أقوال الحجاج وأقوال الرحالة . قلة قليلة من هؤلاء المؤلفين العرب هم الذين زاروا أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية ، ولكن السواد الأعظم منهم هم الذين أدوا فريضة الحج قادمين من الشمال أو الغرب ، وقد فعلوا ذلك مرة واحدة . ومن بين هؤلاء المؤلفين ، واحد يدعى ابن بطوطة ، الذى ذهب إلى اليمن فى العام ١٣٢٨ الميلادى ، بعد أن زار مكة ، كما ذهب أيضاً إلى ظفار Dofar وإلى عُمان (**) ، ويمكن اعتباره بحق أول مستكشف للجزيرة العربية ، بل إنه أول من خبر الموروث الجغرافى بعينيه ، أو عن طريق الاستفسار من الشهود الوطنيين المحليين .

لكن لما كان الهدف من دراستنا هذه هو تقدم المعرفة الغربية ، وليس تقدم المعرفة الشرقية ، فإننا سوف نأخذ المؤلفات الإسلامية بعين اعتبارنا ، فى مرحلة لاحقة ، فى تاريخ ، هو فى حقيقة الأمر تال لتأليف هذه الأعمال كلها . يضاف إلى ذلك ، أننا يجب أن نأخذ بعين اعتبارنا ، أن تلك المؤلفات أصبحت فى ذلك الوقت حججاً بالنسبة

(*) الهمدانى : هو أبو محمد الحسن بن أحمد يعقوب الهمدانى (ت ٣٣٤هـ / ٩٣٩م) وضع كتاباً بعنوان : صفة جزيرة العرب ، تولى نشره للمرة الأولى العالم النمساوى داود هنرى ملّر ، وأضاف إلى الأصل الفهارس وطبع عدة مرات فى مصر وبيروت . (المراجع)

(**) الاسم عُمان ورد فى هجرة القبائل العربية من مكان يطلق عليه عمان فى اليمن ، كما قيل إنها سميت بعمان نسبة إلى عمان بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقيل كذلك أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى عمان بن سبأ بن يفثان بن إبراهيم . (المترجم)

لجغرافية الجزيرة العربية القديمة أكثر منها حججًا على الحقيقة الواقعية . وبالرغم من أن الإدريسى ألف كتابه الذى أطلق عليه اسم "كتاب المناخات" ، والذى وصف فيه الجزيرة العربية هى وبقية العالم المعروف على أساس من نظرية بطليموس السكندرى ، فى صقلية فى القرن الثانى عشر ، إلا أنه لم يؤثر على جهل الغرب إلا بعد فترة طويلة من القرن السادس عشر . وهذا هو العُلامة 'دى هيربيلوت' D'Herbelot صاحب "المكتبة الشرقية" Bibliothèque Orientale ، وأول من عرّف الغرب ، فى العام ١٦٩٧ الميلادى على السواد الأعظم من المؤلفين المسلمين ، وامتد ذلك التعرف إلى العصر التالى لعصره ؛ هذا العلاّمة نجده يقول فى مقدمه كتابه إن عمر الدراسات العربية فى أوروبا فى ذلك الوقت كان قد بلغ قرنًا من الزمان . واقع الأمر أن أول جغرافية عربية صدرت من المطبعة المدتيشية Medicean فى العام ١٥٩٢ الميلادى . هذا الكتاب كان عبارة عن مختصر لكتاب الإدريسى ، ثم ترجم هذا الكتاب بعد ذلك إلى اللغة اللاتينية بواسطة اثنان من الموارنة ، ثم نشر بعد ذلك فى باريس ، تحت عنوان : Geographia Nubiensis . وقد طبع كتاب أبو الفدا مترجمًا أيضًا ؛ ولم تبدأ دراسة هذا الكتاب إلا فى مطلع القرن الثامن عشر بعد أن تمت طباعته ، بل إنه درس أيضًا بلغته الأصلية . أما أولئك الذين يعتمدون على الترجمة فقد انتظروا وقتًا طويلاً . وجيبون Gibbon ، عندما كان يتناول جغرافية الجزيرة العربية فى فصله الخمسين الشهير ، لم يتمكن إلا من الإشارة إلى المختصرات التى أعدت لكتاب الإدريسى وكتاب أبو الفدا ، اللذان سبق الإشارة إليهما ، وفى بقية الفصل راح جيبون يعتمد على مقطوعات قليلة من ياقوت Yakut ، ومن ابن خلدون ومن حاجى خليفة Khalfah ، الذين ورد ذكرهم عند 'دى هيربيلوت' . لم تظهر الترجمات الكاملة لمؤلفات الجغرافيين المسلمين قبل منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا . وقد صدر الكتاب الذى ألفه حاجى خليفة (*) ، وأعطاه عنوان "وصف العالم Jihán Numá" مترجمًا إلى اللغة اللاتينية فى مطلع العام ١٨١٨ ، أما كتاب

(*) لحاجى خليفة كتابًا أوسع انتشارًا بعنوان «كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون» ، ويعد حاجى من كتاب الموسوعات الأتراك (ت ١٠٥٦هـ / ١٦٥٧م) . (المراجع)

الإصطخرى وكتاب ابن بطوطة فقد بقيا بلغتهما العربية طوال سنوات كثيرة . أما كتاب ابن خلدون فقد بقى بلغته الأصلية طوال عشر سنوات ؛ كما أن جزءًا صغيراً من مؤلفات المقدسى Mukaddassi وياقوت هو الذى جرى ترجمته إلى لغة الغرب ؛ أما كتاب الهمدانى ، أقيم مؤلفى الجزيرة العربية المسلمين ، فلم يترجم بعد .

على كل حال ، ومن خلال جهود المستعربين من أمثال 'دى هربيلوت' انتهى بعض الجغرافيين المسلمين إلى تغيير وتعديل جهل الغرب الكبير بالجزيرة العربية ، وقد حدث ذلك قبل استبداء الاستكشاف العلمى لهذه الجزيرة . وهذا هو لاروك La Roque ، الذى ترجم من كتاب أبو الفدا الأجزاء الخاصة بكل من سوريا والجزيرة العربية ، يستعمل ذلك الذى ترجمه ويفيد منه ، بل ويجعله أساساً عندما كان يعد قصة الرحلة التى قام بها كل من "دى لاجريلودى Grelaudiere باربير Barbier" فى اليمن فى العام ١٧١٢ الميلادى ؛ كما يعد كل من أبو الفدا والإدريسى مسئولين إلى حد كبير عن التفاصيل التى وردت فى خارطة دانفيل D'Anville التى رسمها لجزيرة العرب ، والتى صدرت فى منتصف القرن الثامن عشر . مسألة تصحيح أو تأييد كلام هذين الجغرافيين وقعت على عاتق نيبور وفريقه فى العام ١٧٦٢ الميلادى . يضاف إلى ذلك أن ميخائيل Michaelis الكوتنجى (*) Gottingen اعتمد على أقوال هذين الجغرافيين عندما راح يحدد المسائل التى ينبغى بحثها والتحرى عنها ؛ يضاف إلى ذلك أيضًا أن نيبور كان يشير إليهما فى أحيان كثيرة ، علمًا بأن كتاب أبى الفدا كان هو مرشد نيبور الرئيسى عندما كان فى هذا البلد .

هنا يتعين علينا أن نقول شيئًا عن معرفة كل من الإدريسى وأبى الفدا . أما المصادر الإسلامية الأخرى فينبغى عدم تناولها إلا بعد رحلة نيبور – والسبب فى ذلك أن مؤلفات الكثيرين من هؤلاء المسلمين ، من أمثال الهمدانى ، والإصطخرى ، والمقّدسى – كانت غير معروفة فى عصر نيبور ؛ فى الوقت الذى كانت فيه بعض

(*) نسبة إلى مدينة جوتنجن Gottingen الألمانية . (المراجع)

المؤلفات الأخرى ، التى من قبيل "وصف Numá العالم Jihán" ، قد طبعت باللغة التركية ، هذا الكتاب لم يكن نيبور يعرف عنه شيئًا ؛ يضاف إلى ذلك أن بقية الكتب التى كانت ما تزال بمخطوطاتها الأصلية ، لم يكن نيبور يعرف منها سوى مقتطفات قصيرة جدًا .

إذا ما أخذنا الإدريسى وأبا الفدا سويًا ، يمكننا القول إنهما قدما لنا معلومات طبوغرافيه أكثر منها جغرافية ، وذلك فيما يتصل بغرب وجنوب غرب الجزيرة العربية ، وأن تلك المعلومات كانت متقدمة بكثير جدًا عما يمكن الحصول عليه من بطليموس السكندرى ولكن هذه المعلومات فى جملتها كانت بالشكل التى هى عليه متفقة مع معرفتنا الحالية . أما فيما يتعلق بالمناطق الساحلية الأخرى ، بما فى ذلك مقاطعة عُمان المهمة ، فإن إسهامهما (الإدريسى وأبو الفدا) لا يعدو أن يكون مجرد نقل للمسميات التى أتى بها بطليموس لتكون فى متناول زمانهما ؛ فى حين كانت معطياتهما فيما يتصل بالقسم الداخلى الأكبر بكثير من المناطق الساحلية ، كانت طفيفة وضئيلة . هذان الرجلان لم يعبرا مطلقًا شبه الجزيرة من أى من المسارات أو الطرق التى وصفاها وعددًا محطاتها وأبيارها ، ونحن نشك فى أن يكونا قد أطلعا على شهادات من فعلوا ذلك من قبلهم ، - بل وعلى أية شهادة من شهادات أولئك الذين ذهبوا إلى حضرموت ، أو على شهادات أولئك الذين زاروا بلاد الجنوب الصحراوية ، أو البلاد التى فى الوديان السبئية الموجودة خلف اليمن ؛ كما أنهم لم يطلعوا أيضًا على شهادات أولئك الذين زاروا أجزاء من نجد ، أو من أراضى الخليج الفارسى ، أو شمالى عمان ، أو شمالى منطقة النفود . يضاف إلى ذلك أن كلا من الإدريسى وأبى الفدا لم يصفا أيًا من الأماكن البعيدة عن طرق الحج الكبيرة ، ولكنها قريبة جدًا كما هو الحال فى كل من تيماء وخيبر ، إلا بالنذر اليسير وبطريقة مقتضبة تمامًا . والإدريسى هو وأبو الفدا عندما يتكلمان عن وسط الجزيرة العربية لا يفعلان سوى تكبير ذلك الذى نقلاه عن الإصطخرى . وهذا هو الإدريسى يتكلم عن حضرموت فى جملة واحدة ، ويتكلم عن الصحراء الجنوبية فى جملة واحدة أيضًا ، وعندما يتحدث عن نجد لا يقول سوى إنها تقع فيها واحة اليمامة الغنية بالنخيل ، الذى يروى من وادى

عفتان Aftan ، وأن العاصمة هى حضرمه Hadrama ، وأنها يوجد بها ثلاثة بلدان ؛ وأن المسافة من اليمامة إلى العارض Ardh تستغرق يومًا واحدًا ؛ وأن العارض فيها قرى ، وأن المسافة إلى البصرة وإلى البحرين وإلى عمان وإلى مكة تستغرق كيت وكيت من المسيرات . ولم يأت على ذكر ستة واحات أخرى مهمة نحن نعلم أنها موجودة فى نجد ، وأنها كانت مأهولة بالسكان منذ أزمان بعيدة .

يبدو أن أبو الفدا أستشعر الحاجة إلى مصدر أكثر استقلالاً . فنحن نراه يكرر ما قاله "هاديتسا Hadytsa ، ولد عيسو (*) Issa ، الذى عاش فى تلك الأراضى" ، وهو عبارة عن موجز مختصر لوصف العارض Ared وجبل الشمر ، ليدخل إلى معرفتنا كلاً من الأفلاج Aflaj ووادى يبرين yabrin ؛ وأبو الفدا يورد فى كتابه شيئًا عن واحة الجوف الكبيرة (التى يطلق عليها اسم دومة الجندل) ، وهو يضيف قليلاً ، بل وقليلاً جدًا على ذلك الذى قاله أولئك الذين سبقوه ، عن اليمامة وعن فيض Faid وعن الصحراء الجنوبية . ولكنه لم يقل أى شىء عن وادى الدواسر ، أو عن الحريق Harik ، أو عن الوشم ، أو عن سدير ، أو عن القصيم ، ولم يورد أبو الفدا سوى بعض التفاصيل القليلة عن سلسلة الواحات الغربية بدءًا من تبوك Tabuk وتيماء Telma إلى نجران والجوف الجنوبى . وترك أبو الفدا المنطقة المأهولة بالسكان فى الجزيرة العربية كى يقوم الأوروبيون باستكشافها .

واقع الأمر أن الأوروبيين كانوا قد بدءوا استكشاف ذلك الجزء قبل أن يعرفوا كتاب أبو الفدا . ففى مطلع العام ١٤٨٧ الميلادى بدء بطرس Peter الكويلانى Couillan ، بتكليف من الملك جون عاهل البرتغال ، يشق طريقه البرى متجهًا إلى البحر الأحمر ، وسار محاذيًا لساحله ، الأمر الذى يجعله يزور عدن ثلاث مرات ؛ [٢] فى حين قام المغامر البولينى لودفيكو Ludovico الفارثيمى Varthema ، بعد ذلك بستة عشر عامًا ، بمرافقة الحجاج السوريين إلى كل من المدينة (المنورة) ومكة ، باعتباره مملوكًا

(*) عيسو : أخو يعقوب عليه السلام . (المراجع)

متطوعًا ، كما زار اليمن أيضًا . كان هذان المستكشفان بمثابة مبشرين بغزو أكثر جدية واهتمامًا . ففي العام ١٥٠٨ الميلادى جلب الطريق البحرى الجديد حول رأس الرجاء الصالح ، السفن البرتغالية إلى شواطئ الجزيرة العربية ، بعد أن تزودت تلك السفن بالخرائط التى رسمها المسلمون (٤) . وقد نزل أفونسو Alfonso دالبوكيرك D'Alboquerque وهو فى طريقة إلى هرموز Ormuz ، على ساحل عُمان ، ووضع حاميات فى ستة موانئ ، وبقيت تلك الحاميات فى مواقعها إلى العام ١٦٥٠ الميلادى (*) ؛ وسرعان ما شوهد أفونسو بعد ذلك فى البحر الأحمر أيضًا ، وهو يفكر متأملاً فى الاستيلاء على مكة (**) حبًا فى رضى الله ورضى الملك المسيحى قلبًا وقالبًا . ولكن العقبة التى واجهت البرتغاليين قبل جدة فى العام ١٥١٤ الميلادى هى التى حتمت على البرتغاليين التخلى تمامًا عن فكرة تثبيت أنفسهم على ساحل البحر الأحمر من ناحية الجزيرة العربية ؛ واعتبارًا من ذلك الوقت فصاعدًا اكتفى البرتغاليون باحتلال عدن أو جزرها بين الحين والآخر (حدث ذلك الاحتلال فى العام ١٥١٦ الميلادى ، كما حدث أيضًا بعد العام ١٥٥٠ الميلادى) ، كما كانوا يقومون أيضًا برحلات استكشافيه إلى السويس . وقد استبدأ لوبيز Lopez سواريز (***) Suares تلك الرحلات فى العام ١٥١٦ الميلادى ، سعيًا وراء التجارة وسعيًا أيضًا إلى اكتشاف طريق برى . ونحن لدينا خط السير الخاص برحلة من الرحلات ، وقد جرى جمع خط السير هذا فى العام ١٥٤١ بواسطة جون John دى كاسترو Castro ، وبواسطة ستيفن Stephen دى جاما Gama ؛ الذى كان قبطانًا لحاكم جزيرة جوا (****) Goa ، ولكن خط السير هذا شأنه

(*) هذا العام يحدد نجاح دولة اليعارية فى إقصاء النفوذ البرتغالى من عمان بسقوط قلعة البرتغاليين الحصينة فى مسقط . (المراجع)

(**) اتسم البرتغاليون بالتعصب الدينى الشديد ضد المسلمين ، وكانت لديهم العديد من المشروعات بالتحالف مع دولة الحبشة المسيحية بالنفاذ إلى البحر الأحمر والوصول إلى مكة والمدينة للعبث بالمقدسات الإسلامية . (المراجع)

(***) لوبيز سواريز : خلف دالبوكرك فى منصب نائب الملك فى الهند بعد وفاته فى جوا فى فبراير ١٥١٥ . (المراجع)

(****) جوا : كانت جوا منذ عام ١٥١٠ هى المركز الرئيسى للمتلكات البرتغالية فى آسيا . (المراجع)

خطوط السير الأخرى ، لا يحصى سوى عدد المراسى والمسافات التى كانت تقطع كل يوم وعلى نحو أسوأ بكثير وأنقص بكثير عن خط سير رحلة البريبولس Periplus القديمة والهزيلة (٥) .

وبالرغم من بقاء البرتغاليين فى عُمان مدة قرن ونصف القرن ، إلا أن مدونى أحداثهم التاريخية لم يفعلوا شيئًا للتخفيف من جهل أوروبا بتلك البلاد . وليس من بين هؤلاء المدونين من يقول لنا شيئًا مثيلاً لذلك الذى قاله الغازى الأول ، الذى قدم لنا شهادة سماع عن الغير عندما كانوا يتحدثون عن الداخل ، وذلك بعد أن انتهى من تقديم تعليقاته ومعها شيء من الوصف المختصر جدًا . قال ذلك الغازى : إن البدو Badens شبة العراة يعيشون فى الداخل (وهو هنا يتفق مع فارثيما الذى أتى على ذكر البدو Bedawins لأول مرة) ، وأن هؤلاء البدو يحكمهم ملك ، هو بن جبر Benjabar ، الذى تشتمل ممتلكاته على الجزيرة العربية كلها إلى حدود "زيك" Xeque أى عدن Aden . كان "دالبوكيرك" قد أساء فهم المعلومات الصحيحة . والسبب فى ذلك أن بنى Beni جبر (*) Jabar اسم القبيلة ما تزال موجودة ومقسمة إلى قسمين ، أحدهما يقيم متجولاً فى جنوب عمان ، والقسم الثانى فى شرقى اليمن (٦) .

ونحن يتعين علينا أن نتوجه باللوم إلى ملوك البرتغال وإلى مستشاريهم وممثليهم بدلاً من المدونين لأحداث التاريخ . والسبب فى ذلك أن احتلال عُمان جاء بمثابة أبأس العمليات الإمبريالية البرتغالية وأتعسها . والعمل الذى قام به دالبوكيرك لم يقم أحد بمتابعته متابعة حثيثة وجادة . فقد أحتفظ البرتغاليون بالساحل والشواطئ طمعًا فى الجمارك ومناسبة ذلك لقوافل السفن المتجهة إلى كل من هرموز Ormuz والهند ؛ ولكننا إذا ما استثنينا أربعة موانئ هى : صحار ، ومطرح Mara ، ومسقط ، وقريات Kiryat ،

(*) كان بنو حبر يشكلون أقوى التنظيمات السياسية فى الخليج العربى ، وظهر من بينهم سلاطين عظام من أشهرهم مقرن بن زامل التي بلغت سلطة الحيور على عهده أقصى اتساع لها فى الأحساء والقطيف والبحرين وعمان ونجد ، بل إنه كان يفرض الزكاة على بعض حكام العجم المجاورين له ، وقد أدى الصراع بينه وبين ملوك هرموز إلى نجاح البرتغاليين الذين تحالفوا مع هرموز إلى القضاء على مقاومته وإعدامه فى عام ١٥٢١ . (المراجع)

نجد أن بقية الساحل بكامله كانت فى أيدى شيوخ عملاء ولا يحكمون . وبالتالى لم يبذل أى جهد فى اتجاه استكشاف الداخل أو التحكم فيه . فى الداخل ، كان سلاطين (*) الرستاق هم أصحاب اليد العليا، والذين كانوا يجبرون الكفرة (**) على حبس أنفسهم داخل قلاعهم وأن يدفعوا لهم الجزية . ويمكن لمن يريد قراءة جزء من هذا التاريخ البائس التعيس من وجهه النظر المسيحية أن يطلع عليه فى كتاب مافى Maffei المعنون "التاريخ الأسود Historiae Indicae" ، ويمكن قراءة أجزاء من هذا التاريخ من وجهه النظر الإسلامية فى المؤلفات العربية ، التى يعد أقيمها ذلك الكتاب الذى ترجم ونشر ضمن سلسلة هاكلويت Hakluyt تحت عنوان "أئمة وسادة عُمان (***) Imams and Seyyids of Oman" ولكن أبهر الأضواء التى ألقيت على فصل حزين وبائس من التاريخ الأوروبى فى الجزيرة العربية يمكن رد الفضل فيه إلى بعض الخطابات التى جرى تحريرها من هرموز فى منتصف القرن السادس عشر ، بواسطة جسبارس Gasparis ، ذلك البلجيكى اليسوعى ، الذى كان يتوقد حماساً للتبشير بالمسيحية فى تلك المستوطنة "الفقيرة والمعزولة" من مستوطنات العالم المسيحى (٧) . نزل هذا الجسبارس البلجيكى على أرض مسقط فى العام ١٥٤٩ الميلادى ، واكتشف أن المستوطنة البرتغالية ليس لها قس Priest . ووجد أن المدينة تحولت إلى ملاذ للعرب الهاربين من العدالة والعرب الخارجين على القانون بكل مشاربهم ، وأن البرتغاليين كانوا يعملون لحساب كل هؤلاء الهاربين والخارجين على القانون فى فلاحة الأرض وزراعتها ، بعد أن ارتد أولئك البرتغاليون عن دينهم ودخلوا فى الإسلام طوال عشر سنوات ، بعد أن فقدوا كل أمالهم فى الخلاص . راح جسبارس Gasparis الطيب يعظ هؤلاء البرتغاليين فى

(*) أخطأ هوجارث فى ما أشار إليه عن سلاطين الرستاق والصحيح أئمة الرستاق ؛ إذ كانت الرستاق هى مركز الإمامة الإباضية . (المراجع)

(**) الكفرة : المقصود بهم البرتغاليين . (المراجع)

(***) ينسب هذا الكتاب إلى المؤرخ العمانى حميد بن محمد بن رزيق (ت ١٢٧٤) وعنوانه «الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين» . وقام القس برس بادجر فى عام ١٨٧١ بترجمته إلى اللغة الإنجليزية بالعنوان الذى ورد فى المتن . (المراجع)

ملاجئهم التى صنعوها من أخشاب النخيل ، وراح يحثهم على الرجوع إلى دينهم ؛ ولكن نظراً لأن جسبارس كان فى طريقه إلى هرموز فإن مسألة بقائه معهم كانت تدور من حولها الشكوك . عندما وصل جسبارس إلى مسقط ، تسلم التماساً من حاكم مسقط ، يبلغه فيها أن اثنين من المواطنين قطعا مسافة طويلة طلباً للتعميد ، وأن المدينة كلها ميالة إلى الإيمان بل وعلى استعداد للموت فى سبيله . ولكن جسبارس لم يكن بوسعه التخلى عن كليته فى هرموز ، والتى نقل منها ليتولى منصب الكاهن فى جوا Goa ؛ ونحن نبحث دون جدوى فى السجلات اليسوعية المنشورة عن دليل يفيد أن جسبارس عثر على البديل ، أو عن وقوف موجة الارتداد عن الدين والدخول فى الإسلام ، فى عمان . فى الربع الثانى من القرن السابع عشر كان كل شىء قد عاد إلى السلطان ناصر (*) Násir اللهم باستثناء مسقط ؛ بل أن مسقط نفسها استسلمت لمن تولى بعد السلطان ناصر ، وكان ذلك بسبب شهوات وحماقة أمرها المسيحى .

ذلك القليل الذى أضافة الملاحون البرتغاليون ، وكذلك الهولنديون، والبريطانيون ، والفرنسيون الذين سرعان ما تبعوا البرتغاليين فى البحر الأحمر ، وأقاموا علاقات مع الأماكن التى عجز الرواد عن تحقيق ذلك فيها ، ذلك القليل أضاف شيئاً إلى المعلومات التى جاء بها بطليموس السكندرى عن الجزيرة العربية ، كما أن المعلومات التى قدمها الجغرافيون المسلمون يمكن تقييمها باستعمال اللوحة الأولى لخريطة آسيا التى رسمها دانفيل D'Anville ، والتى صدرت فى طبعه منقحه فى العام ١٧٥٥ الميلادى . وعشية

(*) يمثل تولى الإمام ناصر بن مرشد إماماً على عمان فى العام ١٦٢٤ الميلادى بداية دولة اليعاربة . وقد تمكن الإمام ناصر بن مرشد من خلال توحيد البلاد تحت قيادته للمرة الأولى منذ سنوات عديدة ، وعبر تجهيز أسطول بحرى قوى ، تمكن من تقليص نفوذ البرتغاليين وتحرير بعض المدن الساحلية منهم ، وقد واصل الإمام سيف بن سلطان المعروف "بقيد الأرض" هذه المهمة الجليلة فى مطاردة البرتغاليين خاصة وأنه توفرت له الكثير من عناصر القوة المادية والعسكرية حتى تمكن من تحرير مسقط فى العام ١٦٥٠ الميلادى وهو ما كان إيذاناً بأفول نجم البرتغاليين فى منطقة الخليج ككل . جدير بالذكر أن القوات العمانيه طاردت البرتغاليين إلى سواحل الهند وشرق إفريقيا (المترجم)

وصول نيبور إلى الجزيرة العربية يحق لنا التوقف لنتكلم عن المعلومات التى جاء بها أعظم جرافيى القرن الثامن عشر .

ونحن عندما نقارن الخريطة التى رسمها دانفل بأدق الخرائط التى صدرت باعتبارها اللوحة رقم ستين فى الأطلس الذى أصدره ستايلر Stieler (فى العام ١٩٠٢) ، ونجد أن خارطة دانفل تحدد موقع شبه الجزيرة العربية ، بصفة عامة ، بين خطى العرض ١٢° و٣٠° ، ولكنها لا تضعها بدقة بين خطوط الطول الصحيحة ، طبقًا لما ورد عند فيرول Ferrol . والسبب فى ذلك أن رأس الحاد Had الكاب Cape تقع على بعد مالا يقل عن درجة ناحية الشرق بعيداً عن المسقط الذى استعمله دانفل . كما أن كلاً من البحر الأحمر والخليج الفارسى جرى تمثيلهما على أنهما يشكلان مساحة صغيرة جداً . فالبحر الأحمر ضيق للغاية ، والخليج الجنوبى من الخليج الفارسى لم يمثل فى حدود درجة واحدة من تجويفه الداخلى الحقيقى . يضاف إلى ذلك أن تفاصيل الخط الساحلى مقتضبة جداً وغير دقيقة . وهنا يجب أن أشير إلى قلة قليلة من الأخطاء المهمة : رأس خليج العقبة الشهيرة بالشوكة ، اتجاه الساحل ناحية الجنوب ، والخليج العميق الذى يظهر على أنه يقع جنوب جده ، عدم إبراز رأس Cape المطرقة Matraka ، الحذف الكامل لقطر ، وإقحام مصب عميق أمام جزر البحرين ، حذف خليج الكويت ، – كل هذه الخصائص توضح مدى الجهد الفائق الذى كان يتعين على باحثى وزارة البحرية البريطانية ، أن يبذلوه فى تصحيح تلك الخصائص الخيالية فى القرن التالى . ونحن عندما ننظر إلى داخل الجزيرة العربية نجد أن القرى الرئيسية التى فى شمالى الجوف تقع على بعد درجة فى اتجاه الجنوب ، كما نجد أيضًا أن منطقة تلك القرى ممتدة امتداداً كبيراً وغامضًا صوب الجنوب أيضًا . كما أن وقوع صحراء النفود بين كل من الجوف وجبل شمر لم يتحقق ، كما أن جبل شمر هو وفيض Faid ليسا فى مكانهما ، الأمر الذى أدى إلى إزاحة تيماء عن مكانها ، يضاف إلى ذلك أن العلاقة بين خيبر والمدينة المنورة ليست صحيحة مطلقًا . كما أن نجد ليس فيها من التفاصيل الحقيقية أى شىء . وإذا كان دانفل قد ترك الصحراء الجنوبية خاليه لا شىء فيها ، فقد جاء تمثيله لحضرموت مخطئًا تمامًا . إذ ليست

هناك أية علامــة أو إشــارة إلى وادى حضرمـوت العظيم ؛ يضـاف إلى ذلك أن تريم Terim تقع على الجانب الخطأ من شيبـام Shibam ، كما أن هاتين المدينتين : تريم وشيبام موضوعتان على بعد مئات الأميال ناحية الغرب بعيداً عن مكانيهما الحقيقيين . زد على ذلك أن عُمان فيها أشكال مختلفة من الأنهار والبلدان التى لا نستطيع التعرف عليها فى أيامنا هذه ، وقد لاحظنا أيضًا أن أراضى الخليج الساحلية فى المنطقة الواقعة خلف رأس مسندم Musandam مرسومة على شكل مخططات تقريبية فقط . خلاصة القول : إن هذه الخريطة لا تعطينا معلومات مؤكدة اللهم باستثناء قلة قليلة من النقاط فى اتجاه الغرب ، والجنوب ، والسواحل الجنوبية الشرقية وكذلك الأراضى الداخلية القريبة منها ؛ كل ذلك يوضح أن ما أورده دانفيل عن الداخل كان من قبيل التخمين والظن . والنقطة الوحيدة التى وضعها دانفيل وحددها بدقة هى بلدة عنيزة (*) Anizeh (Aneiza) . يزداد على ذلك أن كل اسم من الأسماء الأخرى المعروفة أو كل معلم من المعالم المعروفة أيضًا يختلف عن موقعه الحقيقى بدرجة واحدة على الأقل . ومع ذلك بقيت خريطة دانفيل الذى رسمها للجزيرة العربية بمثابة أفضل الخرائط طوال فترة زمنية تزيد على نصف قرن من الزمان . وبقيت هذه الخريطة شاهداً على جغرافى كان يعرف ويقر أنه لا يعرف الكثير ، ولم يبذل أى جهد لإخفاء جهله ، ذلك الجهل الذى كان على قدر مستوى العلم فى ذلك الزمان .

(*) عنيزة : من البلدان المهمة فى إقليم القصيم وأمراؤها ينتسبون إلى قبيلة السليمى التى هى بطن من قبيلة السبيع . (المراجع)

هوامش الفصل الأول

(١) عند بلنى pliny نجد أنه يساوى بين مارابيا السبئية ومارابيا التى أتى جالوس على ذكرها .

(٢) مجلة تاريخ الجغرافيا القديمة ، العدد ٢ ص ٦١٠ .

(٣) هذا الرجل يقال له أيضا بيرو Pero الكويلهى Couilha . راجع كتاب جلفانو المعنون . "اكتشافات" ص ٧٧ .

(٤) منها على سبيل المثال الخارطه التى رسمها "القبطان عمر" ، والتى استخدمها دالبوكيرك .

(٥) راجع خط سير الرحلة الذى أعده سليمان غازى ، وأورده واحد من الربابنة البنادقه فى الأسطول (فى العام ١٥٥٨) ، وراجع أيضًا خط سير الرحلة الذى أعده لا La دى مارول Marol ، والذى يشتمل على وصف لمدينة جده .

(٦) عندما كان ستيرن Stern فى صنعاء فى العام ١٨٩٦ ، كانت تلك القبيلة تقيم فى الممرات الغربية .

(٧) راجع كتاب Epistolae Indicae ، ص ٢٧ ، ٩٥ ، ١١٠ ، ١٢٤ وما بعدها .

مراجع الفصل الأول

BIBLIOGRAPHY

A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens (Bern, 1875).

A. Zehme, Arabien und die Araber seit loo Jahren (Halle, 1875).

H. Berger, Geschichte der wiss. Erdkunde der Griechen (2 d ed., Leipzig,1903).

E. H. Bunbury, Hist. of Anc. Geography (2d ed., London, 1883), and his classical authorities on Arabia, from Herodotus to Marcian and Procopius.

H. F. Tozer, Hist. of Anc. Geography (Cambridge, 1897). I have not found Foster's Anc. Geography of Arabia of much use.

The translated Moslem authorities are these : Mu?addassi, by G.Le- Strange, in Pal. Pilg. Text Soc., iii. (London, 1886); Istakhri, by H.O Mordtmann (Hamburg, 1845); Idrisi, by P.A Jaubert (Paris 1836); Abu-l-Fidá, by M. Reinaud (Paris, 1848); Ibn Batutah, by C. Defreney and B. R. Sanguinetti (Paris, 1853 - 1859) ; Ibn Khaldun, by H.C. Kay (London, 1892); Jihán Numá, by C. Norderg (Gotha, 1818).

My Portuguese authorities are : Afonso d' Alboquerque, Commentaries (Hakluyt ser., London, 1875 1884); Lafitau, Conquêtes des Portugais (Paris, 1733); Galvano, Discoveries (Hakluyt Ser., London, 1862). Cf. Imams and Seyyids of Oman (Hakluyt Ser., London, 1871); Historic Indica, by P. Maffei (Cologne, 1589); Epistola Indica, etc., by various Jesuits (Louvain, 1566).

The Red Sea itineraries are given by A. Matthaeus in Veteris Aevi Analecta (Hague, 1738).

Abdûl- Kerym, Voyage de l'Indeà la Mekke, tr. By L. Langlès (Cllon. Portative des Voyages, vol. i., Paris, 1797).

الفصل الثانى

نيبور فى اليمن

تقرر فى أوروبا فى حوالى العام ١٧٥٩ الميلادى إرسال جماعة علمية من الرواد إلى الجزيرة العربيـة . ويبـدو أن أول اقتراح بهـذا الشـأن جـاء من العلاَّمة هيبرست Hebraist ميخائيلس Michaelis الكوتنجى، الذى أعرب للكونت بيرنستورف Bernstorff ، الذى كـان وزيرا لفـردريك الخـامس ملك الدانمارك ، عن رغبـتـه الشـديدة فى اتخـاذ الخطوات اللازمـة للبت فى المسـائل الإنجيليـة والمسائل الجـغرافيـة الخاصة بالجزيرة العربية . ولو قدر لعاهل هانوفر، الذى كان ميـخائيلس يرتبط به ارتباطًا رسميًا ، هو ورئيس وزرائه ، أن يكونا رجلين من مشربين مختلفين ، لقدم ذلك العرض قبل ذلك إلى بريطانيا العظمى . وقـبل البلاط الدانمركى ذلك العرض بتـرحـاب . بل إن الملك نفسه أعـرب عن اهتـمـامـه بتـحـقيق ذلك المشـروع ، بأن أصـدر أمـرًا واضـحًـا ومـحـددًا للمستكشفين ، وجرى نشر هذا الأمر فيما بعد مع قائمة الأسئلة والمشكلات المطروحة من قبل ميـخائيلس . وجرى تخصيص سفينة حربية ، ومعها خمسة أفراد كل منهم خبير فى علم من العلوم ، وأوفد الجميع إلى الليفانت (*) فى أليوم السـابع من شـهر يناير من العام ١٧٦١ الميلادى . كان بطرس فورسكول Peter Forskall ، سويدى المولد وتلميذا من تلاميذ ليناوس Linnaeus العظيم ، ويعمل بالطب ولديه معرفة خاصة بعلم النبـات ؛ وكـان كـريسـتـيـان Christian شـارلز Charles كـرامـر Cramer جـراحـا ومتخصصا فى علم الحيوان ؛ أمـا فردريك Frederick كريستيان Christian فون Von

(*) الليفانت : البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط (المترجم)

هافن Haven ، فقد كان فقيهًا فى اللغة وباحثًا مستشرقًا ؛ أما جورج George وليام باورنفيند Baurenfiend ، فقد كان فنانًا ؛ وأخيرا كان كارستن Carsten نيبور Nie-buhr ، ضابطًا مهندسًا ، وفقيهًا فى الرياضيات ، ومسَّاحًا تطبيقيًا . وكان معهم خادم يدعى برجرن Berggren ، كان جنديًا سابقًا فى سلاح الخيَّالة .

وطبقًا للأمر الملكى لم يكن هناك أى تقديم أو تأخير بين هؤلاء المستكشفين ، ولم يكن بينهم أى نوع كان من الأقدمية أو الأفضلية . ولو كانت هناك أية أفضلية فقد كانت ، حسب أمر الملك ، لكل من فورسكول وفون Von هافن Haven ، من منطلق ضلوعهما وخبرتهما فى اللغة العربية . كان يتعين على كل واحد منهم أن يساعدوا بعضهم بعضا ، ولكن يتعين أن يكون لكل واحد منهم عمله الخاص ، على أن يقوم بإعداد تقرير عن عمله يسلمه عند عودته . وقدر لشخص واحد من هذه الجماعة أن يعود . فقد توفى اثنان من هذه الجماعة فى اليمن ، ومات واحد آخر (هو والخادم السويدى) فى البحر أثناء الرحلة البحرية إلى الهند ، ومات آخر بعد الوصول إلى الهند ؛ لم يمت أحد من أولئك الذين وافتهم المنية بسبب العنف وإنما ماتوا جميعا بسبب تسمم هواء اليمن . وكان نيبور هو الشخص الوحيد الذى عاد بتقريره إلى الدانمارك ومعه تلك الملاحظات الناقصة التى تركها رفاقه فى الرحلة . وإذا كان نيبور قد ساهم فى شهرة أناس آخرين ، فقد كسب لنفسه هو أيضا شهرة واسعة . وما لم يكن نيبور هو أذكى أفراد الجماعة ، ولو كان أحد من رفاقه قد تفوق عليه من حيث الطاقة ، والشجاعة ، أو التحمل ، أو الذكاء ، أو فى هذا المزاج العلمى الخالى من الكبرياء والإساءة ومن التراخى ، لما أرسلت مهمة بارزة مثل هذه المهمة إلى أى بلد من البلاد .

كان الهدف المباشر التى تحدد لتلك الجماعة هو اليمن . وكان ذلك الهدف أمرًا محتومًا وضروريًا . ففى نظر الغرب كان ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، يمثل الجزيرة كلها ؛ فقد جرّت خصوبة اليمن على شبه الجزيرة كلها كنيه "السعيد" [١] ؛ وكان ذلك معروفا للجميع . وإذا كانت اليمن هى آخر أراضى الجزيرة العربية التى خسرت

المسيحية ، فقد كانت هى أول من جدَّد العلاقات الودية مع المسيحيين الأوروبيين ؛ وفيما يتعلق باليمن ما تزال هناك معلومات باقية حول هذا الموضوع أكثر من أى مكان آخر . وقد كان للكتاب الذى ألفه لودوفيكو Ludovico دى di فارثيما Varthema ، صدى كبيراً ؛ ومعروف أن فارثيما هذا وصل اليمن قبل عصر نيبور بحوالى مائتين وستين عاما . كتاب لودوفيكو فارثيما نشر باللغة الإيطالية فى العام ١٥١٠ الميلادى ، ثم جرت ترجمته على الفور إلى اللغة اللاتينية التى يستعملها الرهبان ، ثم جرت ترجمته بعد ذلك قبل العام ١٥٢٠ الميلادى إلى اللغة الألمانية ، والأسبانية ، ثم بعد ذلك إلى الفرنسية والهولندية ، ثم إلى الإنجليزية قبل نهاية القرن السادس عشر. ونظرا لأن هذا الكتاب جرى دمجه ضمن مختلف كتب الأسفار والترحال ، فقد أصبح معروفًا حق المعرفة من نيبور، الذى يبدو أنه كان يستفيد منه تمام الاستفادة .

وصل فارثيما إلى اليمن فى وقت لم يكن البرتغاليون أو الأتراك قد وطئت أقدامهم أرض هذه البلاد [٢] ، يوم أن كان السلاطين الوطنيون يحكمون تلك البلاد بلا اضطراب أو إزعاج . وقد سار فارثيما من ساحل جدة عن طريق كمران Kamaran وجيزان Jezan إلى أن وصل إلى عدن ، التى كانت فى ذلك الوقت ، وبشكل من الأشكال ، عاصمة للبلاد كلها ، وكان بها خمسة آلاف عائلة وخمسة قلاع ، تركت انطباعا لدى هذا المستكشف البولينى بأنها أكبر المدن التى شاهدها فى حياته كلها . وبعد أن قيدوا قدميه هناك ، بعد أن اعتبروه جاسوسا ، فقد جرى إطلاق سراحه عقب مغامرة عجيبة ، وعندما لم يجد سفينة جاهزة للإقلاع ، سار فى الطريق الشمالى ، ومر خلال لحج (Lahej (Lagi إلى أن وصل المقرنة (El Makrana (Macarana ثم يريم (yerim (Reame ، ثم وصل فى النهاية إلى صنعاء . كان فارثيما مشحونًا ذهنيًا "لمتابعة وتحقيق رغبته فى رؤية الأشياء الجديدة" ، كما كان حريصًا أيضًا على تمضية الوقت بعيداً عن عدن المحفوفة بالمخاطر . لم يستوقفه أو يعترضه أحد من الناس ، ودار دورة حول تعز Tais، وزبيد Zebid ، وذمار ، قبل أن يعود ليستقل السفينة عائدا إلى بلاده .

لم يكن فارثيما جغرافيًا بطبيعة الحال ، وإنما كان معنيًا أكثر بمغامراته الشخصية أكثر من اهتمامه بوصف المسارح التى دارت عليها هذه المغامرات . ولكنه تغاضى عن كثير من الملاحظات المهمة هنا وهناك ، وهذه الملاحظات هى التى ساعدت على تعزيز الجغرافيين المسلمين وجعلت المهتمين بالأمر يعتمدون على أولئك الجغرافيين المسلمين بصورة أكبر . من ذلك ، على سبيل المثال أن فارثيما أورد ملاحظة عن وجود المذاهب الشيعية والنشاط الشيعى فى جنوب اليمن وبين العنصر الأسود (أى العنصر الحبشى) من السكان . وظن فارثيما أن موقع صنعاء المرتفع يعد أمرًا يستحق الانتباه إليه وملاحظته ، كما أورد الرجل أيضًا ملاحظات عن البساتين والنوافير الجميلة فى كل أنحاء اليمن الجنوبى ، كما لاحظ فارثيما أيضا قوة وعظمة المقرنة ، وكذلك تجارة التوابل فى مدينة زبيد . وفارثيما عندما حدد لصنعاء ما لا يزيد على أربعة آلاف مدفنة كان أكثر دقة من الحواسب الآلية . يضاف إلى ذلك أن وفرة الكروم ، وزيادة أعداد القردة [٢] ، وكذلك الأعداد الكبيرة من الأغنام سمينة الأذيال ، والبشر شبه العارين ، كل ذلك أصبح حقائق معروفة ومألوفة فى الوقت الحاضر ؛ يضاف إلى ذلك أن "المعبد" Temple الذى رآه فارثيما فى "تعز" Taesa ، وشبهه بمعبد القديس ماريا روتندا فى روما ، أمكن التحقق من أنه هو المسجد الكبير الذى بناه إسماعيل مولك Ismail Mulk . سجل فارثيما يعد سجلاً شحيحًا جداً . وكنا ننتظر منه ، أن يعطينا معلومات كثيرة عن البنايات الكبيرة فى صنعاء . ولكن فى ضوء ما حدث ، ثبت أن خصوبة اليمن لم تكن أسطورة أو خرافة ، وأنه كانت هناك حضارة عالية نسبيًا ، آخذة فى الازدهار فى بلاد التوابل .

بعد ذلك بخمس سنوات انقشعت أشرعة المراكب البرتغالية من الساحل ، وخلال جيل واحد بعد ذلك انقشعت أيضا أشرعة السفن التركية . وهنا وصل استقلال اليمن الآمن إلى أبعد مدى له . ومع ذلك ، قدر للأوروبيين ، طوال أكثر من قرن من الزمان ، أن يكون تأثيرهم فى اليمن عن طريق المدافع والسلاح أقل منه عن اكتشافهم للبن ، الذى يقال إن العرب لم يقدروا طعم ذلك البن إلا بعد الأوروبيين . هذه القرون المحملة بحبوب البن ، والتى ورد ذكرها لأول مرة على لسان واحد من الكتاب الأوروبيين ،

زاد الطلب عليها بسرعة لتفضيل الناس لها ، إلى حد أن التجارة مع اليمن أصبحت أمرا مرغوبا فيه مثل التجارة مع الهند ؛ وظهر منافس جديد لليمن تحت اسم شركة الهند الشرقية البريطانية ، التي أوفدت القبطان شاربى Sharpey فى السفينة "إسينشون" Ascension إلى البحر الأحمر فى العام ١٦٠٩ الميلادى . لم يفعل شاربى أى شيء سوى إزعاج الأتراك ، الذين كانوا أصحاب قوة وكلمة فى اليمن ، ويخافون على احتكارهم لتجارة جدة ؛ يضاف إلى ذلك أن هنرى مديلتون Middleton ، الذى جاء بعد شاربى ، قاد السفن الثلاثة التى كانت تشكل الحملة السادسة لشركة الهند الشرقية ، ولكنه هو الذى تلقى العقاب . وعندما وصل هنرى مديلتون إلى عدن والمخا فى أواخر العام التالى أمسك به الحاكم التركى لمدينة المخا ، وأبلغه بأن الأمر الإمبراطورى يقضى "بأسر كل المسيحيين الذين يجيئون إلى هذه البحار ." فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ديسمبر أوفد هنرى مديلتون ومعه أربعة وثلاثين رجلاً إنجليزياً إلى مدينة صنعاء ، التى يطلق عليها هو اسم زينان [٤] Zenan . هرب أحد الضباط واسمه بمبرتون Pemberton ، وشعر صبى بالحنين إلى الإسلام وارتد عن دينه؛ ولكن البقية جرى نقلها إلى محطة الوصول خلال خمسة عشر يوما ، وتحملوا فى ذلك قدرا كبيرا من البرد طوال الطريق . وفى صنعاء انضم إليهم جزء من طاقم السفينة التى تركت فى عدن . يقول هنرى مديلتون إنه لم يكن يمسك بياناً تفصيلياً لخط سير الرحلة ، ولكنه يتذكر أن صنعاء ، بوصفها مدينة "تعد أكبر من مدينة بريستول إلى حد ما ، وبناياتها مبنية من الحجر والملاط" . كانت حدائق المدينة فى الناحية الغربية ، أما القلعة فكانت على الجانب الشرقى من المدينة ، أما الوادى الذى كانت تسده تلال اليمن فقد بدا له قاحلاً وصخرياً . وبعد أن أمكن التغلب على الباشا باستعمال الرشوة والنفوذ ، سمح للإنجليز ، بعد احتجاز دام حوالى ستة أسابيع ، بالمضى قدما ، وعادوا إلى ذمار Damar (*) ، "تلك المدينة المبنية من الحجر أو الحجر

(*) ذمار : وتعرف أيضاً بالجواد إذ كانت تربى فيها أجود الخيول اليمنية من سلالة الخيول العربية الأصيلة وتقع ذمار إلى الجنوب من صنعاء . (المراجع)

الجيرى ، ولكنها مقسمة إلى خمسة أجزاء منفصلة ، شأنها فى ذلك شأن بقية القرى المتميزة . مدينة ذمار تقع فى سهل فسيح واسع ، عامر بالماء وينتج كمية وفيرة من الحبوب" . ومن ذمار ، انتقلت الجماعة إلى تعز ، ثم عادت بعد ذلك إلى المخا بعد أربعة أيام . ولكن فى المخا جرى احتجاز ثلاثين رجلاً مدة تزيد على شهر من الزمن ، إلى أن تمكن مديلتون من الهرب داخل برميل خشبى فارغ من براميل الخمور ؛ وعاد الرجل إلى سفنه ، وبعد إنقاذ بقية الجماعة ، لقن مديلتون الحاكم هو وأعوانه درساً لم ينسه مطلقاً على شواطئ اليمن . ويتطرق هنرى مديلتون إلى ذكر بيوت "القهوة" Coughe (المقاهى) ، ولكنه لم يورد أى شىء عن إنتاج البن أو تجارة البن .

كانت حقيقة المغامرة التى أقبل عليها هنرى مديلتون معروفة لنيبور؛ (٥) ولكن خبرة الإنجليزى كانت بلا شك بلا فائدة عند من جاء بعده ، إذ لم يكن ينظر إلى هذه الخبرة إلا من منطلق أنها كانت مجرد قصة جرى نشرها منذ قرن من الزمان ، عندما حصل اليمن على استقلاله (*) مرة أخرى ، وكان ما يزال يحتفظ بذلك الاستقلال عندما تشكل ذلك المشروع الدانمركى . فى ذلك المكان سجلت قصة الحملة التى قامت بها مجموعة طيبه من تجار سينت . St مالو Malo ، وكانوا يريدون الاستفادة من تجارة البن . كانت سفن هؤلاء التجار قد جرى استقبالها قبل عامين استقبالاً طيباً ؛ وعندما عادت تلك السفن إلى سينت مالو ،جرى من جديد إعادة تزويد واحدة منها لتقوم برحلة ثانية إلى اليمن ، وجرى تزويد تلك السفينة بمرافقين جدد وجراحين جدد أيضا . وعادت السفينة مرة أخرى للمخا ، بعد رحلة بحرية استغرقت عاما كاملاً ، وهنا تلقى القباطنة من إمام صنعاء طلبا عاجلا بإرسال طبيب لعلاج الإمام من خُرَّاج مؤلم ؛ ولما كان الفرنسيون يسعون إلى دعم علاقاتهم الطبية ، فقد أوفدوا واحداً من جراحيهم هو باربير Barbier ، وبصحبته الرائد دى لا جريلودبير Grelaudiere من بوند شيرى ،

(**) تزعمت الإمامة الزيدية الثورات المسلحة ضد العثمانيين الذين كانوا قد استولوا على اليمن فى عام ١٥٣٨ ، وكان من أبرز زعماء المقاومة الإمام القاسم وفى عام ١٦٣٥ استسلم العثمانيون لابنه الإمام المؤيد وتمكن اليمن من إحراز استقلاله فى ذلك العام عقب طرد العثمانيين الذين سيعاودون السيطرة على اليمن مرة أخرى فى عام ١٨٧٢ . (المراجع)

ليكون بصحبه المندوبين الموفدين من الإمام . هؤلاء الرجال المحترمون لم يكونوا يحملون معهم - على ما يبدو - سوى الآلات اللازمة لاستخدامها فى الجراحة ، ولذلك مضوا فى طريقهم مسرعين ، وكانوا يسيرون متجاورين فى البلدان والقرى ، ولم يكونوا فضوليين . يضاف إلى ذلك إننا لم يصلنا التقرير الذى كتبوه هم بأنفسهم ، على النحو الذى قدم عليه التقرير إلى لويس الرابع عشر، ولكن الذى وصلنا عبارة عن حكاية أو رواية جمعها لا La روك Roque ونشرها بعد ذلك بأربع سنوات . وهذه الرواية ضعيفة جداً ومختصرة جداً ، وهى تتصل بالملاحظات الاجتماعية أكثر منها بالملاحظات الجغرافية ، وتفسرها خارطة مليئة بالأخطاء والأغلاط ، توضح أن البعثة لم تصل إلى صنعاء ، والمؤسف أن لا روك وضع صنعاء فى أقصى الجنوب بعيدا عن موقعها الحقيقى . وبالرغم من ذلك فإن جريلوديير هو وباربيير Barbier ، كانا أول أوروبيين يسجلان تزايد عدد المقاهى ، ويحق لهما أن يزعما أنهما كانا أول من اخترقا الجزيرة العربية من داخلها طواعية واختيارا بنية الاستكشاف . وهذا هو نيبور يرجع إلى تقريرهما مرارا ، ويبدو أنه استخلص من ذلك التقرير ثقته الأولى بصداقة وأمن ممتلكات الإمام ، وميول نوابه الطيبة فى البلدان الساحلية . فى هذه المنطقة كان الهولنديون يتمتعون بعلاقات ودية اعتبارا من العام ١٦١٤ الميلادى ، بل إن البريطانيين كانوا مستقرين تماما فى تلك المنطقة قبل ظهور الفرنسيين ؛ يضاف إلى ذلك أن التعامل العادل والحريص من قبل المندوبين البريطانيين فى كل من عدن ، والمخا ، وزبيد ، وبيت الفقيه (*) ، هو الذى رسخ حب اليمنيين للأوروبيين فى اليمن ، وهو ما أفاد منه نيبور إلى حد بعيد .

نحن لسنا مضطرين إلى تتبع الجماعة الدانمركية إلى كل من إسطنبول ، والإسكندرية ، والقاهرة ، أو سيناء . فى اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر من العام ١٧٦٢ ، نزلت تلك الجماعة إلى مدينة جده من سفينة من سفن الحجاج ، واندهشوا جميعا لذلك الاستقبال الذى قوبلوا به . ووجدوا هناك رجلا إنجليزيا يقيم فى جدة منذ زمن طويل ، ويتاجر فى لوز الطائف وفى بلسم مكة ، ولقيت سفنه أو بالأحرى

(*) بيت الفقيه : أكبر سوق لتجرة البن فى اليمن ويقع هذا السوق على مقربة من المخاجيرتين . (المراجع)

بنى وطنه حبًا وتقديراً . ومضى شهران إلى أن تمكنت تلك الجماعة من العثور على قارب من قوارب مسقط ، لينقلهم إلى اليمن ، وأمضى الرجال وقتهم فى تحرى صحة كل ما عن لهم أو خطر ببالهم عن الجزيرة العربية من الداخل .

وطوال بقاء الدانمركيين فى المدينة لم يضايقهم أو يتعدى عليهم أحد فى تلك المدينة التى ترفض من قبل ومن بعد كراهية المسيحيين . فى القرن الثامن عشر كان الإسلاميون المتشددون قد هدءوا فى كل مكان . وجرى عزل الخليفة الأسمى ، وجرى أيضا تجريده من الجزء الجنوبى من الإمبراطورية . وكان اليمن قد تخلص من نير هذا الخليفة قبل قرن من الزمان ، وكان بوسع شريف مكة أن يتألب على سيده المسلم وليس على المسيحى . هذا المعنى من معانى التضامن الذى يتميز به الإسلام لم يكن موجوداً فى ذلك الوقت ؛ وكانت مكة ، المركز الروحى ، قد ابتعدت جريًا وراء الثروة الدنيوية ، وأصبحت تتسامح فى كل شىء ماعدا الزهد والتقشف القائم على الفضيلة . على الرغم من أن الانتصار النهائى المسيحى فى الهند المسلمة قد بدأ يلوح فى الأفق ، وبالرغم أيضًا من أن القوى الكافرة فى أوروبا بدأت تقلب الموائد على الأتراك ، فإن هذه الحقائق لم تصبح حقيقة واقعة فى الجزيرة العربية ، ولم يحدث هناك غضب عارم وعام مثل ذلك الغضب الذى حدث فى إثر العدوان الفرنسى البريطانى الروسى . وفى الأماكن التى لم يحدث فيها الغضب كان هناك قليل من الحماس للدين وقلة قليلة من الردَّة . كان مد الإسلام ، فى ذلك الوقت ، قد بدأ فى الانحسار ، كما أن الدفق الثانى ، الذى كان مفروضًا أن يحمل الإسلام إلى القرن التاسع عشر عبر قلب إفريقيا إلى الصين وإلى الجزر، اختفى ولم يعد ظاهراً . ولكن جيبون Gibbon شأنه شأن نيبور ، بل ومن خلاله أيضًا ، استطاع الاثنان أن يعرفا أن "رؤى" وأسلحة النبى الحديث" (*) كانت قد أصبحت واضحة تمامًا فى المنطقة الداخلية من الجزيرة العربية ،

(*) من الواضح أن هوجارث يقصد «بالنبى الحديث» الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وهذا خطأ فادح من المؤلف ؛ إذ إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن نبيا ، وإنما كان داعيًا للعودة إلى التعاليم الإسلامية السلفية . (المراجع)

وأن العالم الإسلامى كان على وشك العودة إلى الحياة من جديد ، بفعل العرق العربى نفسه الذى سبق أن بعث الحياة فى ذلك العالم الإسلامى .

نزل نيبور هو ورفاقه على الشاطئ ، بلا أية مغامرة أو مخاطرة ، وانتقلوا من القنفذة Gunfude إلى اللحية Loheia ، ووجدوا أن الأراضى الخفيضة تسر الخاطر وتشرح الصدر فى فصل الشتاء . كان إمام قوى يحكم صنعاء ، فى حين كان الشيوخ ، والأمراء وغيرهم من كل أنحاء اليمن كلهم كانوا فى خدمة العاصمة . كان على الدانمركيين أن يلجأوا إلى شىء من الدبلوماسية وذلك على العكس من الأوروبيين الذين جاءوا بعدهم إلى الجزيرة العربية . بدأ أولئك الدانمركيون بارتداء الزى الوطنى ، ويتحدثون عن أنفسهم على أنهم يودون العبور إلى الهند ؛ ولكن عندما بدأ هؤلاء الدانمركيون يطول مقامهم ويقومون برحلات إلى هنا وهناك فى المناطق الداخلية من تهامة ، ضاع واختفى مغزى ذلك التظاهر . ولم يتطرق الشك أو سوء النية إلى أولئك الدانمركيين فى ذلك الجانب من مدينة المخا Mokha ، ولم يطلب إليهم الإيمان بالله وبرسوله (ﷺ) . واكتشفوا أن التجوال فى اليمن لا يتعرض لأخطار كثيرة شأنه فى ذلك شأن أى بلد آخر من بلاد الدنيا ، وأن العرب كلما زاد تحضرهم زاد أيضا بعد مساكنهم عن مصر (*) . وتقدم الدانمركيون عن طريق البر ، إلى أن وصلوا إلى مناطق زراعة البن ، فى بيت الفقيه ، الذى كان الأوروبيون شهيرين فيه تماماً ، لا كأعداء وإنما كمشترين لحصول دائم من محاصيل هذه المنطقة .

كانت الجماعة فى مأمن ولم يكن يلاحظها أى أحد من الناس إلى حد أنها خاطرت وأقبلت على تجزئة نفسها ؛ وهذا هو نيبور يستأجر جحشاً ومعه صاحبه ، ويقوم هو لوحده باستكشاف تهامة ، وفى يده كتاب أبى الفدا ؛ فى حين ذهب فورسكال إلى التلال لجمع الأعشاب . هذه الرحلات ، جرّت رحالينا وحدانا فى بعض الأحيان ، ومتجمعين فى أحيان أخر إلى الجزء الأكبر من تهامة ، إذ وصلوا إلى كل

(*) فى تقديرنا أن هذا رأى خاطئ لا يمكن التسليم به . (المراجع)

من تعز وزبيد ، كما وصلوا أيضًا إلى الجبال المنخفضة . وبالرغم من بدء شهر رمضان المعظم ، لم يقم أفراد الجماعة بأية مغامرة من المغامرات ، وإنما كان أمامهم متسع من الوقت كى يلاحظوا انقسام اليمن إلى أراضى خفيضة وأراضى عالية ، كما لاحظوا أيضا التناقض بين القرى السابقة المبنية من اللبن مع القرى المبنية من الحجر فى الأراضى العالية ، كما لاحظوا أيضا الظروف المناسبة لزراعة البن ونبات النيلة ، فضلا عن ملاحظتهم أيضا لحياة الفلاحين الاجتماعية التى تقوم على الجد والاجتهاد . ولكن موسم الصيف كان قد بدء فى الدخول ؛ كما أن الإصرار على الترحال أثناء النهار فى أرض يصل فيها متوسط درجة الحرارة إلى ٨٥ه فهرنهيتيه ، جعل أفراد الجماعة يخسرون صحتهم . وبعد أن نال أفراد الجماعة قسطًا من الراحة فى بيت الفقيه اندفعوا قاصدين المخا وذلك عبر أعشاب السفانا ، ليصلوا إلى مدينة المخا فى أواخر شهر أبريل من العام ١٧٦٣ الميلادى . وتواترت المتاعب بعد ذلك ، وبدءوا يلاقون بعض المصاعب فى سحب أنفسهم بعيدًا عن براثن الشر ومؤمنين لأنفسهم أيضا إجراءًا رسميًا بضمان صدق النوايا والطوية ؛ والسبب فى ذلك أن الأوروبيين كانوا أقل شعبية فى هذه المنطقة بسبب ذلك الإجراء النشط الذى اتخذته شركة الهند الشرقية الفرنسية قبل خمسة وعشرين عامًا .

توفى فون Von هافن Haven فى المخا . ومن المهم أن نقرأ ما يلى :

"أرسل الإنجليز لنا ستة بحاره كاثوليك ، الذين قاموا فى مساء اليوم السادس والعشرين من شهر مايو بدفن الجثة فى مدافن الأوروبيين . كان كل الإنجليز الذين كانوا فى المخا على قدر كبير من الأدب جعلهم يحضرون الجنازة ، التى تمت مراسيمها طبقًا للطقوس الأوروبية قدر المستطاع ؛ ولم يحدث اعتراض كبير مثلما حدث فى تشييع مستر فيرو Ferro ، الذى كان قنصلاً فى القاهرة وحضرنا تشييع جنازته" .

بعد أن قل عدد الجماعة ، وبعد أن فقدت مستعربها ، وبعد أن انقسمت على نفسها استطاعت بعد انتظار دام طويلاً ، الحصول على إذن بالتحرك عبر الأراضى العالية ، أى عبر تعز Tais ، على الطريق المؤدى إلى صنعاء ، التى زارتها الجماعة

بالفعل عندما كانت فى بيت الفقيه ؛ وفى صنعاء وجدوا الكثير من المنعشات والقليل من الأمن والاحترام وذلك على العكس من تهامة . وعندما استدعى الدانمركيون من جديد إلى المخا ، جرى إعفاؤهم من رحلة مضنية وذلك عن طريق صدور أمر سام من الإمام يقضى بأن يتوجه الدانمركيون مباشرة إلى عاصمته . وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو بدأت الجماعة التحرك قاصدة صنعاء ؛ ولكن بعد أن قطعت الجماعة نصف الطريق تحتم عليها التوقف فى بلده يريم Yurim ، نظرا لإصابة فورسكال بمرض شديد . وفى خلال أيام قلائل ، توفى فورسكال فى بلده يريم ، وحزن نيبور حزنا شديدا على أكفأ رفاقه ، ذلك الرجل الذى ما يزال كل علماء النبات يكنون له الاحترام والتقدير .

واصلت البقية الباقية من أفراد الجماعة صعودها عبر ذمار Damar وعن طريق حدفة Hadafa ، التى قال نيبور ، ولكنه لم يشاهد ، إنه عثر فيها على نقش من النقوش الحميرية ؛ ثم عبرت الجماعة بعد ذلك قمة الهضبة لتصل إلى صنعاء فى اليوم السادس عشر من شهر يوليو . واستقبل إمام صنعاء الدانمركيين استقبالاً طيبًا مثل سلفه عندما استقبل الفرنسيين بالطريقة نفسها ، وأعطيت للدانمركيين الحرية المطلقة فى التجول فى المدينة ، التى أعطوا المستوطنة اليهودية فيها اهتمامًا كبيرًا . ولكن عندما ضعفت صحة نيبور وبدأت الشكوك تحوم من حوله ومن حول من هم معه ، وبخاصة عندما كانوا يرتادون الطريق العلوى الصاعد ، آثر الجميع عدم البقاء فى ذلك المكان . وفى أقل من عشرة أيام أستأذن نيبور هو ورفاقه ونزلوا جميعًا من الطريق الجبلى المنحدر إلى بيت الفقيه ؛ ثم عادوا إلى زبيد ومنها إلى المخا مرة ثانية ، وعادوا وهم مرهقين بسبب حرارة شهر أغسطس الشديدة . ثم قام تاجر إنجليزى ، هو فرانسيس Francis سكوت Scott بتأجير سفينة لهم ونقلهم على ظهر تلك السفينة إلى مدينة بومباى ؛ ولكن باورنفيند Baurenfeind هو وبرججرن Berggren توفيا فى أثناء الرحلة ، وواصل كرامر الرحلة وحده ليتوفى هو الآخر فى مطلع العام التالى .

نزل نيبور مرة أخرى على أرض الجزيرة العربية . فقد وصل الرجل إلى مدينة مسقط فى شهر يناير من العام ١٧٦٥ الميلادى ، ولكنه بدلا من أن يقوم باستكشاف عمان من الداخل ، آثر اتباع الأمر الملكى الأصلى بالاتجاه نحو أعالى الخليج ثم العودة إلى الوطن بطريق البحر عن طريق بلاد فارس ، وبلاد الرافدين ، وسوريا ، وقبرص ثم آسيا الصغرى . وقد نشرت حكاية ترحال نيبور باللغة الألمانية فى العام ١٧٧٢ (ثم باللغة الفرنسية فى العام التالى) ، ومعها ملحق عن المسارات التى سلكتها بعثه هولندية مجهولة ، ارتدت عن دينها ، فى أجزاء محددة من اليمن لم تصل إليها الجماعة الدانمركية . ثم صدرت فى العام ١٧٩٢ نسخة إنجليزية مختصرة اختصارا شديدا عن ذلك الترحال . وهذا هو فورسكال يبدى بعض الملاحظات عن الحياة النباتية والحياة الحيوانية فى تلك البلاد ؛ وقد قام رفيقه فى الرحلة بإعداد تلك الملاحظات فى العام ١٧٧٥ الميلادى ، ولكن مسألة نشر كل ملاحظات نيبور عن الجزيرة ، على الجمهور لم تحدث إلا فى العام ١٨٣٧ الميلادى ، فى طبعة نهائية تناولت الجزء الثانى من تلك الحكاية ، وقد تصدرت تلك الطبعة صورة لنيبور مأخوذة من أرشيفه .

هذا هو ملخص أسفار نيبور وترحاله فى الجزيرة العربية . وقد أمضى الرجل أقل من أثنى عشر شهرا فى اليمن ، وهذا أقل من العامين أو الثلاثة التى أراد مليكه له أن يقضيها فى تلك البلاد ؛ ولم يخترق نيبور طوال هذه الفترة سوى طريق قصير جداً مؤدى إلى قلب الجزيرة العربية الذى لم يجر استكشافه بعد ؛ والسبب فى ذلك ، أن صنعاء التى كانت هى هدفه البعيد المبتغى ، تقع على بعد مسافة تزيد قليلاً على المائة ميل ، إذا ما كان الطريق مباشراً وخطًا مستقيمًا يبدأ من البحر الأحمر . يزاد على ذلك ، أن الطريق الذى استكشف نيبور بعض أجزائه فقط ، يقع فى الركن القصى جداً من شبه الجزيرة الكبيرة ، كما أن هذا الجزء عبارة عن مثلث يصل طول قاعدته إلى حوالى مائة ميل ، فى حين يصل طول كل من ساقى هذا المثلث إلى ما يزيد قليلاً على مائة ميل ؛ ومساحة هذا المثلث الإجمالية لا تعادل حوالى ١/٦٠ من مساحة الجزيرة العربية كلها . يضاف إلى ذلك ، أن هذه المنطقة الصغيرة التى أوفد إليها نيبور ،

لأنها أضافت الكثير لفائدة أوروبا ، كانت كما سبق أن أوضحنا ، معروفة لأوروبا أكثر من أى مكان آخر . كان البحارة الغربيون والتجار الغربيون على دراية كاملة بكل موانئ هذه المنطقة (اليمن) ، كما اعتاد أولئك البحارة وأولئك التجار على النزول إلى البر لتمضية بعض الوقت فى محطاتها الصيفية ؛ هذا يعنى ، أن نيبور عندما يصل إلى ما وراء المدى الذى وصلوا إليه ، إنما كان يسير فى المسارات نفسها التى سلكها كل من فارثيما Varthema ، وميدلتون Middleton ، دى لا جريلوديير Grelaudiere .

وعلى حد تأكيد نيبور نفسه ، فإن اليمن نفسه كان أسهل وآمن المناطق أو البلدان التى جرى استكشافها فى الجزيرة العربية . هذا يعنى أن استكشاف اليمن لم يكن بحاجة إلى شجاعة خاصة أو خطاب خاص ؛ يضاف إلى ذلك ، أن اليمن لم يكن يوحى أو يشكل مغامرة رومانسية أو مثيرة . زد على ذلك أن نيبور نفسه من النوع المغامر الفريد . كان يوازن بين الربح والخسارة فى كل مشروع من المشاريع التى تنطوى على شىء من المخاطر ، وعندما كان الرجل يجد أن التوازن لا يكون فى جانب المصلحة ، فإنه كان يمتنع عن التنفيذ ، كان الرجل يمتنع أيضًا عن التنفيذ إذا ما رأى أن الجماعة تقترح عليه ذلك . كانت مهمة نيبور الأولى والأخيرة ، على حد قوله ، هى تحقيق المهمة التى كلفه بها مليكه ، وأن يقوم بفحص وتقصى ودراسة ذلك الجزء من الجزيرة العربية (اليمن) دراسة كاملة ، وبخاصة أن ذلك الجزء من الجزيرة كان وفير الإنتاج ؛ كان الرجل يود تحقيق هذه المهمة دون تعريض حياته هو ، أو حياوات رفاقه ، للخطر ، وبخاصة أن إنجاز المهمة وإعداد التقرير المطلوب وإيصاله إلى أوروبا كان يعتمد على المحافظة على حياة نيبور ومن كانوا معه . ومن ثم كان لابد من تحاشى الاستعراض والتظاهر فى مكة ، أو تكرار التجوال بصحبة البدو ، وألا يكون هناك هروب حتى ولو لقيد أنمله أو بحثًا أو سعيًا إلى ما هو رومانسى أو عاطفى .

ومع ذلك فإن الأولوية أو التفضيل الذى حظى به نيبور بين الرحالة الذين ترحلوا فى الجزيرة العربية لا يرجع إلى الأولوية الزمنية ، وإنما لأولوية الجدارة والتفوق والاستحقاق. فقد قام نيبور هو وجماعته بمهمة مزدوجة ، - استكشاف أخصب

الأجزاء المعروفة من الجزيرة العربية إلى أوروبا ، وجمع أفضل المعلومات الممكنة عن بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية . جانبًا هذه المهمة المزدوجة ، جرى تنفيذهما على نحو يفوق النقد والانتقاد ، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا الظروف جميعها التى أحاطت بهذين الجانبين . أما ما يتعلق بتنفيذ الجانب الأول ، من جانبى هذا المهمة ، أو بالأحرى استكشاف اليمن الساحلى من اللحية Loheia إلى المخا Mokha ، والجزء الداخلى حتى مدينة صنعاء ، فنجد أن من جاء بعده ، وهو بوتا Botta عالم النبات الشهير ، يتكلم بصراحة ودون تحفظ ويقول : "كان هذا العالم دقيقًا فى وصف ما رآه لدرجة أننى لم أفكر فى نشر نتيجة ملاحظاتى الخاصة طالما لم تواتينى فرصة زيارة بعض النقاط التى لم يطرقها ." (*)

يضاف إلى ذلك أن أحدث مؤرخى بريطانيا يقول بنفس الروح وبلا تحفظ : "بالرغم من الحقيقة التى مفادها أن ما يزيد على قرن من الزمان قد مضى على إرسال تلك البعثة ، أو إن شئت فقل : الحملة ، إلا أننا لم يصلنا من ذلك التاريخ أية رواية أفضل أو أوضح أو أكثر تشويقًا من الرواية التى جاء بها نيبور... ولا يستطيع أحد أن يغالى فى قيمة العمل الذى قام به نيبور.". (٦)

يتكون جنوب غرب الجزيرة العربية من ثلاثة أحزمة . الحزام الأول هو الشريط الساحلى المنخفض ، أو ما يسمى تهامة ، وهو يمتد من شمال اللحية Loheia إلى جنوب المخا ، ويضيق عرضه من حوالى ستين ميلاً إلى ما يقل عن نصف هذا الرقم وهو فى نهايته مقفل بمجموعة من التلال الوعرة فى المنطقة السابقة للوصول إلى ركن ، أو زاوية شبه الجزيرة . والحزام الثانى عبارة عن منطقة من الأراضى المرتفعة الجبلية المتوازنة ، التى ترتفع بصورة مفاجئة ويزيد تكسرها كلما أبتعدت عن منطقة تهامة . هذه الأراضى الجبلية المرتفعة المتوازية ، يصل متوسط ارتفاعها إلى ثمانية آلاف قدم ، وتشتمل على كثير من الوديان شديدة الخصوبة ، التى يوجد بها السواد الأعظم من

(*) الجزء الذى بين علامات تنصيص ورد باللغة الفرنسية، وترجمة الأستاذ الدكتور فاروق عزب .

المستوطنات الزراعية الكبيرة ، اللهم باستثناء العاصمة صنعاء . العاصمة صنعاء ، تقع فى الحزام الثالث الذى هو عبارة عن انحدار غير متدرج ناحية الشرق من الأراضى العالية ، التى تكاد تكون أرضًا مستوية بحق ، ثم يظهر ذلك الانحدار مرة ثانية فى الرقع الصحراوية الشاسعة التى تستوعب كل الصرف الناتج عن ذلك الحزام .

شاهد الحزام الأول مشاهدة تامة كل من نيبور ورفاقه . فقد عبروا ذلك الحزام بكامله من الشمال للجنوب ؛ وفى المنطقة التى يصل فيها ذلك الحزام إلى أقصى اتساع له ؛ وفى المنطقة الواقعة خلف اللحية Lohei ، وبيت الفقيه ، وزبيد ، قام نيبور بنفسه ببعض الرحلات القصيرة المتعرجة ، الأمر الذى جعله لا يترك شيئًا بلا استكشاف ، فى هذا الحزام ، لكل أولئك الذين جاءوا بعده . لم يكن مع نيبور سوى بوصلة صغيرة ومسافة معلومة مقاسه بخطوات الإبل . كانت تهامة تبدو لنيبور ، فى كل أنحائها ، رقعة من الأرض الترابية الجرداء قليلة المياه ، وليس فيها مجارى مائية دائمة ، وإنما فيها نوافير كثيرة كبيرة ، وأن واديى زبيد وميتام هما أكبر تلك المستودعات (النوافير) . لم ير نيبور الزراعة المستمرة إلا حول هذين الواديين ، وكانت تلك الزراعة المستمرة تتزايد فى اتجاه التلال وتقل فى اتجاه البحر . قامت الجماعة الدانمركية بزيارة البلدان كلها بدءًا من لوهيا Lohei والحديده إلى هاس Has والمخا ، كما أحصت أيضًا عدد القرى الرئيسية ، ومنتجات تلك القرى ، وعدد سكانها ، وصناعاتها ، ومجتمعاتها . خلاصة القول : أن الدانمركيين خلفوا تهامة اليمن وراءهم بعد أن استنفدوها دراسيًا من حيث الطبوغرافيا ، ومن حيث النبات ، ومن حيث السكان والإنسان .

لم يستكشف الدانمركيون سوى قسم صغير من الحزام الثانى ، ولم يكن ذلك الاستكشاف كاملاً بمعنى الكلمة . كانت منطقة الاستكشاف الدانمركية فى هذا الحزام الثانى تمتد من نقطة تقع إلى الشرق من بيت الفقيه إلى مدينة تعز ؛ هذا يعنى أن تلك المنطقة كانت تشتمل على القسم الأكبر من منطقة زراعة البن بالغة الأهمية ، أو إن

شنث فقل : اليمن الأعلى .. قام كل من نيبور وفورسكال بزيارة هذه المنطقة قادمين إليها من بيت الفقيه ، وجرى المرور مرة ثانية على تلك المزارع بواسطة أولئك الذين بقوا على قيد الحياة من الجماعة الدانمركية ، وهم فى طريقهم إلى صنعاء والعودة منها . وقد وصلوا إلى تعز مرتين ، بل إن فورسكال Forskall قام بدراسة المسارات العليا لوديان تهامة دراسة بلغت من الكمال حداً جعل بوتا Botta يصرف النظر تماماً فى العام ١٨٧٣ الميلادى عن التجوال فى المنطقة التى تجول فيها فورسكال ؛ وحدد بوتا Botta لنفسه مناطق تقع إلى شمال وجنوب المنطقة التى ارتادها سلفه ؛ وإن أردنا المزيد من الدقه ، فإن بوتا Botta حدد لنفسه جبل صابور (*) Sabor ، فى جنوب تعز ، وبخاصة أن عالم النبات الدانمركى كان يتمنى من كل قلبه استكشاف ذلك الجبل قبل أن توافيه المنية . الأراضى الأعلى من جبل صابور لم تحظ بالاستكشاف . والجماعة الدانمركية اكتفت بالمرور فقط بالمنطقة الواقعة على طول الطريق الرئيسى القادم من تعز إلى صنعاء والطريق الذى يمتد من صنعاء إلى بيت الفقيه . كانت الجماعة الدانمركية تتحرك تحركاً سريعاً وتحت ضغط ؛ وبناء على ذلك ، إذا كانت تلك الجماعة قد تمكنت من كتابة تقارير كاملة ووافيه عن المدن التى من قبيل إبْ Ibb ، ويريم Yerim ، وذمار ، والحدفة Hadafa التى مروا بها ، وإذا كانت تلك الجماعة أيضاً قد مرت على سوق الخميس Suk el-Khamis والمفهق Mufhak ، اللذين زارتهما الجماعة فى طريق العودة ، فإن هذه الجماعة لم تتهيأ لها الفرصة السانحة لدراسة المنطقة التى بين تلك البلاد .

شاهد نيبور فى الحزام الثالث الواقع فى أقصى اتجاه الشرق مدينة صنعاء وحدها هى والبيئة المجاورة لها . وقدم نيبور قراءة لدوائر عرض هذه المدينة أدق من القراءة التى قدمها ميدلتون ، كما قدم نيبور أيضاً وصفاً لمبانى صنعاء وسكانها أدق

(*) جبل صابور : يعرف أيضاً بجبل صبير كعادة بدو الجزيرة العربية فى تصغير الأسماء حتى ولو كانت أسماء شيوخهم . وتعد سفوح جبل صبير التى يتراوح ارتفاعها فوق سطح البحر بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ متر من أخصب بقاع الجزيرة العربية وأغناها مزروعات . (المراجع)

وأكمل من الوصف الذى جاء به ميدلتون . ومع ذلك فقد جاء ذلك الوصف أقل تفاصيلاً ودقه مما لو كانت الجماعة الدانمركية لم يقل عددها ، ويمرض أعضاءها ويصلون إلى الحال المؤسف الذى وصلوا إليه .

هذا الجزء من اليمن الذى قام نيبور باستكشافه ، هو ذلك الجزء الذى يبدو واضحًا جليًا لكل أولئك الذين ينزلون على شاطئ البحر الأحمر ، ويتقدمون صوب العاصمة قادمين من اللحية Loheia ، أو الحديده أو الموانئ التى فى أقصى الجنوب ؛ وبناء على ذلك ، فإن هذا الجزء هو الذى تجرى زيارته فى معظم الأحيان . والذى لم يستكشفه نيبور هو عبارة عن مساحة أكبر بكثير من الجزء المستكشف ، ويشمل كل المنطقة الواقعة إلى الجنوب من حزام الأراضى المرتفعة بدءًا من يريم yerim إلى عدن Aden ، والأراضى فى أقصى الشمال من ذلك الحزام ؛ ولكن يستثنى من ذلك أيضًا منطقة صنعاء ، والهضبة الداخلية بكاملها الممتدة من المحيط الهندى فى الشمال فى اتجاه الحجاز ، الذى كان المقر الرئيسى للحضارة السبئية القديمة . هذه المساحة الشاسعة ، التى تمثل أهم ملامح والسمات أمام أى مستكشف من المستكشفين لجنوب الجزيرة العربية ، اضطر نيبور بفعل الظروف ، أن يتركها ليقوم غيره باستكشافها .

مع ذلك ، فقد تعلم نيبور ، كل ما أمكنه تعلمه عن جنوب الجزيرة العربية ، شأنه شأن كل ذلك الجزء الذى لم يره من اليمن ، عن طريق السماع عن أشخاص آخرين . ومن خلال "وصفه للجزيرة العربية" استطاع نيبور أن يعدد حوالى ثلاثين منطقه ، كما استطاع أيضًا تقديم رواية مختصرة عن المستوطنات الرئيسية فى تلك المناطق ، اللهم باستثناء المناطق الشمالية البرية التى يقطنها كل من حاشد Hashid وبكيل (*) Bekil ؛ ولم يستطع نيبور بالرغم من وجود بعض المرتدين الهولنديين عن دينهم ودخولهم فى الإسلام ، تعلم سوى بعض الأسماء القليلة من هاتين القبيلتين . ونحن أيضًا ، فى أيامنا هذه ، لا يمكن أن نفعل شيئًا أفضل من ذلك الذى فعله نيبور . وفيما يتعلق بذلك

(*) حاشد وبكيل : قبيلتان يمنيتان من أشد القبائل اليمنية شراسة فى القتال ، وكان أئمة اليمن يعتمدون على هاتين القبيلتين فى تزويدهم بالرجال (المراجع)

الجزء من البلاد الواقع إلى الشرق من صنعاء ، تمكن نيبور من الحصول على المزيد من المعلومات ، كما وصف بدقة انحدار الأرض ، مراعيًا فى ذلك الاتجاه الشمالى الشرقى لمياه ذمار Damar ، وطبيعة كل من نجران والجوف ، وعجائب مأرب القديمة وسد حمير الكبير فيها ..

بالرغم من قلة ذلك الذى رآه كارستن نيبور بعينيه ، إلا أن مكانة هذا الرجل بين تلك الجماعة الصغيرة والمنتقاه من بين الرحالة ، تعد مكانة عالية ؛ يضاف إلى ذلك أن أهمية روايات أولئك الرحالة تعدت عصورهم إلى عصور أخرى ، كما أن أهمية تلك الروايات أصبح القراء الأذكياء يقرونها ويعترفون بها بغض النظر عن أجناسهم ومشاربهم ، أو الجيل الذى ينتمون إليه ، يحق لنيبور أن يزعم أنه ليس هو المتعلم الوحيد بحق الذى وصف شبه الجزيرة العربية ، وإنما هو أيضًا الرجل الذى رأى وخبر حياتها خبرة واضحة ، وشاملة ، وحكيمة وعاقلة لا تختلف عن أية رؤية من الرؤى العاقلة والحكيمة لأولئك الذين جاءوا بعده . وإذا ما قارناه بمستكشفى الشرق الأدنى نجد أنه يندرج مع كل من شاردن Chardin ولين Lane . وهو ، شأنه شأن كل من شاردن ولين له عين الفيلسوف التى تمكنه من رؤية الكون فى الخاص ، كما يرى الضرورى أيضًا بين الطارئ والعارض من الظروف . هذا يعنى أن الأشياء كلها لم تكن كلها تشبه بعضها البعض عند نيبور . كان لدى الرجل ميزان عادل يستعمله فى تحديد الأهمية النسبية ، كما استطاع الرجل أيضًا تمييز السمات والخصائص المؤقته عن تلك الدائمة فى الحياة الإنسانية . ولما كان نيبور نفسه خلوا من المؤثرات القومية الفردية والمؤثرات الاجتماعية ، قد راح الرجل يسجل الأشياء التافهة لا عن نفسه ولا عن الآخرين . هذا يعنى أن السمات الإنسانية المشتركة هى التى كانت تعجبه وتروق له ؛ وبينما كان نيبور ينزوى كى يروى تلك السمات المشتركة ويتبينها ، لم يكن الرجل يعتبر نفسه يلاحظ أو يراقب من علٍ أناسًا بعينهم ، جرى إرساله ليكون بينهم ، ونيبور فى هذا الصدد ، وبسبب العون الذى لقيه من وطنه ومن جيله ، كانت له مزايا الرحالين الأكثر حداثة . ولما كان نيبور دانمركيًا من منتصف القرن الثامن عشر فإن إحساسه بالتفوق الغربى والعرقى لم يصل إلى الحد الذى يمكن أن يحول بينه وبين التعاطف

الكامل من أى أحد من أهل الشرق . لم يلاحظ نيبور فى عرب اليمن مستوى بشرياً منخفضاً انخفاضاً كبيراً ، ولم ير فى عقيدة عرب اليمن أو فى ممارستهم الدينية ذلك الهجاء اللاذع الذى فى عقيدة المسيحى . وانخرط الرجل فى حياة ذلك المجتمع على الفور دونما تفكير فى المساس بكرامته الشخصية أو المساس بالنفوذ الذى تتمتع به أمته ؛ كما انحنى نيبور "لإمام" صنعاء ، باعتباره مساوياً للملك فردريك فى بلده الدانمرك .

سمات نيبور العامة باعتباره رجلاً بمعنى الكلمة هى التى تمهد لنا لتلقى مزايا كتاب من كتب الترحال ، راج وذاع بين من جاءوا بعده ، طوال قرن ونصف القرن من الزمان ؛ كما يعد هذا الكتاب أساساً ودليلاً ومعياراً عند كل من يتساءل عن الجزيرة العربية . وأنا لم أسمع عن أحد من مستكشفى الجزيرة العربية فشل فى أن يثبت أنه درس هذا الكتاب قبل أن يشرع فى رحلته ، أو فى أن يقتبس عن هذا الكتاب نفسه بعد عودته من رحلته ، ولا أعرف أى إنسان تكلم عن هذا الكتاب كلاماً نابياً وغير مفعم بالاحترام . والامتياز العظيم الذى يحظى به ذلك الكتاب باعتباره مرجعاً وحجه فى مجاله ، يرجع قبل كل شىء إلى قمع المؤلف لذاته وإبعادها عن الكتاب . هذا لا يعنى استعمال نيبور للمفرد الغائب وهو يتحدث عن أعماله الشخصية ، أو استحسانه ، أو حذفه بالمقارنه بين أعماله وأعمال رفاقه . ولما كانت تلك الأعمال من صنعه هو فقد كان يعرف الكثير عنها وأنه هو أفضل من يمكن أن يتحدث عنها . ولكن هيام نيبور بنفسه بلغ من الضآلة حداً يمكن أن تنسب معه هذه الأشياء والأعمال لرجل آخر ، فقد تعامل الرجل مع هذه الأعمال تعاملاً حيادياً وغير شخصى . واقع الأمر أن الإنسان يمكن أن يظن أن روايته إنما هى من قبيل القصص الخيالى الرومانى ، لولا أن نيبور استبعد كل عناصر الحكاية ، وأحل محلها الصدق والحقيقة الواضحة الجليه .

أضافت ظروف نيبور الخاصة الكثير إلى موقفه الذاتى هذا . هذا يعنى أن نيبور لم يكن مكلفاً فقط بمهمة إعداد تقرير رسمى ، وإنما وجد نفسه أيضاً وارثاً ومسئولاً أيضاً لأربعة من رفاقه الذين وافتهم المنية ، وكان لزاما عليه إدماج أعمالهم غير المنتهية إلى عمله .

ونيبور عندما ربط وكثف ملاحظات رفاقه ومنطقها إنما جعل العمل كله وكأنه من صنع الرفاق الخمسة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الرجل عندما لجأ إلى إيراد البيان التفصيلي لخط سير الرحلة والترحال إنما كان يرمي من وراء ذلك إلى تبرير امتلاكه لمثل هذه المعرفة . كما كان نيبور حريصًا وحذرًا من المصالح العابرة . ولعلنا نلاحظ إشاراته المتكررة إلى جمال النساء وجاذبيتهن ، وإلى تعرفه عليهن بين لحظة وأخرى ، فهو يرى في ذلك تخفيفًا وتخففًا من صرامة القص وجديته ؛ والمغامرة ، إذا لم تسهم أو تعمل على توضيح خاصية عامة من خصائص الناس ، أو يكون لها أصل في شيء من الأشياء الضرورية للمجتمع ، يمكن أن تمر مر الكرام . ونيبورعندما روى وتحدث عن وقاحة شاب عربي قحطاني (*) في اللحية Loheia لم يسترسل في الحديث عن وحشية قبيلة ذلك الشاب ، لأنه كان يعلم أن سلوك هذا الشاب وتصرفه إنما كان نتيجة لعدم تآلفه مع الأوربيين . وبالطريقة نفسها ، نجد أن نيبور عندما كان يصف الأعمال الصالحة للطلاب في ذمار Damar ، تجاهل فرصة من فرصه القليلة السانحة التي يستطيع من خلالها استثارة قرائه، بتقديم رؤيته لتشدد المسلمين . يزداد على ذلك أنه أخبر عن وفاه رفاقه بكلمات قليلة جداً ؛ وأوجز الرجل كل صفاتهم في جملة واحدة ؛ ولكنه أطنب في ظروف مواراتهم التراب لكي يعطي القارئ توضيحاً للسلوكيات المحلية ؛ ثم مضت المجموعة إلى حال سبيلها بعد ذلك .

هذا الموقف الذاتي الذي يمكن الوقوف عليه منذ الوهلة الأولى في كتاب نيبور هو الذي يضفي مزيداً من الثقة على صدق ملاحظات المؤلف وعدالتها . ونحن الآن ، وبعد مضي قرن ونصف القرن من الزمان ، أصبحنا في موقف يجعلنا نعرف أحقية نيبور في هذه الثقة وجدارته بها . والمرء وهو يقرأ الكتاب لا يمكن له أن يحدد شيئًا بعينه ، من بين الأشياء الكثيرة ، يمكن أن يمتدحه ويثني عليه : والسبب في ذلك راجع إلى دقة وصدق وصفه لذلك الذي رآه ، أو إلى الدأب والتصبر الذي يتجلى في رواية نيبور لذلك الذي سمعه من الآخرين . ونيبور في كل الأحوال والظروف عاقل بمعنى الكلمة . والواحة التي يدخلها نيبور بعد فراسخ مضنية من الصحراء ليست بمثابة الجنة عند نيبور ، وإنما هي مجرد بيارة هزيلة من بيارات

(*) قحطاني : أي من قبيلة قحطان ، وهي من القبائل العربية القديمة وموطنها الأصلي في اليمن . (المراجع)

النخيل المزروع فى طين محروق أو فى الرمل . يضاف إلى ذلك أن نيبور لم يرتفع إلى مستوى الحماس الذى عبر عنه الرحالة الذين جاءوا بعده ، فيما يتعلق بأراضى اليمن الأعلى الذى يزرع فيه البن . لقد وجد هذه الأراضى قاحلة جرداء ، كما كانت قرى هذه الأراضى المرتفعة تعانى من الفقر ؛ كما أنه لم يتأثر بأبهة "الإمام" أو بموكبه الاستعراضى - وقد اعترف نيبور بأن تلك الأبهه كانت بهيجة ، ولكنها غير منظمة .

لم يكن نيبور مكلفًا ، كما سبق أن أوضحنا ، ولا راضياً عن مجرد تسجيل أسفاره وترحاله أو روايته عن اليمن ؛ ولكن الرجل كان يتطلع إلى إعلام أبناء وطنه عن الجزيرة العربية كلها . ونظراً لأن نيبور كان على علم بالفعل بالوصف الذى قدمه أبو الفدا ، فقد جد وراح يسأل كل أولئك الذين يمكن أن يعطوه المزيد من المعلومات ، سواء أكانوا من رواد الخانات أم من رواد المقاهى ، أو من الأسواق ، وذلك فى المنطقة الممتدة من جده إلى صنعاء ، وراح نيبور يجمع كلام هؤلاء مصدقًا ويتحفظ على كلام وتقارير أولئك ؛ إلى حد أن ذلك الجزء من كتاب نيبور الذى يتناول هذه المناطق يكاد لا يحس القارئ بوجود نيبور فيه ، وإنما يستشعر امتلاء ذلك الجزء بالحقائق على نحو يمكن القول : إنه نقل أوروبا من الشك والتكهن إلى المعرفة الحقيقية للجزيرة العربية . وسوف أتناول المزيد من معلومات نيبور بالدراسة فى الفصول التالية ، عندما أبدأ تناول استكشاف المناطق الأخرى الذى تم فى فترات لاحقة ؛ وسوف أكتفى هنا بتقديم مثال واحد فقط على ذكاء نيبور وفطنته فى تناول مجتمع مشترك بين كل هؤلاء المستكشفين . لم تكن لدى نيبور أية خبرة أو تجربة شخصية عن حياة البدو الرحل غير المستقرين التى هى حياة ثلثى السكان فى المناطق الداخلية . ولو قدر لنيبور رؤية هؤلاء البدو ، فلربما حدث له ذلك فى الأسواق الأجنبية وليس داخل خيامهم السوداء التى يعيشون فيها ؛ وفى اليمن يقول نيبور: إنه لم يلتق سوى أسرة جائلة واحدة، وأن تلك الأسرة ربما كانت من الغجر الحقيقيين، وليست من العرب الصلايب (*) . ترى من ذا الذى يمكن أن يتحدث عن تنظيم على نحو أفضل مما يلى ؟

(*) "الصلايب" ويصح فيه أيضًا "الصلوبة" ، ويقصد بها فئة كبيرة من سكان المنطقة الوسطى فى المملكة العربية السعودية . (المترجم) .

"البدو، أولئك العرب الحقيقيون ، الذين يضعون الحرية قبل الراحة والثروة ، يعيشون على شكل قبائل محددة فى خيام ، ومازالوا يحتفظون بالحكم نفسه ، والسلوكيات والعادات نفسها شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم من قبلهم . وهم يطلقون على نبلائهم اسم مشايخ Sheikhs أو شيوخ Sheukh . والشيخ يحكم أسرته وكل التابعين له ؛ هؤلاء الشيوخ إذا ما بلغ الواحد منهم من الضعف مبلغًا يجعله يعجز عن حماية نفسه وجماعته من جيرانه انضم إلى الآخرين واختاروا من بينهم واحدًا ليكون هو الشيخ الأكبر. ويقوم العديد من الرؤساء الكبار ، بعد موافقة الرؤساء الصغار ، باختيار شيخ أكثر قوة ، يطلقون عليه اسم الشيخ الكبير Sheikh el- Kebir أو شيخ الشيوخ Sheikh es- Sheukh ، وهنا يطلق لقب أسرة ذلك الشيخ على أفراد القبيلة كلها . وهنا يمكن القول إن أفراد القبيلة كلها يبدون كما لو كانوا قد ولدوا مسلحين ، ورعاة أغنام ... السلطة بين هذه العشيرة تكون فى أسرة الشيخ الحاكم ، صغر أم كبر ، ولكن ليس هناك تسلسل بين الأبناء . هذا يعنى أن هذه العشيرة تختار أو تنتخب من بين أبناء الشيخ أو أقاربه من يجدونه صالحًا ومناسبًا لتولى المشيخة . وأفراد هذه العشيرة لا يدفعون سوى القليل ، بل قد لا يدفعون أى شىء مطلقًا لذلك الشيخ الكبير . والشيخ الكبير يتعين عليه النظر إلى أناسه باعتبارهم حلفاء وليسوا رعايا ؛ والسبب فى ذلك أنهم إذا لم يرق لهم حكم هذا الشيخ ، وإذ لم يتمكنوا من عزله ، فإنهم يقتادوا قطعانهم إلى داخل أراضى قبيلة أخرى ، التى غالبًا ما ينشرح صدرها وتسعد لمثل هذا الانضمام وتلك القوى الإضافية . والحال هو الحال نفسه عند الشيوخ الأصاغر ؛ إذ لم يُحكموا جيدًا ، فإنهم يعزلون شيخهم أو يتركونه بلا أية مراسيم" .

هذا هو حال دقة نيبور الذى تجلى فى كثير من مقطوعاته الخاصة بكرم البدو ، ورقتهم ولطفهم فيما يتعلق بحياة الحيوان وحياة الإنسان ، فضلاً عن استقلالهم الروحى ؛ وأيضًا فيما يتعلق بلباسهم ومساكنهم ؛ وهذا هو أيضًا حال دقة نيبور فيما يتصل بعلاقة العرب المستقلين الذين يسكنون الواحات بالبدو الرحل ، والعلاقات التى بين هؤلاء جميعًا والسلطات العثمانية . والأمر سيكون مضنيًا لو إننا رحنا نعدد مئات الملاحظات التى أوردها نيبور وهو على استعداد للتغاضى عن بعض الحقائق ولكنه يندر بل ويستحيل أن يقتنع بخطأ من الأخطاء .

هوامش الفصل الثانى

(١) قصر الاسم "سعيد" Felix على الجنوب الغربى من الجزيرة العربية لا يتفق مع ما قال به كل من : سترابو ، وبلنى ، أو بطليموس ، وهذا مجرد خطأ من العصور الوسيطة ، أكد عليه دانفيل D' Anvile ، ويتكرر كثيرا فى أيامنا هذه كنية "السعيد" كان يطلقها القدماء على شبه جزيرة العرب كلها . كما كانت بترا Petraa هى مجرد حى فقط من بيترا Petra ، أما Deserta فكانت تطلق على الصحراء الشمالية ، أو إن شئت فقل : "الصحراء السورية" .

(٢) هذا بالرغم من المخطوطة التى اقتبس عنها بادجر Badger (فارثيما ص ٥٠) ، والتى تقول : إن سبع سفن يمنيه كان قد جرى أسرها وإحراقها بواسطة البرتغاليين فى أعالى البحار. ومن ثم ، جرى إلقاء القبض على فارثيما بالقرب من عدن .

(٣) راجع روايتى كل من بوتّا Botta وديفلرز Deflers .

(٤) كان ذلك هو اسم منطقة صنعاء فى ذلك العهد .

(٥) راجع ص ١٠٧ من كتاب 'صحراء الجزيرة العربية' .

(٦) بلاى فير Play fair، اليمن، ص ٦١ .

مراجع الفصل الثانى

BIBLIOGRAPHY

The quotaions from Niebuhr are translated from the French edition of his Travels and Description of Arabia (Amsterdam, 1774-1780).

For the royal instruction see Recueil de Questions proposées à une Société de Savants, etc., par Monsieur Michaelis, Conseilleur de S. M. Britannique, etc., translated from the German (Amsterdam, 1774).

Dr. Peter Forskall's two posthumous works, Descriptiones Animalium, etc., and Flore Egyptiaco- Arabica, appeared in Latin at Copenhagen in 1775.

Varthema is to be read best in Badger's edition made for the Hakluyt Series (London, 1863).

Middleton's narrative is printed in Kerr's Voyages, viii. P. 361, with notes by J. Astley ; Grelaudiére's narrative, in La Roque's Voyage de l' Arabic Heureuse (Amsterdam, 1716).

الفصل الثالث

حجاج فى الحجاز

لو أن الغرب على امتداد ألف عام قبل مجيء نيبور كان يعرف الكثير عن اليمن أكثر من أية منطقة أخرى من مناطق الجزيرة العربية ، لكانت معلوماته عن الحجاز أكبر من ذلك بكثير وكان فضول الغرب ناحية مكة أقوى بكثير من فضوله ناحية صنعاء . وهناك سخرية ليست بالقليلة من العلاقة التى بين مدينة النبى واستكشاف الجزيرة العربية . ومكة التى يرمى تأثيرها ونفوذها بصورة مستمرة إلى إغلاق شبة الجزيرة فى وجه المسيحيين ، هى دونا عن سائر بلدان الجزيرة العربية الأخرى ، التى ساعدت على زيادة معرفة الغرب ، أو بالأحرى المسيحيين ، وقد بلغت مكة من العزلة حداً لم يستطع معه أحد من أولئك الذين يدينون بديانات أخرى غير الإسلام ، من رؤية الكعبة والبقاء على قيد الحياة [١] وذلك اعتباراً من بداية الهجرة . ولكن هذه السرية البالغة أثارت فضول كثير من الأوروبيين الأمر الذى شدهم تماماً إلى الجزيرة العربية . وبناء عليه ، وبالرغم من شدة المصاعب والأخطار ، وبالرغم أيضاً من صغر العائد أو المكافأة ، إلا أن هناك اتفاق على أن ما يقرب من عشرين رجلا ، من أولئك الذين ولدوا على المسيحية وماتوا عليها ، استطاعوا تسجيل مغامراتهم فى أقدس أماكن تلك المدينة ، كما أن هناك أوروبيين كثيرين زاروا المدينة ، ولم يتركوا أى شىء عن رواياتهم عن تلك الزيارات .

كان جهل الغرب بالحجاز قد توقف ، بصورة أو بأخرى ، قبل قيام نيبور برحلته . فقد قام المؤلفون الذين حجوا إلى مكة ، أو الذين نقلوا عن الحجاج ، أو كتبوا نيابة عنهم بنشر أوصاف المدينة ، ووصف الطرق المؤدية إليها ، كما وصفوا أيضاً المنطقة

الواقعـة فيهـا هذه المدينة ؛ يضاف إلى ذلك أن الروايات التى كتبها المسلمون عن مكة (فقد وصلت كتابات الإدريسى إلى أيدى بوكوك Pococke فى العام ١٦٥٠ الميلادى) كـان قـد جرى تـأكيـدها وإسنادها ودعمـهـا من قـبل مـا لا يقل عن ثلاثة مـن الروايات الأوروبيـة التى كـتبـهـا أناس زاروا منـاطق أبعـد من السـاحل بكثـيـر . كل الحـجـاج الأوروبيين الذين جاءوا بعد الإدريسى ، وأطلعوا على روايته ، شهدوا بدقة هذه الرواية وصحتها ، وبخاصة ما يتعلق بمكة ، وحرمها العظيم والمنطقة المجاورة لها . فقد أمكن التحقق من مناظرها الطبيعية ، وطرقاتها ، وممراتها ووديانها التى دونّها فارثيما وكتب عنها . يضـاف إلى ذلك أن الشكل العام وتفاصـيل بيت Bayt الله Allah هو والكعـبة ، كمـا وردت عند فارثيمـا ، تتفق تماما مع الأوصـاف التى جاءت بعد ذلك ، فيمـا عدا الإصـلاحات والتـجديدات الشـاملة التى أجريت طوال القرن التـالى لزيارة فـارثيمـا ، عندما أصبحت مكة تحت السيطرة العثمانية ؛ يضاف إلى ذلك أن التقرير العام الذى أورده فارثيما عن المدينة وقال فيه : إنها عبارة عن مستوطنة جيدة البناء وغير مسوره ، وتضم حوالى ثلاثين ألف نسمة وطائفة كبيرة ومتباينة من التجار ، هذا التقرير ثبت أنه دقيق فى العام ١٥٠٢ الميلادى . لم يكن فـارثيما دقيقًا أو كاملاً مثل جوزيف Jo-seph بيتس Pitts فى أوصافه للأماكن المقدسـة أو الطقوس التى تجرى فيها ، معروف أن جـوزيف بيتس، أصله من مدينة إكسـتر Exeter وقـد أسره قراصنة البربر (*) Bar-bary عندمـا كـان صـبيًـا ؛ وكـان ذلك فى العـام ١٦٧٨، وأجبـر على الردة عن دينه ومرافقـة سـيده أثناء ذهابه إلى الأمـاكن المقدسـة بعد ذلك ببضـع سنين . وقـد هرب جـوزيف بيـتس إلى مـدينة أزمـيـر Smyrna (**) ، لينشـر بعـد ذلك رواية غـريبـة . ولكن فارثيما الإيطالى ينبغى التعويل عليه أكثر من الإنجليزى الذى جاء بعده ، والسبب فى ذلك أن رواية الرجل الإنجليـزى لم تكن مـعـروفـة خـارج إنجلترا ، ولم تكن تلك الرواية

(*) قراصنة البربر : المقصود بهم المسلمون فى الشمال الأفريقى الذين خاضوا صراعًا ضد القوى المسيحية فى حوض البحر المتوسط ، ويطلق المؤرخون العرب على هذا الصراع «الجهاد الإسلامى» بينما يصفه المؤرخون الأوروبيون بالقرصنة . (المراجع)

(**) Smyrna سميرنا' هو الاسم القديم لمدينة 'أزمير' الحالية . (المترجم).

تحظى بشىء من التقدير، الأمر الذى جعل جيبون Gibbon يتجاهلها . وهنا ينبغى التنويه إلى عدم الاهتمام بما قاله جوهان Johann وايلد Wild ، ذلك الأسير النمساوى ، الذى حكى عن خبرة مماثلة وقعت له فى العام ١٦٠٤ الميلادى ، ونشر كتابًا ، يستحق ذلك الغموض والتخبط الكثير الذى وقع فيه ، - هذا الغموض والتخبط جعل بيرتون Burton الذى راح يستعيد الروايات التى رواها الحجاج الأوائل للقراء الإنجليز ، يشك فى وجود الرواية التى جاء بها جوهان وايلد. [٢]

يزاد على ذلك أن فارثيما يحق له أن ينعت بالمستكشف. فى حين أن الحجاج الذين سبقوا فارثيما ذهبوا فقط إلى الحجاز ، كما أن البولينى (*) Bolognese ، فى ظل الضغوط قام برحلته ، عن طيب خاطر ، كما سبق أن أوضحنا ، إلى اليمن ، وكان مكلفا بهدف معين تعين عليه ملاحظته ثم تسجيله ؛ وإذا كان كل من جوزيف بيتس هو وجوهان وايلد لم يقولا لنا أى شىء عن المغامرات التى قاما بها على الطريق ، إلا أن فارثيما بالرغم من اقتضاب ملخصه ، يسجل ملاحظات عدة دونها وهو على طريق ذهابه إلى الحجاز، وأن تلك الملاحظات أكدها الرحالة الذين جاءوا بعده وأفادوا إنها لم تكن بأقل من تلك الملاحظات التى أوردها عن مكة . كانت الملاحظات التى أوردها فارثيما بمثابة أول صورة يرسمها قلم من الأقلام لبدو الحماد (الصحراء) ، - فقد قال عنهم : إنهم رجال أصحاب بشرة صفراء تميل إلى السواد ، ولهم خصلات من الشعر الأسود الطويل ، وأصواتهم حادة ، ويتسلح كل واحد منهم بحربه طويلة ، ويركبون الخيول دون أن يضعوا سُرجًا على ظهورها ، وهم مرتدين قمصانهم ، - وقال فارثيما عن خيامهم السوداء "ذات المظهر الحزين". وفارثيما عندما وضع المدينة (المنورة) على بعد مسير أربعة أيام من البحر ، كان على صواب فيما ذهب إليه ، فى حين أن نيبور الذى لم يثق بما قاله فارثيما كان هو الذى جانبه الصواب . وفارثيما عندما قال : إن تلك المدينة كانت مكانًا قاحلاً صغيرا فى زمنه ، نجد أن كلامه هذا

(*) ليس أصل لوردفيكو فارثيما معروفًا ، فبعض من يستشهدون به يدعونه «البولونى» ، وبعض آخر يطلق عليه اسم «الرومانى» ، ولكنه اشتهر باسم فارثيما البولونى الذى انتحله فى مذكراته . (المراجع)

مؤيد من جوزيف بيتس ، الذى زار المدينة (المنورة) فى العام ١٦٨٥ الميلادى ؛ وكان بركخاردت هو وبيرتون Burton قد أثنيا على وصف فارثيما لمثوى النبى (ﷺ) . وربما كانت ميزه الإيطالى الكبرى تتمثل فى إتيانه على ذكر تلك الصحراء الرملية العميقة ، التى تبعد مسافة مسير خمسة أيام ، وتقع على الجانب الأقرب من "جبل اليهود" ؛ وبذلك يكون فارثيما هو أول من لفت انتباه الجغرافيين إلى وجود النفود الشمالى .

وبالرغم من أنه يمكن القول : إن السمات والخصائص العامة للمدن المقدسة ، كانت فى منتصف القرن الثامن عشر ، معروفة لأوروبا ، وإن كانت تلك المعرفة غير دقيقة إلى حد ما (وهذا هو ما يمكن الوقوف عليه من الكتاب الذى ألفه دُى أُهسون D'Ohsson بعنوان "صورة للإمبراطورية العثمانية" ، بالرغم من كل ذلك ، إلا أن ما تعلمناه غير ذلك عن الحجاز ، لا يعدو أن يكون مجرد خيط من أسماء المكان ، لكننا لم يصلنا أى شىء عن جغرافية الحجاز ؛ هذا يعنى أننا لم نكن نعرف شيئًا عن تضاريس الحجاز ، وتركيبه والموقع المطلق والموقع النسبى لمستوطنات الحجاز وخصائصه الطبيعية ، وشكل الحياة الواقعية فيه . هذا يعنى أن نيبور هو جماعته كان أمامهم الكثير الذى يجب أن يتعلموه بعد أن نزلوا من سفينتهم إلى مدينة جدة فى العام ١٧٦٢ الميلادى . ولما كان نيبور هو وجماعته لا يستطيعون التقدم ، أو بالأحرى تخطى أسوار الميناء ، فقد حتم ذلك عليهم المضى قدمًا باستخدام أسلوب السؤال والاستفسار ، وذلك فيما يتصل بكل أنحاء الجزيرة العربية باستثناء اليمن ؛ ولم يصيبوا فى ذلك سوى نجاح معتدل . وقد وقف نيبور على التمايز الواضح فى أرض الحجاز ، التى تنقسم إلى منطقة ساحلية منخفضة وهضبة من الأراضى المرتفعة المتحدرة نحو الداخل ؛ وقام نيبور بتحديد طبيعة المنطقة الساحلية تحديداً دقيقًا ، - فقد تكلم عن قحولتها ، وانبساطها ، وقلة القرى فيها ، ولكنه لم يسمع أى شىء عن منظومة الوديان فى هذه المنطقة ، أو المنطقة البركانية (الحَّرات) فيها ، وراح نيبور يقارن هذه المنطقة ، وعلى وجه السرعة ، بأراضى اليمن المرتفعة ، وغاب عن باله الاختلاف الكبير فى معدل سقوط الأمطار . وخص نيبور مكة بأنها هى الأقرب إلى

جده بمعدل نصف المسافة ؛ كما دون نيبور أيضا اسم مدينة الطائف وحدها بين المستوطنات الداخلية الصغيرة . ووصف نيبور مكة والكعبة وصفًا عامًا ، دون أن يضمن وصفه تفصيلات خرافية ؛ وقد وصف الكعبة مستعينًا في ذلك بالصور الإسلامية التي حصل عليها من القاهرة ؛ كما تحدث نيبور حديثًا دقيقًا عن طرق الحج ولكنه لم يقل أي شيء عن فرائض الحج ، وتخيل نيبور أيضًا أن المدينة (المنورة) شأنها شأن مكة لا تبعد سوى مسير يوم واحد نحو الداخل ، ولم يكن لديه المزيد ليقوله عن تلك المدينة . سمع نيبور ، أن المدينة كانت ما تزال مكانًا صغيرًا ، لا يزوره سوى عدد قليل من الحجاج . أخيرًا ، نجد أن نيبور يلتزم الصمت إزاء القبائل البدوية فيما عدا قبيلة حرب ؛ ولكن نيبور كرر أكثر من مرة في أوروبا ، خرافة فارثيما التي مفادها أنه ما يزال في خيبر بعض من اليهود القدامى غير المتحضرين ، وذلك بالرغم من أن بعض معارفه من المسلمين العليمين قالوا له : إن هؤلاء العبرانيين الذين يعملون في مواسم الحج ليسوا إلا عربًا من قبيلتي حرب وعنزة Anaze .

عند هذه المرحلة بقيت معرفة الغرب بأراضي الحجاز الداخلية على هذا النحو على امتداد قرن كامل من الزمان بعد الزيارة التي قام بها نيبور إلى جده ؛ وجاء الإسهام الوحيد بعد ذلك على يدي جيمس James بروس Bruce وكان على شكل تفهم أفضل للمنطقة الساحلية ؛ والمعروف أن جيمس بروس كان في طريقه إلى الحبشة في العام ١٧٦٩ الميلادي ، كما ساهم في ذلك التفهم أيضًا إيلز Eyles إروين Irwin ، الذي أوفدته شركة الهند الشرقية في العام ١٧٧٧ الميلادي لاستكشاف الطريق البري من البحر الأحمر إلى البحر المتوسط . ومع ذلك ، فإن إيلز إروين ، الإنجليزي الجنسية ، لا يروي لنا شيئًا إلا عن مغامراته في ينبع ، الذي جرى أسره فيها ، ثم مغامراته في جده التي جرى إطلاق سراحه فيها . (٢)

أفادت رواية نيبور المعتدلة والمختصرة عن الأراضي المقدسة في إزالة شيء من الغموض الذي أحاط بتلك المدن المقدسة ، كما أفادت تلك الرواية أيضًا في تهدئة روح المغامرة بدلا من إذكائها ؛ ولو كان بلد النبي لم يعني عند أوروبا شيئًا أكبر من ذلك

الذى أصبح عليه بعد نيبور، لبقى ذلك البلد فى مأمن من العدوان الأوروبى . ولكن القرن الثامن عشر لم ينته قبل أن تفاجأ أوروبا بتكرار التاريخ الذى حدث قبل ألف ومائة عام من الزمان. وبدون سابق إنذار - نظرا لأن قلة قليلة هم الذين استطاعوا تبين بعض النذر فى رواية نيبور- دخلت الجزيرة العربية فى غليان وفوران مستعر ؛ وسرعان ما انجذبت عيون الغرب ، ناحية الشرق بفعل مشروعات نابليون والمصير الذى منيت به حملاته التى قام بها على كل من مصر وسوريا ، وبدأت العيون الغربية تتجه صوب مكة .

بعد أن وصلت العقيدة المحمدية إلى أخر مداها فى أوروبا ، وبعد أن بدأت المسيحية تنتشر من جديد فى مواجهة العقيدة المحمدية ، كانت المصائب التى تحل بالمجتمعات الإسلامية لا تمر دون أن تثير حركة من حركات الإحياء الدينى فى منطقة ما من مناطق العالم الإسلامى . حركات الإحياء الدينى هذه ، عندما كانت تصدر عن الغرب ، كانت تتمثل بصورة أساسية فى المناداة بوحدانية الله ، وفرض عبادته هو وحده (سبحانه وتعالى) ، وأن يقوم كل ذلك على إماتة الرغبات الحسية والجنسية . الحركة التى من هذا القبيل إنما تعد عود إلى الروح التى بدأ بها النبى رسالته ، وتشتمل أيضا على التخلى عن الحل الوسط الذى توصل إليه محمد (ﷺ) بعد ذلك مع قريش ، والتخلى أيضا عن الروح الشعبية للجزيرة العربية ، عندما أقر النظام الدينى المكى المادى . وفى لحظات الضعف والهوان كان المفكرون العرب يسألون أنفسهم إن كان إشراك الأحياء الفانين مع الله يمكن أن يجر عليهم غضبه (سبحانه وتعالى)، كما كانوا يسائلون أنفسهم أيضا ، ما إذا كان هؤلاء الآباء والأولياء ، بل وحتى نبيه (ﷺ) محمد يمكن أن يجروا عليهم غضب الله (سبحانه وتعالى) ؛ كما كانوا يسائلون أنفسهم أيضًا عما إذا كان توقيرهم لتلك الأشياء المرئية والخارجية ، مثل الأشياء التى فى مكة ، وكذلك مقابر الأنبياء والأولياء ، يمكن أن تجر عليهم الغضب نفسه .

فى أيامنا عاصرنا واحدة من حركات الإحياء الإسلامى غير النقى فى إفريقيا المسلمة ، وكانت حركة الإحياء قد قامت عقب الاحتلال المسيحى لمصر ؛ ويجدر القول

هنا : إن حركة الإحياء هذه لقيت تأييداً كبيراً من قبيلة البقارة التى تعد من أنقى السلالات العربية فى السودان . فقد شهد جيل من الأجيال الباكرة فى القرن التاسع عشر عودة الشيخ على بن السنوسى من الجزيرة العربية ، بعد الغزو الذى قام به كل من البريطانيين والفرنسيين لأراضى المسلمين الواقعة شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ليؤسس مؤسسة التوحيد ، ويصر على وقف التجاوز المسيحى واستعادة السيادة الإسلامية . كان نيبور قبل ذلك بخمسين عامًا قد رأى سحابة صغيرة لا تزيد عن قبضة اليد ، وهى ترتفع فى سماء الجزيرة العربية ، - إشارة رجاء من محمد المكى إلى محمد المدنى ، وأن هذا التوسل جاء بتأثير من التقدم المسيحى الذى طرأ على الهند ، وزيادة التدخل المسيحى فى حركة الملاحة الإسلامية فى البحار الشرقية ، فضلاً عن التدخل المسيحى فى شئون الحكام المسلمين المطلقين فى كل من الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية .

الثناء الأكبر على عمل نيبور يجب أن ينصب على الفصل الذى كتبه تحت عنوان "الدين الجديد فى جزء من نجد ." يجب أن نلاحظ هنا أن نيبور كان سعيداً دومًا بملاحظاته التى أوردها عن الملامح والسمات الأساسية فى دين الجزيرة العربية . لقد أمسك نيبور من قبل بالمبادئ النقية الأساسية التى يقوم عليها الإسلام . كان نيبور يعلم مسبقًا ، على سبيل المثال ، أن الإسلام ليس عدوانيًا . قال نيبور: "المسلمون ، بشكل عام ، لا يضطهدون أصحاب الأديان الأخرى عندما لا يكون لديهم ما يخيفهم" ؛ أكثر من ذلك أن نيبور كان يعرف أن النبى (ﷺ) كان ينادى بإيمان أبسط بكثير من ذلك الذى ينادى به أتباعه ؛ كما كان يعرف أيضا أن العناصر الخرافية فى ذلك الإيمان ، التى منها تأليه الأولياء على سبيل المثال ، ليست من عند مؤسس هذا الإيمان ، ومن ثم فإن (محمد) بن عبد الوهاب (وهذا هو الاسم الذى أطلقه نيبور على النبى (*) الجديد Prophet) ، الذى كان ينادى بأن "الله وحده هو المعبود ، ... ومنع التوسل بالأولياء أو حتى بذكر محمد (ﷺ)" أو أى نبى آخر فى الصلاة باعتبار أن ذلك من

(*) هذا خطأ من جانب مؤلف الكتاب ؛ لأن محمد بن عبد الوهاب لم يكن نبيًا . (المترجم)

قبيل الوثنية ، ... وينكر نزول أى كتاب مكتوب عن طريق الوحى السماوى أو جرى إحضاره من السماء بواسطة جبريل المَلَكْ وبالمثل ، فإن الدانمركى ، رأى أن ينظر إليه باعتباره مصلحا "لمذهب محمد ، عن طريق العودة به إلى بساطته الأصلية" . ولم يفكر نيبور أيضا فى "الغش الذى قام به الشيخ المكرامى" ، ذلك المتعصب النجرانى ، الذى نسمع عن قيامه بحركة شبيهه بالحركة الوهابية ، "ولا تتفق مع روح الإصلاح" . قدر نيبور أهميه الحركة الدينية فى وسط الجزيرة العربية حق قدرها وبأقصى قدر من العدالة ، كما استطاع التنبؤ بمستقبل هذه الحركة بقدر كبير من التعقل والحكمة . قال نيبور إن الحركة الدينية فى وسط الجزيرة العربية "أحدثت بالفعل ثورة فى حكم الجزيرة العربية ، وأنها سوف تستمر فى تأثيرها مستقبلاً على حال هذه البلاد ؛" ولكن "التجربة سوف تثبت ما إذا كان الدين المجرد من كل ما يمكن أن يستثير الحواس ، يمكن أن يحافظ على بقائه بين أناس جاهلين من قبيل العرب" . وبالرغم من أن نيبور لم يقل شيئًا عن أسرة سعود المالكة والتى تقيم فى الدرعية ، والتى يتطابق موقفها المهم مع موقف المعلم الدينى ، إلا أن رواية نيبور عن مطلع الحركة الوهابية لم تنطو على أى خطأ جوهرى ؛ بل إن روايته عن هذه الحركة كانت كافية لتحذير أولئك ، الذين من أمثال جيبون Gibbon ، الذين كانوا يضعون الشرق نصب أعينهم ويراقبونه ، من إحياء دينى ، ينذر بالشؤم والنحس تماما مثل الحركة التى ابتدأها محمد (ﷺ) والحركة التى تزعمها مسيلمة.

هذا الرجل الذى تسبب وعظه ، فى حركة قصيرة الأمد مثل قوتها تمامًا ، ولكنها جاءت بمثابة تحول فى الطالع الإسلامى بعد انحدار ذلك الطالع فى العصور الوسيطة ، هذا الرجل ، كان هو فى واقع الأمر محمد بن عبد الوهاب ، الذى ولد فى قرية العيينه [٤] Ayane فى منطقة نجد فى العام ١٦٩٦ ، وتلقى محمد بن عبد الوهاب تعليمه فى البصرة وفى دمشق وأدرك الاضمحلال الذى طرأ على الإسلام . ثم عاد الرجل إلى واحاته المحلية باعتباره حاجًا ممن شاهدوا المكروهات الدنيوية فى الحجاز ، وكان على قناعة بأن العنصر المكى بكامله كان متمرداً على الله من خلال الممارسات المكية الإسلامية ، وأن الله سيشيح بوجهه عن الناس إلى أن يعودوا إلى عبادته وروح العبادة

القائمة على مفاهيم القرآن الكريم . من رأى محمد بن عبد الوهاب أن التوقير والتبجيل الدينيين هما لله وحده ، الذى لا يعطى شرفه أو تكريمه لأى أحد سواء أكان حيًا أم جمادًا . هذا يعنى أن التقرب إلى الله لا يكون من خلال أى وسيط ، وإنما من خلال الخضوع الكامل له (سبحانه وتعالى) ومن خلال توحيده فى كل وقت وحين . ويرى ابن عبد الوهاب أيضًا أن إخضاع الذات إخضاعا كاملاً ، مع الاتباع الصارم للمعايير الأخلاقية التى بنى عليها المجتمع الإسلامى الباكر فى المدينة (المنورة) هو ما يشرح الصدر وييسر الخاطر . وأن كل ما يغرى باتباع النظرية المادية ، سواء أكانت تلك المغريات قبورًا أم نصبًا تذكارية ، أو آثار الأولياء أو رفاتهم وما إلى ذلك ، يجب هجره ونسيانه عن طريق تحطيم هذه الأشياء ، وأن الإنسان الشارد الضال المتشكك يجب أن يطهر نفسه ويقويها عن طريق الزهد فى الحياة ، وهذا يمكن مثل هذا الإنسان من مواصلة تتبعه للمثل الأعلى .

هذا المثل الأعلى ، الذى رآه نيبور ، بلغ من قسوته الروحية حدًا يصعب معه اتباعه لفترة طويلة فى صورته النقية الخالصة من قبل عدد كبير من البشر البدائيين . إخضاع الجسم والروح لإله مجرد ، خال من الرموز والشعارات المادية ، والذى يجرى التقرب إليه بلا رجل دين أو نبى ، ولكن عن طريق الروح ذاتها يصبح أمرًا بالغ الصعوبة فى المقام الأول ، ولن يكون مقنعًا ، فى المقام الثانى ، لأى جنس من أجناس هذا العالم . وليس من العجيب أو الغريب هنا القول : بأن القسم الأكبر من أتباع محمد بن عبد الوهاب فى نجد لم يستطيعوا الوصول إلى المثل الأعلى الذى ينادى به إمامهم ، وبالتالى يضعون دينًا من أشكالهم وملاحظاتهم الخارجية ، أو إنهم انزلقوا شيئًا فشيئا فى تلك العادات الخرافية ، التى تقوم على مساعدة الضعفاء ، وتعزية ، وبث الأمل فى نفوس الضعفاء والجهلة والتعساء ، وذلك على حد قول شاهد عيان أوروبى [٥] . ولكن هذا الناقد القاسى للمذهب الوهابى لم يشك أو يرتاب فى دوافع أو سلوك مؤسس هذه الحركة . والنبى [*] Prophet اللاحق على العكس من النبى السابق

(*) المؤلف يعتبر محمد بن عبد الوهاب نبيًا (المترجم) .

لم يلجأ إلى الحلول الوسط ولو للحظة واحدة مع المذهب المادى الشائع من أجل تأسيس حركته . هذا الرجل لم يدَّع الوحى السماوى أو الكرامة النبوية ؛ يضاف إلى ذلك أن محمد بن عبد الوهاب لم يتطلع إلى القوة أو السلطة المؤقتة . وقد شاهد محمد بن عبد الوهاب أولئك الذين اقتنعوا بوعظه وهم يعرضون مفهوم ابن عبد الوهاب لله (سبحانه وتعالى) ومفهومه للحياة فى أنحاء الجزيرة العربية كلها ؛ ولكن محمد بن عبد الوهاب ، مات وهو أب ومعلم ، وليس ملكًا .

جاء النجاح المؤقت الذى أصابته حركة الإحياء التى قام بها محمد بن عبد الوهاب سريعًا وهائلاً . وعندما كان فى سن الخمسين تقريبًا استطاع أن يكسب إلى جانبه شيخ الدرعية ، تلك البلدة من بلدان وادى حنيفة ، والقريبة من مسقط رأسه . كان محمد بن سعود صاحب أدوار كبيرة وصاحب طاقة عظيمة أيضًا (كما كانت له أهمية كبيرة فى الجزيرة العربية) ، كما كان ينحدر أيضًا من سلالة قديمة وعريقة فى الوقت نفسه . وبفضل سيف محمد بن سعود وبفضل أسرته أمكن نشر العقيدة التى جرى إصلاحها . تاريخ الجزيرة العربية كله يسجل أن جماعات صغيرة من المتشددين المتحمسين استطاعت إحداث أشياء تقترب من العجائب بين هؤلاء السكان غير المترابطين أصحاب التفكير السطحى ؛ وبالتالى فإن الأفكار الدينية التى جرى توطينها عن طريق القوة بقيت فى نفوس المهزومين على شكل قناعات راسخة . قبل وفاة شيخ الدرعية ، فى العام ١٧٦٥ الميلادى ، كان الرجل قد تمكن من بسط سيادته المؤقتة وسيادة معلمه الروحية على منطقة نجد العليا كلها ، كما استطاع ذلك الشيخ أيضًا الربط بين الرؤساء المحليين ، على شكل اتحاد كونفيدرالى ، مستلهم من السمو الدينى ، يتطلع إلى جعل الناس يدخلون فى الإسلام ، وكان محمد بن سعود نفسه ، هو الذى يهيمن على ذلك الاتحاد الكونفيدرالى . وقام عبد العزيز ، ولد محمد بن سعود وهو رجل شديد المراس فى الحرب ، بسحق البقية الباقية من المتمردين الموجودين فى داخل البلاد ، ثم تحول بعد ذلك بسلاحه لمواجهة الشيوخ المحيطين به ، كما أرغم كلا من القصيم ووادى الدواسر على قبول العقيدة الجديدة [٦] ، كما أعرب جبل شمر عن اقتناعه غير الكامل بتلك العقيدة . الجديدة . ولكن عبد العزيز ترك بقية الغزو لولده سعود ، الذى أشركه بالفعل

فى القوة العليا ، ومضى سعود على الطريق ليثبت للعالم أن سوطا جديداً من سياط الله (سبحانه وتعالى) بدأ يتبدى ويظهر للعيان فى الجزيرة العربية .

أصاب الذعر شريف مكة على وجه السرعة ، كما سمعت الحكومة العثمانية عن هزيمته فى القصيم . وبعد أن وارى جثمان معلمه التراب فى وقار واحترام شديد ، نزل سعود إلى منطقة الخليج الفارسى ، التى شهد رينو (*) Reinaud فيها وحشية رجال سعود فى المنطقة القريبة من الكويت ، وحاول باشا بغداد ، دون جدوى ، منع غزو سعود للأحساء . ومع بداية القرن التاسع عشر ، كان الوهابى قد بلغ من القوة حداً يمكنه من استبداء إصلاح الأماكن المقدسة . وبدأ سعود بكربلاء . المقر الثرى والفاسد لشيعه منزل على ، وقد دُهش حاكم اسطمبول للخراب والدمار الذى جره سعود على كربلاء . وفى العام التالى ، أى فى العام ١٨٠٢ الميلادى، وصلت جحافل سعود شبه العارية إلى أبواب مكة نفسها . هذا يعنى أن مركز الإسلام يمكن أن يخضع ويجب تطهيره . وعلى الفور جرى منع الاحتفالات المحلية ، التى كانت تنطوى على شىء من العبادة ، كما مُنع أيضًا تأبين الموتى بدءا من إبراهيم (عليه السلام) إلى محمد (صلى الله عليه وسلم)، كما منع أيضًا الاتجار أو التعامل فى الأشياء المقدسة ؛ ولكن من المهم القول هنا : إن الممارسات التى تنطوى على تنزيه الله ، والتى منها على سبيل المثال ، رجم الشيطان فى منى ، أو تقبيل الحجر الأسود فى الكعبة (المشرفة)، ما تزال تراعى ويلتزم الناس بها ، وذلك بغض النظر عن طابعها الخرافى . هل كان بإمكان المعلم الرئيسى تحريم هذه الامتيازات التى ترتبت على ذلك الضعف ؟

واصل الوهابيون المسير فى طريقهم الوحشى ، إلى أن وصلوا إلى البحر الأحمر ، ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء على جدة ، ولم ينجحوا أيضًا فى السيطرة على المدينة

(*) كان رينو واحداً من العاملين فى وكالة شركة الهند الشرقية البريطانية التى انتقلت من البصرة إلى الكويت ١٧٩٣ - ١٧٩٥ وكان شاهداً على الغزوات السعودية التى وجهت إلى تلك الإمارة . وخوفًا على مصالح الوكالة البريطانية فقد أوفد إلى الدرعية للتفاهم مع الأمير السعودى وقدر له بذلك أن يكون أول أوروبى يزور عاصمة الدولة السعودية الأولى . (المراجع)

(المنورة) . ومات الأمير عبد العزيز المسن بيدى واحد من اتباع على (ﷺ) ؛ ولكن سعود عاد للاشتباك والقتال من جديد . واستسلمت جده للهجوم الثانى الذى شنه عليها الأمير سعود ، وجرى تطهير المدينة (المنورة) تطهيرًا تامًا قبل مضى خمس سنوات . واستولى الوهابى على رأس الخيمة وفرض الزكاة على عُمان . وفى العام ١٨٠٤ الميلادى دانت الجزيرة العربية كلها لسيادة الوهابى ، وكان على العالم الإسلامى كله أن يعترف ويلتزم بمذهبه الصارم ، لو قدر للناس فى المدن المقدسة الرجوع إلى الله . ترى إلى أين يتوجه الإصلاح والتطهير بعد ذلك ؟ فكر الناس طويلاً فى أن النتيجة الطبيعية لمثل هذا المذهب هى المضى قدمًا فى تغيير الناس وتغيير معتقداتهم حتى يتعين على المسلمين جميعهم العودة إلى الطريق الصحيح ، كما أقتنع الناس أيضًا أن حياة هذا المذهب الجديد تتمثل فى الحرب .

نحن لا يهمنا هنا النجاح الروحى الذى أصابته الحركة الوهابية . من السهل علينا أن نعرف أن محمد بن عبد الوهاب كان يجمع بين النظرية والتطبيق الذى كان يحتوى على بذور الخير وبذور الشر ، وأن هذه النظرية على أيدى البشر الأقل تأملاً ونقاءً يمكن أن تنحرف إلى خلاف طائفى ضحل . يضاف إلى ذلك أن إقدام مسئولية الإنسان الجبرية سيقع على هذه النظرية التى تقوم على الخضوع غير المشروط لله (سبحانه وتعالى) ؛ كما أن الاقتناع بهذه النظرية سوف يبقى على معنى الالتزام الخلقى حيًا فى العقول الشرقية . يزاد على ذلك أن ذلك التقشف والزهد العجيب الذى أضافه المعلم إلى هذه النظرية باعتباره وسيلة من وسائل الرضا الربانى يمكن أن يولد الفضيلة الذاتية كما يولد أيضا تلك الخصوصية المتشددة التى يؤدى التركيز عليها إلى جعل الناس يتخيلون أنهم يركزون عين الله عليهم هم أنفسهم ؛ وفيما يتعلق بالجماهير فإنها يمكن أن تنظر إلى أساليب السلوك الأخلاقى الموحدة باعتبارها وسيلة من وسائل المناعة ضد الانغماس فى الأعمال غير الأخلاقية . وفى الأيام الأخيرة من الوهابية ، أو بالأحرى بعد مرور قرن من الزمان على نشرها أول مرة ، وبعد خيبة آمال معتنقيها بسبب الهزيمة وسوء الطالع ، أصبحت النتائج الشريرة المترتبة على الإصلاح أكثر بروزًا ، وبلا أدنى شك ، عن النتائج الخيرة ؛ وبالتالى نجد أن بالجريف كان لديه

الأسباب التى جعلته يحتقر ويدين الطائفية المنافقة التى انتشرت فى الرياض فى العام ١٨٦٣ الميلادى . ولكن هذا المغامر ، كما سنرى فيما بعد ، كان صاحب مصلحة ، وأنه وضع هذه المصلحة نصب عينيه عندما كان يحاول زيادة الأمر سوءًا على سوئه . ولعلنا نوافق على ذلك تحت أى ظرف من الظروف . وبالرغم من التحلل المرضى الذى قال بالجريف عنه إن عمره يصل إلى أربعين عامًا ، إلا أن الوهابية ، لم تمت بعد ، وإنما بقيت قوة ما يزال المراقبون العقلاء لمسألة الشرق الأدنى يعترفون ويقرون بإمكانية تفشيها وانتشارها من جديد .

هؤلاء الأوروبيون الذين كانوا على اتصال بالوهابيين أيام ازدهار حركتهم أجمعوا كلهم على أن حركة الوهابيين كانت تنطوى على شكل من أشكال الإصلاح ، كما أجمعوا أيضًا على نبل قصد التابعين المخلصين لتلك الحركة ، وعلى أن سلوكهم كان أفضل من سلوك السواد الأعظم من المسلمين ، بل كان ذلك أفضل أيضًا مما ينادى به المعلمون الإسلاميون الرسميون والدعاه المسلمون فى السواد الأعظم من مراكز الإسلام الرئيسية والرسمية . وسوف نتطرق فيما يلى إلى كفاءة أولئك الأوروبيين . ويكفينا هنا القول : إن ذلك العلامة الأسبانى القدير الذى أطلق على نفسه اسم على بك شاهد حشود الحج النجدية فى العام ١٨٠٧ الميلادى وأفرادها يتدافعون بغيه الوصول إلى الحجر الأسود ، ويحطمون المنطقة المحيطة به ؛ كما شاهد على بك بعض الصفات الطيبة فى أولئك الحجاج .

"إنهم لا يسرقون لا بالقوة أو النصب والاحتيال ، اللهم إلا إذا علموا أن ذلك الذى سيسرقونه إنما هو ملك لعدو أو لواحد من الكفار . وهم يدفعون من أموالهم أثمان كل الأشياء التى يبتاعونها ، كما يدفعون أيضا ثمن أية خدمة من الخدمات التى تؤدى إليهم . ونظرا لأن هؤلاء الأتباع خاضعين وموالين لرئيسهم ؛ فهم يساندون فى صمت أى عمل من أعمال السخرة ، وهم أيضًا على استعداد لاقتيادهم إلى الجانب الآخر من العالم" .

ولما كان الوهابيون لم يدنسوا بفجر المكيين ولواطهم ، فقد كانوا يحترمون الطهارة والعفة . وهذا هو بركخاردت ، ذلك المراقب الدقيق والمحايد يقوم بتحرى مكة

من الداخل ومن حولها فى العام ١٨١٤ الميلادى ، ليشهد بأن العمل الوهابى فى مكة والمنطقة المحيطة بها إنما كان صادراً عن رغبة حقيقية ومخلصة لوضع حد للممارسات والأعمال الكريهة ؛ يضاف إلى ذلك أن الوعد الوهابى يجرى الوفاء به حتى ولو كان عدواً خائناً ؛ وقصارى القول هو أن "وصف الدين الوهابى يعنى إجمال ما سبق ذكره من العقيدة الإسلامية ، من ناحية ، وتبيان نقاط اختلاف هذا المذهب عن ذلك الذى يسوقه الأتراك على شكل قائمة بالسباب والشتائم الموجهة إلى ذلك المذهب" .

كان ذلك هو حال جولات سعود وصولاته مما لفت أنظار الكثيرين إلى الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد نسيوها . وبينما كان الأمراء الوهابيون يحاولون فرض الوحدة على نجد ، لم يأخذهم أحد بعين اعتباره . وعندما تصاعد الدخان من كربلاء ، أحست كل من إسطمبول وطهران بالاضطراب والضيق . ولكن عندما جرى الاستيلاء على مكة والاحتفاظ بها ، بدأ الخليفة نفسه يستشعر القلق إزاء سيادته الدينية ، كما بدأ يساوره القلق أيضا بشأن وحدة أراضى إمبراطوريته المتأرجحة ؛ هذا بالإضافة إلى أن أوروبا المسيحية بدأت تفكر مليا فى هزة جديدة فى الشرق، يحتمل أن يمتد أثرها إليها .

فى مطلع العام ١٨٠٧ الميلادى هبط على أرض جده حاج أميرى من الغرب ومعه رهط كبير من الخدم ، والآلات العلمية ، والأجهزة التعليمية الأخرى ,أطلق هذا الحاج على نفسه اسم على بك العباسى ، وأنه كان آخر عضو من أعضاء أسرته التى تحمل هذا الاسم ، وأنه قام بتلك الزيارة الحتمية إلى مكة ، وحاول أيضا ، بعد أن ركب السفينة إلى بلدة ينبع ، الوصول إلى المدينة (المنورة) ؛ ولكن الوهابيين أعادوه إلى المكان الذى جاء منه . وعاد على بك إلى مصر ، وبعد أن قام برحلته إلى مصر ومنها إلى سوريا ثم إلى تركيا ومنها إلى أوروبا ، وصل إلى باريس فى العام ١٨١٣ الميلادى . وبعد ذلك بعام نشرت فى باريس حكاية ترحاله جرت ترجمتها عن المخطوطة الإسبانية التى كتبها على بك بخط يده . على بك هذا ، كان فى واقع الأمر أسبانيًا اسمه

دومينجو Domingo باديا Badia ليبلش Leblich ، الذى بدأ رحلته من قادش (*) Cadiz بعد التشاور مع شخصيات بارزة ومتباينة فى كل من باريس ولندن ، كما جرى "الحديث عنه" بواسطة شاتوبريا Chateaubriand بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الهدف المعلن لعلى بك هو الملاحظة العلمية ، ولذلك كان هذا الأسبانى مؤهلاً تأهيلاً جيداً لهذا العمل من حيث معرفة اللغة العربية ، كما كان متقنا أيضا لاستعمال الآلات ، فضلا عن إتقانه للجولوجيا وعلم النبات . ولكن كل هذه الأمور ما يزال يشوبها شيء من الغموض. فقد جاء الرجل من الغموض وعاد أيضًا إلى الغموض فى تنكره الشرقى . وعندما نشر بانكس Bankes فى العام ١٨٣٠ الميلادى رواية فيناتى Finati الذى جاء بعده ، أشار إلى أن على بك هذا كان يهودياً ، وزعم الرجل زعما معرفياً أكيدا أن على بك هذا كان جاسوساً من جواسيس نابليون ، ولا يستبعد أن يكون الإمبراطور الذى خاب أمله فى امتلاك الشرق والسيطرة عليه ، كان ما يزال يعيش بذلك الأمل بل وصل به الحال إلى إعلان إسلامه (**) ، قد أرسل على بك هذا إلى مكة عن طريق المغرب وطرابلس ليجمع للإمبراطور معلومات عن موقف العالم الشرقى من تلك الحركة الإسلامية الجديدة ، ويتبين إن كان بالإمكان عدم توجيه تلك الحركة للوقوف فى وجه خطته التى رسمها لكل من مصر وسوريا والشرق . على بك هذا ، أو بالأحرى ذلك الأسبانى الذى يدعى باديا Badia لم يكن سوى مدَّعٍ للإسلام ، ولكنه اعتنق ذلك الدين قبل ذهابه إلى مكة وبعد أن دخلها ، وأنه كان مسلمًا حقيقيًا طوال وجوده فى مكة ، وأنه كان يتباهى بكلامه وسلوكياته ، إلى حد أنه كان يحظى بتكريم وامتيازات غير عادية ، بالإضافة إلى منحه الحرية الكاملة فى استعمال الآلات وتدوين الملاحظات . ومع ذلك فإن المكيين الذين اعترفوا بأن على بك كان أستاذاً من أساتذة العلم الأوروبى لم يخطر ببالهم أنه كان أوروبيًا من أولئك الذين ارتدوا عن دينهم ودخلوا فى الإسلام .

(*) بلده قادش تقع فى مقاطعة أندلسية ، فى أقصى جنوب الجزيرة الأيبيريه ، ويحيط بها البحر المتوسط ومضيق جبل طارق من ناحية الجنوب والمحيط الأطلسى من ناحية الجنوب الغربى . (المترجم) .

(**) ليست لدينا أدلة قاطعة على أن نابليون أعلن إسلامه والأصح أن يقال إنه كانت لديه سياسة إسلامية حاول استغلالها فى مشروعاته التى كان يأمل تحقيقها فى الشرق . (المراجع)

هذا الجزء من رواية على بك الذى خصصه للجزيرة العربية يتعلق معظمه بمكة (المكرمة) نفسها وبخاصة الكعبة والمنطقة المحيطة بها ، كما يتعلق ذلك الجزء أيضًا بمراسم الحج وطقوسه . هذا يعنى أن على بك كانت الفرص المتاحة له أكثر من تلك الفرص التى كانت متاحة لمن سبقوه ، وقد وصل الأمر إلى حد السماح لعلى بك هذا بامتياز المشاركة فى غسل بيت الله ؛ يزاد على ذلك أن رواية على بك ساعدت على تصويب بعض الأخطاء البسيطة التى وردت عند من سبقوه (ولم يكن على بك على علم أو معرفة بتلك الأخطاء الصغيرة) ، فى الوقت الذى أبقت فيه تلك الرواية على بعض الأخطاء الجديدة ليقوم بركخاردت Burckhardt بتصحيحها . والذى يهمنا هنا هو حكاية أبواب وأعمدة الحرم المكى ؛ وهذه الأشياء تهمنا أكثر من التفاصيل الطقوسيه التى لاحظها على بك ، ذلك اليهودى الإسبانى ، فى كل من منى وعرفات ؛ وهنا يتعين علينا التعجيل بالقول إن على بك كان صاحب مشكاة صغيرة فى معبد الجغرافيا . فقد كان على بك أول من حدد موقع مكة (المكرمة) عن طريق الملاحظة الفلكية ، -هذا يعنى أن على بك هذا كان أول من حدد نقطة داخلية فى الجزيرة العربية ؛ ومن حقه أن يزعم أنه كان أول من دون بعض الملاحظات عن الجولوجيا ، وعن النبات ، وعن الأرصاد فى منطقة الحجاز . يزاد على ذلك ، أن أحدًا من الأوروبيين لم يقدم وصفًا للطرق المتجهة من كل من مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) إلى الساحل . على بك هذا كان أول رجل يأتى على ذكر الحرَّات Harrahs أو الأراضى البركانية فى غربى الجزيرة العربية ، وهى تلك المعلومات التى زادها بركخاردت وأضاف إليها ؛ كما أورد على بك فى البداية رواية عن نجد الوهابية وعاصمتها الدرعيه ، بالرغم من أنه حدد موقع الدرعية على بعد مسافة ليست بقصيرة ، من موقعها الحقيقى . وكتاب على بك قيم من الناحية التاريخية ، من حيث أنه هو الكتاب الوحيد الذى يحتوى على تسجيل خطة شاهد عيان ، وأن ذلك التسجيل يتعلق بالحجاز تحت الحكم الوهابى وقبل التدخل المصرى . ومن المهم هنا معرفة أن النتيجة المباشرة لقيام الإصلاح الدينى تمثلت فى مغادرة الأوروبيين جميعهم لمدينة جدة .

بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وأثناء الحكم الوهابى فى مكة (المكرمة) ، ظهر أوروبى آخر ، يدخل من الفئة نفسها التى ينتمى إليها باديا Badia ، ولكنه لم يكن عميلاً سياسيًا بالشكل الذى كان عليه باديا ، أو أن شئت فقل : على بك ، ولكنه كان أوفر علمًا من هذا الأخير . كان ذلك الرجل ، هو أولريش Ulrich جسبار Jaspar سيتزن Seetzen ، الذى نعتوه بأنه "مستشار السفارة" ، فى الخدمة الدبلوماسية الروسية ، هذا الرجل درب نفسه طوال عشرين عامًا فى ألمانيا ليكون واحدًا من مستكشفى الشرق . كان أولريش جسبار سيتزن واحدًا من علماء النبات ذائعى الصيت فى أوروبا ، كما كان أيضًا ملاحظًا مدققًا لكل من الأشياء والبشر ، فضلاً عن معرفته الممتازة للغة العربية ، وكان قد سبق لهذا الرجل قضاء ما يقرب من سبعة أعوام فى بلاد الشرق ، – خلاصة القول ، إن سيتزن كان هو الأفضل تأهيلاً علميًا من نواحى كثيرة ، بين الرحالة الأوروبيين جميعهم ، وبخاصة أولئك الذين سبق أن جاءوا إلى الجزيرة العربية . من هذا المنطلق ، ونظرًا لأن حجه إلى كل من مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) كان يرمى إلى القيام بمشروعات ترحالية أكثر اتساعًا وطموحًا ، فإننا يمكن لنا اعتبار سيتزن سلفا لبركخاردت Buchkardt بدلاً من كونه خلفًا لعلى بك . وسيتزن شأنه شأن على بك ، اعتنق الإسلام ، بكل تأكيد ، لفترة معينة ، ويبدو أنه لم ينتحل شخصية المسلم قبل نزوله إلى أرض الجزيرة العربية ، – وقد أهل سيتزن نفسه ليكون درويشًا يغامر ويخاطر فى أراضى المسلمين التى يصعب الوصول إليها ، وذلك على العكس من منطقة الحجاز ؛ هذه الأراضى على وجه التحديد هى خانات وسط آسيا ، التى كانت لها أهمية خاصة عند راعيه الروسى الإمبريالى . قام سيتزن شأنه شأن كثيرين آخرين بإعداد مشروع لعبور ذلك الجزء الداخلى من الجزيرة العربية الذى يقع على طريقه الذى سيسلكه إلى الشرق الأقصى ؛ وتحقيقًا لهذا الهدف ، وبعد أن أدى سيتزن فريضة الحج ، وزيارة كل من صنعاء وعدن ، أنطلق من الساحل مرة ثانية متجها صوب الجزء المرتفع من اليمن ، ومعه إبل كثيرة ، وهو ينتحل شخصية الحاج موسى ، الطبيب ؛ ولكنه لم يتجاوز منطقة تعز نظرًا لاغتياله هناك . ولم يعرف حتى الآن من الذى قتله أو حتى أسباب ذلك القتل ؛ لكن راج انطباع معاصر مفاده أن القتل لم يكن

طمعًا فى السلب والنهب ، وإنما لشك مريب أفضى إلى ذلك الاغتيال . على أى حال ، فقد وقع سيتزن ، الذى حامت من حوله الشكوك فى مكة (المكرمة) ، والذى جرى استجوابه من قبل الأمير الوهابى، فى خطأ جسيم عندما عاد من الطريق الذى سبق أن سلكه . وقد أمكن استعادة بعض متعلقات سيتزن ، ولكن لم يمكن استرداد كتبه أو مذكراته اليومية ؛ وبعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا ، شاهد المبشر جوزيف Joseph ولف wolff سجلاً من سجلات الأحداث اليومية فى بلدة زبيد . وهذه المأساة التى سرقت منا ثمار الاستكشاف الذى قام به ذلك الباحث العظيم ، فى كل من الحجاز واليمن، هى أيضًا التى سلبت منه شيئًا من الشهرة التى آلت بعده إلى بركخاردت Burckhardt .

إذا كان السواد الأعظم من أوروبا قانعًا فقط بمجرد الفرجة والمراقبة من بعد لكل ذلك الذى كان يحدث فى مكة فى ذلك الوقت ، فقد كانت هناك قوة واحدة هى التى وجدت أن التدخل أمر لا يمكن تجنبه . هذه القوة تتمثل فى العثمانيين . ولما كان خليفة المسلمين ضعيفًا جدًا فى تلك الحقبة ، فقد بدأ يتخوف من استبدال السيادة على مكة (المكرمة) بسيادة أخرى ، كما راح خليفة المسلمين يتخوف أيضًا من الحكم الدينى فى العالم السنى ، الذى يختلف عن الحكم الذى يسير هو عليه . يضاف إلى ذلك أن الخبرة الطويلة التى جناها خليفة المسلمين من الأخطار التى ترتبت على الحج الدمشقى والمصير الذى آلت إليه الحملة التى أرسلت من مدينة البصرة ضد الأمير الوهابى ، هى التى حالت دون المخاطرة بإرسال جيش إلى الجزيرة العربية عن طريق البر أو من ناحية الشرق ، إلى حد أن السلطان لم يكن أمامه من خيار سوى أن يجعل من مصر قاعدة لعملياته ضد الأمير الوهابى . كان يحكم مصر فى ذلك الوقت باشا جديد ، استطاع عن طريق الطاقة والتصميم ، تحقيق السيطرة الفعلية على الأراضى المصرية كلها ، كما كان ذلك الباشا فى الوقت نفسه ربيبًا لسيده بحكم ظروف أصله وتعيينه . وقد جرى استخدام هذا الباشا الجديد فى تفتيت الأرستقراطية العسكرية الأجنبية (*)

(*) المقصود بالأرستقراطية العسكرية الأجنبية العصبيات المملوكية التى بقيت فى مصر على الرغم من قضاء العثمانيين على دولة المماليك . (المراجع)

التى سادت وادى النيل منذ زمن طويل ، وبعد أن أنتهى الباشا الجديد من تحقيق ذلك أصبح لديه وتحت تصرفه عدد كبير من كتائب السخرة المكونة من المجندين .

أرسلت الأوامر الواحد تلو الآخر لمحمد على كى يقوم بغزو الجزيرة العربية ، ولكن الباشا ضاق ذرعًا بكل هذه الأوامر وكان يتناساها (*) . وأخيرًا بدأ الخطر الداهم الذى استشعره الباب العالى ، يكشف عن نفسه . وفى العام ١٨١٠ الميلادى ظهر جيش من الجزيرة العربية ، وهجم على الأراضى الواقعة خلف الأردن ، واستولى على الأراضى كلها فيما عدا دمشق ، وجرى صد جيش آخر فى كل من كربلاء ومشهد على . وهنا ضاق صدر الخليفة ولم يكن على استعداد لتحمل المزيد من الإهانات ، بعد أن تم طرده إلى منطقة قريبة من موطنه ؛ وهنا جرى لفت نظر محمد على أنه يتعين عليه إنقاذ سيده وإلا سوف يدمر بواسطته . ولو قدر لمصر أن تبقى فى سلام فإن حاكمها المناب يجب أن يكون معارضًا للمخاطرة التى تجرى فى الجزيرة العربية وكارهًا لها . كانت لدى حاكم مصر المناب (محمد على) مشروعات غير واضحة ولكن طموحة ، أما مسألة أن يصبح هو محرر مكة (المكرمة) فذلك سوف يعنى شيئًا كبيرًا فى عيون المسلمين . واستسلم محمد على فى نهاية المطاف ، وقام ببناء أسطول فى السويس ، ولكنه لم يجرؤ على مغادرة مصر ، التى كان المماليك فيها ما يزالون أقوياء ، ولذلك قام محمد على بإيفاد ابنه طوسون على رأس الحملة فى خريف العام ١٨١١ الميلادى (**) .

تميزت حقبة الحملات المصرية على الجزيرة العربية بحدوث تقدم بالغ فى تعرف أوروبا شبه الجزيرة العربية ، هذه الحملات المصرية زادت من هذه المعرفة بطريق غير مباشر وليس بطريق مباشر . فقد رافق هذه الحملات حوالى عشرة من الأوروبيين فى مواقع رسمية وبطريقة علنية ، ويضاف إلى هؤلاء العشرة عددًا آخر غير معروف من

(**) المعروف أن محمد علي لم يبادر بالاستجابة لأوامر السلطان ؛ إذ إن مركزه لم يكن قد توطد بعد فى مصر . (المراجع)

(***) يحدد هذا العام نجاح محمد على فى التخلص من المماليك فى مذبحة القلعة التى تواكبت مع خروج حملة طوسن إلى الحجاز . (المراجع)

الأوروبيين الآخرين الذين تحولوا إلى شرقيين عن طريق الارتداد عن دينهم والدخول فى الدين الإسلامى ؛ منهم على سبيل المثال ذلك الأغا Agha المملوكى ، الذى يدعى توماس Thomas كيث Keilh فى بعض الأحيان ، والذى كان جندياً فى الوحدة الثانية والسبعين من الجنود الإسكتلنديين ؛ هذا الرجل شغل ولفترة قصيرة من العام ١٨١٥ الميلادى أغرب منصب يمكن أن يصل إليه مواطن إسكتلندى ، - ألا وهو تولى منصب محافظ المدينة (المنورة) ؛ وهناك أيضاً آتكنز Atkins الإنجليزى ، الذى وجده تامسير Tamisier قائدا لبطارية صواريخ كونجريف فى الحملة التى جُرِّدت على عسير فى العام ١٨٣٤ الميلادى . والشخص الوحيد من بين هؤلاء الذين ارتدوا عن دينهم ، والذى وصلت إلينا روايته وتسجيلاته ليس لديه ما يقوله لنا ويخدم أغراضنا . هذا الشخص هو جيوفانى Giovanni فيناتى Finati الفيرارى، الذى هجر الجيش الفرنسى فى دالماتيا Dalmatia والتحق بالجيش التركى، ثم سجل نفسه بعد ذلك فى الجيش المصرى فى القاهرة . جيوفاتى فيناتى هذا خدم مع طوسون ، الابن الثانى لمحمد على ، مثل جندى مرتد عن دينه إلى دين الإسلام ؛ هذا الرجل وصلت قوته ونفوذه إلى حد جعلهم يوفدونه لحصار القنفذة Gunfude فى العام ١٨١٤ الميلادى ، كما مكث مدة فى مكة (المكرمة) ، وشارك أيضاً فى غزو تربه Taraba ، ثم قام بعد ذلك بسرد مغامراته بالقدر الذى سمحت به ذاكرته ، وذلك عندما كان يعمل ترجماناً فى سوريا لوليم William جون John بانكس Bankes ، الذى كان رجلا إنجليزياً . الرواية التى رواها جيوفانى فيناتى هذا ، رواية مسلية بشكل معقول ، كما أن الأضواء التى ألقاها على أحوال القوات المصرية كانت مفيدة للغاية ؛ ولكن المعلومات الجغرافية التى أوردها لا قيمة لها على الإطلاق . يضاف إلى ذلك أن الأوروبيين الذين كانوا يعملون بصورة علنية ، وكانوا من رجال التعليم ، لم يقدموا روايات كافية عن أنفسهم . وإذا ما استثنينا بعض الجراحين الفرنسيين ، الذين جاءوا بعد العمليات الحربية الأخيرة ، نجد أن أحداً من الضباط الغربيين ، على حد علمى ، لم ينشر تجاربه وخبراته التى مر بها .

على كل حال ، أدى احتلال قسم كبير من الجزيرة العربية ، فى وقت أو آخر ، بواسطة قوة مسلمة شبه غربية ، اشتهرت بتراخيها ، إلى تمكين أحد الأوروبيين من

أصحاب المواهب المتفردة ، من القيام بالتجوال الحر فى أرض محرمة على الأوروبيين وممنوعة عنهم ، ومكنت أوروبيًا آخرًا من عبور الجزيرة العربية علانيةً وبلا تنكر . يزاد على ذلك ، أن هذا الاحتلال أدى أيضًا إلى إدخال سكان وسط الجزيرة العربية المجهولين فى علاقة مع الأوروبيين الآخرين ، الذين تمكنوا عن طريق تقاريرهم ، ومن خلال عضويتهم فى القوات المصرية ، من تجميع بعض الأوصاف الجغرافيةلبعض الأقاليم التى لم يجر اكتشافها بعد . خلاصة القول ، إننا يتعين علينا أن نتوجه بالشكر إلى محمد على على الأبحاث العلمية التى قدمها عن نجد وعسير كل من منجن Mengin وجومار Jomard ، ونشكر محمد على أيضًا على سجل الأحداث اليومية الذى قدمه سادلير Sadlier ، وعلى الحج الذى قام به بركخاردت Burckhardt .

بوسعنا هنا التغاضى عن الاخفاقات والنجاحات التى لحقت أو أصابت الحملات المصرية . ومن يرد المزيد عن تلك الاخفافات والنجاحات للحملات المصرية عليه بكتاب فيلكس Felix منجين Mengin المعنون : تاريخ مصر تحت حكم محمد على . وسوف نكتفى هنا بالكلام بصورة عامة عن النتيجة العامة ، والاكتفاء بالإشارة إلى أحداث بعينها ارتبطت بالاستكشافات والتحريات التى قام بها أولئك الرحالة الذين سبق الإشارة إليهم . كانت الحملات التى جردها محمد على على الجزيرة العربية سيئة من حيث البشر والأفراد ، ومن حيث التزود بالمعدات ، وقد أنصب ذلك بصفة خاصة على الحملات الأولى ، التى أسىء توجيهها إلى حد بعيد . ولكن خيانة الأقسام المختلفة من عرب الغرب لبعضهم البعض، واستعداد هذه الأقسام المختلفة للتخلى عن النظام القاسى للوهابيين ، وسوء تسليح الوهابيين أنفسهم قياسًا على تسليح المجندين المصريين أنفسهم ، الأمر الذى مكن القوات الغازية من التعافى من الهزائم التى كانت تلحق بها ، ومكنها أيضا من البقاء فى الجزيرة العربية ، والتقدم بصعوبة من نقطه إلى أخرى فى اتجاه هدفها النهائى فى نجد. وهذا هو طوسون ، الابن الثانى لمحمد على ، نزل فى ينبع وسرعان ما خسر نصف جيشه ، ولم يحتل المدينة (المنورة) إلا بعد عامين ، ومع ذلك لم ينجح إلا بفضل بدو قبيلة حرب ؛ ولكن طوسون استطاع من خلال التعاون مع شريف مكة ، الوصول إليها بسهولة كبيرة

فى العام ١٨١٢ الميلادى . وفى مكة (المكرمة) تكاسلت قوات طوسون وتراخت ، وأصاب الطاعون أفرادها ، إلى أن وصل والده إلى مسرح العمليات ، وأرسل تلك القوات فى اتجاه الشرق واتجاه الجنوب لإخلاء الحجاز من الغزاة الشجعان الذين جاءوا من نجد ومن عسير. وقد لقى المصريون هزائم قاسيه فى هاتين المنطقتين ، وشكروا الحمى التى أودت بحياة سعود ، ذلك الوهابى الكبير ، فى مطلع العام ١٨١٤، ولم يكن ذلك بفضل مهارتهم أو شجاعتهم فى ذلك التخلص العاجل أو النجاح الذى أصابته تلك القوات فى نهاية المطاف . كانت هناك فترة لالتقاط الأنفاس أثناء وجود محمد على فى كل من مكة (المكرمة) والطائف ، وإعطاء الفرصة للبدو كى يخونوا بعضهم بعضاً ، ويهيئ لنفسه الفرصة التى يبدو من خلالها مسلما خالصا .

عند هذا المنعطف نزل على أرض جده شخص يدعى إبراهيم بن عبد الله ، الذى كان معروفا من محمد على بالفعل فى القاهرة ، على أنه إنجليزى مرتد عن دينه ، أو بالأحرى مرتد مجهول الاسم ، وكان الباشا صاحب الفكر الحر يخص هذا الإبراهيم بشىء من الحظوة. هذا الإبراهيم هو فى الأصل جوهان Johann لودفيج Ludwig بركخاردت Burckhardt ، وهو سويسرى من مدينه بازل ؛ وبعد أن تلقى الرجل دراسته فى لندن أوفدته الرابطة البريطانية الإفريقية إلى الشرق. ومن خلال إقامة بركخاردت مدة تزيد على عامين فى حلب ، ومن خلال التجوال فى كل من سوريا والنوبة ، أمكن لذلك الرجل أن ينتحل بصورة متدرجة شخصيه وطابع الرجل الشرقى ، واشتهر باكتشاف بيترا (*) Petra . كان بركخاردت فى ذلك الوقت – يود الحصول على معلومات عن الجزيرة العربية ، كما أن لقب حاج يمكن أن يفيده فى خطته النهائية التى سيقوم وفقاً لها بالاختراق من المغرب وصولاً إلى أراضى النيجر .

(*) بيترا : مدينة قديمة فى الأردن تقع فى أحد الأحواض على الضفة الشرقية لوادى عرابه كانت عاصمة للأنباط ومركزاً مهمًا من مراكز تجارة القوافل . ازدهرت بدءًا من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد . وجرى ضمها إلى الإمبراطورية الرومانية فى العام ١٠٦ الميلادى . (المترجم)

في عالم البحث والباحثين ، وبخاصة فيما يتعلق بمن جاءوا بعد بركخاردت ، لا نجد اسما من بين أسماء أولئك الذين استكشفوا الجزيرة العربية ، يستحق الثناء والتقدير أكثر من اسم بركخاردت ؛ وهو لا يستحق كل هذا الثناء والتقدير على كبر اكتشافاته وزخمها (بالرغم من ادعائه الأولوية فى كثير من الأمور) ؛ وإنما لأن ترحل هذا الرجل غطى مساحة أقل من المساحة التى غطاها نيبور ، لم يواجه بركخاردت أخطارًا كبيرة ، ولم يواجه صعوبات غير مسبوقة ، ولم يدخل فى مغامرات تثير الدهشة والعجب . كان إبراهيم بن عبد الله (بركخاردت) واحدًا من تلك الجماعة الصغيرة صاحبة الحكمة الحكيمة ، وواحدًا من أولئك الرحالة المستبصرين الذين يمضون فيما يفعلون بسهولة ويسر فى الوقت الذى يكابد فيه رحاله آخرون المتاعب والمشاق ، ولا يعلمون شيئًا عن اللحظات المثيرة فى أرض يمكن أن تعمر بالمخاطر فى أى وقت من الأوقات . وإبراهيم بن عبد الله هذا يشهد ويقر أنه لم ينعم بالسلام والطمأنينة إلا عندما كان فى مكة ، كما يشهد ويقر أيضا أنه لم يلاق فى الجزيرة العربية أحداثا أسوأ من الأحداث التى يمكن أن تقع لعابرى السبيل والحجاج العاديين فى الحجاز . ولولا الأمراض الكثيرة التى أصابت جسمه ، لسجل لنا ذلك الرجل رواية مثيرة . كان إبراهيم بن عبد الله (بركخاردت) ضليعا فى الشريعة والأعراف الإسلامية ، ولم يكن ينكر أنه أوروبى ، ولكنه كان يدعى ادعاءً منطقيا بأنه مرتد عن دينه ودخل فى دين الإسلام منذ بضع سنين ، وأن الرجل لم يفعل فى حياته اليومية أى شىء غير ذلك الذى يفعله أى رجل من الرجال المتعلمين المستنيرين أصحاب الدين ؛ كما كان الرجل يتكلم العربية بطلاقة ، وكانت لغته العربية سليمة ؛ يزاد على ذلك أن بركخاردت لم يهيئ الفرصة التى يمكن أن تمكن منه كلا من الباشا المصرى الذكى ، أو أهل المدينتين المقدستين الواعين المتنبهين ، أو أولئك المتشددين الذين يتجمعون فى موسم الحج ، أو البدو الأجلاف الذين صادفهم على الطريق .

الفضل المنسوب إلى بركخاردت لا يرجع إلى رؤية هذا الرجل لأشياء كثيرة فى الجزيرة العربية ، وإنما للأشياء الكثيرة التى وقف عليها فى هذا العدد القليل من الأشياء التى رآها ، وهذا راجع إلى رؤية الرجل الواضحة واستعداده الذهنى نتيجة

دراسته للسلطات المحلية . عظمة بركخاردت تتجلى لا فيما هو جديد على العلم الغربى ، وأنما فيما هو صادق وما يزال صادقًا وحقيقيا إلى الآن . كان بركخاردت الأول من بين رحاله الجزيرة العربية ، الذى فهم مسألة التزام المستكشف باستخدام التقصى بكل أنواعه وصنوفه ؛كما أن قلة قليلة من المستكشفين هم الذين تركوا وراءهم شيئا قليلا لذلك الرجل الذى جاء بعدهم . يضاف إلى ذلك أن وصف بركخاردت لكل من جده ومكة (المكرمة) إنما هو وصف موسوعى - الثمرة الطيبة لعين متأنية وفاحصه لم تغمض مطلقا عن الاهتمام بكل مالا يتعلق بالبشر . وبيرتون عندما تحتم عليه تقديم روايته الخاصة لزيارته التى قام بها إلى العاصمة الدينية بعد ذلك بأربعين عاما ، لم يكن أمامه أفضل من الاقتباس عن بركخاردت ؛ وعندما يجد بيرتون Burton ما يضيفه إلى الوصف الذى قدمه سلفه للمدينة (المنورة) ، فإن السبب فى ذلك يكون راجعًا إلى المرض الذى أصاب بركخاردت وأودى بحياته خلال عامين .

ليس لدينا ما نزيده على ما قلناه عن الرحلات الحقيقية التى قام بها بركخاردت فى الجزيرة العربية . كل ما فى الأمر أن الرجل ذهب مباشرة من جده إلى الطائف ، مارًا بذلك على ركن من أركان مكة (المكرمة) ، كما مر أيضًا من فوق جبل قوره Kora ؛ وبعد أن تحسنت علاقته بمحمد على ، عاد فى ثوب التقوى والدين إلى المدينة المقدسة ليكون فى انتظار مجيئ قوافل الحج . وبصحبة المؤمنين أدى الرجل فريضة الحج فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، ولكن ضاعت منه فرصة العودة ومغادرة مكة (المكرمة) مع بعثه الحج السورية ، وكان السبب فى ذلك هو هروب الجمالة المرافقين لبركخاردت . ومع ذلك ، وعندما عثر الرجل على جماعة صغيرة متجهة إلى المدينة (المنورة) فى شهر يناير من العام ١٨١٥ الميلادى، رافق تلك الجماعة على الطريق الساحلى وزار قبر النبى (ﷺ) قبل أن يرقد فى سريره إلى شهر إبريل . وبعد أن تعافى الرجل تراجع عن الرحلة البرية إلى مصر ، لأنه كان يود زيارة الآثار الحجرية فى الحجر (مدائن صالح) ؛ ووصل الرجل إلى ينبع ، ومنها استقل سفينة من السفن . وقد وصلت مخطوطات اليوميات التى دونها بركخاردت هى والملاحظات التى دونها أيضا عن الوهابيين باللغة الإنجليزية ، إلى رعاته فى لندن قبل أن توافيه المنية

فى مدينة القاهرة ؛ هذه اليوميات هى والملاحظات روجعت فى بعض أجزائها بواسطة مارتن Martin ليك Leake ؛ ولكنها لم تنشر على الفور ، بسبب حاجة الرابطة الإفريقية إلى أن تنشر أولاً يومياته عن الرحلة التى قام بها إلى سوريا والنوبة . وجرى فى نهاية المطاف نشر "المذكرات اليومية عن الجزيرة العربية" ، فى العام ١٨٢٩ الميلادى ، بواسطة السير وليام William كيسلى Quseley ، كما رأى النور بعد ذلك كتاب "ملاحظات عن البدو والوهابيين" ، بعد ذلك بعامين على شكل أربعة مجلدات عن الجزيرة العربية . وهذه الكتب تعد من حيث الكم والكيف تذكاراً لا ينسى لرحلة لم تستمر تسعة أشهر ، قضى الرجل قسما منها على فراش المرض ؛ وهذه الكتب مهمة جداً لأن صاحبها كتبها فى اثنى عشر شهراً وهو فى صحة متأرجحة ، أفضت إلى وفاته . وبالرغم من كبر حجم هذه الكتب إلا أنها لا تحتوى على أقل القليل الذى يمكن وصفه بالسطحية أو الغثاء ، كما أن كل جزء صغير من تلك الكتب عامر بالمغامرة الشخصية . وهذه الكتب تعد شهادة لم يأت أى مستكشف بمثيل لها فيما يتعلق بالصناعة ومراعاة الضمير والوعى .

يمكن القول إن اليوميات التى كتبها بركخاردت أشبعت عند نشرها كل الفضول الذى استشعره رجال الدين ورجال السياسة ، ورجال الاجتماع ، ورجال التاريخ المحلى ، والجغرافيون ورجال الاقتصاد والتجار ، تجاه المدن المقدسة والأماكن المجاورة لها . كما أن هذه المفكرات اليومية ، التى كتبها بركخاردت كان فيها الكثير أيضاً لطلاب وباحثى العلوم الطبيعية ، وبخاصة الجيولوجيين وذلك على الرغم من أن بركخاردت على العكس من سيتزن لم يكن من علماء الطبيعة فى المقام الأول . والدقة غير العادية وكذلك التفاصيل غير العادية التى أوردها فى وصفه للكعبة والمنطقة المحيطة بها ، يضاف إلى ذلك أن هذا الوصف لم يترك أى شىء لبيرتون Burton الذى جاء بعده كى يضيفه أو يحذفه ؛ لم يترك لسنوك Snouck هيرجرونجى Hurgronje ، الذى هو من جيلنا ، سوى مهمة بسيطة تتمثل فى ملاحظة التغيرات التى حدثت خلال سبعين عاماً ، علاوة على تكبير حقائق التاريخ الماضى وتنسيقها . وفى يوم عرفة وسماع الخطبة ، وفى رمى الجمار ، وفى النحر فى منى ثم العودة إلى مكة (المكرمة) ،

هناك دوماً مادة جديدة للعين الفاحصة المدققة ، وهناك متسع أيضًا لطرافة الوصف . ولكن الوصف الذى أتى به بركخاردت وحرره بقلمه لهذه المشاهد من مشاهد الحج لم يحدث أى شيء يفضله أو يتفوق عليه ؛ وكل مشهد من هذه المشاهد أثبت لنفسه أنه أصبح أكثر حساسية لعراقة هذه المشاهد وأهميتها الإنسانية . ولعلنا نلاحظ مع بركخاردت تلك الآلاف من البشر الذين يقفون على كتل جبل عرفات الجرانيتيه ، من حول الخطيب وهو يلقى الخطبة ، وهو يمسح بيديه الدموع التى تشهد على رحمة الله .

"بعض منهم ، ومعظمهم من الأجانب ، كانوا يصيحون بصوت عال ويبكون ، ويضربون صدورهم ، ويعترفون بأخطائهم وخطاياهم الكبيرة أمام الله ؛ آخرون (وهم الأقل عدداً) كانوا واقفين يتأملون ويفكرون فى صمت وقد اغرورقت عيونهم بالدموع . فى الوقت نفسه كان هناك كثيرون من أهل الحجاز وكثيرون من الجنود فى الجيش التركى كل أولئك كانوا يتسامرون وينكتون ؛ وعندما كان الآخرون يلوحون بملابس الإحرام ، كانوا يأتون حركات عنيفة ، كما لو كانوا يسخرون من ذلك التجمع . وفى الخلف ، وعلى تل من التلال ، لاحظت جماعات عدة من الجنود العرب ، الذين كانوا يدخنون النرجيلة ؛ وفى قافلة قريبة ، كانت تجلس امرأة من العامة ، كانت تبيع القهوة ، فى حين زوار هذه المرأة يزعجون الحجاج من حولهم بضحكهم وتصرفاتهم الصاخبة ."

كان بركخاردت ينظر بعين الفيلسوف إلى أركان الإسلام ، ثم ينبرى بركخاردت بعد ذلك بلا توتر أو تشنج ليوضح لنا هذه الأركان . أوضح الرجل أن روائع المسجد النبوى فى المدينة (المنورة) لم تكن على ما ينبغى أن تكون عليه : –

"هذه هى الألوان البهيجة المبهرجة فى كل جانب من الجوانب ، وهذه هى الأعمدة المطلية بطبقة من الزجاج ، وهذه هى السجاجيد الفاخرة ، وهذه أيضا الأرصفة الثرية ، وتلك نقوش مذهبه على الجدار الجنوبى ، وهذا هو الغطاء الموضوع على الحجرة Hedjra موجود فى خلفيه هذه الصورة ، كل ذلك هو ما يستلفت النظر ويسترعى الاهتمام منذ الوهلة الأولى ؛ ولكن بعد توقف قصير ، يتضح أن كل ذلك عبارة عن ديكور مبهرج

وليس من أشياء حقيقية . ونحن عندما نسترجع أن ذلك المكان هو واحد من أقدس الأماكن فى العالم الإسلامى ، وأن هذا المكان هو أيضا من أهم الأماكن التى يحتفى المسلمون بأبهتها وعظمتها ، وقيمتها وزيناتها المكلفة ، وإذا ما استرجعنا أيضا أن ذلك المكان يجرى تزيينه من الهبات والعطايا التى يقدمها المسلمون ، إذا ما استرجعنا كل ذلك نجد أنفسنا مشدودين إلى ذلك المكان هو ومظهره وشكله البسيط .. وأيا كان تشدد المسلمين وأيا كانت خرافاتهم فإنهم ليسوا على استعداد للتضحية من أجل مؤسساتهم الدينية مثلما يفعل المسيحيون الكاثوليك والبروتستانت مع منشآتهم الدينية" .

وهذا هو بركخاردت يتناول العادات الاجتماعية ، الإنسانى والهمجى منها ، عند أهل الحجاز ، وبخاصة أهل مكة ، تناولاً كاملاً شاملاً ، ويقول مالها وما عليها يضاف إلى ذلك أن بركخاردت لا يركز على الجوانب المظلمة ؛ يضاف إلى ذلك أن بركخاردت لم يكن كتوما أكثر مما يمكن أن نتوقعه أو ننتظره من رجل يكتب للبريطانيين أثناء حملة الاستياء من الرق والعبودية ؛ وبركخاردت يحكى لنا أنه أحضر إلى جده عبداً شندياً (*) Shendy ، ولكنه اضطر بفعل الضغوط والفقر إلى بيعه بثمانية وأربعين دولارا فى سوق تلك المدينة . والصور التى رسمها بركخاردت لبيوت جده ومكة وأسواقهما حافلة بالتفاصيل الدقيقة ؛ هذا الرجل الذى كان يمتلك عبداً يقنعنا أنه عاش تلك الحياة التى تناولها بالوصف ، وأنه كان ينفذ بفكره إلى ما هو خلف السطح . وفيما يتعلق بالتاريخ نجد أن بركخاردت لم يعتمد فى ذلك على الرواة المحليين وحدهم ، وإنما اعتمد أيضًا على مخطوطات حصل عليها من كل من القاهرة ومكة . وبركخاردت عندما يتحرى موضوعًا من الموضوعات نجد أنه لا يقل دأبًا أو سعيًا عن نيبور فى هذا المجال ؛ يزاد على ذلك أن اهتمام بركخاردت بدراسة الكتب العربية كان أقيم وأعظم ممن جاءوا قبله .

ركز بركخاردت تركيزاً كبيراً ولصيقًا ومستنيراً على التجارة . والذى لا شك فيه أن تحرى بركخاردت لأحوال التجارة واحتمالاتها المستقبلية ، كان بمثابة الهدف

(*) عبداً شندياً : يقصد به عبداً من مدينة شندى التى تقع إلى الشمال من مدينة الخرطوم الحالية . (المراجع)

الرئيسى الذى وضعه هذا الرجل نصب عينيه فى كل الأماكن التى زارها أو ذهب إليها . وقد غاص الرجل فى تفاصيل الحالة الاقتصادية فى كل من جدة ومكة ، ووصل به الحال إلى إعداد كتالوج شامل للحرف الموجودة فى جدة ، والمهن ، وكذلك السلع الموجودة هناك . ولم يكن الخطأ هو خطأ بركخاردت عندما أفتتح طريق السويس البرى الذى هدد ظروف التجارة فى البحر الأحمر طوال سنوات قليلة ، وهو ما أدى إلى ضياع العمل الذى قام به ذلك الرجل . كان بركخاردت قد تنبأ بإمكانية حدوث ذلك إذا ما أزيلت المعارضة المصرية ، ولم يكن بركخاردت متعاميًا أو متجاهلاً لتأثير المنافسة الأجنبية القاتل على المنتجات المحلية . وإذا كانت هناك أوهام ما زالت تعيش فى خيال أوروبا فيما يتعلق بثراء شبه الجزيرة العربية فقد سارع بركخاردت إلى تبديد تلك الأوهام وذلك بأن راح يشير إلى ذلك القدر القليل جدًا من المنتجات المحلية والوطنية فى أسواق كل من جده ومكة ، كما ركز أيضًا على توضيح مدى تخلف السكان ولا مبالاتهم . كما استطاع بركخاردت أيضًا فى ذلك الزمن التنبؤ بانهيار تجارة البن فى اليمن ، وذلك أمام البن الذى يجرى استيراده من كل من أمريكا والهند ، كما أن هذا البن كان أيضا من نوعية البن الذى يأتى من المخا .

بعد بركخاردت كانت هناك بعض التفاصيل الصغيرة التى تتعلق بمجتمعات أو طبوغرافية المراكز السكانية الرئيسية فى الحجاز ، ومكة ، والطائف وجدة . أما المدينة (المنورة) هى وينبع فقد سبق وصفهما مرات عدة وباستفاضة ، هما والطرق الواصلة بينهما ؛ يضاف إلى ذلك أن ذلك الرجل السويسرى (بركخاردت) هو الذى وضع الأساس لعلم إثنى (عرقى) لذلك المجتمع القبلى المعقد الذى كان سائدا فى كل أنحاء هذه الأرض . ولكن بركخاردت هو ومن سبقوه لم يكونوا فى وضع يمكنهم من التناول الكامل للخصائص الجغرافية الأوسع . كل هؤلاء ، فى كل ما شاهدوه من الحجاز ، لم يتجاوز ذلك الجزء الواضح من المسارات المباشرة المؤدية من البحر إلى المدن المقدسة وإلى الطائف ؛ كما لم يتجاوز أيضا الطريق الساحلى بين مكة والمدينة . هذا يعنى أن كلا من جنوب مكة كله وشمال المدينة (المنورة) بقيا بلا استكشاف ؛ وبقيت أيضًا بلا استكشاف تلك الرقعة المكونة من التلال الرملية ، والتى تقع بين

البلدان المختلفة ، كما بقيت بلا استكشاف أيضًا منظومة الوادى المعقدة ، والهضبة الممتدة من خلف ذلك الوادى فى اتجاه وسط الجزيرة العربية . وهنا لابد من التنويه إلى أن بركخاردت كان أول من أشار إلى وجود هضبة من هذا القبيل ؛ وهو أيضًا أول من قال أن الحافة الغربية لتلك الهضبة بركانية الصخور فى معظمها ، وهذه الحقيقة كان يعرفها ياقوت Yakut وعرفها عنه على بك . ولكن أحدًا من هؤلاء المستكشفين لم يعطنا أى شىء أو معلومات عن الأنهار الموجودة فى الأراضى المرتفعة فى غربى الجزيرة العربية ، ومن منطلق أن هؤلاء المستكشفين كانوا يرون أن مسألة الأنهار هذه غير ذى بال . هذا يعنى أن التركيب الجبلى ، والارتفاع النسبى ، ومصادر المياه ، واتجاه الصرف ، والتى هى من خصائص علم الجغرافيا من مائة عام ، لم يجر التعامل معها بالأهمية التى نوليها لهذه الأمور فى الوقت الراهن . كان على بك مزودًا بآلات المراقبة الفلكية ، ولكن استكشافاته كانت مقتصرة على مكة وعلى جدة . أما بركخاردت ، الذى أتيحت له فرصة أكبر وأوسع ، فلم يستعمل سوى بوصلة السفينة خلال فترة قصيرة من مقامه فى تلك البلاد . وهنا يمكن القول أن الملاحظات الكلية التى جاء بها هؤلاء المستكشفين عن الحجاز إذا ما جمعناها إلى بعضها البعض فإنها مكنتنا من رسم خريطة لتلك الأرض على نحو أسهل بكثير عن الفترة السابقة للزيارات التى قام بها هؤلاء المستكشفون .

ومع ذلك يتعين علينا إنصاف بركخاردت ، على الأقل ، إذا ما قدر لنا أن نربطه بالحجاز فقط . وبركخاردت شأنه شأن نيبور ، لم يستخدم فقط الرؤية والملاحظة الدقيقة ، وإنما لجأ إلى العدل والحكمة فى تقصيه للحقائق ؛ وبركخاردت فى الملاحق التى أرفقها "بيوميات الأحداث" والملاحق التى أرفقها بكتابه "ملاحظات عن البدو" كان موسوعيًا إذ قدم قدرًا هائلاً من المعلومات الجديدة القيمة الخاصة بالمنطقة الغربية من وسط الجزيرة العربية ، وقد استقى كل هذه المعلومات من رجال القوافل ، ومن الحجاج ومن الحرفيين ، الذين كانوا يفدون على المدن المقدسة . وسوف نورد الكثير عن ذلك فى الفصول التالية .

ملاحظة : على بك . عند مثول هذا الكتاب للطباعة ، كنت قد أشرت إلى الطبعة التى صدرت فى قطالونيا عن ترحال هذا الرجل ؛ والتى احتوت مقدماتها على معلومات كثيرة عن حياتـه . وهنـا يتعين على إحـداث شىء من التغيير على ذلك الذى أوردته فى الصفـحة رقم ٨٠ (النص الإنجليزى) . هـذا الرجل بعد أن بقى فتـرة فى المغرب استبدل هدفه السياسى بهدف علمى ؛ وقد استقبله نابليون عند عودته إلى أوروبا ودخل فى خدمة جوزيف بونابرت (*) . ثم قام على بك برحلة أخرى إلى مكة عن طريق دمشق فى الـعـام ١٨١٨ الميـلادى. ولكنـه توفى على الطريق ، على بعـد رحلتـين من بلدة مزيرب (**) Mzerib ، بسبب مرض الدوسنتاريا (ولكن ترددت شائعة بأنه كانت هناك مؤامـرة حـاكها البريطانيـون) . ونظـراً للعثـور على صليب معلـق على صـدره ، فقد رفضوا دفنه ، ولابد من اعتباره مسيحيا حقيقيا . وقد سرقت متعلقات على بك هى وأوراقه ، ولكن السيدة الإنجليزية إستر Ester إستينوف Stenoff استعادت بعض هذه المتعلقات .

(*) جوزيف بونابرت هو أخو نابليون بونابرت الذى عينه نابليون على العرش الإسبانى عقب غزوه لإسبانيا فى عام ١٨٠٨ وإكراهه الملك الإسبانى وولى عهده على التنازل عن جميع حقوقهما فى العرش . (المراجع)

(**) تقع المزيرب فى سهل حوران وعلى بعد مائة وخمسين كيلومتراً جنوب دمشق وفيها كان يتجمع الحجاج وتنطلق منها قافلة الحج الشامى إلى الأراضى المقدسة . (المراجع)

هوامش الفصل الثالث

(١) هناك رواية عجيبة وردت فى كتاب البوكيرك المعنون "تعليقات" (طبعة هاكل ، الجزء الرابع ، الفصل العاشر ص ٤٩) عن شخص يدعى جريجوريو داكوادرا ، جرى القبض عليه فى بلدة زبيد ، وقيل إنه رافق "مغربيا" إلى مكة فى العام ١٥١٣ الميلادى ، وأعلن عن ديانته المسيحية فى المدينة (المنورة) دون أن يصاب بأذى . ولكننا لا يمكن أن نؤكد هذه الرواية غير المؤيدة بأى سند ، وبخاصة أن تلك الرواية تقول أيضا : أن جريجورى عبر شمال الجزيرة العربية إلى الفرات وحده !

(٢) أشار إليها نيبور مرة واحدة (وصف الجزيرة العربية، ص ١٨٣). وأنا أتجاهل أيضا لوبلانك Le Blanc ، الذى جاءت روايته عن رحله مزعومة إلى مكة فى العام ١٥٦٨. وأشير إليها فى كتاب بيرجرون Bergeron .

(٣) لا يمكن لنا تصديق تلك الدلائل التى وردت فى الخطابات التى أرسلها هنرى روك من كل من المخا وجده فى العام ١٧٨١ – ٨٢ فقد عثر بروس Bruce على اثنى عشر تاجراً هندياً فى جده وأن المستعمرة البريطانية زادت وتوسعت .

(٤) الصحيح هو "العيينه" وليست "عيان" Ayane كما وردت عند المؤلف (المترجم) .

(٥) على بك

(٦) رينو Reinaud ، هو الأوروبى الوحيد الذى شاهد عبد العزيز ، كما قال عنه فى العام ١٧٩٩ الميلادى إنه كان "رجلاً نحيفًا وطويلاً، وليس عربيًا همجيًا ، بل كان شديد التحضر". راجع كتاب فون زاك المعنون : Monat Correspondenz الفصل الحادى عشر، ص ٢٤١ (عام ١٨٠٥) .

مراجع الفصل الثالث

Pococke, Specimen Hist. Arabum (London, 1650); Varthema, See ch. ; Wild, Neue Reysbeschreibung eines gefangenen Christen (Nurnberg 1623). Cf. Also Itiner, Benj. Tudelensis (Helmstadt, 1636); True and Faithfull Account, etc. (Exeter, 1704).

Ali Bey, Travels, (Paris, 1814, London, 1816); U. J. Seetzen, Roisen durch Syrien, etc., ed. By F. Kruse (Berlin 1854); G. Finati, ed. By W. J. Bankes (London, 1830); J. L. Burckhardt, Travealsin Arabia, 2 vols. (London 1829), and Notes on the Bedouin Sand Wa habis (London, 1831); James Bruce, Travels (Edinburg 1813); Eyles Irwin, Series of Adventures in the l Red sea (London 1990).

On the history of Wahabism see also Appendix I. vol. 2. of F. Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed-Aly (Paris 1823) ; L. A. Corancez, Histoire des Wahabis (Paris, 1810).

الفصل الرابع

المصريون فى نجد

كان بركخاردت ينظر من كل من الطائف ، ومكة ، والمدينة (المنورة) بفضول لا يشبع ، إلى مصدر الروح الإسلامية الجديدة التى لم يجر استكشافه بعد . سبق أن أشرنا إلى ضآلة ذلك الذى أورده الإدريسى عن نجد ، وذلك القليل أيضًا الذى أورده أبو الفدا ، أو الكتّاب المسلمون الآخرون قبل نهاية القرن السادس عشر . وخلال السنوات الخمسين التى تلت ذلك ، جرى تأليف دراسة دسمة عامرة بالمعلومات ، ثم جرى نشر هذه الدراسة فى إسطمبول بعد حوالى قرن من الزمان . هذه الدراسة ، أو بالأحرى هذا الكتاب ، صدر تحت عنوان "وصف Numa فى العالم Jihan" لمؤلفه مصطفى بن عبد الله ، الذى يكنونه بكنية حاجى Hajji خليفة khalfah أو كاتب katib چلبى Chelebi . ومصطفى بن عبد الله هذا هو أيضًا مؤلف الكتاب الموسوعى (*) الذى بنى عليه دى هيربيلوت D'Herbelot كتابه المعنون "المكتبة Bibliotheque الشرقية "Orientale" .

هذا العلاّمة التركى أضاف أشياءً كثيرة إلى من سبقوه من الرحالة ؛ إذ كانت لدى هذا الرجل فكرة عامة ، أوضح من أفكار من سبقوه ، عن التقسيمات الطبيعية الواسعة فى وسط الجزيرة العربية . والوصف الذى يقدمه مصطفى بن عبد الله لوسط الجزيرة العربية يبدأ من الجنوب إلى الشمال ، وهو يضع ضمن الحزام الأول منطقة صحراوية كبيرة يطلق عليها اسم الأحقاف (**) Ahkaf ، أسفل حافة من الواحات

(*) المقصود به كتاب كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون . (المراجع)

(**) واحدة "حِقْف بكسر الحاء وتسكين القاف ، وهو ما استطال واعوج من الرمل ، ويصح فى جمعه أيضًا "حقوف" بضم الحاء وضم القاف ، من هنا فإن أحقاف" تعنى المنطقة الصحراوية الرملية المعوجة . (المترجم)

الخصبة ـ نجران ، والدواسر ، ويبرين Yabrin ، ـ وأطلق على الحزام كله اسم "نجد اليمن Nejd al-yemen" . أما الحزام الثانى فقد فهمه مصطفى بن عبد الله على إنه "نجد العارض al-Ared" ، وهو يحتوى على عدد كبير من الوديان ؛ أما الحزام الثالث فهو منطقة الوادى المنخفض فى القصيم [1] ؛ أما الحزام الرابع فيتمثل فى هضبة الشمر Schemr بسلاسلها التلالية . وأعطى مصطفى بن عبد الله فكرة صحيحة إلى حد بعيد عن طبيعة هذه الأحزمة الأربعة ؛ بل إنه قدم ، على سبيل المثال ، عن حزام "نجد العارض" فكرة أفضل من تلك التى قدمها أبو الفدا عن ذلك الحزام . وهو يأتى على ذكر الدرعية Daraeia (ويصح فيه أيضا Deraiye) ، والرجاد (الرياض Riad) ، كما يأتى أيضا على ذكر المستوطنات الرئيسية فى ذلك الحزام ، ويقدرها بحوالى ثلاثة آلاف قرية ، كما يعدد الرجل أيضًا المنتجات الرئيسية لذلك الحزام . ووصفه الموجز للوادى لا يفضله أى وصف آخر : "الوديان ... وبخاصة وادى حنيفة عامر ببيارات النخيل التى يتكرر وجودها فى مناطق كثيرة من ذلك الوادى" (*)

ومن الواضح أن مصطفى بن عبد الله كان يعتمد على شهود العيان ويراجعهم ؛ والسبب فى ذلك أن معلومـــات الدرجـة الثانية ، أو أن شئت فقل : المعلومات المبتذلة ، لا يمكن أن تمكن له من الكلام عن سلسلة قمم الجبال البيضاء (جبل طويق) التى ترتفع شامخة فى شرقى نجد ، ثم تنحدر عند الجانب البعيد متحولة إلى رمال .

هذه الرواية ، التى وردت فقط فى كتاب تركى نادر ، لم تكن معروفة لنيبور؛ وحتى ولو فرضنا أنها كانت معروفة له ، فلم يكن بوسعها الإخلال بحجية أبى الفدا فى هذا الصدد : والسبب فى ذلك أن الدانمركى ، أو بالأحرى ، نيبور كان يتكلم عن منطقتين فقط فى نجد ، – العارض والخرج – كما تكلم أيضًا عن "إمام" Imam (أى اليمامة Yemama) باعتبارها المستوطنة الرئيسية الوحيدة . ومن الواضح أن نيبور لم يكن يعرف الكثير عن واحات العارض المختلفة ، وبلدانه وقراه ، وذلك بالمقارنة مع حاجى خليفة ،

(*) وردت هذه العبارة باللغة التركية العثمانية ، وقد استعنت ببعض أفراد السفارة التركية فى ترجمتها إلى العربية . (المترجم)

أو بالأحرى مصطفى بن عبد الله . يضاف إلى ذلك أن فكرة نيبور عن شمالي البلاد كانت غير واضحة المعالم ، وقد فشل الدانمركي في الاستفادة من ذلك المعلم الجغرافي الكبير الذي يطلق عليه اسم النفود ، -التي اسماها مصطفى بن عبد الله "رمل Raml داه Dah" ووضعها في "بلاد الجوف". وبركخاردت ربما يكون قد استفاد استفادة كبيرة من كتاب "ترحال في العالم" الذي ألفه مصطفى بن عبد الله ، أو ربما يكون قد استفاد استفادة كبيرة من حجه ومن رواته من التجار ، نظراً لأن بركخاردت طالعنا بمفهوم كامل وشامل ودقيق لشمالي نجد ، كما وصف القصيم ، ووصف أيضاً منطقة سدير والأحساء ، كما وصف أيضاً كلا من جبل شمر والنفود (التي قدر عرضها تقديراً دقيقاً وصحيحاً) دون الوقوع في أي خطأ في هذه المهمة . قد يكون غلق المنطقة الوهابية في وجه الحجازيين هو السبب في جعل بركخاردت لا يتكلم بدقة واستفاضة عن الوشم ، والحريق ، واليمامة ، وعن الواحات الواقعة على أطراف الصحراء الجنوبية . وفيما يتعلق بالعارض ، فإن اهتمام بركخاردت بالمذهب الوهابي (*) هو الذي دفعه إلى التحري والتقصي الدقيقين ؛ كما أن المصادر نفسها التي روت له تاريخ وأحوال المذهب الوهابي رواية طيبة ، إنما كانت هي أيضاً تلك المصادر التي مكنته من وصف مدينة الدرعية وصفاً كاملاً .

هذه الأوصاف السماعية ساعدت في العام ١٨١٥ الميلادي على عمل مجرد مخطط تقريبي لمنطقة نجد ، ولكن المؤسف أن ذلك المخطط كان يفتقر إلى التفاصيل من ناحية والدقة من الناحية الأخرى ، لم تكن تتوفر في ذلك الوقت معلومات كافية عن التضاريس وعن السطح أيضاً ؛ ولم يكن معروفاً على وجه اليقين عدد السمات والخصائص السطحية المحذوفة حتى يمكن الاعتماد على المصادر الوطنية في سد النقص الكامل عن عدم وجود تلك السمات . يضاف إلى ذلك أن بركخاردت كان يعرف حق المعرفة ، ومثل أي ناقد من النقاد ، مدى نقص معرفته بالحياة في نجد ، ولذلك

(*) المذهب الوهابي : الأصح أن يقال تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ إذ إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن صاحب مذهب خاص به ؛ إذ كان هو نفسه من أتباع مذهب ابن حنبل . (المراجع)

نجد الرجل ينطلق من هذه النقطة ويروح يوصى باستكشاف وسط الجزيرة العربية من قبل أهل العلم . ومع ذلك ، فإن الأمل الذى كان يعلقه ذلك الرحال السويسرى (بركخاردت) على التقدم المصرى فى داخل الجزيرة العربية بدأ يخبو شيئًا فشيئًا مع مضى الأيام . وقد أدى فرار نابليون من جزيرة إلبا إلى استدعاء محمد على من الطائف كيما ينتبه إلى تحصين أسرته والدفاع عنها فى مواجهة العاصفة الدولية المنتظرة أو المتوقعة ؛ أما ولده الذى بقى لتولى قيادة القوات فى أواخر العام ١٨١٥ الميلادى ، وبعد أن وصل إلى القصيم بلا أى هدف محدد ، فقد قام بإبرام اتفاق سلام سهل وهين ، ثم عاد فى إثر والده ، ليموت فى مصر بسبب الطاعون أو بسبب حماقته . ولكن محمد على لم يكن يتميز إلا بالإصرار. وكان إذا ما عقد العزم يمضى قدمًا فيما أصر عليه سواء أكانت العاقبة خيرًا أم شرًا . ولما كان محمد على يدرك أن حيازته للمدينتين المقدستين لن يدوم أطول من المهمة القائمة بها قواته داخل جدران هاتين المدينتين ، أو ظهور عدو قوى جديد ، فقد عقد الرجل عزمه على عدم التوقف فى الطائف ؛ وبعد أن اكتشف محمد على أن أوروبا ، وبخاصة إنجلترا ، مشغولة تمامًا بتهديد مصر ، قام بتجهيز قوة جديدة فى صيف العام ١٨١٦ الميلادى ، وأرسلها تحت قيادة رجل أسوأ من طوسون ولكنه كان أفضل منه من الناحية العسكرية .

كان إبراهيم ، أكبر أبناء محمد على ، أو بالأحرى ابنًا لتلك الأرملة التى أصبحت زوجة لمحمد على ، وكان فيه الكثير من خصال والده السيئة والحسنة . كان إبراهيم قاسيًا ، ومتشككًا ، ومغرورًا وغيورًا ، ولا مباليًا ومنظمًا ، وجاهلاً من الناحية الإستراتيجية ، كما كان متشبثًا إلى أبعد الحدود ، وصبورًا صبر أيوب ، وصاحب قلب جرىء ، وهذا هو ما عرفته أوروبا عن ذلك الرجل فى الوقت المناسب . يضاف إلى ذلك ، أن إبراهيم كان مسلمًا ليبراليًا مثل والده ، إن لم يكن مسلمًا على الإطلاق ؛ إذ كان يدمن المغازلة بألاعيب وحيل توصله إلى هدفه المباشر . اصطحب إبراهيم معه إلى الجزيرة العربية مهندسًا فرنسيًا هو فيسير Vaissiere ، ليكون ياورًا أو إن شئت فقل : ضابطًا مرافقًا له ، كما اصطحب معه أيضًا أربعة من الإيطاليين من أصحاب المهارات الطبية ، - سكوتو Scoto ، وجنتيلى Gentili ، وتودشينى Todeschini ،

ثم سوسيو Socio ، ولكنه لم يسمح لأسماء هؤلاء الإيطاليين بأن تذيع بين الناس. هؤلاء الضباط لم يتركوا لنا تسجيلات من الدرجة الأولى عن خبراتهم فى شبه الجزيرة .

كان شعار إبراهيم هو شعار والده - "تباطأ ولكن تيقن !" خطته ، فى الطرفة التى رويت عنه ، "وطويه لسجادة الجزيرة العربية" وصولا إلى الجائزة الموضوعة فى مركز السجادة دون أن يدوس عليها ، لم تكن من عندياته ؛ كانت سياسة إبراهيم الفعلية هو أن يكسب بأى شكل من الأشكال ، ود شيوخ القبائل البدوية الكبيرة التى كانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى الواحات الوهابية . وبعد أن ضمن إبراهيم كلا من حرب والمطير ، وبعد أن قام بتجربة خيالته فى سلسلة من الغزوات القصيرة فى القصيم وغربى جبل شمر ، عندئذ وليس قبل ذلك ، قام إبراهيم بنصب مخيماته حول المدينة المنورة ، لينطلق منها قدماً إلى قلب الجزيرة العربية . استولى إبراهيم على بلدة الرس ، التى هى أولى مدن القصيم المهمة ، وكان ذلك فى شهر يوليو من العام ١٨١٧ الميلادى ، وكان الرجل بحاجة إلى كل إصراره وعناده لعلاج العيوب التى ظهرت فى ممارسته للقيادة . خسر إبراهيم (باشا) ثلاثة آلاف من جنوده ، وأمضى أربعة أشهر عجاف أمام تلك الأسوار الوضيعة المصنوعة من اللبن ؛ كما أن الاستسلام جاء من جانب أهل البلدة فى نهاية المطاف . ومع ذلك ، فإن المنظر العام لعناده واحتيالاته هو الذى عجل بإخضاع البلدان الكبيرة مثل عنيزة وبريدة ، والأهم من كل ذلك ، كان يتمثل فى المساندة التى حصل عليها من القبيلتين البدويتين الكبيرتين فى جنوب نجد : عتيبة وبنى خالد ؛ كما أن التجارب القاسية التى مر بها القائد (إبراهيم) اضطرته إلى الوثوق أكثر بمستشاره الفرنسى . وبعد سقوط كل من شقراء والوشم ، انفتح الطريق المؤدى إلى العاصمة الوهابية فى وادى حنيفة فى العارض . وفى شهر أبريل من العام ١٨١٨ الميلادى كان إبراهيم باشا قد وصل إلى بوابات الدرعيه وأسوارها .

وهنا يتجلى إصرار إبراهيم الشديد الذى حول الفشل إلى نجاح . وعندما عجز إبراهيم سواء بالإقناع أو القسر عن تزويد قواته بالضروريات المطلوبة لها ، أدرك الرجل وفهم اعتباراً من ذلك الحين ، الأسباب التى مكنت العرب وحدهم من غزو وسط

الجـزيـرة العربيـة . كان حلـفـاء إبراهيم من العـرب البدو جبناء وضعاف القلوب ، إن لم يكونوا كذابين ؛ وعن طريق الإسراف فى استعمال الذخيرة خسر الرجل ذخيرته الاحتياطية . ولكنه استطاع الصمود إلى أن تم إحضار المزيد من البارود والرصاص من المدينة ؛ وغضب إبراهيم لجرح كبريائه عندما علم أن أباه أرسل قائدًا آخرًا ليحل محله ، وراح إبراهيم يمطر القلاع الوهابية بدانات مدافعه مما أضطر الأمير عبد الله إلى الاستسلام فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر ، بعد صمود فى وجه حصار دام خمسة أشهر . وهنا ينبغى أن نعزو القسوة التى عُومل بها كل من الحاكم المعزول هو والصف والجنود الوهابيين المنهزمين ، إلى محمد على نفسه وليس ولده إبراهيم . السبب فى ذلك أن محمد على لم يكن مستعدًا أو يود التصالح مع نجد ، لأنه لم تكن لديه فكرة عن الاحتفاظ بها لتكون مقاطعة من مقاطعات حكمه . كل ما طلبه محمد على كان يتمثل فى غزو نجد وتخريبها وتجريدها مما فيها ، كما طالب محمد على أيضًا بتكسير وتحطيم كل من يتطلع إلى فرض سيادته على المدينتين المقدستين . وطُلب إلى إبراهيم أن ينقل نيرانه وسيفه إلى المناطق المجاورة كلها - أى إلى جبل شمر ، وإلى الحريق ، والأحساء وإلى حدود عمان ، وأن يدمر القلاع كلها ، ويهدم أسوار البلدان ، وبعد أن ينتهى من كل ذلك يترك وسط الجزيرة العربية ممزقًا ومهلهلاً ، مثلما كان فى الماضى ، بفعل العداوات والصراعات القبلية . وفى صيف العام ١٨١٩ الميلادى ، كان ذلك الحال المزرى ، قد تحقق ، وهنا بدأ إبراهيم فى سحب قواته وحامياته .

فى كل الأحوال ، وفيما يتعلق بهذا الموضوع كانت هناك حكومة أوروبية واحدة معاصرة ، لم تلتفت إلى سياسة محمد على أو تقدرها حق قدرها ، الأمر الذى جعلها تسىء فهم هذه السياسة ، مما قلل من نفوذها وامتيازها ، ولكن ذلك الفهم ، والمساس بالهيبة والنفوذ كان لصالح علم الجغرافيا . كان الحكام البريطانيون فى الهند يودون منذ زمن طويل مد نفوذهم إلى الخليج الفارسى ، والقضاء على القرصنة والقراصنة ، الذين كانوا يخنقون التجارة ويعرقلونها الأمر الذى كان يؤثر تأثيرًا كبيرًا على مصايد اللؤلؤ ؛ ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان أولئك الحكام البريطانيون فى الهند يسعون سعيًا حثيثًا إلى صداقة "إمام" Imam مسقط. [١] وتشمم الحكام البريطانيون فى

الباشا المصرى رائحة ذلك المتعاون الجديد . كانت قوات إبراهيم قد وصلت إلى الخليج وراحت تطارد قراصنة رأس الخيمة . وفهم هؤلاء الحاكم البريطانيون أن ذلك الذى استولى عليه إبراهيم بالقوة سيظل من ممتلكات أبيه . هذا يعنى أن كلا من الأحساء ونجد ستظلان منطقتان مصريتان ، وأصبح الباشا المستنير ، يحظى بكثير من التفاؤل البريطانى فى مسألة تطوير التجارة ، وذلك بالرغم من العمل العدوانى المتمثل فى مسألة طريق السويس البرى ؛ وهنا بدأ الباشا الجديد يدرك أن مصلحته فى تأمين البحار العربية .

وبدون تشاور مباشر أو غير مباشر مع المصريين ، أبحرت سفينة من السفن الحربية البريطانية من ميناء بومباى إلى الخليج الفارسى فى صيف العام ١٨١٩ ، وكان على ظهر هذه السفينة مبعوث خاص هو النقيب جورج George فورستر Forster سادلير Sadlier ، وهو من الآلاى السابع والأربعين من قوات صاحب الجلالة ؛ وكان سادلير مكلفًا بمهمة "تهنئة إبراهيم على كسر شوكة الدرعية" ، و "ترتيب الأمور الضرورية مع سعادته بغرض إكمال إخضاع السلطة الوهابية" . ويواصل ذلك الضابط تعليماته أنه "إذا كان سعادة إبراهيم باشا يرغب فى تأمين مساعدة الحكومة البريطانية له" ، فإن قوة بحرية مناسبة وقوة عسكرية مناسبة سوف يجرى إرسالهما له على وجه السرعة ، وسوف يؤدى ذلك إلى أن يضع "الأتراك" أيديهم على رأس الخيمة . ومع ذلك ، فإن المبعوث لم يجعل حكومته تتعهد "بأن تؤمن لسعادته تملك الأماكن التى سيقوم بغزوها" ، وإنما سوف يتمثل دورها فى تقديم النصح له فى خططه "دون أن يكون لها أية مصلحة مادية فى ذلك الأمر" ، وأن تستفسر من "إمام" مسقط عن المساعدة التى يمكن أن يقدمها فى هذا الصدد (*) .

كانت هناك قلة قليلة من الحملات السرية التى كتب لها الفشل . من ذلك على سبيل المثال ، أن "إمام" مسقط (إذ من المناسب إن لم يكن من الخطأ أن نطلق عليه

(*) كان الغرض من بعثة سادلير هو رغبة حكومة الوهابى فى إيجاد تحالف بين إبراهيم باشا والسيد سعيد سلطان مسقط لقمع ما أطلقت عليه القرصنة فى الخليج غير أن كلا الطرفين لم يبديا تجاوبًا فى ذلك التحالف مما جعل بريطانيا تقوم بحملتها ضد القواسم فى عام ١٨١٩ . (المراجع)

هذا الاسم) كان واحداً من الحكام العرب المطلقين الذى أمر محمد على ولده إبراهيم بإخضاعه إلى حالة العجز. ولما كان إمام مسقط قد نزل به الضُّر بالفعل ، ونظراً أيضًا لمعرفته اليقينية للقيمة الحقيقية للنية المصرية السيئة – إذ كانت الحكومة الهندية لا تعرفها – فقد طُلب من حاكم مسقط تقديم نفسه هو وقواته لجلاد نجد . ويتعين هنا القول : بأن النقيب جورج فورستر سادلير غادر مسقط وهو أكثر حكمة وتعقلاً مما كان عليه . وكانت هناك مفاجأة جديدة فى انتظار هذا النقيب على الشاطئ الداخلى للخليج الفارسى . فقد عثر سادلير على ممثل لإبراهيم باشا فى مدينة القطيف ، ولكن ذلك الممثل ، بحكم بعض الأسباب والأهداف العملية ، كان قلبًا وقالبًا بين يدى شيخ بنى خالد المحلى ، وكان على وشك الانسحاب ومعه ذلك العدد القليل من القوات . يزاد على ذلك أن المبعوث البريطانى أبلغ بتدمير الدرعية ، وأن الجلاء سيكون عامًا . لم يكن أحد يعرف المكان الذى ذهب إليه إبراهيم باشا ؛ ولكن حيثما ذهب فى نجد فإن مقامه لن يطول فى أى مكان منها .

وقع سادلير فى مزيد من الحيرة . فقد فشل هدف مهمته الرئيسى بسبب انسحاب المصريين من نجد . لو كان النقيب جورج فورستر سادلير قد علم بكل ذلك ، ولو كان الرجل قد عرف أيضًا أن إبراهيم باشا قد توجه بالفعل إلى المدينة (المنورة) ، لو كان قد علم بكل ذلك لأبحر بلا أدنى شك عائداً إلى الهند . والذى حدث أن سادلير بعد أن تفكر فى الأمر ، وبعد أن أعمل عقله فى تفاصيل المهمة المكلف بها ، وبعد أن تفكر أيضًا فى مسألة التهنئة وسيف الشرف الذى سيقدم للباشا وسبر الأغوار الذى سيترتب على ذلك "دون إظهار أى شىء من الاهتمام المادى بالموضوع" ؛ وبعد أن وجد سادلير أن ذلك سيكون أيضًا فى مصلحته هو شخصيًا ، وذيوع صيته وشهرته ، ولمصلحتنا أيضًا قرر الرجل الدخول إلى الجزيرة العربية . وتمثل سادلير نفسه وهو على وشك القيام بمهمة سريعة ومقبضه . وفى روايته التى لم تنتشر على نطاق واسع إلا بعد ذلك بحوالى خمسين عامًا ، (بعد أن لفت بالجريف الأنظار إلى نجد) نجده لا يعلق أهمية كبيرة على ما قام به ، أو الطريق الذى سلكه أو ذلك الذى استفاده من تلك الرحلة . ويبدو من خلال رواية سادلير عن رحلته أنه مثل رؤسائه كان جاهلاً باللغة

العربية ، وجاهلاً أيضًا بالتاريخ العربى ، وجاهلاً أيضًا بذلك الذى يمكن أن يتوقعه أو ينتظره من الجزيرة العربية ، فضلاً عن جهله أيضًا بالبدو وأساليبهم . وسادلير شأنه شأن السواد الأعظم من العسكريين البريطانيين ، يرون أن "المواطنين" جميعهم غير مهمين ومنفرين . والعرب أنفسهم قالوا عن سادلير فيما بعد : إنه مر خلال الجزيرة العربية "مثل باله أو حزمه من حزم البضاعة" ، التى جرى تجهيزها على شاطئ من الشواطئ وجرى تسليمها على الشاطئ الآخر ؛ ومع ذلك فقد عبر الرجل الجزيرة العربية ومعه حاشيته المكونة من الفرس والهنود والبرتغاليين والأرمينيين ، وكان أيضا أول أوروبى يعبر شبه الجزيرة ، وأول من سجل ذلك الذى شاهده فى نجد . يزاد على ذلك أن هناك بعض الأشياء التى كان سادلير ينظر إليها ويراها بشىء من العناد وصلابة الرأى .

بدأ النقيب جورج فورستر سادلير رحلته فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو ، قاصدا مخيم شيخ بنى خالد ، ووصل الرجل إلى "فوف" Foof (الهفوف Hofuf) ، فى واحة الأحساء ، بعد أسبوعين من المتاعب التى لا تنتهى مع "الهمج Barbarians الذين أصابهم الاضطراب" ، وكانوا يقومون على خدمته بالعمل معه كمرشدين له ومرافقين له أيضًا ، والذين تصرفوا تصرف المواطنين ، الذين سبق أن تعود عليهم ، ولم يتصرفوا أو يرقوا إلى مستوى الصحاب . لو كان سادلير قد سبق له ، منذ البداية ، تعرف بعض القواعد الجوهرية التى عرفها وألم بها أولئك الذين سبقوه ، – من ذلك مثلا ، أن لا يدفع الأجر مقدمًا عن أية خدمة من الخدمات ، وأن عليه أن يساوم دوما ويُعَاقب إذا ما تطلب الأمر ذلك ، – لجاءت معاناته أقل على أيدى سكان الصحارى . وصل سادلير إلى الهفوف باعتباره الأوروبى المسيحى الثانى ، الذى وصلتنا أخباره ، وربما كان هو آخر أوروبى مسيحى يقوم بعمل من هذا القبيل . ارتفاع الأسوار المبنية من اللبن هى وحكاية الرجال المتقاتلين يخصان كل تفاصيل البلاد التى أتى سادلير على ذكرها ؛ ولكنه يقول عن الأحساء : إن بها بحيرات ، وعيون ولكنها ليس فيها أنهار .

اكتشف سادلير أن الكاشف Kashif المصرى فى الأحساء كان يستعد للرحيل ، وبالرغم من أن سادلير كان فطنا إلى حد إدراك أن البدو هم سادة الموقف المحلى الحقيقيين ، إلا أنه أحس ، وكان مضطرًا إلى ذلك بحكم مهمته ، بأنه عليه أن ينتظر كى يمشى ويواصل سيره برفقه حامية إبراهيم ، التى صدرت لها الأوامر بالانضمام إلى القوه الرئيسة فى سدير . بدأت المسيرة المكونة من ستمائة جمل مسيرها فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو ؛ وراح المبعوث البريطانى يتابع خلال الصحراء ، وهو فى شك مما يمكن أن يؤول إليه مصيره ، شائعة انسحاب إبراهيم باشا مرحلة بعد أخرى . كان الطريق الذى سلكه سادلير مارا بأبيار ريمة Rema ، وهنا يبدى سادلير ملاحظة مفادها أن امتلاء تلك الأبيار هى وبعض الأماكن المماثلة الأخرى يمكن أن يحول دون الاقتراب من نجد من ناحية الشرق . كانت جماعة سادلير تحظى بقدر كبير من الماء نظرا لسقوط المطر بغزارة وعلى غير العادة فى ذلك الفصل من فصول الصيف . دخل إبراهيم نجد عن طريق منطقة اليمامة ، التى كانت فى يوم من الأيام أهم وأخصب مناطق وسط الجزيرة العربية ، التى عرفها الجغرافيون ، ولكنها الآن أصبحت مكانًا عديم الأهمية ، ولا يعرفه الأتراك ؛ ثم مضى بعد ذلك إلى منفوحة ، التى أظهر أهلها ، بالرغم سوء أحوالهم ، شيئًا من المقاومة ، فى بداية الأمر بأن "راحوا يستعرضون مقاومتهم بأن وقفوا مسلحين على الأسطح المنبسطة" ، ثم راحوا يبيعون البيض للمصريين بواقع ثلاث بيضات نظير قرش واحد ، والخروف الواحد نظير أربعه دولارات . ولاحظ سادلير حقول القطن والذرة ، والقمح والشعير ، كما شاهد سادلير أيضا المنازل المبنية من الحجر ، وبيارات النخيل الكبيرة ، التى تروى من أبيار عميقة . وهنا يحق لنا أن نقتبس عن ذلك الذى كتبه سادلير عن "وادى عفتان" Aftan الذى تحراه الرجل وتقصاه : –

فيما يتعلق بمجرى النهر الذى جرى توقيعه على كثير من الخرائط الحديثة ، والذى وقّع على أنه يجرى بالقرب من الأحساء ، يتعين علىَّ هنا أن أبدى ملاحظة مفادها أن هناك مجارى سيول كثيرة تشكلت بفعل أمطار الشتاء ... ؛ ولكن نظرًا لأن تلك المجارى تحدث بين الحين والآخر ، فإنها ينبغى ألا تعظم إلى مستوى نهر من

الأنهار . ومن المحتمل أن يكون تجمع المياه العارض فى تلك الوديان بين الحين والآخر ، وفى مواسم بعينها .. إضافة أيضًا إلى احتمال وفرة المياه فى منطقة الأحساء القريبة ... أن من المحتمل أن يكون ذلك كله قد أدى إلى نشوء فكرة النهر أو مجرى سيل من السيول فى فترة سابقة وشق طريقة نحو البحر . والعرب حاليًا يصرون أن هناك نهرًا يجرى تحت الأرض ، وأن مجرى ذلك النهر لم يشاهده أى أحد من البشر ."

لاحظ سادلير أيضًا الاتجاه الرئيسى لسلسلة جبال العارض وأنها تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، فى حين هناك سلسلة خارجية تمتد فى اتجاه الشمال الشرقى . ومن المحتمل أن تكون هذه الملاحظة هى امتداد جبل الطويق بلا داع ناحية الشمال ، الأمر الذى جعل جومار Jomard يوقعه فيما بعد على خريطته . وبعد أن ترك سادلير الرياض على بعد مسافة قليلة ناحية اليسار ، واصل مسيره إلى أن وصل إلى أنقاض الدرعية وبساتينها التى جرى تخريبها . بعد ذلك ، يبدأ سادلير فى تناول منطقة نجد ، ويسجل بعض المشاجرات التى دارت بينه وبين مرشديه ، ولكنه يركز تركيزا شديدًا على تفاصيل المحاصيل والسلع والمياه وحالة البلاد . لقد شاهد سادلير أثار يد المدمر المصرى (*) فى كل مكان ، – فى البلدان المهدمة ، وفى الحدائق التى جرى إتلافها ، وفى زيادة الوفيات ، وفى موقف البشر المشحون بالكراهية والامتعاض ، – وتعطل الرجل فى منفوحة لإنقاذ مفرزة جرى حصارها فى الخرج بواسطة أناس كانوا يودون الثأر لأربعة من الشيوخ الذين جرى قتلهم بطريق الخيانة بناء على أوامر من إبراهيم باشا . يضاف إلى ذلك أن بدو عتيبة فى ذلك الوقت كانوا قد أنهوا ولاءهم لإبراهيم باشا ، كما أن المطير وبنى خالد لم يقل عداؤهم لإبراهيم باشا ، عن عداء العتبان له .

بعد مسير دام أربعة أيام فى وادى حنيفة فوق أرض منحدرة من الرمل والزلط وصلت الجماعة إلى شقراء الواقعة فى أرض منخفضة ، ومعروف أن شقراء هى

(*) من الخطأ ما يُشاع بأن المصريين هم الذين دمروا الدرعية أو غيرها من المناطق التى وصلت إليها قوت إبراهيم باشا التى كانت تتشكل من عناصر مرتزقة من الأرناؤوط والألبان وغيرهم ؛ إذ لم يكن الجيش المصرى قد تكون بعد . (المراجع)

عاصمة الوشم ؛ والمؤسف أن سادلير لم يورد سوى شيء قليل جداً عن مكان لم يصفه أى أحد من الرحالة الأوروبيين . وشقراء واحدة من الواحات الفريدة الثرية العامرة بالماء العذب وكثافة مزارع نخيلها أكثر من أى مكان آخر فى نجد . وبعد أن جر المصريون جمَّالة بنى خالد إلى هذه المسافة داخل أمعاء أراضى العدو ، قام المصريون ، كما هى العادة ، بمصادرة إبل هؤلاء الجمَّالة ، وطردوا سائقيها ليلقوا حتفهم ، وعبروا النفود من ناحية جنوب القصيم إلى أن وصلوا إلى عنيزة شبه المدمرة .

هنا فى عنيزة ، يكون سادلير قد وصل إلى منتصف الجزيرة العربية ، وكشف الرجل عن وعيه لهذه الحقيقة عن طريق تدوين المزايا التجارية لموقع مدينة عنيزة ، بحكم وقوعها فى منتصف شبه الجزيرة العربية من ناحية ، وعن طريق رسم مخطط عام لتوزع البدو فى قلب شبه الجزيرة ؛ ومع ذلك راح سادلير يعجل المسير ، نظراً لأنه قيل له إن إبراهيم باشا قد توقف مدة يومين فى مدينة الرس فى اتجاه الغرب ولكن سادلير اكتشف أنه بالرغم من وجود القسم الأكبر من الجيش هناك ، إلا أن الباشا بنفسه كان فى طريقه بالفعل إلى المدينة (المنورة) . وهنا وصل صبر المندوب البريطانى إلى نهايته . هذا يعنى أن إبراهيم باشا لم يكن راغبا فعلا فى لقاء سادلير ، وهنا ضاع طموح سادلير فى أن يكون أول من عبر الجزيرة العربية . وهنا بدأ سادلير يشعر بالرغبة فى قافلة عائدة حتى يمكنه العودة معها إلى منطقة البصرة ، حيث اتخذت الإجراءات اللازمة لضمان سلامته ، عن طريق القنصل المحلى وذلك بالاشتراك مع منتفق (*) Muntefik العرب . على كل حال ، لقد فشل سادلير فى العثور على تلك القافلة . وهذا هو نائب الباشا فى الرس ينحنى ، ويبتسم ، ويكذب بأنه ليس على استعداد لتحمل مسئولية عودة الرجل الإنجليزى عن طريق القبائل الغاضبة . وأنه (سادلير) يتعين عليه الذهاب إلى المدينة (المنورة) ؛ وذهب الرجل إلى المدينة (المنورة) بالفعل وعلى غير رغبة منه ، "وأصبح شاهداً على الخراب والدمار الذى أحدثه جيشالباشا ." ووصل سادلير مع مفرزة كبيرة مرتبكة من مفارز القوات التى كانت

(*) تقطن قبيلة المنتفق فى منطقة شط العرب جنوب البصرة . (المراجع)

تجلو عن تلك البلاد ، إلى بلدة الحناكيه خلال سبعة أيام خلت من الأحداث ، وبعد مرحلتين صعبتين أخريين بدأت ضواحى المدينة (المنورة) تطالع الرجل ، ولكنه لم يتعرض لأى أذى عندما دخل المدينة المقدسة . هؤلاء المصريون ، الذين لم يراعوا شريعة الإسلام فى نجد كانوا هم أكثر الناس التزاما بالإسلام فى الحجاز ، ووجد سادلير نفسه مطروداً إلى أبيار على ، الذى كان فيها سكوتو Scoto الإيطالى طبيب الحريم ، الذى كان من ضمن أفراد الحملة .

فى اليوم الثامن شهر سبتمبر وخلال اليوم التالى له التقى المبعوث البريطانى إبراهيم باشا ، ذلك اللقاء الذى قطع سادلير هذه المسافة كلها من أجل الحظوة به ، كان إبراهيم باشا غاية فى الأدب والمجاملة لكن بدون أى التزام . كان إبراهيم باشا يود أن يترك لدى سادلير انطباعا بأنسه ولطفه ، ولكنه دافع بأنه مجرد أداه بين يدى والده ، تماما مثلما كان والده أداة فى أيدى صاحب الجلالة الإمبراطور فى إسطمبول ؛ وبالتالى فإن المبعوث البريطانى لا يمكن أن يربط المصرى أو يقيده أو يلزمه بأى شىء ، أو حتى الوقوف على خططه . ووعد إبراهيم باشا بقافلة متجهه إلى جدة ، ولكن القافلة اتجهت إلى ينبع ، حيث مكث سادلير ، مع حريم إبراهيم باشا ، مدة أربعة أيام . وشهد سادلير وصول بعثه الحج الدمشقى ، وألقى نظرة من بعيد على الجدران المقدسة ، والمآذن المطلية باللون الأبيض كما شاهد القباب أيضا . وفى اليوم العشرين من شهر سبتمبر نزلت الجماعة إلى البحر الأحمر ، وينتهى بذلك عبور سادلير للجزيرة العربية .

انتقل سادلير إلى جده عن طريق البحر ، والتقى إبراهيم باشا قبل سفره بصفة نهائية . إلى مصر ، وأنهى الرجل مهمته بمشاجرة مضحكة على سرج مستعمل من سرج الخيل ، جرى إرساله على سبيل الهدية إلى الحاكم العام فى الهند . وأدت تلك المشاجرة إلى ضياع الأمل فى نجاح المهمة . قد لا يكون لإبراهيم باشا ذنب أو يد فى استصغار شأن المبعوث البريطانى ، ولكنه لم يبذل جهداً لعلاج ذلك الاستصغار . فقد أنهى الرجل على نجد ، ولم يعد يهمه الخليج الفارسى . وجرى احتجاز ضحية التفاؤل البريطانى الرسمى فى مدينة جده طوال أربعة أشهر ، ولم يهرب الرجل من الجزيرة

العربية إلا فى شهر يناير من العام ١٨٢٠ الميلادى . وبسبب اشتهار سادلير باعتباره رائداً من رواد الجغرافيا ، جرى إيفاده فى مهمة أخرى إلى بلاد السند Sindh . وشهد العالم أول تقرير من تقاريره على شكل بحث مقدم إلى جمعيه بومباى الأدبية ، حيث قرئ نيابة عنه في شهر أبريل من العام التالى ، ولكن كما سبق أن أوضحنا ، فإن القصة الكاملة تحتم بقاؤها بدون نشر إلى العام ١٨٦٦ الميلادى حتى أمكن الحصول عليها من سجلات حكومة بومباى . ويبدو أن شركة الهند الشرقية توجت فى ذات الوقت تفاهتها بإرسال قوتها العسكرية إلى الخليج فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٩ الميلادى ، وقامت بإنزال أربعه آلاف رجل فى القطيف . كان الهدف من إرسال هؤلاء الرجال هو التأكد من أن الباشا قد جلى تماماً عن منطقة نجد ، وأنهم بدءوا يرحلون عقب الإصابة بحمى الدوسنتاريا الوبائية .

لم يكن سادلير (إذا ما استثنينا مساعدات إبراهيم باشا) أول أوروبى يصل إلى منطقة نجد . هناك شخص يدعى رينو Reinaud ، يبدو أنه كان مقيماً لبضع سنوات فى البصرة والكويت ، ويبدو أنه كان يعمل فى خدمة مانستى الممثل البريطانى المقيم فى مدينة الكويت ؛ هذا الرجل أوفده صاحب العمل فى العام ١٧٩٩ الميلادى فى مهمة مصالحة مع الأمير الوهابى ، الذى غضب مؤخراً عندما قامت سفينة حربية بريطانية بفتح النار على الوهابيين بالقرب من الكويت . استقل رينو السفينة إلى مدينة القطيف ؛ ومن القطيف ، وفى صحبة أخ غير شقيق من إخوان الأمير ، شق الجميع طريقهم إلى الهفوف ليصلوها بعد سبعة أيام ، ومن بعدها إلى الدرعيه خلال ثمانية أيام . بقى رينو فى الدرعية مدة أسبوع ، وجرى استقباله استقبالاً حسناً بشكل عام ، وعاد من حيث أتى بسلام . كان التقرير الوحيد الذى نشر قد صدر عن سيتزن فى العام ١٨٠٥ الميلادى ، وقد أقتبس سيتزن فى تقريره بعض أشياء مما قام به رينو . فى ذلك التقرير وردت بضع كلمات عن الأحساء ، والدرعية ، وطبيعة الأرض الواقعة فى وسط البلاد ، وعن طبيعة الوهابيين . الأهم من كل ذلك هى تلك الملاحظات القليلة التى وردت عن صغر حجم الهفوف والدرعية ، وعن جمال موقع الدرعيه ، وبساطة حياة الأمير قياساً على سلطته الكبيرة ، والكرم الحاتمى لرعاياه . يبدو أن رينو عثر على

يهود فى الدرعية ، كما وجد فيها مجتمعًا منغلقًا وأقل تقدمًا عما وجده أولئك الذين جاءوا بعد رينو وبعد الغزو المصرى . هناك أيضًا شخص يدعى الكونت واتزالو -Watz law روشوسكى Rochwusky ، وهو رجل بولندى ، يقال إنه أخترق إلى أن وصل إلى جبل شمر فى العام ١٨١٨ ، وكان متنكرًا فى شكل الأمير Emir تادز Tads الفشر el-Feshr ، وأنه كان يبحث عن الخيول [٣] . ولكن سادلير كان بكل تأكيد أول من عبر الجزيرة العربية من البحر إلى البحر ، وكان هو أيضا أول من وصف بالتفصيل الجزء الأوسط من شبه الجزيرة العربية من واقع ذلك الذى شاهده هو بعينيه . وكانت آلته الوحيدة عبارة عن بوصلة جيده . وهو يقول لنا ، إنه كان يراجع قراءاته فى أحيان كثيرة ، إذ كان ينزل دائمًا من فوق راحلته كى يدون القراءات . وسادلير لم يتحر فقط أسماء المستوطنات كلها التى مر بها أو رآها (محددًا بدقة قلة قليلة من الأخطاء التى وقعت بسبب الحذف) ، ولكنه كان حريصا جدًا على ملاحظة الزمن الذى استغرقه المسير ، كما كان يسمح أيضا بالسير السريع والسير البطىء أيضًا . وقد أمكن من خلال المادة التى قدمها عمل خريطة تقريبية للطريق الذى سار فيه ، وجاء ذلك المسار بأقل قدر ممكن من الأخطاء ، كما لو كان فى أرض خالية من النقاط الوسيطة التى يجرى تحديدها فلكيًا . يزاد على ذلك أن الميناء الذى بدأ منه سادلير رحلته لم يجر توقيعه على خرائط الخليج التى عملت فى ذلك الزمن وبطريقة غير دقيقة تمامًا ، كما تعين على مورسبى Moresby استكشاف البحر الأحمر .

ونحن إذا ما اتخذنا كل التحفظات الضرورية ، نجد أن بيان التحركات اليومية (المفكرة) الذى جاء به سادلير هو الذى جعل الوصف العلمى لنجد أمرًا ممكنًا ؛ كما نجد أيضا أن ذلك الجغرافى البارز المدعو جومار Jomard يورد الكثير أيضًا عن منطقة نجد فى المقال الذى كتبه وألحقه بكتاب فليكس Felix منجن Mengin المعنون "تاريخ مصر تحت حكم محمد على" . وأساس هذا المقال عبارة عن بعض المعلومات التى جرى جمعها فى القاهرة من شيخ من شيوخ نجد اسمه عبد الرحمن العوجية [٤] Oguyeh ، والشيخ عبد الرحمن هذا من أقارب المعلم الوهابى الكبير (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) ، كما جرى دعم هذه المعلومات ببعض الملاحظات عن الطريق الذى

سلكته مسيرات كل من طوسون وإبراهيم . هذه الملاحظات كانت ملاحظات رسمية ، ولم يجر جمعها بواسطة الأوروبيين ، والسبب فى ذلك أن جومار كان يحرص على القول بأنه لم يتعلم شيئا من (بلدياته) المهندس فيسير Vaissiére . وقبل طباعة المقال بوقت قصير أصبحت حقائق الطريق الذى سار فيه سادلير معروفة فى أوروبا ، وجرى سرد هذه الحقائق مثلما وردت فى محاضر جمعية بومباى المجتمعية ، وثبت أن لها قيمة كبيرة تماما مثل بقية المعلومات التى أتى بها جومار .

يرجع الفضل فى الأساس إلى سادلير ، فى مسألة أننا الآن أصبح بوسعنا تقييم المسافات الزمنية بين خطوط الطول تقييماً دقيقًا ، فيما بين النقاط الرئيسية من وسط الجزيرة العربية ؛ ولكن نظراً لأن رحلة سادلير والمسيرات المصرية جرت أصلا من الشرق إلى الغرب والعكس صحيح ، فإنها لم تكن لها فائدة كبيرة فى تحديد الفترات الزمنية الفاصلة بين دوائر العرض . ونستطيع الحكم على ذلك بواسطة الحقيقة التى مفادها ، أنه بالرغم من مرور سادلير عبر واحات اليمامة ، وبالرغم أيضا من قيام جنود إبراهيم باشا باحتلال الخرج ، فإن جومار لم يستطع توقيع عاصمة هذه المنطقة فى حدود درجة واحدة من موقعها الحقيقى ؛ كما أنه لم يكن متأكداً من هوية اليمامة نفسها نظراً لأنه كان لا يزال واقعاً تحت تأثير الإدريسى ، لم يكن جومار متأكداً إن كانت اليمامة مدينة أم منطقة . وبالرغم من أن شقراء لم تعد تقع على خريطة جومار ، على بعد حوالى مائة ميل بعيداً عن موقعها الحقيقى ، وعلى الجانب الخطأ من القصيم ، وفى الموقع نفسه الذى حدده لها بنكرتون Pinkerton قبل اثنى عشر عاماً ، إلا أن بلدة بريده الأكثر أهمية ما زال موقعها محدد فى الجنوب الغربى بدلا من شمالى عنيزة . وفيما يتعلق بالأقاليم الواقعة جنوب وشمال المنطقة التى تغطيها بيانات (مفكرات) الأحداث اليومية المصرية ، يبدو أن معلومات جومار بشأنها لم تكن أفضل من معلومات أولئك الذين جاءوا قبله إلى تلك الأماكن . فمن ناحية نجد أن جبل العارض ما يزال عبارة عن سلسلة جبلية طويلة تمتد ناحية الغرب – والجنوب وذلك فى المنطقة من جبل الطويق إلى الطائف . (هذه السلسلة الجبلية جرى توقيعها فى أقصى الشمال ، وفى علاقة غير دقيقة مع مكة) ، كما أن صحراء الربع Roba الخالى el - Khali

تعزل الأفلاج ووادى الدواسر عن الحريق والخرج ؛ ومن ناحية أخرى ، نجد أن جبل الشمر فى خريطة جومار جرى توقيعه اعتمادا على دلائل غير جيدة اعتمدت على بيانات (مفكرات) الأحداث اليومية التى دونها الحجاج المسلمون . صحيح أن السلسلتين الجبليتين لجبل شمر موجودتان ، ولكنهما ليستا صحيحتان من حيث الموقع والاتجاه . من ذلك ، أن حائل تقع غرب المستجدة Mestajedde وليس فى شمالها ، يضاف إليذلك أن مسافة النفود فيما بين جبل الشمر والجوف جرى تقليصها إلى نصف عرضها الحقيقى .

جومار لم يتنازل عن مسألة الصرف السطحى فى جنوب الجزيرة العربية واتجاه ذلك الصرف السطحى نحو الخليج الفارسى ، عن طريق وادى حنيفة – عفتان ، وذلك بالرغم من اعترافه بالشكوك المبنية على رفض أبو الفدا لوجود نهر فى الجزيرة العربية وليس على اعتراض سادلير على هذا الموضوع . وهنا يصبح من الضرورى التنويه أنه لا جومار ولا أى إنسان آخر كان يعرف فى ذلك الوقت الارتفاع النسبى للأجزاء المختلفة من شبه الجزيرة العربية ، أو الاتجاه الصحيح لانحدار وسط الجزيرة العربية .

حقائق التضاريس الكبرى ، فى أى بلد من البلدان الجديدة يصعب القطع فيها عن طريق التقارير التى كتبها الغرباء الذين مروا بتلك البلدان أو عن طريق شهادات المواطنين المقيمين ، اللهم إلا إذا جرى تدقيق مثل هذه التقارير والشهادات تدقيقًا يقوم على الصبر والتفهم اللذان لا يتوفران إلا لقلة قليلة من الرحالة ؛ ولكن ، فى ضوء ما توصل إليه كل من نيبور وبركخاردت ، فإن المعلومات الخاصة بالخصائص الاجتماعية يمكن جمعها بسهولة ويسر وبدرجة عالية من اليقين . وهذا هو جومار الذى أمكنه الاطلاع على التقارير العسكرية التى قام ضباط القوات المصرية بتجميعها ، استطاع أن يقدم لنا جداول عن السكان المستقرين فى جنوب نجد ، وعن القبائل البدوية ، وذلك من واقع القوات التى قدمتها كل فئة من فئتى السكان هاتين ، أو القوات التى كان ينتظر منهما أن يقدمانها ، لحلفائهم وسادتهم المصريين . كانت إحصائيات جومار ، بالشكل التى وردت عليه ، دقيقة بشكل معقول ، ولم تكن تلك الإحصائيات مشوهة عن

طريق المبالغة التى تميزت بها الأرقام التى أوردها الأوروبى الذى قام باختراق الجزيرة العربية بعد جومارد . هذا المخترق الجديد ، كان جيفورد Gifford بالجريف Palgrave . وقد استطاع جومار ، عن طريق قوائم الضرائب المصرية ، أو بالأحرى عن طريق سلطته الوطنية ، تحديد منتجات البلاد ، وتحديد غذائها ، وصناعتها ، وتجارتها ، ومناخها ، وحياتها الحيوانية ، كما استطاع أيضاً تحديد الصورة العامة لقانونها وعاداتها .

من الطبيعى أن تكون البيانات الحاملة لتلك الحقائق على شكل موجز أو مختصر ، كما يصعب أيضاً تكبير مثل هذه البيانات اعتماداً على البحث المختصر الذى نشره سادلير فى بداية الأمر . وقد أمكن عن طريق التقرير الكامل الذى نشره سادلير تكوين فكرة دقيقه عن ذلك القسم المستقر والقسم المترحل فى جنوبى نجد ؛ كما أمكن أيضا تكوين فكرة دقيقه عن طبيعة المستوطنات ، وعن الظروف الحاكمة لممارسة الزراعة ، وفكرة جيدة أيضا عن التجارة والمرور ، فضلاً عن فكرة دقيقة عن الحالة العامة للمجتمع طوال فترة الاحتلال المصرى . وإذا كان ذلك الإنجليزى ينظر بعينين غير متعاطفتين ، فذلك يعنى أنه كان يرى ذلك الذى كان ؛ وأنه سجل ذلك الذى كان ، بالصورة التى كان عليها . بعض آخر من الأوروبيين ، أكثر علما ، وأكثر ملاحظة قدر لهم أن يجيئوا إلى نجد بعد سادلير ، ولكننا لا يمكن أن نعتمد على أى من التقارير التى نشروها .

والخريطة المرفقة التى تبين الطريق الذى سلكه سادلير ، توضح تماما ذلك القليل الذى رآه ذلك الرجل فى نجد ، كما توضح أيضا المناطق الشاسعة التى ما تزال بحاجة إلى الاستكشاف فى الشمال وفى الجنوب منذ ذلك الخط الوحيد الذى رسمه عبر شبه جزيرة العرب الشاسعة ، رجل لم يكن مزوداً تزويداً طيباً بالمعدات اللازمة للمراقبة ، ولم يكن يتنقل فى ظل ظروف تناسب رائداً من الرواد الجغرافيين ، ولكن ، هذا هو ما كان ، ولذلك بقى استكشاف سادلير لنجد طيلة جيل من الزمان الاختبار التجريبى الوحيد لمعلومات العصور الوسيطة عن ذلك الإقليم الشاسع ؛ ومع ذلك

اكتشف محمد على أنه لم يستطع القضاء على نجد . ثم استعادت قوة الدرعية المحطمة عافيتها فى الرياض ، ولضمان سلامة وأمن المدن المقدسة ، عادت طوابير الجنود المصريين إلى الداخل مرة ثانية فى العام ١٨٢٤ الميلادى ، وفى العام ١٨٣٦ ، واعتبارا من هذا التاريخ الأخير استؤنف احتلال نجد من جديد لمدة تقدر بحوالى ست سنوات . ولكن أحداً من الضباط الغربيين الذين رافقوا تلك الحملات (هذا إن كان هناك أى أحد من هؤلاء الضباط) لم يترك لنا أى تقرير عن نفسه ؛ وليس هناك أى أوروبى آخر (٥) يمكن القول إنه رأى أى شىء من ذلك الذى رآه سادلير بين الخليج الفارسى والمدينة (المنورة) إلا بعد مرور فترة زمنية تقدر بأربعين عاماً .

هوامش الفصل الرابع

(١) ترجم نوربرج Norberg ذلك الوادى على النحو التالى in Parte in feriori vallis vadi Essem

(٢) كان أولئك الحكام البريطانيون قد قاموا ببعض المقدمات مع الأمير الوهابى فى هذا الخصوص . فقد أوفد رينو Reinaud فى العام ١٧٩٩ من قبل مانستى Manesty ، الممثل البريطانى المقيم فى البصرة ، إلى الدرعية ، فى مهمة وفاق وإصلاح ذات البين ، ونجح إلى حد ما فى مهمته .

(٣) نحن لا نعرف كل تفاصيل رحلة ذلك الرجل ، ولا نعرف أيضاً إن كان قد قام أو لم يقم به والسبب فى ذلك أن ذلك الرجل لم يترك أية رواية عن هذه الرحلة . وأن فى هذه العبارة المقتضبة التى أوردتها هنا ، أدين فيها لأحد مستكشفى نجد وهو الأستاذ الدكتور جوزيف يوتنج ، عندما كان يكتب عن رحلته فى ver hand-lungen der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin, xiii (1886), PF262 . ويوتنج نفسه يقتبس هذه العبارة عن Bes . Beilagesd . Staatsanzeiger für Wuertemberg, No. 21 (٨ سبتمبر ، ١٨٨٢) التى لم أستطع العثور عليها .

(٤) الهجاء الإنجليزى لهذا الاسم هو الذى أورده جومارد .

(٥) أنا فى استخدامى لهذا المصطلح أستبعد المرتدين عن دينهم فى كل من الجيش المصرى ، والمسيحيين الشرقيين ، أى اليونانيين ، الذى قال عنهم بركخاردت إن طوابير كبيرة منهم كانت مع القوات المصرية . هؤلاء المرتدون لم يقولوا لنا شيئا عن خبراتهم وتجاربهم .

مراجع الفصل الرابع

Jihádn Numa, See chap. i .

Félix Mengin, Histoire de l'?gypte Sous le Gouvernement de Mohammed Aly. 2 vols. (Paris, 1823).

Reinaud in article by Seetzen in Von Zach's Monatl . Corresp., xi p. 234 (1805). He is apparently the person to whom Leake alluded under the name Renaud, as having risen eventually to be agent of the East India Company at Basra (Northern Greece, i.p. 308).

G. Forster Sadlier, Diary of a Journey across Arabia, etc. (Bombay, 1866 CF. Trans. Lit. Soc. of Bombay, iii. p. 449 (1821).

Jomard, Appendix to Mengin, cit . supra.

الفصل الخامس

المصريون فى الجنوب الغربى

الخدمة غير المباشرة التى أسداها الاحتلال المصرى للمعرفة الجغرافية عن طريق احتلال أراضى الجزيرة العربية لم تتوقف تماماً على المهمة التى جاء بها سادلير إلى نجد . ويجب علينا الثناء أيضاً على محمد على للفرصة الوحيدة التى تهيأت للعيون الأوروبية، والتى لم تتح إلا فى ذلك الوقت ، لرؤية تلك المنطقة من شبه جزيرة العرب ، التى لم يحصل نيبور على أية معلومات عنها بأى شكل من الأشكال .

هذه المنطقة تقع إلى الجنوب من كل من مكة والطائف ، وإلى الشمال من اليمن . والجغرافيون العرب الذين يطلقون على المدينتين المقدستين ، وكل ما يقع بينها وحولهما اسم الحرمين ، يطلقون أيضاً على القسم الأكبر من هذه المنطقة ذاتها اسم الحجاز ، وهم هنا يرسمون الحدود الجنوبية بشكل غير واضح ومتباين . رسامو الخرائط المحدثين ، الذين اعتادوا على تمديد الحجاز إلى البلاد الواقعة شمالى المدينة المنورة وينبع ، يطلقون على الجزء الجنوبى من هذه البلاد اسم عسير Asir، وهذا الاسم لا ينطبق فى حقيقة الأمر إلا على النصف الجنوبى من هذه المنطقة . ويبدو أن نيبور لم يسمع مطلقاً عن عسير ، وإنما سمع فقط عن مجتمع بدائى جداً يسكن شمالى "صحراء أماسيا "Amasia، التى تحد من وجهه نظره المنطقة البعيدة من الأراضى اليمنية العالية ، والأراضى التى تعيش فيها قبائل حاشد Hashid وبكيل Bekil، التى لا يذكر منها سوى أسماءها . يقول نيبور ، إن هذا المجتمع كله مكون من سكان الخيام ، المختتنين ولكنهم ليسوا مسلمين حقيقيين ، والذين يستهزئ بهم الكفار اليمنيون

. وقد أبلغ نيبور ، عن وجود عرق أرقى وأكثر تحضراً في الجزء الجنوبي من هذا الإقليم ، وأنهم يسكنون في مستوطنة صعدة Sade وحولها ، وأن الواحد منهم لا يتزوج إلا من قرينة واحدة ، وأنهم يعملون في تجارة العبور (الترانزيت) بين مكة ، ونجران واليمن . ومن المحتمل أن يكون نيبور قد حصل على معلومات أفضل حول هذا الموضوع من الإدريسي ، الذي أضاف بعض الملاحظات عن هذا الجزء من البلاد ، عندما كان يقوم بإحصاء وحصر المحطات العشرين التي بين صنعاء ومكة ، التي يبدو أنها أصبحت أساساً للتحريات والتقصيات التي قام بها بركخاردت في مكة . صحيح أن السويسري تعلم الكثير عن طبيعة البلاد وعن مجتمعها ، ولكنه ارتكب خطأ عندما خلط بين "عسير" Asyr ، التي تشمل منطقة كبيرة فعلاً ، ولا تشتمل إلا على إسم قبيلة واحدة . ويضيف الرجل ، بالرغم من كل ذلك ، أن المنطقة التي يراها من يلقى نظرة على الخارطة التي نشرها برغوس Berghaus في العام ١٨٣٥ الميلادي ، يجد أن منطقة عسير لا وجود لها ، على تلك الخارطة على الإطلاق .

الجزء الجنوبي من هذا الإقليم ، عسير نفسها ، كان عبارة عن المنطقة الوحيدة الساحلية ، من الجزيرة العربية ، والتي قبلت المذهب الوهابي قبولاً حسناً وعن طيب خاطر ، تحت قيادة الشيخ أبو نقطة (*) Nuktah والذي تعاون تعاوناً تاماً مع الأمير سعود في مواجهة الباشا المصري . ودافع الشيخ أبو نقطة في ذلك كان دافعاً دينياً أكثر منه دافعاً سياسياً ، بالرغم من أن أهل جنوبي الحجاز وعسير ربما كانت لهم عداوات قديمة كانت ما تزال قائمة بينهم وبين أهل مكه الفاسقين المعتدين ، كما أن ظهور المصريين ربما أعطاهم من الأسباب ما يجعلهم يخافون على الأراضي التي تعد ثرية في الجزيرة العربية . يجب أن لا يغيب عنا أن الجنوب الغربي ، أخصب أجزاء الجزيرة العربية ، لم يخضع للمعتقدات القديمة لعقيدة محمد (ﷺ) . والجنوب الغربي بعد أن قبل الإسلام في شيء من التردد شارك في العقيدة القرموطية عندما

(*) الشيخ أبو نقطة : كان حاكماً على إمارة عسير الجبلية، وارتبط بالدولة السعودية. ولصالح الأمير سعود قام في عام ١٨٠٥ بالاستيلاء على مكة ومنع قوافل الحج المسلحة من الوصول إليها . (المراجع) .

هل ذلك المذهب القرموطى فى اتجاه الغرب قادمًا من الأحساء ، كما أن الجنوب الغربى لم يخسر صيغة المذهب الإيرانى ، الذى كان يتوافق مع بعض التقاليد المحلية التى تقوم على عبادة الطبيعة ، التى ورثها هؤلاء الناس عن الحضارة السبئية التى ازدهرت فى الجنوب . ولما كانت واحة نجران العظيمة بؤرة لذلك الميل إلى الكفر ، ولما كانت واحة نجران هى المقر القديم للمسيحية الكولوريدية (*) Collyridian، فقد أصبحت هذه الواحة فى منتصف القرن الثامن عشر مسرحاً للتمرد الدينى الذى قام به الشيخ المكرامى ، الذى يتصرف مثل الوهابى ، ويبدو أنه كان يربطه نوع من التعاطف مع الأمير الوهابى ، وهنا لن يكون من الغرابة فى شىء أن نرى أن عسير Asir، التى تجاور هذه المنطقة من ناحية الشمال ، تنضم إلى خلف الأمير الوهابى عندما ظهر وهو يحمل رمحه فى يده . وهذا الذى فعلته عسير لابد وأن يكون اليمن قد فعله أيضاً ، ولو قدر لليمن أن يكون مفتوحًا أمام نجد ومحميًا من المؤثرات الأجنبية .

أيًا كانت الأسباب ، فقد أثبتت عسير أنها شوكة فى جانب المصريين . وحتى يتسنى لمحمد على تغطية مكة فى وجه مقاتليها وفى مواجهة المقاتلين النجديين ، كان لابد من جعل الطائف مركزًا متقدمًا قويًا ، وأن يقوم من وقت لآخر باستعراض قوته فى تربة Taraba، ويصل أيضاً إلى منطقة التلال الواقعة بين هذه النقطة والقنفذة Gunfude . وقد سمعنا عن غزوة من هذا القبيل فيما يتصل بجيوفانى فيناتى Finati؛ وسمعنا عن غزوة أخرى من النوع الموفق ، جرت فى العام ١٨١٥ الميلادى ، وكانت بمثابة آخر مغامرة شخصية من مغامرات الباشا فى الجزيرة العربية . ومع ذلك ، لم تتمكن أية حملة من تلك الحملات من تأمين البلاد ، وبعد تمرد قوات الاحتلال بقيادة "تركجا Turkja بلمز (**) "Bilmez فى العام ١٨٣٢ الميلادى ، قام قبليو عسير ، الذين

(*) المسيحية الكولوريدية : من المرجح أن تكون من توابع الكنيسة النسطورية التى كانت منتشرة فى نجران وبلاد الرافدين . (المراجع) .

(**) تركجا بلمز: ضابط تركى يدعى محمد أغا قاد حركة التمرد ضد محمد على فى الحجاز، وأقره الباب العالى واليًا على الحجاز نكاية فى محمد على الذى خرج عن طاعته فى الحرب السورية الأولى عام ١٨٣٢ (المراجع) .

استفزوا من انسحاب تركجا بلمز عن طريق بلادهم ، بتهديد خطوط المواصلات المصرية تهديداً خطيراً ، بل وقاموا أيضاً بتهديد مكة نفسها ، إلى حد أن محمد على توتر توتراً شديداً ، مما جعله يتمكن بعد جهد جهيد من تشكيل وحدات جديدة من المجندين ؛ وبعد أن رفع عدد الجيش الذى يقوده أحمد (*)، إلى ثمانية عشر ألفًا من الجنود مما مكنه من التوجه للهجوم على عسير . كانت تلك الحمله الجديدة مصحوبة بما لايقل عن ستة من الأوروبين ، منهم خمسة فرنسيين ، - هم فيسير Vaissier من جديد ، شيدوفو [1] Chedufau، بلانات Planat، تاميسير Tamisier، ومارى Mary، - وواحد إيطالى هو جاتى Gatti . وفى نهاية المطاف بدأنا نسمع عن غربيين آخرين ، منهم أتكنز Atkins ، على سبيل المثال ، وأتكنز هذا إنجليزى سبق أن أشرنا إليه ، وكان مسئولاً عن بطارية صواريخ من طراز كونجريف ، كما كان هناك شخص آخر بيدمونتى Piedmontese ، ولكن الذى يعنينا هنا هم أولئك الفرنسيون ، والسبب فى ذلك أن هؤلاء الفرنسيين ، وعلى العكس من المساعدات التى قدمها إبراهيم باشا للجغرافيا فعلوا شيئًا من أجل تقدم المعرفة الجغرافية . فقد قدم بلانات خريطة تخطيطية عن مسرح العمليات إلى فولجنس Fulgence فرسنل Fresnel، الذى كان يشغل منصب القنصل الفرنسى فى جدة ، ونشر تاميسير ، فى العام ١٨٤٠ الميلادى ، مفكرة يوميه ، عن خبراته وتحركاته اليومية طوال تلك الحملة ، أما شيدوفو الذى بقى مدة ثمانية سنوات فى الجزيرة العربية ، وشاهد أيضًا بعض الحملات الأخرى ، فقد نشر بالاشتراك مع مارى Mary بعض الملاحظات التى قام بإعدادها كل من م م جالنر Galliner وفيريت Ferret ، وعن طريق تلك الملاحظات استطاع جومار مراجعة تقريرين كان فرسنل Fersnel قد حصل عليهما من الشيخ أعوس A'ús، وهو واحد من أتباع الشيخ أبو نقطة ، كما استطاع أيضاً نشر خريطة ومقال عن هذه البلاد . كان ذلك

(*) المقصود به أحمد باشا يكن الذى واجه حركة تركجا بلمز، واضطره إلى الانسحاب من جدة جنوبًا حتى وصل إلى الحديدة، واستقر فى مخا، غير أن محمد على تمكن من القضاء على تلك الحركة التى ترتب على إخمادها عودة النفوذ المصرى إلى اليمن مما شكل تهديداً للمصالح البريطانية، ومن ثم استقر عزم بريطانيا على السيطرة على عدن فى عام ١٨٣٩ (المراجع) .

المقال مكوناً أصلاً من قوائم بأسماء الأماكن التى جرى جمعها من تقرير الشيخ أعوس، وجرى دعم تلك القوائم بأسماء أخرى جرى الحصول عليها من خارطة فرسنل Fresnel ومن مفكرة تاميسير Tamisier التحشيات التى وضعها جومار على الخريطة التى رسمها لمنطقة عسير توضح أنها أكثر ازدحاماً مما يوحى به شكل هذه الخريطة ، من ذلك على سبيل المثال أن المجارى المائية ليست سوى مجرد إشارات عامه أكثر منها تحديداً دقيقاً لمنظومة الصرف . يزاد على ذلك أن مزيداً من التفاصيل التى جاء بها شيدوفو Chedfau نشرت فى العام ١٨٤٣الميلادى ضمن مطبوعات الجمعية الجغرافية فى باريس . هذه الملاحظات التى قدمها أولئك الفرنسيون هى بمثابة أول وآخر الدلائل الأوروبية على عسير ، نظراً لأن المستكشفين لم يجرؤ أحد منهم على المخاطرة بالدخول إلى جبال عسير بعد أن أبرم محمد على معاهدة سلام شائعة فى العام ١٨٤١ الميلادى ، وقام بسحب قواته بعد القيام بما لا يقل عن أحد عشر حملة على هذه البلاد .

عسير ، شأنها شأن منطقة مكة (المكرمة) تتكون من شريط ساحلى حار قاحل ، يرتفع من خلفه جرف مستمر ، هو الذى يحدد الحافة العريضة المرتفعه للهضبة الداخلية ، بدلاً من منظومة جبلية . هذه الأرض المرتفعة تقترب من الساحل وهى أكثر ارتفاعاً فى عسير عنها فى منطقة المدن المقدسة.. وتتمتع هذه الهضبة بالميزة الفريدة التى تتمثل فى وقوعها داخل منطقة الأمطار الموسمية . ولما كان انحدار هذه الهضبة طفيفاً فى البداية ، وطويلاً بصفة دائمة ، فإن منطقة مستجمع مياه الأمطار تكون واسعة ، ويمكن أن تتفرع من الأراضى العالية مجارى مائية داخلية أكثر امتلاءً بالماء وأكثر دواماً من المجارى المائية التى يفخر الشمال ويتباهى بها . هذه المجارى المائية يكون اتجاهها بصفه عامة من الشمال إلى الشرق ، وأكبر هذه المجارى ، ألا وهو وادى بيشه Bishe، أصر جومار على أهميته . هذه الوديان أصبحت ذات أهمية كبيرة بعد أن نشأت الواحات على ضفافها ، وقد شاهد "شيدوفو" تلك الوديان ، وقال إنها تنساب فى اتجاه الإستبس ، أو إن شئت فقل : فى اتجاه تلك السهول مترامية الأطراف صحراوية النبوت . هذا الفرنسى أقنع نفسه عن طريق الأدلة الوطنية أن كل تلك المجارى المائية ، أو إن شئت فقل : كل هذه الوديان جرى تجميعها فى نهاية الأمر

فى وادى الدواسر ، وجرى تفريغها كلها فى بحيرة دائمة يطلق عليها اسم بحر Bahr سالومى Salume . وبناء على ذلك أصبح ذلك البحر يجد لنفسه مكانًا على السواد الأعظم من الخرائط التى رسمت بعد ذلك والدراسات والبحوث التى تناولت جغرافيه الجزيرة العربية ، وذلك بالرغم من الحقيقة التى مفادها أن البحيرة الدائمة لا تعد معلمًا دقيقًا من المعالم الطبيعية فى شبه الجزيرة العربية [1] . شيدفو ، يرى أن تصريف هذه البخيرة يمر بوادى عفتان Aftan وصولاً إلى الخليج الفارسى ، وقد وافق جومار على ذلك ، منحيا جانبا اعتراضات سادلير ، التى كانت تعتمد على الملاحظات الصيفية فقط . ورد فى تقرير أعده تاميسير أن المسافات فيما بين الوديان الرئيسية كانت خالية من الماء وجرداء ؛ يضاف إلى ذلك أن البلاد الواقعة فى اتجاه الشرق من مستجمع مياه الأمطار تبدو خصبة بالمقارنة مع أراضى الحجاز وليس مع أراضى اليمن . وقد واجهت القوات المصرية الصعوبات نفسها التى واجهها إليوس Aelius جالوس Gallus وأثارت إشمئزازه ، هذا يعنى أن إليوس قد سلك طريقًا داخليًا وهو فى طريقة إلى نجران ؛ ولكن القوات المصرية أصابت نجاحًا بالرغم من الهزائم التى لحقت بها ، عندما كانت تخترق المنطقة وصولاً إلى الحدود الجنوبية لمنطقة عسير ، وكانت أبعد النقاط على ذلك الطريق الداخلى تتمثل فى كل من ميناد ر Menader وخميس مشيط ، واللتان تقعان بالقرب من رأس وادى شهران Shahran، الذى يشكل الشوكة الجنوبية لوادى بيشة . وشيدوفو يأتى على ذكر واحات تحتوى الواحدة منها على الآلاف من أشجار النخيل ، كما تنتج هذه الواحات أيضًا القمح ، ونوعًا فائق الجودة من البن ، الذى جمع منه مارى بعض العينات .

هذه المعلومات التى يتعين علينا الاقتناع بها ، تفيد فى تصحيح المعلومات التى جاء بها نيبور . وهنا يمكن القول إن عسير أكثر شبهًا باليمن أكثر مما ذهب إليه نيبور، ويحتمل أن تكون خصبة مثل الإقليم الذى شاهده هاليفى Halevy فى العام ١٨٧٠ الميلادى ويتمثل فى منطقة نجران . ويبدو أن سكان عسير كانوا وما يزالون فلاحين شجعانا من فلاحى الأراضى العالية ، الذين يحبون الاستقلال حبًا جمًا ،

ويتمتعون بقدر كبير من يسر أحوالهم المعيشية ، وقدرتهم على التماسك أكثر مما هو معتاد فى الجزيرة العربية . استطاع أهل عسير المحافظة على استقلالهم الذاتى ، الذى عجز المصريون عن النيل منه ، مثلما سبق أن حافظوا عليه من العثمانيين ، بالرغم من أن العثمانيين كانوا يسيطرون على البلاد من ناحية الجنوب ومن ناحية الشمال . وبذلك تظل عسير هى وامتدادها فى اتجاه نجد ووادى الدواسر ووادى الرمة، تلك المنطقة من الجزيرة العربية التى تظل بحاجة إلى المزيد من الاستكشاف ؛ وهناك لا يسعنا إلا أن نشعر بالأسف والندم بأن المرض والعوز وقلة الموارد هى التى منعت شارلز دوتى فى العام ١٨٧٨ الميلادى من قبول العرض الذى قدمه له شريف مكه ليفرجه على وادى بيشة .

أخيراً ، يحق للمصريين أن يزعموا شيئًا من الفضل فى التقدم الذى طرأ على معرفتنا باليمن منذ أن قام نيبور برحلته . واصلت قوات محمد علىّ ، التى دخلت هذه البلاد أول مرة فى العام ١٨٢٦ الميلادى ، احتلالها لجزء من تهامة والأراضى المنخفضة ، وقد استمر ذلك الاحتلال إلى العام ١٨٤٥ الميلادى ؛ وبالرغم من زيادة الاحتكاك بين قوات محمد على واليمنيين المستقلين من سكان الهضبة ، وبالرغم أيضاً من أن كراهيتهم المحلية تسببت فى انعدام السلامة فى المنطقة المحتلة ، فإن الحقيقة التى مفادها أن المصريين هم أصحاب الحل والربط هى التى جذبت بعض الأوروبيين إلى الموانئ ، ثم نجحوا بعد ذلك فى الاختراق نحو الداخل . هؤلاء الذين اخترقوا نحو الداخل لم يكن لديهم جديداً حتى يقولوه لنا . وهذا هو أهرنبرج Ehrenberg وهمبرش Hemprich، وهما عالمان ، من علماء الطبيعة إلتزما ساحل أبو عريش AbuArish فى العام ١٨٢٥ الميلادى ، وهذا هو كومبس Combes لم ير سوى ذلك الجزء من تهامة الواقع بين الحديده وحاس Has، وهو الجزء الذى استكشفه نيبور استكشافًا تامًا . وهذه هى الرواية الرائعة التى جاء بها جوزيف ولف ، مبشر اليهود بالإنجيل ، ينجح فى عبور الحدود الداخلية فى العام ١٨٣٦ الميلادى ، ويصل إلى صنعاء ، ولكن روايته لا تحتوى على أى شىء له أهمية جغرافية اللهم باستثناء حقيقة مواجهة بعض "الوهابيين المسلحين"[(١)] فى المنطقة المجاورة للعاصمة . ونحن أيضاً لا يمكننا أن نقول

أى شيء عن الاختراق الذى قام به الملازم البحرى البريطانى شارلز كرتندن Crutten-den حملته التى قام بها من المخا إلى صنعاء جرت فى العام ١٨٣٥ الميلادى بصحبة الدكتور هلتون Hulton، الذى كان هو أيضًا من بين طاقم سفينة المسح الهندية التى يطلق عليها اسم "بالينورس" Palinurus . وقد توفى هلتون على الفور عقب عودته إلى السفينة بمرض شبيه بذلك المرض الذى أصاب جماعة نيبور ، ويبدو أن كرتندن لم يكن يدون أية ملاحظات عن الطريق . وتمثلت النتيجة التى حققها العلم فى نسخ أربعة نقوش حميرية من صنعاء ، كان أولها جرى تسقُّطه أو تلقُّطه من اليمن نفسها . لم يكن الوقت مواتيًا أو مناسبًا فى العاصمة اليمنية . فقد كان إمام اليمن رجلاً منغمسًا فى اللهو والمجون ، وكان ميالاً لتصديق الشك فى الأوروبيين بأن كلهم فرنسيين يعملون فى الجيش المصرى .

عالم النبات الفرنسى ، بول Paul إميل Emile بوتا Botta، طبيب محمد على باشا ، والذى كان مكلفًا بمهمة من متحف التاريخ الطبيعى الفرنسى فى باريس ، لم يقتصر وصوله فى شهر سبتمبر من العام ١٨٣٦ الميلادى على مدينة الحُديِّده فقط وإنما نجح الرجل فى إقامة علاقات جيدة مع رئيس المنطقة شبه المستقل ، وذلك فى المنطقة ما بين جاس Has وتعز Tais، وتحت حماية هذا الرئيس دفع بوتا Botta أبحاثه إلى الأراضى العالية الغربية إلى أن وصل إلى مسافة أبعد من تلك التى وصل إليها فورسكال Forskall . كان هدف بول إميل بوتًا الأساسى يتمثل فى صعود منحدر الكتف الكبيرة فى الأراضى الغربية العالية والذى يتجه ناحية الغرب إلى جنوبى اليمن، مكونًا بذلك جبل صابور Sabor خلف مدينة تعز، ومعروف أن هذا الجبل يذيع صيته فيما يتصل بالحياة النباتية ، كما يشتهر ذلك الجبل أيضاً باستقلال مجتمعه الرعوى . كانت مسألة فشل فورسكال Forskall فى الحصول على تصريح بزيارة هذا الجبل ، بمثابة خيبة الأمل الأخيرة التى منى بها ذلك الرجل .

جاء أعظم اكتشاف فى نهاية المطاف . ففى مطلع العام ١٨٤٢ الميلادى ، قدم أحد الفرنسيين نفسه إلى فولجانس Fulgence فرسنل Fresnel فى مدينة جده Jid-

da، وصرح له بأنه هو لويس Louis أرنو Arnaud، الذى التحق بالخدمة فى الجيش المصرى فترة من الزمن ، ولكنه فى الوقت الراهن وصل إلى سلطان (*) صنعاء Sana، وقام آرنو بتسليم القنصل المتعلم ضميمة من الملاحظات . تحدث فرسنل مع آرنو عن بعض الأشياء الحميريه ، ووعد آرنو بالعودة إلى صنعاء ، وإذا ما صلحت الأحوال فسوف يتجه شرقا إلى العاصمة السبئية القديمة ، فى مأرب Marib، ثم ينطلق من مأرب إلى الحجر El - Hejr . وتنكر فى شخصية مبعوث من قبل محافظ جدة . ولم يسمع فرسنل أى شىء عن آرنو إلا فى العام التالى ، عندما وصلت إلى يديه مجموعة من النقوش الحميرية تقدر بحوالى خمسين نقشًا ، وفى نهاية المطاف أصيب آرنو Ar-naudنفسه بما يشبه العمى نتيجة إصابته بالرمد الصديدى .

كان لويس آرنو قد فصل نفسه عن الأتراك عندما وصل إلى صنعاء فى شهر يوليو من العام ١٨٤٣ الميلادى ، واستطاع الرجل بفضل صديق وطنى العثور على صحبة أمينة مع رجل من مأرب ، وواحد من البدو ، كان من عادتهما نقل الذرة والملح فيما بين العاصمة وشرقى البلاد . فى ذلك الوقت كان الجزء ، الواقع خلف الهضبة التى ترتفع فى اتجاه الشرق من وادى صنعاء ، مستقلاً من الناحية العملية عن القوة الحاكمة فى اليمن ولا يخضع إلا إلى أشرافه وشيوخة فقط ؛ وما يزال الحال على ما كان عليه . ومن ثم فإن مغامرة آرنو كانت تدور من حولها الشكوك ، ولذلك اتخذ أرنو كل الاحتياطات اللازمة حتى لا يعرف الناس أنه أوروبى . اكتشف إرنو أن الفوضى تدب على بعد حوالى عشرين ميلاً ، كما جرى توقيف قافلته الصغيرة ، فى أحيان كثيرة ، بواسطة البدو "المبتزين" ، وعبر الرجل الهضبة وهو يشعر بالخوف الشديد . وفى خريبة Khariba جرى اكتشاف بعض الأنقاض السبئية ، وبعد أن نزلت الجماعة من المنحدر المتدرج إلى السهل الواسع العامر بالماء ، والذى يحتوى على مجارى مائية تجرى فى اتجاه الجنوب والشرق ، وصلت إلى سد مأرب الشهير ، ذلك العمل الخرافى الذى أنجزته الملكة بلقيس . فى هذه المنطقة عثر أرنو على الكثير الذى يمكن أن يعمله

(*) إمام صنعاء . (المراجع) .

بين هذه النقوش الصخرية والمنحوتات التى رفض مرشده البدوى السماح له بدراستها ، بدافع من الغيرة أو الخوف على الذهب المدفون أو خوفه من الاتهام . وفى قرية مأرب ذاتها استقبل أرنو استقبالاً حسنًا فى بداية الأمر بواسطة الشريف ، واستمع إلى الكثير من الأشياء المهمة ؛ ومن بين تلك الأشياء ، حكاية رجل أبيض من حضر موت هو الذى "كتب الأحجار" قبل بضع سنين ثم اختفى على وجه السرعة مثلما جاء تماماً . ثم وصلت أرنو بعد ذلك حكاية عن رجل آخر من حضر موت نفسها "لم يكن يعرف من العربية شيئاً غير الشهادة" ، واستطاع أرنو أن يعرف بعد ذلك أن هذا الرجل هو فون فيردى Von Wrede . ولكن سرعان ما تزايد فضول البدو وعدائهم . هذا الغريب ، بالرغم من كونه مغربياً ، لم يكن يصلى أو يعرف الطرق الصحراوية ، وبالتالى لابد أن يكون ، على حد ظنهم ، واحداً من الإنجليز الذين هم فى عدن ، وأنه جاء للتجسس على البلاد . ولكن ذلك لم يسفر عن أى أضرار لأرنو فى نهاية الأمر . وقام ولد شريف مأرب باطلاع أرنو على الموقع الأثرية فى مأرب ، وعندما استعدت القافلة للعودة سمحوا له بالرحيل . وأجل أرنو الرحيل بعض الشيء حتى يقوم بنسخ النقوش التى فى خريبه ، ثم عاد إلى صنعاء بسلام ، ولم يصب بأى مكروه على الطريق سوى احتقار وازدراء البدو الخشنين له .

نحن نرفض أن نحذو حذو البرشت Albrecht زهمى Zehme فى الاعتراف بأرنو باعتباره واحداً من بين ستة من الرواد الكبار فى استكشاف الجزيرة العربية ، والسبب فى ذلك أن الاختراق الذى قام به لم يستمر سوى يومين فقط فى المناطق المجهولة ، كما أن الرجل لم يلق بالا للاهتمامات الجغرافية التى كان أمامه متسع من الوقت لتطويرها والزيادة عليها . ومع ذلك ينبغى الإقرار هنا بأن الفرنسى عندما اندفع وحيداً فى أرض ليس فيها حكومة مستقرة ، كما أنه هو نفسه لم يكن متنكرًا أو ناكرًا لمسيحيته ، لابد من أن يكون معرضاً للأخطار والشرور أكثر من أى رحال من الرحالة الأوروبيين الذين دخلوا الجزيرة العربية . يضاف إلى ذلك أن تصرفات البدو الذين التقاهم ، وبالرغم من أن تهديدهم بالخطر جاء أقل مما كان ينتظره هو أو يتوقعه ، كان أمراً مقبولاً ومطاقاً عند رجل على درجة كبيرة من العصبية ، وجديدة على حياة

الصحراء . جاء تصرف البدو على نحو يندر أن يصدر عنهم داخل نطاق حكومة مستقرة ، تجاه غريب لا يحظى بحماية قوية ، سلوك من قبيل ذلك السلوك الذى تعين على كل من سادلير ، وفيردى ، وهيرش ، ودوتى أن يتحملوا صدوره عن أولئك المتوحشين المتشككين ، وإذا كان أرنو يظهر نفسه مشغولاً فى روايته بذلك السلوك أكثر ممن جاء بعده إلى الإقليم نفسه ، وهو جوزيف Joseph هالبفى ، الذى لاقى الأمرين هو الآخر ، إلا أننا يجب أن لا يغيب عن بالنا أن أرنو كتب تقريره إلى فرسنل Fersenel بعد أن تعافى من مرضه الذى دام شهوراً عدة ، وبعد أن شفى من شبه العمى الذى أصاب عينيه .

(*) يرجع ذلك إلى عام ١٧٩٨ حين عقدت بريطانيا أولى معاهداتها مع سلطان مسقط. (المراجع) .

هوامش الفصل الخامس

(١) ورد الاسم بهذا الهجاء فى نشره الجمعية الجغرافية الفرنسية ، المجلد الثانى ص ١٠٦ ولكن جومارد يكتب الاسم Chedufault، وآخرون يدونون الاسم نفسه (زهمى Zehme Chedufeau) .

(٢) سمع تاميسير (ص١٢٣) أن مياه عسير تلك كانت تنساب فى اتجاه الشمال الشرقى إلى بغداد - ولن تكون القصة مدعاة للسخرية ، إذا ما كانت تلك الوديان تصرف ماءها فى وادى الرمة العظيم .

مراجع الفصل الخامس

E. F. Jomard, in Appendix to F. Mengin, Histoire Sommaire de Égyptc (Paris, 1839) ; Chedufau, in Bull. Soc. Géogr., 2d série,

M.O. Tamisier, Voyage en Arabie (Pris, 1840).

C. G. Ehrenberg and W.F. Hemprich, Naturgeschichtliche Reisen durch Nord- Afrika und West-Asien, etc. (Berlin, 1828). See also Bombay Asiatic Soc., 1841, pp. 72, 129, 322, 390 .

M. J. Wolff, Missionary Journal (London, 1838); C.Cruttenden, in Journ R. Geog. Soc., 1838, p. 267; Trans R. G. S. of Bombay, i.p.39; E. Combes nd M. O. Tamisier, Voyage en Abyssinie et l' Arabie Heureuse (Paris, 1851) ; P. E. Botta, Relation d'un Voyage dans l'Yemen (Paris 1841) ; L. Arnaud, in Journal Asiatique, 4me série, V. (Paris, 1845) .

الفصل السادس

الجنوب المجهول

بعد الاحتلال المصرى كان هناك حزام من الأراضى الشهيرة جرى توقيعه على الجزء الخالى من خرائط وسط الجزيرة العربية . كان الطرف الغربى من ذلك الحزام يملأ المسافة الواقعة ما بين خط طول سبعة وعشرين وخط طول ثلاثين ؛ أما من ناحية الشرق فقد انكمش ذلك الحزام إلى ما يعادل درجة واحدة . ومن بين المساحات الشاسعة التى كانت تمتد بلا استكشاف على جانبى ذلك الحزام الشبيه بالإسفين ، تلك المساحة التى كانت فى الناحية الجنوبية والتى تساوى مساحة نصف شبه الجزيرة العربية تقريبًا . القسم الأكبر من تلك المساحة جرى تسجيله على أنه صحراء ، بواسطة الجغرافيين المسلمين وبواسطة الرواة الذين التقى بهم كل من نيبور وبركخاردت ؛ ولكن أجزاء من تلك المساحة ، اشتهرت وما زالت على إنها أماكن تقيم فيها مجتمعات مستقرة ، - والتى منها حضرموت ، على سبيل المثال ، التى اشتهرت بالتوابل منذ زمن بعيد ، ومنها أيضا عُمان ، أول مستعمرة أوروبية فى الجزيرة العربية (*) . يضاف إلى ذلك أن سواحل هذه المناطق لم تكن معروفة تمامًا . وهذه هى سفينه البحث والمسح الهندية التى تحمل اسم بالينوروس Palinurus، قد أسفرت رحلاتها التى قامت بها فى البحر الأحمر تحت قيادة مورسبى Moresby، وكارلس Carless، وهينز Haines، عن مخطط غربى لشبه الجزيرة العربية ، جرى رسمه بشىء من الدقة المنطوية على شىء طفيف جداً من التسامح ، كما قامت تلك السفينة أيضًا

(*) يرجع ذلك إلى عام ١٧٩٨ حين عقدت بريطانيا أولى معاهداتها مع سلطان مسقط. (المراجع) .

باستطلاع الساحل الجنوبي الشرقي ، وبالرغم من قيام النقيب هينز بتدوين بعض الملاحظات القيمة عن ذلك الساحل الجنوبي الشرقي ، والتي جرى نشرها في العام ١٨٣٩ الميلادى وفي العام ١٨٤٥ الميلادى أيضًا ، عن طريق الجمعية الجغرافيه الملكية، والتي جرى بعد عشر سنوات دعمها وتأييدها بواسطة النقيب أوين Owen من السفينة "ليفن" Leven، وبالرغم من كل ذلك فإن خارطه الشاطئ في المنطقة من مسينه -Mise na إلى راس Ras الحد el-Had بقيت على شكل مخطط ، كما أن خريطة ساحل عمان ذاتها ، بالرغم من مسحها في فترات متباينة من العام ١٧٨٠ الميلادى ، اتضح أنها لم تكن مرسومة بطريقة دقيقة في منتصف القرن التالي .

كانت بعض أجزاء من عُمان Oman في أيدى غربية ، كما سبق أن أوضحنا ، واستمر ذلك إلى منتصف القرن السابع عشر دون أن تكون على علم بالأرض التي جرى تحسينها تحسينًا معقولاً . وبعد جلاء البرتغاليين مباشرة قام ستروز Struys الهولندى بزيارة مسقط ، ووجدها مدينة مزدهرة ، وترك لنا رسمًا مهمًا لتلك المدينة ؛ ولكن عمان على امتداد قرن من الزمان ، وبعد الزيارة التي قام بها ستروز – لم يزرها أي أحد من الأوروبين . وفي العام ١٧٦٥ الميلادى جاء نيبور . نيبور هذا لم يواصل مسيره نحو الداخل ، ولكنه خلال مقامه القصير في مدينة مسقط نجح في تحديد موقع هذه المدينة ، كما أجرى بعض التحريات عن تلك المنطقة . كانت المعلومات التي حصل عليها نيبور غامضة . فقد كانت أرض هذه البلدة عبارة عن جبال تمتد إلى أن تصل إلى البحر ، وكان فيها مجريان مائيان دائمين ، علاوة على وادى سيب Sib ووادى ماسوره Massora في الداخل ، كانت هناك بلدة قوية اسمها الرستاق Rastak، وكان يعتمد عليها مكان داخلي قوى اسمه نزوى Nazwa، كما تعتمد عليها أيضا المنطقة الساحلية من بركا Bokra إلى السيب Sib؛ وفي مكان ما من العلاقة غير المحددة بهذه الأماكن ، كانت هناك سلسة جبلية مرتفعة ، اسمها الجبل الأخضر ، وهي غنية بالكروم وقصب السكر . هذه المعرفة الضئيلة إلى حد ما لم تتحسن تحسنًا كبيرًا بفضل الحملات التي أرسلتها شركة الهند الشرقية والتي كانت تقوم ببعض

العمليات العسكرية ضد قراصنة ياس Yass والجواسم (*) Jauasmi بعد العام ١٨٠٧ الميلادى ، هذه الحملات اخترقت مرتين فى اتجاه الداخل من ناحية الجنوب لمعاقبة رجال قبيلة البو Abu على (**) ، ونجحت تلك الحملات ، فى نهاية المطاف ، فى إخضاع الجميع "للسلام البريطانى" Pax Britannica بمقتضى الهدنة (***) التى أبرمت فى العام ١٨٢٠ الميلادى . ولم تجر الاستفادة أيضا من الكتاب الذى وضعه فنسينزو Vincenzo موريزى Maurizi، الذى انتحل اسم الشيخ منصور ، وعمل جراحًا وقائدًا بحريًا مع السيد Sayyid سعيد إمام مسقط ، لمدة ست سنوات وذلك قبل العام ١٨١٢ الميلادى . يضاف إلى ذلك أن رسائل الشيخ منصور التكميلية التى وعد بنشرها لم تظهر إلى حيز الوجود مطلقا ، - والذى يدعو إلى الرثاء هو أن موريزى ، أو بالأحرى الشيخ منصور ، لم يصل إلى مسافة أبعد من مدينة الرستاق .

كانت لشركة الهند الشرقية أسباب واضحة تمامًا تدعوها إلى التعرف تعرفًا كاملاً على منطقة ترتبط ارتباطًا وثيقا بالمصالح المهمة لهذه الشركة فى الخليج الفارسى ؛ وكانت سلطات شركة الهند الشرقية معنية أصلا باختبار وقياس السلطات الفعالة التى يمارسها حاكم مسقط على المنطقة الداخلية فى عمان ، وبخاصة أن حاكم مسقط ربط مصيره بمصير سكان الداخل ووقفا سويًا فى مواجهة المتنافسين الهولنديين والفرنسيين اعتبارا من العام ١٧٩٨ الميلادى وجرى إنقاذهم من الوهابى فى العام ١٨٠٩ الميلادى . وبناء عليه ، وتأسيسًا على مهمة محددة من قبل شركة

(*) هناك خلاف حول ما تشير إليه المصادر البريطانية (بالقرصنة) ، بينما يرى المؤرخون العرب أن العمليات البحرية التى كان يقوم بها القواسم وغيرهم من قبائل الساحل العمانى ضد الملاحة البريطانية باعتبارها نوعًا من أنواع الجهاد الدينى والدفاع عن مياههم (المراجع) .

(**) قبيلة البوعلى تسكن منطقة جعلان واعتنقت التعاليم السلفية وكانت تسبب متاعب كبيرة للملاحة البريطانية فى الخليج (المراجع) .

(***) الأصح المعاهدة العامة التى أبرمتها بريطانيا مع شيوخ الساحل الجنوبى للخليج فى عام ١٨٢٠ ، وكان من نتيجة تلك المعاهدة تجزئة المنطقة إلى العديد من المشيخات التى خضعت للنفوذ البريطانى (المراجع).

الهند الشرقية ، قام فى أواخر العام ١٨٣٥ الميلادى ، الملازم البحرى جيمس James ولستد Wellsted، وهو من طاقم سفينة الأبحاث الهندية بالينوروس Palinurus، بالنزول إلى مسقط ، عن طريق مركب صغير من بومباى ، وألتمس من إمام مسقط التصريح له بزيارة المناطق الداخلية من أراضيه . كان ولستد ، قبل ذلك بزمن طويل ، مشغولا بمسح السواحل الغربية والسواحل الجنوبية من شبة الجزيرة العربية ، وكان قد سبق له استكشاف سوقطرة ، وفى ربيع العام نفسه ، قام ولستد بصحبة الملازم كرتندن ، برحلة مغامرات قصيرة بدأها من بالحاف Ba'l-haf، وكانت تلك أول مغامرة يقوم بها أوروبى داخل المنطقة الجنوبية ؛ وقد أسفرت تلك المغامرة القصيرة عن اكتشاف الأنقاض الشهيرة فى نقب Nakab الحجر AL-Hajar . وهنا أستوقدت شائعات وديان حضرموت المخبّأة ، التى سمع عنها ولستد خيال الرجل ، وعندما فشل فى التغلب على المعارضه الوطنية على الساحل الجنوبى ، طلب إذنًا من حكومة الهند بالالتحاق بحملة عسير فى العام ١٨٣٥ ، وأن يكتشف طريقًا مؤديًا إلى حضرموت عن طريق البر . ولكن عندما راجت أنباء الهزيمة التى لحقت بالمصريين فى ربيع ذلك العام، بدأ يتفكر من جديد مسألة عمان وحاكمها الصديق ، ثم ذهب إلى مسقط بدلا من الالتحاق بحملة عسير ؛ ذهب الرجل إلى مسقط على أمل تحقيق هدفه المبتغى من الجانب الشرقى أو الجانب الشمالى الشرقى . وهنا ، ونظراً لتطلع إمام مسقط إلى رسم صورة طيبة لنفسه فى أعين حكومة الهند ، ونظراً لأن الإمام كان يعرف ، وبلا أدنى شك ، أن مصير مشروع ولستد Wellsted سوف يتحدد فى الداخل بسلطة أخرى غير سلطته هو ، فقد عرض الإمام تقديم التسهيلات ، طالما كان الرجل الإنجليزى داخل نطاق الأراضى الخاضعة لنفوذ الإمام .

من هنا ، قام ولستد باستكشاف عمان فى ظل ظروف مناسبة ومواتية وبدون أية مخاطر إلى حد أن الرجل حاول دخول أراضى الشمال ، التى كان المذهب الوهابى فيها أكثر انتشاراً وذيوعًا . فى البداية استقل ولستد Wellsted السفينة إلى صور Sur وهناك زار الطرف الجنوبى الغربى القصى من عُمان ، – وهو عبارة عن أرض هزيلة عديمة الملامح والسمات ، تقع على حافة الصحراء الجنوبية المركزية الكبيرة ،

التى كانت وقتئذ فى أيدى البدو أكثر منها فى أيدى الإمام . ولما كان بدو البوعلى هم وبدو البوحسن ، الذين اعتنقوا الوهابية ، قد سبق الهجوم عليهم منذ مدة لا تزيد على نصف جيل من الزمان ، بواسطة الحملات البريطانية التى قام بها الجنود الهنود Se-poy لمصلحة الإمام ، فقد وجد ولستد أنه ليس من الحكمة فى شيء القيام بجولة من هذا القبيل ؛ ولكن البقية الباقية من القبائل بعد المذبحة التى أقامها السير لايونيل Lionel سميث Smith لشجعانهم جعلتهم يتعلمون الدرس ، وراحوا يتطلعون إلى استرضاء بريطانيا ورضاها عنهم . ولذلك استقبلوا ولستد استقبالاً حافلاً ، ورافقوه فى رحلة استمرت يومين فى اتجاه الشرق إلى المنحدر، الذى التقى فيه بعشائر الجنبة (*) Jeneba الجائلة ، التى تعيش فى البقع التى لا تصلح للسكنى والإقامة ، فى الساحل الجنوبى وتقع فى أقصى الغرب عند بلدة المهرة Mahra، ونصفهم من الرعاة والنصف الثانى من صيادى الأسماك ، وكلهم يعملون بالقرصنة فى ظل الظروف المناسبة .

عشائر الجنبة Jeneba هذه عرضت اصطحاب الغريب والمضى به قدمًا إذا ما كان يرغب فى ذلك ، ويصلون به إلى حدودهم الغربيه ؛ ولكن ولستد كان قد عقد العزم والنية على نجد ، ولذلك عاد الرجل إلى مخيم مضيفيه ، ثم اتجه صوب الشمال الغربى فى اتجاه أعالى وادى البيضا Betha ، إلى الجبال الوسطى ، واندهش الرجل أيما اندهاش للخصوبة الاصطناعية التى كانت عليها الواحات المنتشرة هنا وهناك . وقد اندهش ولستد للطريقة التى يجرى بها الحصول على الماء "باعتبار أن هذه الطريقة صينية أكثر منها عربية" : -

"رأيت [أعمدة Shafts] عدة جرى حفرها إلى عمق أربعين قدمًا . ويجرى من رأس النافورة هذه حفر قناة مجوفة ، وتنحدر انحدارًا خفيفًا فى الاتجاه المطلوب ، مع ترك فتحات على بعد مسافات متساوية ، لكى تسمح بمرور الضوء والهواء لأولئك الذين يرسلون من حين لآخر لتنظيف وتطهير هذه القناة . وبهذه الطريقة يمكن نقل الماء عبر مسافة تصل إلى ستة أو ثمانية أميال" .

(*) تشكل عشائر الجنبة قبيلة شخمة من حيث العدد بعضهم يستقر فى إقليم جعلان وبعضهم الآخر فى وسط عمان . وتتخذ القبيلة من ميناء صور مركزًا رئيسيًا لها (المراجع) .

لابد أن تكون عُمان قد تعلمت من بلاد فارس ، التى كانت لها علاقات حميمة معها ، بعد أن غزاها أنو شروان Nushirvan، أسرار هذه الهندسة الدقيقة . ونحن نشك فى أن أهل الجزيرة العربية كانوا يعرفون تلك الهندسة منذ زمن بعيد ، أو بالأحرى منذ القدم . والسبب فى ذلك أنه إذا كانت واحات عمان الخفيضة على هذا القدر من الرواج ، وهذا نقلا عن ولستد ومايلز Miles اللذان شاهدا ذلك مشاهدة العيان ، فذلك يعنى أن اليمن يصعب أن يكون هو الإقليم الخصيب الوحيد من أقاليم الجزيرة العربية . يضاف إلى ذلك أن المستوطنات الأكبر من ذلك فى الأقليم كانت حضرية تمامًا .

ورد فى عبْرى :- Ibra

" لتحاشى الرطوبة ، وللإمساك بشعاع من أشعة الشمس من حين لآخر فوق الأشجار ، فإن [المنازل] تكون عالية جداً كالعادة ، وهناك سور منخفض يحيط بالجزء العلوى من المنزل على شكل برج ؛ ويجرى تركيب البنادق على بعض المنازل الكبيرة . والنوافذ والأبواب لها عقود إسلامية ، وكل جزء من المبنى مزين بحليات من الجبس ، بعضها يعبر عن ذوق طيب . الأبواب أيضًا مغلفة بالنحاس الأصفر ، ولها حلقات وزينات ضخمة أخرى مصنوعة من المعدن نفسه" .

فى سمد Semed فوجئ ولستد برجل إنجليزى آخر اسمه الملازم 'هوايت لوك' Whitelock، الذى وصل عن طريق الجزء الوعر من البلاد والواقع غربى مسقط مباشرة، ويحتمل أن يكون هوايت لوك قد جاء عن طريق وادى سمايل Semail ؛ ويصحبة هذا الرجل تحول ولستد ناحية الشرق ليسير محاذيًا للقاعدة الجنوبية للجبال العالية ، التى تعرف حاليا باسم سلسلة جبال عمان الرئيسية ، أو إن شئت فقل الجبل الأخضر . وشاهد الرحالان بشىء من الإعجاب الجنة التى وجدت بفعل عملية الصرف :-

"قُلنا : أهذه هى جزيرة العرب ، 'أهذا هو البلد الذى رأيناه على شكل صحراء ؟' حقول خضراء ، من حقول الحبوب ، وقصب السكر ، تمتد لأميال عدة ، موجودة أمامنا مجارى مائية ، تنساب فى كل الاتجاهات ، وتتقاطع مع الطريق الذى نسير عليه ؛

ومنظر الفلاحين السعداء القانعين يساعد تماماً على تكملة تلك الصورة المبتسمة . كان الجو صافياً بشكل مفرح ونقى ".

(٢١ ديسمبر)

هذا الإقليم فيه مستنقع أيضاً ، كما أن النباتات التى تصنع الثروة الحديثة فى مصر ، والمتمثلة فى شجرة القطن وقصب السكر تنمو هنا بكثرة ووفرة . وبعد أن وصل الرجلان إلى نزوة التى سمع عنها نيبور والتى أصبحت الآن أكبر المعاقل الجبلية فى عمان قام الرجلان برحله دائرية فى الجزء العامر بالتلال الرملية ، ووجدا السلاسل الجبلية جرداء وباردة ، ولكن الوديان كانت خصبة جداً ومزروعة جيداً بالكروم واللوز . وتأكد ولستد أن هذه السلسلة من الجبال "الجرانيتية" (التى لها أعراف طباشيرية) تمتد مسافة حوالى ثلاثين ميلاً من الشرق إلى الغرب ، ويصل عرضها الأقصى إلى حوالى أربعة عشر ميلاً ، كما توجد بها منحدرات شديدة فى الشمال والجنوب . ومن ملاحظة نقطة الغليان فى شيريزى Shiraizi، استطاع ولستد أن يحسب متوسط ارتفاع القمة ويقدره بحوالى سبعة آلاف قدم ، وهذا يقل كثيراً جداً عن العلامة الحقيقية، وسكان هذه المنطقة (بنى ريام) كانوا قليلين جداً ، ووثنيين ومستقلين . واقع الأمر ، أن ولستد وجد فى كل أنحاء عمان الداخلية ، أن الإمام لا يمارس سوى سلطة اسمية فقط ، ولا يتحكم فى النقود أو الرجال .

وبعد أن وصلا إلى نزوى افترق الرجلان . فقد عاد "هوايت لوك" إلى مسقط ، فى حين قام ولستد برحلة فى اتجاه الشرق إلى حافة الصحراء الكبرى الرئيسية . ولم يدخل ولستد تلك الصحراء مطلقاً ، لا هو ولا أى أحد آخر من هذا الجانب من البلاد . وبعد ذلك بشهرين قام ولستد باستكشاف أكبر :

"أتيحت لى وأنا فوق قمة الجبل الأخضر الفرصة خلال يوم من الأيام التى تكون السماء فيها صافية ، لرؤية الصحراء الواقعة فى جنوب غربى عمان . تلال شاسعة من الرمال السائبة ، التى لا يجرؤ البدو الأشداء على المغامرة بالدخول فيها ، وهذه التلال

تمتد على مدد الشوف . فى هذه المنطقة السهلية الشاسعه لا يبرز حتى ولو تل واحد ، أو حتى مجرد تغيير فى اللون حتى يمكن أن يكسر من حدة رتابة المنظر وقحولته" .

حدثت الحمى بشكل مفاجئ ، وعندما أصبح ولستد قادراً على الحركة ، شرع فى العودة إلى مسقط عوداً بطيئاً بسبب المرض . كان طريقه يمر من جديد خلال الجبل الأخضر ، وكان يمر فى وديان وعرة شديدة الإنحدار ، تسقى من التصريفات المتجهه ناحية الشرق . وعثر ولستد على مجرى مائى عرضه حوالى عشرين قدماً فى وادى "خير" Kher (أو بالأحرى وادى سمايل Semail) ، بل إن ذلك المجرى المائى كان ينساب أيضاً فى البحر ؛ وهذا المجرى المائى ، أو أى مجرى آخر شبيه به ، لابد وأن يكون هو ذلك النهر الذى أشار إليه بطليموس ، على أنه مسحوب من "نوافير عمان" وعلى ساحل السيب Sib، عرف ولستد أن فرصة وصوله إلى نجد أصبحت بعيدة المنال نظراً لوجود تحرش وهابى وشيك بشمالى عمان . كانت صحوة قوة وسط الجزيرة العربية قد بدأت بقيادة الأمير فيصل ، وبالرغم من وجود المصريين ، فإن الرزياز Raz-zias كانوا ينتشرون فى كل الأنحاء . وتقرر أن يقوم الوهابيون مع مجىء الخريف باكتساح المنطقة الموجودة خلف الجبل الأخضر ، بما فى ذلك الوصول أيضاً إلى البحر الهندى . لم يفقد ولستد الأمل ، وبعد أن انضم إليه 'هوايت لوك' من جديد ، سار الرجلان فى أواخر شهر فبراير فى اتجاه الشمال الغربى خلال بيارات النخيل الطويلة الموجودة على ساحل الباطنة . Batina وعند السويق Sueik تحول الرجل ناحية الداخل، وسرعان ما عاد إلى منطقة التلال من جديد ، تلك التلال المرتفعة بنية اللون فوق مستوى الوديان الخضراء . كان الخوف من فوضى الوهابيين يتزايد مع تقدم الجماعة. حظيت رسائل الإمام بشىء من الاحترام الذى لم يدم طويلاً ؛ ولكن فى عِبْرى Ibra، التى كانت ما تزال تبعد حوالى خمسين ميلاً عن مستوطنة الحدود البريمى Bi-reima، تقابل الرجل مع الوهابيين ، – "رجال كانوا" صغار الأجسام بشكل عام ، ولا يلبسون أى شىء غير إزار يلفه الواحد منهم حول وسطه . كانت بشرتهم شديدة الاسمرار ، وكانت شعورهم طويلة" . كان الاستقبال الذى لقيته الجماعة من أولئك المتزمتين على نحو أصبحت معه العودة أمراً محتوماً ؛ وجرى تنفيذ ذلك بشىء من

الصعوبة ، وعرف ولستد من خلال سلوك وتصرفات القرويين المتغيرة على طول الطريق حقيقة مقولة الرحالين القدامى "عد من مسار آخر فى الأراضى التى تدور من حولها الشكوك ." .

النظرة الخاطفة التى ألقاها ولستد على الباطنة ، موطن الفلاحين الأثرياء الذين يصدرون النيلة ، والسكر والتمر ، أصابت الرجل بالدهشة والغرابة . يقول ولستد : "أنا أتساءل ما إذا كان هذا [الساحل] هو أكثر سواحل العالم ازدحاماً بالسكان ." بعد أن زار ولستد صحار أرسل رسالة إلى الرئيس الوهابى فى البريمى ، وبينما كان ينتظر الرد على تلك الرسالة فى شناص Shinas ، أشغل الرجل نفسه بجمع المعلومات عن منطقة راس Ras الجبل el-Jabal الجبلية التى تنتهى عند راس Cape مسندم Musandam . وعندما لم يصل ولستد ردا على رسالته (نظرا لأن الوهابيين كانوا قد شرعوا فى غزو جنوبى عمان) ، شق "هوايت لوك" طريقة عبر البلاد إلى الشارجة (الشارقة) Sharja، فى حين استقل ولستد السفينة إلى ساحل مكران Makran والهند .

بذلك يكون أول استكشاف علمى لعمان قد وصل إلى نهايته . الفضل الأكبر فى ذلك يمكن أن يرد إلى ولستد الذى يمكن مقارنته من ناحية أو ناحيتين بكارستن Carsten نيبور . فقد أبلى ولستد بلاءً حسنًا فى إمدادنا بالمعلومات عن واحدة من المناطق الثرية فى الجزيرة العربية ، مثلما فعل الدانمركى (نيبور) مع المنطقة الثرية الأخرى . يزاد على ذلك ، أن ولستد شأنه شأن نيبور لم يعبر منطقة كبيرة ولم يقم برحلة مليئة بالمغامرة والأخطار ؛ ولكن الرجل (ولستد) استكشف المنطقة التى زارها استكشافًا تامًا كما جمع معلومات عن المنطقة المحيطة بها أو المجاورة لها . على كل حال ، ينبغى أن لا نفترض أن قوى ولستد كانت كلها ، أو من نواحى كثيرة فى أضعف الأحوال ، مساوية لقوى وقدرات نيبور . لم يكن صاحب رؤية واسعة ومميزة مثل نيبور ، ولم تكن لديه أيضًا القدرة نفسها فى الحكم على الأشياء ، أو القدرة على الوصف التى كان يتمتع بها نيبور . وليته كان مزودًا تزويدًا حسنًا بالآلات ، وليته كان على معرفة طبية

بالجزيرة العربية وبالعرب ، كما أن هينز Haines يصرح بأن ولستد لم يكن مساحًا ضعيفًا ، كما يقول بادجر Badger أيضًا إن معرفه الرجل للعامية العربية كانت صغيرة جداً . هذه الحقائق كلها ، بذل ولستد جهده ، من باب الطموح إلى الشهرة والمجد ، من أجل إخفائها عن قرائه . وفي مجال البحث عن العموميات بلغ ولستد من التشكك حداً جعله لا ينسب للآخرين فضلهم . وفي هذا الصدد نجد أن النقيب هينز يدين ولستد إدانة شديدة وبلهجة شديدة على تعتيمه على شهرة زملائه الذين كانوا معه على ظهر السفينة الهندية "بالينوروس" Palinurus، - وهذا الاتهام يستطيع القارئ التحقق منه ، على سبيل المثال ، من روايات ولستد نفسه عن المعاملات الدبلوماسية مع سلاطين قشن Kishin ولحج Lahej . ففي هذه الاتصالات والمعاملات ، لم يلعب ولستد سوى دور ثانوى ، ومع ذلك لم يشر ولستد إلى دور الضباط ، رؤسائه ، في تلك المعاملات . وهنا نجد أن رواية النقيب هينز نفسه عن الساحل الجنوبي أفضل بكثير من الرواية التي جاء بها مرءوسه ولستد ، وفيما يتعلق باستكشاف جزيرة سوقطرة ، واستكشاف الآثار القديمة ، على ساحل عمان ، أضاع ولستد حق كل من كرتندن Cruttenden، وكارتر Carter، وهلتون Hulton بأن سارع ، من باب الأنانية ، إلى نشر الرواية قبل الأوان المطلوب .

لكن فيما يتعلق بالعمل الذى جرى فى عُمان ، وإذا ما تعين أن ننسب الفضل إلى أهله من غير هوايت لوك ، فإن ثناءنا يجب أن ينصب على ولستد نفسه . فقد صمدت خريطته وملاحظاته وتحملت اختبارات الزمن ، ولم يتفوق عليهما أحد إلى يومنا هذا . وهذا هو إيلوى Eloy ومايلز Miles سارا فى الطريق نفسه الذى سلكه ولستد وأضافا إلى المعلومات التى أعطانا إياها ، ولكنهما لم ينقصا شيئًا مما جاء به ولستد ؛ وفيما يتعلق بالأماكن التى عجز ولستد أو أخفق فى اختراقها نجد أن من جاءوا بعده لم يحققوا أى نجاح فيها . وبالرغم من وصول مايلز Miles إلى البريمى من ناحية الشمال فى العام ١٨٧٦ الميلادى ، فإن أحداً لم يصل إلى جنوب البريمى ، أو بالأحرى لم يستطع زيارة عبرى Ibri مرة ثانية قبل العام ١٩٠٢ ، وهذه هى أبعد نقطة وصل إليها ولستد فى اتجاه الظاهرة Dahira ؛ وإلى يومنا هذا فإن الهدف الذى كان يطمح

إليه ولستد ، وهو المرور عن طريق البر من عمان إلى نجد ، لم يتحقق على أيدى أى مستكشف من المستكشفين الذين جاءوا بعد ذلك .

سبق أن قلنا : إن حضرموت كانت مطمحًا من مطامح ولستد الباكرة . هذا الأقليم الجنوبى الرئيسى آثار فضول الكثيرين . وهذا نيبور درس الطابع العام لذلك الإقليم دراسة غامضة ولكن صحيحة ، - عرف نيبور أن هذا الإقليم مقسم إلى أراضى صحراوية عاليه ، ووديان خصبة عميقة ؛ كما تعرف نيبور أيضا المجتمع الخاص بذلك الإقليم ، ولكنه على درجة عالية من التحضر ؛ ووقف نيبور أيضًا على ثراء وازدهار المستوطنات الرئيسية فى ذلك الإقليم ، والتى بقيت بالرغم من التدهور الذى طرأ على تجارة التوابل ؛ كما وقف نيبور أيضًا على التباين فى كلام كل من العرق الذى يسكن المنطقة الساحلية وأولئك الذين يعيشون فى الداخل . وقيل لنيبور إن أكبر البلدان هى بلدة دوعن Doan، أما أقوى البلدان فهى بلدة شيبام Shibam وفيما يتعلق بالطريق المؤدى إلى حضرموت قادمًا من اليمن ، قيل لنيبور : إن ذلك الطريق لا يمر بأية قرية من القرى بعد أن يتجاوز منطقة الجوف ، وأن أية قافلة يتعين عليها أن تقطع المسافة من صنعاء إلى دوعن فى خمسة وعشرين يومًا .

أقر نيبور واعترف بأن هناك الكثير والكثير الذى يجب أن يعرفه ؛ ولكن انقضى وقت طويل قبل حدوث هذه الزيادة الكبيرة . وهذا هو فرسنل Fersnel استطاع فى العام ١٨٣٨ ، وعن طريق التحريات التى قام بها فى جدة ، تصحيح بعض معلومات الدانمركى (نيبور) عن دوعن ، ودوعن هى بطبيعة الحال منطقة وليست بلدة ، وروى الرجل بدقة كبيرة المسيرات التى قامت من المستوطنات الرئيسية إلى الساحل ، وهو أيضًا الذى لفت انتباه أوربا إلى عجائب الطبيعة فى بير Bir برهوت Borhut، التى ورد منها تقرير عن وجود بعض المنتجات البركانية .

حضرموت معروفة من قديم الأزل بأنها مقر ومستقر لواحد من الشعوب الأربعة الرئيسية فى شبه الجزيرة ، وكانت تلك الشعوب معروفة للإغريق ، كما يذيع صيت حضرموت أيضًا بسبب منتجاتها العطرية ؛ ولما كانت حضرموت ما تزال تحتفظ

باسمها القديم ، فقد كان الناس يتطلعون إلى احتفاظها أيضًا بأشياء قديمة أخرى ؛ وكانوا يرون أيضًا أن استكشاف حضرموت سوف يحل ألغاز تاريخ الجزيرة العربية القديم ، وذلك اعتبارا من حقبة "أوفير" (*) Ophir وما بعدها . ولكن توصية نيبور للمستكشفين باستكشاف حضرموت لم تؤت ثمارها طوال خمسة وسبعين عامًا ؛ ولم يحدث ذلك الاستكشاف إلا عندما قامت السفينة الهندية بالينوروس Palinurus بجولة، قامت خلالها بمسح واستكشاف الساحل الجنوبي الغربي في العام ١٨٣٤ ، وهنا فقط بدأت المحاولات الأوروبية للاندفاع نحو الداخل . ونحن بدورنا سبق أن أشرنا إلى المغامرة الرائدة التي قام بها ولستد وكرتندن في شهر أبريل من العام ١٨٣٥ الميلادي، ووصلا خلالها إلى حدود اليمن . ثم سار الرجلان بصحبة المرشدين البدو من قبيلة الواحدي Wahadi، واخترقا مسافة خمسين ميلاً في اتجاه الشمال بدءا من الشاطئ . كان الطريق الذي سلكه هذان الرجلان يمر خلال واد طويل ، غني بالواحات وتتخلله بعض المستوطنات . وبالرغم من معرفة هذين الإنجليزيين لذلك الوادي ، وبالرغم أيضًا من انعدام إرشاد أي أحد لهما ، فقد تمكنا من الوصول بسلام إلى هدفهما . واكتشف الرجلان (ولستد وكروتندن) أن نقب الحجر رائعة مثلما جاء في التقرير . رأى الرجلان جدرانًا من الرخام رمادي اللون ، وجيدة البناء ويتراوح ارتفاعها بين ثلاثين وأربعين قدمًا ؛ ورأى الرجلان أيضًا أبراجًا مربعة الشكل تحرس البوابات ، كما رأى الرجلان أيضًا لوحة معلومات مدون عليها بعض الأحرف ، وكان طول تلك اللوحة ثمانية بوصات ، كما شاهدا أيضًا معبدًا بيضاوي الشكل غارقًا في انقاض سقفه ، وجاءت رؤية ذلك المعبد على سبيل المكافأة لهذين الرجلين على الصعاب التي تحملاها . ثم عادت الجماعة إلى السفينة بسلام ، وهنا يتعين الثناء على الظروف التي حالت بينهم وبين الوقوع في كمين من الكمائن التي ينصبها لصوص الديابي Diyabi .

نقش نقب الحجر ، هو ونقشين آخرين (١) جرى العثور عليهما بواسطة ضباط السفينة بالينوروس ، في العام السابق على صخور حصن Hisnجوراب Gorabبالقرب من المكلا Makalla؛ وهذه النقوش زودت أوروبا بدليلها الأول الحاسم على التسجيلات الحميرية المتخلفة عن أيام حضارة الجزيرة العربية العظيمة . كان نيبور قد سمع عن

أكثر من نص من تلك النصوص فى تلال هذه البلاد ، ومن الواضح أيضًا أن نيبور عُرِضت عليه نسخه حقيقية من تلك النصوص فى بلدة المخا Mokha فى العام ١٧٦٤ الميلادى ، ولكن مرض نيبور هو الذى جعله ينظر إلى ذلك النص باعتباره من الكتابة المسمارية ، وبذلك يكون نيبور قد ترك للجيل التالى شهرة اكتشاف مجموعة من النقوش ، التى يصل تعدادها الآن إلى آلاف عدة ، ولها قيمة تاريخية هائلة لم يكن للدراسات الحميرية تأثير بالغ الأهمية على معرفتنا للجزيرة العربية القديمة فقط وإنما على معرفتنا الحديثة أيضًا لهذه الجزيرة . العلم الحالى الذى ليس له أرض ، اللهم باستثناء آسيا الصغرى ، مدين بالكثير لأولئك المستكشفين الذين استلهموا فضولهم من الماضى . هذا يعنى أن ضباط سفينة الأبحاث والاستطلاع بالينوروس Palinurus هم الذين جاءوا قبل فردى Wrede، وقبل أرنو Arnaud، وقبل هاليفى Halevy، وقبل دوتى Doughty، وقبل هيوبر Huber، وإيوتنج ، وجلاسر Glaserوهيرش Hirsch، وقبل بنت Bent، تلك هى الأسماء التى ترتبط بالعنصر الرومانسى فى تاريخ استكشاف الجزيرة العربية .

على كل حال ، هذا لا يعنى أن ولستد صدرت إليه أوامر بالسير قدمًا فى استكشافه . وبالرغم من شدة رغبه ولستد وولعه بالاختراق فى اتجاه وسط أرض سبأ خلف اليمن ، أو فى اتجاه أرض البخور فى حضرموت ، فإنه فشل ، كما سبق أن أوضحنا فى تجاوز الحواجز التى من صنع الطبيعة والحواجز التى من صنع الإنسان . يضاف إلى ذلك أن رؤساء كلا من المكلا Makalla والشجر كانوا يرفضون كل الطلبات التى كانت تقدم من أجل السماح بالمزيد من التوغل فى داخل البلاد ، الأمر الذى اضطر ولستد إلى تدوين الملاحظات عن طريق السماع . وفى تلك الملاحظات السماعية ركز ولستد على أهمية وادٍ واحد رئيسى فى الداخل ، أطلق عليه اسم حضرموت ، كما ركز أيضا على بلدة تريم Terim، التى كانت أكثر البلدان ازدحامًا بالسكان .

مناطق حضرموت المستقرة التى تنفرد بالخصوبة والاكتفاء الذاتى ، موقعها الجغرافى يسمح لها بالاتصال ببعضها البعض ، كما يسمح لها أيضًا بالانعزال عن

بقية شبه الجزيرة العربية ؛ هذا في الوقت الذى تكون فيه هذه المناطق قريبة من الموانئ التى هى على اتصال دائم بكل من الهند وإفريقيا الشرق - أوسطية ، والوادى الخصيب الرئيسى فى الإقليم ، والذى يحمل صرف المنحدر الجنوبى الشرقى من الأراضى العالية فى جنوب غرب الجزيرة العربية ، يقع بطول مسافة طويلة (تقدر بحوالى خمسمائة ميل) ويمتد موازياً للساحل ، ولكنه تحجبه هضبة صحراوية عالية . يزاد على ذلك أن مسألة استيعاب مياه ذلك الوادى فى رى هذا المنخفض الطويل ، هى التى تجعل المائة ميل الأخيرة من الوادى صحراء ، وتبعد منطقة الواحات عن الاتصال المباشر بالبحر . فى الناحية الشمالية تمتد بلا انقطاع سلسلة من الكثبان الرملية الجرداء المرعية التى يطلقون عليها فى الجزيرة العربية (الأحقاف) Ah?af؛ وهذه الأحقاف ، على حد علمنا ، لم يجرؤ أحد على عبورها ؛ وفى الناحية الشرقية توجد صحراء المهره Mahra وهى أكثر تماسكا من الأحقاف ولكنها ليست أقل ماءً من الأحقاف . وفى الغرب ، هنا ممر ، ويبدو أن هذا الممر (وهذا بسبب عدم استكشاف الطرق) ، يمتد عبر منحدر ضيق يؤدى إلى الأراضى الداخلية فى اليمن ، ولكن تلك الأراضى الداخلية تصحرت إلى حد بعيد بعد إنهيار السدود السبئية ؛ كما أن هذه الأرض الداخلية لا يسهل الوصول إليها من اليمن ، نظراً لوجود الحزام الجبلى القاحل والمرتفع والذى يشكل مستجمع مياه أمطار البحر الأحمر .

من هنا فإن سكان وادى حضرموت هم وسكان الوديان الفرعية التابعة له سنحت الفرص لهم بأن تكون لهم خصوصية خاصة بهم . هؤلاء السكان اتصالهم بالمجتمعات الإسلامية خارج الجزيرة العربية أكثر منها بالمجتمعات الإسلامية الداخلية ، والروح الدينية لسكان وادى حضرموت هو والوديان التابعة له هى روح التشدد ، التى لا تنتشر فى المناطق الجنوبية الأخرى ، مثل اليمن وعمان ، هذا الوادى يزعم بأنه المستودع أو النبع الحقيقى للتقاليد النبوية الحقيقية ، وأهل هذا الوادى يطلقون عليه اسم بلد Baladالدين ad-Din ، وهو يكن احتراماً كبيراً للخليفة الحالى . خصوبة أرض وادى حضرموت هى التى تجعل فلاحيه مكتفين ذاتيا ، ويغارون غيرة الرجال الذين يعملون للخسارة ألف حساب وحساب ؛ وإذا كانت علاقات سكان وادى

حضرموت مع إفريقيا أسفرت عن ثروة غير معتادة من العبيد ، فإن علاقاتهم بالهند ، عززت حضارتهم المادية تعزيزا كبيراً ، ومكنتهم في ذات الوقت من معرفة طبيعة الحكم الأوروبي معرفه تامة ، كما كانوا يعرفون تماماً الخطورة المترتبة على السماح بدخول عرق يعارض الرق والعبودية . في وجود هذا المجتمع المتحضر ، والذي يحظى بدرجة عالية من التجانس والخصوصية ، نجد أن شيوخ بلدان الساحل فيما بين خطي طول ست وأربعين درجة واثنين وخمسين درجة يرتبطون ببعضهم البعض ارتباطاً وثيقاً ، وفي سبيل مصلحة ذلك الوادي نجح أولئك الشيوخ منذ زمن بعيد في قفل الطرق المؤدية إلى داخل الوادي في وجه الأوروبيين ، بل وفي وجه الأجانب جميعهم . وفيما يتصل بالحقبة الزمنية التي نحن بصددها هنا نجد أن اقتراب سفينة الأبحاث بالينوروس Palinurus من شواطئهم وسواحلهم أثارت غيرتهم وغضبهم ، بل إن احتلال عدن هو الذي زاد الطين بله ، وبخاصة أن ذلك الاحتلال جعلهم يستشعرون على وجه السرعه بداية ذلك الاحتواء الكافر Kafir ، والذي سبق أن غلب الهند على أمرها .

على كل حال ، وبعد عشر سنين من الفشل الذي مني به ولستد ، أمكن تضليل حذر واحتراس سكان وادي حضرموت . وهذا هو أدولف Adolph فون Von فيردي Wrede، أحد الباحثين عن الثروة ، وسليل أسرة بفارية طيبة ، ويقال إنه كان يخدم ضمن قوات الملك أوثو Otho، في اليونان ، ويقال أيضاً إنه أقام فترة طويلة في مصر ، هذا الرجل (أدولف) قرر اختبار صدق كلام ولستد الذي مفاده أن الإنسان يستطيع دخول حضرموت متنكرا في شخصية واحد من المسلمين . وسعياً إلى الحظوة المحلية ، وسعياً أيضاً إلى أن يكون لرحلته دافع واضح ، أطلق أدولف فون فيردي على نفسه اسم حاج ، وانتحل شخصية حاج يود الذهاب إلى قبر سيدنا هود ، المعروف بأنه يقع في حضرموت . التقى أدولف فون فيردي الرحالة فرسنل Fresnel في جدة ، ثم أبحر بعد ذلك إلى عدن ، ثم شق طريقة نحو الداخل من المكلا ومعه خمسة عشر من بدو الأكيبيري Akuaibere في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو ، من العام ١٨٤٣ الميلادي وشق طريقه متجهاً اتجاهاً طفيفاً ناحية الغرب . في البداية كان على فيردي

أن يسير خلال وديان طويلة تنحدر في اتجاه البحر ، وكانت تلك الوديان شبيهة بواديميفات Maifat، الذي صعد إليه كل من ولستد وكرتندن Cruttenden ، ثم واصل الرجل مسيره بعد ذلك متجهًا إلى أعالي جرف من الجروف ، ثم عبر هضبة باردة جرداء مكونة من الحجر الرملي تقع أسفل جبل Jebel زاهورة Zahura، الذي بالغ ولستد في تقدير ارتفاعه الذي قدره بحوالي ثمانية آلاف قدم . واكتشف فيردي مدقًا جيد التحديد عليه خزانات لتخزين الماء ، ولكنه خال من المستوطنات . وفي اليوم التاسع ظهر فجأة أمام الجماعة مَسِيل هائل فيه كثير من المستوطنات وبيارات النخيل التي تمتد بطول أربعة أميال ؛ وعندما نزل فيردي من طريق ضيق وممهد وجد الرجل نفسه في وادي دوعن ، الذي سبق أن أثنى عليه أمام نيبور ، واحد من مواطني اليمن ، الذين التقاهم نيبور قبل ثمانين عامًا .

وفي الخريبة Khoraibe ، أكبر القرى جرى استقبال فيردي استقبالاً حسنًا بواسطة شيخ بني عيسى Issa، ومضى الرجل في ترحاله غربًا وشمالاً . في اتجاه الغرب كان فيردي يود زيارة الهدف الذي وصل إليه ولستد ، ألا وهو نقب الحجر ، ثم يخترق المنطقة بعد ذلك وصولاً إلى حبَّان Habban ؛ ولكن بعد أن اكتشف فيردي نقشًا حميريًا في وادي إبنْ Ubene، وبعد أن وصل إلى البحر ، أعيد الرجل من جديد ، وتحتم عليه الرجوع من حيث أتى ، وكانت عودته إلى الخريبة محفوفة بالمخاطر . في اتجاه الشمال وصل فيردي عبر الهضبة إلى وادي عمد Amd العظيم ، الذي يمتد موازيًا لوادي دوعن . وفي وادي عمد Amd عثر فيردي على شيخ سبق أن زار الهند ، ويتكلم الإنجليزية . هذا الرجل المستنير كشف عن تشككه في الشخصية التي ينتحلها فيردي، ولكنه لم يفش سره أو يخونه . ومن هذه المنطقة ، أي من وادي عمد ، توجه الألماني مواصلاً سيره إلى وادي حوراء Haura، حيث وجد وادي دوان يتصل بوادي عمد Amd؛ ثم تحول الألماني ناحية الشمال عبر سلسله جبلية ، حيث دخل في وادٍ كبير يتجه من الشرق – إلى الشمال الشرقي . وفي بلدة صوة Sawa، التي يسكنها جمَّاع الملح الصحراوي بصفة خاصة ، علم فيردي أن رمال الأحقاف العظيمة التي

يطلقون عليها هنا اسم البحر Bahr السافى (*) as-Safi) لا تبعد عن هذا المكان سوى مسير يوم واحد ، وهنا أقنع الألمانى البدو المرافقين له أن يأخذوه إلى حافة رمال الأحقاف . اكتشف الألمانى أن رمال الأحقاف كانت أعلى من مستوى الهضبة ، وأنها كانت عبارة عن مساحة شاسعة من الكثبان الرملية التى تتخللها بقع بيضاء ، قال مرشدوه إنها حفر من الرمل تجذب أى جسم ثقيل يصل إليها . وقيل إنها نوع من أنواع آبار البترول . ولم يخف فيردى من إنذارات أو تحذيرات البدو له ، وسار فى اتجاه واحدة من تلك البقع البيضاء ، وسلح نفسه بحبل متين طوله ستين فرسخًا .

"اقتربت من الحدود وأنا حذر للغاية ، كى أفحص الرمل ، الذى اكتشفت أنه عبارة عن مسحوق دقيق جداً ، ثم ألقيت الحبل المتين بعد ذلك إلى أبعد مسافة ممكنة ؛ وغاص الحبل فى الحال ، وفى خلال خمس دقائق تناقصت السرعة ثم اختفى طرف الحبل داخل ذلك القبر الذى يبتلع كل شيء ."

وبعد أن تتبع الحاج طريقه مرة ثانية عائداً إلى وادى دوعن اتجه بعد ذلك مباشرة إلى قبر هود . بطئ فيردى فى القيام بهذه المهمة ربما يفسر الحقيقة التى مفادها أنه لم يكن مسموحًا له بالوصول إلى قبر (سيدنا) هود . وبعد أن وصل فيردى إلى بلدة سيف Sif، حيث كان سوقها منعقداً ، هاجمته الدهماء وقدموه إلى الرئيس المحلى باعتباره جاسوساً إنجليزياً . وبعد احتجاز دام مدة قصيرة ، وبعد أن خسر الرجل القسم الأكبر من ملاحظاته ومتاعه ، طلبوا إليه العودة مباشرة إلى المكلا ، التى وصلها فى مطلع شهر سبتمبر .

حظيت شهرة النقيب هينز ، أحد ضباط سفينة البحث والاستطلاع ، بتقرير موجز كتبه أدولف فون فيردى ، وأرسله إلى الجمعيه الجغرافية الملكية فى العام ١٨٤٤ الميلادى . ويكفى هذا التقرير أنه حدد الطابع العام لبلاد حضرموت الخصيبة باعتبار

(*) يستمد هذا القسم من صحراء الأحقاف اسمه من الملك السافى ، الذى يقال إنه انطلق على رأس جيشه من بلاد سبأ وأراد اجتياز هذا القفر الصحراوى فهلك وهلك جيشه معه (المراجع) .

أن وادي حضرموت يعد منظومة واحدة من وديان متفرقة ، شديدة الانخفاض في هضبة عالية ، وتنتهي كل هذه الوديان إلى قناة أو مجرى واحد يمتد شرقًا ثم ينحرف جنوبيًا ليصل إلى البحر بالقرب من سيهوت Sihut . كان أدولف فون هيردى قد عبر رؤس العديد من الوديان الفرعية دون أن يصل إلى وادي حضرموت الرئيسي ، الذى توجد فيه البلدان الأكبر التي قرأ عنها كل من هينز وولستد ، والتى هى شيبام Shib-am، وسيون Saiyun، وتريم ولكن أدولف فون فيردى عبر وادى راخية Rakhiya، الذى يجب أن يكون هو المجرى الأم المتفرع عن هضبة اليمن . خلاصة القول : إن الطريق الذى سلكه أدولف فون فيردى كان يقع إلى الشرق من حضرموت .

هذا هو كارل Karl ريتر Ritter، ذلك الجغرافي البروسي Prussian العظيم ، الذي كان في ذلك الوقت على وشك الانتهاء من مجلدات الجزيرة العربية المعنونة "وصف آسيا" ، يرحب بالتقرير الذى قدمه فيردى باعتبار أن ذلك التقرير يعد إضافة هائلة للمعرفة . لكن لم يكن بصحبة ذلك التقرير خريطة أو نسخة من النقش الذى جرى اكتشافه في وادى إبن Ubne . ومع ذلك فإن وجود مثل هذه الأشياء ، علاوة على بعض المخططات المرسومة بالألوان المائية وبعض الملاحظات التى شهد عليها فرسنل Fresnel، الذى سبق له الكلام مع مؤلفها بعد عودته من القاهرة ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا المستعرب الضليع ، هو وريتر ، ومورشيزون Murchison، وبعض الثقاة الآخرين لم يشكوا ولو للحظة واحدة في حسن نية فيردى . ولكن همبولدت Humboldt ذائع الصيت ، الذى التقاه بعد عودته إلى وستفاليا Westphalia، كان يتساءل عن مسألة البحر الساقي ، الذى سبق الإشارة إليه ، ومن هنا انتشر رأى مفاده أن فيردى وقع فريسة الشك عام أنه قام بتجميع تقرير مثير من خلال السماع ؛ وبالرغم من أن أرنو Arnaud سبق له الكلام لا عن معرفته بفيردى قبل وبعد مهمته الاستكشافية ، وإنما عن الحديث الذى جرى بينه وبين رجل من حضرموت في بلدة مأرب ، وأن ذلك الرجل

كان قد وصل فى التو من المنطقة التى يقيم فيها ، وأنه شاهد فيردى فى تلك المنطقة . قصة هذا الرجل جرى إدراجها ضمن مجموعة القصص التى أوردها دى Du كورت Couret ضمن كتابه المعنون "أسرار الصحراء" ، – وهو عباره عن توليفة من القصص الخرافية عن مأرب وحضرموت جاء بها مؤلفها من مصادر مختلفة ، وبخاصة الرواية التى تقدم بها أرنو ، وقد نشرت هذه التوليفة فى العام ١٨٥٩ الميلادى .

أسفر ذلك عن عدم نشر تقرير فيردى بعد ذلك ، ولكن يقال إن الرجل هاجر إلى ولاية تكساس ، ويقال إنه انتحر هناك فى حوالى العام ١٨٦٠ الميلادى ، وبعد ذلك بعشر سنوات قام البارون هينريش Heinrich فون Von مالتزان Maltzan ، الذى أدى فريضة الحج فى مكة متنكراً فى العام ١٨٦٠ الميلادى ، والذى زاد اهتمامه اعتباراً من ذلك التاريخ بالدراسات العربية ، قام الرجل بنشر مذكرات فردى اليومية بالكامل ومعها الخريطة ، والنقش والملاحظات ، كما كتب الرجل تصديراً لتلك المذكرات ، ولكنه لم ينشر معها أية مخططات . وظهر كلام التقرير الأصلى وانتشر هنا وهناك وهو يحمل الكثير عن عادات البدو ، وتاريخهم الحديث والمغامرات الشخصية . والملاحظ أن المقطوعة الخاصة بالبحر الساقى تكررت بلا أى تغيير . وفون مالتزان لم يحكى للعالم الطريقة التى مكنته من الحصول على مذكرات فيردى ؛ ولم يزد على إنه عندما حصل على تلك المذكرات ، جرى نشرها على الفور بناء على طلب شديد عليها من الدكتور كارل Karl أندرى Andree ، رسام الخرائط الشهير ، وأعيد إصدار الخريطة بعد مراجعتها فى العام ١٨٧٢ الميلادى ضمن كتاب بيترمان Petermann المعنون Mitthei-lungen .

مع ذلك ، فإن موقف همبولدت ، لا ينطوى على أى نوع من الشك فى أصالة الرحلة التى قام بها فيردى فى حضرموت ، أو حتى فى مذكراته اليومية . وهذا هو فان Van دن Den بيرج Berg، فى مقاله الشهير عن حضر موت (والذى صدر فى العام

١٨٨٦) والذى بناه الرجل على الدراسات التى قام بها مستعمرون عديدون جاءوا من ذلك البلد واستقروا فى يافا ، هذا المقال يشهد على أصالة وصدق الرحلة التى قام بها فيردى . وفان دن بيرج Berg هذا يروى أنه ، هو بنفسه ، تحدث إلى واحد من أعراب حنين 'Hanin' الذى كان شاهد عيان على إلقاء القبض على هذا "عبد 'Abd الهوز (*) al-Hūd"، ذلك الغريب الذى تصرف كما لو كان مخبولاً ، ولم ينقذه من أيدى المواطنين سوى شيخ المنطقة .

(*) عبد الهود : هو اللقب الذى أطلقه الرحالة فردى على نفسه حتى يتمكن من اجتياز منطقة حضرموت التى يوجد بها قبر سيدنا هود عليه السلام (المراجع) .

هوامش الفصل السادس

(١) نشرت هذه النقوش أول ما نشرت بواسطة كارتر في مجلة معاملات الجمعية الأسيوية في البنغال لعام ١٨٣٤ الميلادي ، وأعيد نشرها في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية في العام ١٨٣٧ . قام كارلس Carless بنسخ نقش حميري Graffito بالقرب الوجه Wij في العام ١٨٣١ ، ولكنه لم ينشر ذلك النقش إلا في العام ١٨٤٥ الميلادي .

مراجع الفصل السادس

J. R. Wellsted, Travels in Arabia (London, 1838); also articles in
J. R. G. S., 1837, P. 102, 1835, PP. 129, 286

V. Maurizi History of Seyd said, etc., by Shaik Mansur (London, 1819).

J. B. Haines, in J. R. G. S., 1849, P. 125, 1845, P. 104

W.F. Owen , Coast of Arabia Felix, in Naut. Mag., 1857, P. 180

H. J. Carter, in Trans. Bombay As. Soc., 1845, 1847, 1851, PP. 195, 224, 339.

A. Von Wrede, Reise in Hadhramut, etc., edited by H. Freiherr v. Maltzan (Brunswick, 1870). Cf. Article in J. R. G. S., 1844, P. 107.

الفصل السابع

الشمال المجهول

هذا الجزء من شبه جزيرة العرب ، والذى يعد الأقرب إلى أوروبا تركه الرواد الأوروبيون إلى المرحلة النهائية .

معروف منذ زمن بعيد ، أن عرقًا بدويًا شجاعًا وقويًا يحتل إقليمًا من الأرض المرتفعه الواقعة خلف الحزام الرملى الذى يحيط بالمنحدر السورى الصلب فى الناحية الجنوبية ؛ هذا الإقليم الذى يسكنه الشمر ، أطلق عليه الجغرافيون المسلمون اسم "الجبلين" ، أو بالأحرى "الجبل" . وهذا الإقليم يندرج ضمن التقسيم الأكبر الذى يطلق عليه اسم نجد . وقد أتى نيبور على ذكر "الشمر" Shomar ، وعدد أربعًا من مستوطنات هذا الإقليم ، ولكنه فشل فى معرفه تفاصيل ذلك الإقليم ؛ كما أن كلا من سيتزن وبركخاردت اللذان كان يسكنان ويقيمان فى سوريا ، قاما بتحريات ، وعرفا أن ذلك الإقليم ظل على امتداد عصور طويلة مقراً لمجتمع مستقل كان يعيد الأصنام فى الماضى البعيد[1] ، ولكنهم تعودوا بعد ذلك على استقبال وإرشاد حجاج كل من بغداد والبصرة وهم فى طريقهم إلى مكه سالكين طريق الملكه زبيده . ومنذ زمن بعيد ، يعرف الناس أن فيض Faid عاصمة الإقليم هى محطة منتصف ذلك الطريق ، التى يجوز للحجاج عندها التخفف من أمتعتهم الثقيلة ليجرى التحفظ عليها لحين عودتهم . ولكن كارل Karl ريتر Ritter كان أول من أشار إلى أن أهمية جبل شمر لا ترجع ، فى تاريخ حركة التجارة فى الجزيرة العربية ، إلى "العصر الجاهلى" ، عندما أشاد الشعراء فيه بعشيرة الطائى النبيلة ، والكرم الحاتمى لبطل هذه العشيرة ، ألا وهو حاتم الطائى ،

وإنما ترجع إلى أيام بطليموس ، عندما كانت القوافل التى كانت تسلك الطرق المؤدية من جرهاء Gerra إلى بيترا Petra ، ومن جرهاء Gerra وبابل إلى مملكة سبأ والمملكة الميناثية Minaean يتحتم عليها الالتقاء فى جبل شمر . وقد حدد سبرنجر Sprenger فى منطقة الشمر اثنتين من محطات منتصف الجزيرة العربية ، التى سبق أن عيّنهما بطليموس السكندرى ، - المحطة الأولى هى إينى Aine ، التى ربما كانت هى حائل نفسها أوفيض Faid ، والمحطة الثانية هى : سلمى Salma ، الذى يتردد صدى اسمها فى واحد من الجبلين التوأم ، هو جبل Jabal سلمى Selma .

منذ قرن مضى كانت المعلومات المتيسرة عن الحالة الحقيقة لجبل شمر أمرا بعيد المنال . ولمدة حوالى قرنين من الزمان أدى ضعف السلاطين العثمانيين إلى إشاعة الفوضى فى الأجزاء الجنوبية الشرقية من الإمبراطورية العثمانية ؛ كما أدت الهجرات الجديدة من نجد إلى الشمال ، بقيادة جزء من عشيرة الشمر العظيمة ، إلى إزعاج المنحدر السورى بكامله . وقد نجحت قبائل عترة ، وهى نفسها من أصل نجدى ، والتى أدى ترحالها إلى استعادة الخصوبة إلى جزء كبير من السهل ، نجحت هذه القبائل فى طرد الغزاة عبر نهر الفرات . ولكن يبدو أن مجىء التجار من سوريا ومجيئ الحجاج من البصرة قد توقف تماماً عندما بدأ الصراع بين تلك القبائل . ونحن نطالع فى رواية عبد الكريم[٢](*) ، على سبيل المثال ، أنه عندما أراد المرور من بغداد إلى مكة فى العام ١٧٤١ الميلادى ، جرى تحذيره من محاولة عبور الطريق المار بالجزيرة العربية ، وكان عليه أن يسلك طريق حلب ودمشق الطويل ؛ ونحن فى سبيل التعزيز والمساندة يتعين علينا ملاحظة الدمار الذى لحق بأسبلة الماء التى بنتها الملكة زوجة الخليفة هارون الرشيد .

(*) لم يوضح هوجارث كنية عبد الكريم ، وإن كان من المرجح أن يكون المقصود به عبد الكريم الكشميرى ، أحد نبلاء كشمير الذى قام برحلة إلى الهند ووفد حاجاً إلى مكة حول منتصف القرن الثامن عشر ، وكتب عن قافلة الحج وما يتعرض له الحجاج من أخطار عند مرورهم بمنطقتى سدوم وعمورو التى كان يقطنهما عدد كبير من اليهود . (المراجع)

تزايد الأمن مع اشتداد عود القوة الوهابية ، وفي العام ١٨٠٨ الميلادي ، استطاع سيتزن ، الذي كان يعيش في القدس آنذاك ، إرسال سوري كان يعمل في خدمته ، إلى الجوف عن طريق الحوران ووادي السرحان ، ومعروف أن الجوف هي آخر واحات سوريا أو بالأحرى أول واحات الجزيرة العربية . هذا السوري ، الذي اسمه يوسف المالكي ، وجد أن الجوف كانت في أيدي الوهابيين . الجوف هذه ، هي المدينة التي أطلق عليها بطليموس اسم دماثيا Dumaetha ، وكانت موقعًا من المواقع الرومانية المتقدمة ، كما أطلق الجغرافيون العرب عليها اسم دومة Daumet الجندل al-Jandal ، وروى لنيبور عنها أنها رقعة من التلال يطلق عليها اسم "جوف السرحان" Jof es-Sirhan . أبلغ يوسف المالكي أنئذ أن الجوف عبارة عن حوض كبير يحتوي على قرى عدة مسوَّرة ، تعتمد على الأبيار وتقع قريبة من بعضها البعض . ولفت انتباه الرجل قلعة كبيرة مربعه الشكل ، ومسلة Obelisk ، يصل طولها إلى ثلاثة أضعاف المآذن ؛ ويبدو أن تلك المئذنة كانت بمثابة برج المارد Marid الذي تحطم . ولكن يوسف المالكي هذا ، لم يبق هناك ، وهذا نقلا عن روايته ، سوى أيام قلائل ، قبل أن يواصل مسيره في اتجاه الجنوب مع مرشديه ، الذين أوصلوه إلى صحراء كبيرة من الكثبان الرملية ، يطلق الناس عليها اسم النفود ، التي يتجول فيها "البقر الوحشي" الأبيض ، وبعد مسير دام ثلاثة أيام أخر ، لم يعثروا خلالها على الماء ، إلى أن وصل الرجل إلى جبل عالٍ جداً ، بدا له وكأنه بلدة لبنان . وهنا علم الرجل أن المسافة من هذا الجبل إلى الدرعية تقدر بمسيرة عشرة أيام ؛ ولما كان الرجل لا يود المضي قدمًا أكثر من ذلك ، فقد عاد ثانية من الطريق نفسه الذي سلكه في الذهاب .

مبالغة يوسف المالكي الكبيرة في جبل Jabal أجأ Aja ، وقوله : إنه بعد أن عبر تلك الصحراء المريعة إلى أرض عامرة بالنخيل وعيون الماء ، أصر البدو المرافقون له على العودة ، يثيران الشك في حقيقة مسألة وصوله إلى ما بعد الجوف ، أو في أحسن الأحوال ، إلى منتصف الطريق العابر للصحراء . طبيعة النفود ، وحياتها النباتية ، ووجود البقر الوحشي فيها (نوع من الوعول اسمه العلمي "الوعل الأبيض" ، والذي أعيد اكتشافه بواسطة المستكشفين الذين جاءوا بعد ذلك) ، والمنظر الذي يبدو عليه

جبل أجأ عند النظر إليه من الصحراء البعيدة ، كل ذلك جرى تعلمه ومعرفته بسهولة ويسر . بعد ذلك بأربع سنوات استفسر بركخاردت من التجار ومن أفراد القوافل فى دمشق ، وتمكن عن طريق ذلك الاستفسار من إعداد بيانين من بيانات تفاصيل الأحداث اليومية للجوف ، واحد منهما من البصرة Basra والبيان الأخر من الطرف الجنوبى للبحر الميت ؛ كما لاحظ بركخاردت أيضًا المحطات من الجوف إلى جبل شمر ، ولكن تدوين ذلك ، جاء كما لو كان مفكرة حاج من الحجاج .

هذه المعرفة القليلة لم تزد كثيرًا بعد الغزو المصرى لنجد . ظل أهل قبائل الشمر طوال القامة لا يقبلون المذهب الوهابى إلى أن جاء العام ١٧٨٥ ، عندما أحس سعود بأنه حر فى أن يكشف عن طاقته المريعة لأهل الشمال . جاء المذهب الوهابى متوافقًا مع أعيان شمالى نجد ، الذين كانوا يعتنقون المذهب الحنبلى ؛ وقد توافق المذهب الوهابى مع هؤلاء الناس بسبب برنامجه الخاص بتحرير الناس من الطقوس والاحتفالات الخرافية من ناحية ، وبرنامجه السياسى القائم على التحرر من الهيمنة التركية . ولكن لا الحماس الدينى للمذهب الوهابى أو طقوسة التوحيدية ، التى راح ذلك المذهب يبثها بين الناس ، كانت أمورًا طبيعية عند العرق البدوى الخالص . ويبدو أن الشمر ، شأنهم شأن أقاربهم المقربين فى عسير ، رحبوا بالمذهب الوهابى من منطلق عداء الوهابية للمنظومة المكية أو "التركية" وليس من المنطلق الدينى ، كما أن الشمر لم يشاركوا فى نشر ذلك المذهب خارج حدود نجد . زار سعود "الجبل" The Jabal ، بل وتخطاه إلى أن وصل إلى الجوف ، وكان ذلك فى العام ١٧٩٠ الميلادى تقريبًا ، ولكن سعود لم يُخَلِّف وراءه حاكما فى أية بلدة من البلاد أو أية قرية من القرى . السبب فى ذلك ، أنه لم يكن هناك تنظيم مؤقت فى إمبراطورية يعتمد وجودها وإنسجامها على اقتناع روحى عام .

وطوال تقدم المصريين بصورة مستمرة لم يتقدم الشمر لمعاونتهم أو معاونة أمير الدرعية[٣] ؛ ونظراً لأنهم لم يعملوا لحساب إبراهيم باشا فقد عاملهم على أنهم أعداء له . وبعد سقوط الدرعية ، كان هناك محافظ وحامية مصرية بقيت فى حائل فترة من الزمن ، ولكن ذلك المحافظ هو والحامية كانا فى عزلة متأرجحة ، حالت بينهم وبين منع الدمار

الذى منى به جنوبى نجد . وعقب تحرر جبل الشمر ، الذى اعتبر سادلير قربه من عنيزة بمثابة السبب الرئيسى وراء قوتها ، أصبح فى قبضة شيخ شمري قوى ، وبقى الجبل فى أمن وسلام طوال تلك الفوضى التى سادت نجد فى ذلك الوقت ، والتى لم تنته إلا بعد تولى فيصل فى الرياض فى العام ١٨٤٢ الميلادى . هذا الشيخ الكبير الجديد المدعو عبد الله ، كان واحداً من أعيان عائلة الرشيد ، التى بدأت تكتب اسمها بأحرف كبيرة فى تاريخ الجزيرة العربية ؛ هذا الشيخ عبد الله ، مدين فى تعيينه للأمير فيصل الذى أمَّن توليه إمارة الرياض فى العام ١٨٣٤ الميلادى بقتل ذلك القاتل الذى اغتال الأمير تركى ؛ وحاول الشيخ الحصول على التأييد المصري . ولكنه اعتباراً من لحظة تنصيبه أميرًا على حائل فى العام ١٨٣٥ الميلادى راح يسعى إلى الاستقلال عن القوتين(*) . عبد الله بن الرشيد هذا عندما أصبح سيداً على أعظم عشيرة مزدهرة وموحدة ، وأثناء نفى الأمير فيصل ، وأثناء الغزو المصرى الثانى لنجد ، ولما كان عبد الله بن الرشيد يحظى بامتلاك هادئ لمدينة على الطريق التجاري عبر الجزيرة العربية ، كل ذلك أكسب هذا الرجل قبل عودة سيده إلى الرياض ، نفوذا كبيراً وثراء واسعًا جعله لا يفكر فى أن يكون تابعاً ؛ وهنا بدأت شهرة عاصمة جنوب نجد تأفل وراحت تطغى عليها شهرة جبل شمر .

فى العام ١٨٤٢ الميلادى أطلق سراح الأمير فيصل من سجنه فى القاهرة ، وأعيد إلى الرياض ليستأنف حكمه هناك لمصلحة مصر . ولكن بعد مرور ثلاث سنوات ، كان الحاكم المناب فى النيل(**) ، بعد أن بددت الدول الكبرى آماله فى سوريا ، قد بدأت تراوده آمال أخرى فى الجزيرة العربية ، ويبدو أنه أرسل مبعوثًا خاصًا للوقوف على قيمة منافس الأمير فيصل فى نجد . واختار محمد على لهذه المهمة سويديا جورج

(*) تولى عبد الله بن الرشيد الحكم فى جبل شمر من قبل الإمام فيصل بن تركى ، ومنحه لقب المحافظ ، وحكم فى الفترة من ١٨٣٥ حتى وفاته فى عام ١٨٤٧ . ويقصد بالقوتين ، القوة السعودية والقوة المصرية . (المراجع)

(**) المقصود به محمد على باشا ، الذى أشار إليه المؤلف باعتباره Viceroy أى نائب السلطان العثمانى فى حكم مصر .

George أوغسطس Augustus والين Wallin كان مفترضا لذلك السويدى أن يسافر متنكراً كشيخ من علماء المسلمين ، بحكم أن جورج والين كان مستعرباً بارزاً ، والذى عين فى النهاية أستاذاً فى جامعة هلسنجفورس Helsingfors . وتردد أن جورج والين كان موفدا لشراء خيول للحاكم المناب ، ولكن اختيار أوروبى على هذه الدرجة من العلم ، لمهمة مثل مهمة شراء الخيول ، يعد خطأ من جانب الحاكم الذى تحت إمرته المئات من تجار الخيول ومربى الخيول الوطنيين . يضاف إلى ذلك أن والين نفسه ظهر وكأنه لا يعرف شيئا عن الاتجار فى الخيول ، لأنه ابتعد عن مجال هذه التجارة ابتعاداً تاماً فى بلدة حائل ، ثم عاد الرجل عن طريق كل من المدينة (المنورة) ومكة . يزاد على ذلك أن التقرير الذى كتبه جورج أوغسطس والين عن خبراته فى الرحلة الأولى تأخر عن الصدور فترة طويلة . ولم يقرأ هذا التقرير على الجمعيه الجغرافية الملكية إلا فى العام ١٨٥٢ الميلادى ، وبعد أن صدر ذلك التقرير مطبوعًا فى العام ١٨٥٤ الميلادى ، أى بعد عامين من وفاة الرحال (جورج والين) اتضح أن الرجل لم يقدم أى شكل من أشكال التفسيرات التمهيدية . وفى ضوء الحقائق كلها ، يصعب أن يتشكك الإنسان فى أن باحثًا بارزًا من هذا القبيل ، وبالرغم من الفضول الذى يدفع المستكشفين إلى الترحال بغية فى العلم وسعياً إليه ، يمكن أن يجرى تجنيده من جانب محمد على للقيام بإعداد تقرير عن القوة الصاعدة فى جبل الشمر .

وبغض النظر عن دوافع جورج أوغسطس والين ، فإن الرجل كان واحداً من الأوروبيين الأكفاء الذين وطئت أقدامهم أرض الجزيرة العربية ، كما كان الرجل مؤهلاً لمهمته تماماً مثل كلا من سيتزن Seetzen وبركخاردت . ونحن نتعرف على والين ولأول مرة فى تاريخ استكشاف الجزيرة العربية ، مستكشفًا من مستكشفى الجزيرة العربية المحدثين المتازين ، الذى كان مستعداً ، بل ومصمماً على ألا يترك شيئًا لمن يأتى بعده من المستكشفين . يزاد على ذلك أن انتحال جورج أوغسطس والين لشخصية شرقية كان كاملاً على ما يبدو ؛ ولكن ملاحظة والين للمناظر المحيطة به والمجتمع المحيط به أيضًا لم يتأثر بانتحاله لتلك الشخصية ، ويزاد على ذلك أن الدقة البالغة لتقرير والين ، عندما نقارنه بروايات الرحالة الذين جاءوا بعد ذلك ، تشهد بأن الرجل كان يدون دون

أن يترك أو يغفل أى شىء ، إلا عندما يكون برفقة الحجاج الفرس المتشددين أثناء توجههم إلى المدن المقدسة . وهنا يتعين علينا أن نورد فى هذا الصدد تحفظًا واحدا . ألا وهو أن جورج أوغسطس والين لم يكن يحمل معه أية معدات .

كان والين قد غادر القاهرة قبل منتصف شهر أبريل ، واستطاع خلال شهرين من الزمان الوصول إلى بلدة معان Maan ، محطة الحجاج المهمة التى تقع إلى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، واعتباراً من بلدة معان أصبح طريق والين يمر فوق أحجار وتراب الحماد (الصحراء) ، إلى أن تحتم عليه عبور منخفض واد السرحان الرملى ، الذى سلكه يوسف المالكى فى الوصول إلى الجوف قبل جيل من قيام والين برحلته . وصل جورج والين إلى الوادى فى منطقة أبيار الوسيط Weisit ، ومن الوسيط وصل الرجل إلى الجوف خلال أربعين ساعة ، مستبقًا بذلك جيفورد بالجريف . وهذا هو الوصف الذى جاء به جورج والين لسمات ومجتمع واحات الجوف el-Jauf (التى دونها على إنها Algawf) ، التى مكث فيها حوالى شهرين من الزمان ، يعج بالتفاصيل الدقيقة ، التى لم تترك لمن جاءوا بعده فرصة الزيادة عليها ؛ ولكن نظراً لأن الجوف سورية وليست من الجزيرة العربية ، فإننا لن نفعل مثل من جاءوا بعد والين ، ونكرر ما قاله الرجل ، ولكننا سوف نمضى قدمًا ، ونسترعى الانتباه إلى ظن جورج والين الذى مفاده أن الحماد (الصحراء) السورية تصل إلى ذروتها فى التلال الواقعه شمالى الواحة ، وإلى إشارة والين التى مفادها أن هناك واحة توأم تقع على بعد حوالى ثلاثين ميلا فى الشمال الشرقى ، التى تعد سكاكًا Sakaka المستوطنة الرئيسية فيها ، وأن تلك الواحة لا تقل كثافتها السكانية عن كثافة بلدة الجوف نفسها .

يمم والين وجهه فى اتجاه الجنوب شطر صحراء النفود ، وكان ذلك فى نهاية شهر أغسطس ، وعثر الرجل على الماء للمرة الأخيرة فى أبيار الشقيق Shakik الست العميقة بعد نهاية مسير يوم كامل وشاق ، ولاحظ والين أن الماء ينساب من شق فى الطبقة الصلبة الواقعة أسفل الكثبان الرملية . دخلت الجماعة الصحراء الرئيسية فى اليوم الأول من شهر سبتمبر ، وسارت فى مدق فيه علامتان عبارة عن هرمين

صخريين يرتفعان فوق مستوى الرمل المتموج القاحل عند ثلث الطريق تقريبًا . ولم يصل والين إلى الماء مرة ثانية إلا بعد مسير دام سبعة وثمانين ساعة ، وصل بعدها إلى جُبة Jubbe ، التي هي عبارة عن وعاء مستدير ، تتماثل تربته مع تربة الجزء الرئيسي من المنحدر السوري في اتجاه الشمال .

لما كان والين يترحل عبر ذلك الممر المخيف في فصل الصيف ، مستخدمًا في ذلك إبلاً ضعيفة جدًا ، ويتحرك فقط أثناء الليل ، فقد أدى ذلك إلى عدم تمكن ذلك الرجل من ملاحظة الغرائب التي لاحظها في هذه "النفود" أولئك الرحالة الذين جاءوا بعده . لاحظ والين ذلك المرعى الوفير الذي يتوفر في تلك الصحراء خلال جزء من العام ؛ ومع ذلك فإن هذه المساحة الشاسعة من كثبان الرمال حمراء الحبيبات ، التي تكومت من فوق تربة صلبة من الحجر الجيري ، لم تثره أو تسترعي فضوله . يزاد على ذلك ، أن والين عندما يتكلم عن "الأرض الصلبة" التي تحتم على من يسير فيها تحاشي الطريق المباشر ، الأمر الذي يلزم الرحال بمراعاة أن يكون "النجم القطبي على حافة كتفه الأيسر" ، فإنه لا يعين طبيعة هذه الأرض الصعبة أو يظهر أنه يعرف أي شيء عن الحفر الكبيرة التي تشبه حدوة الفرس ، التي أحارت أسباب وجودها تمامًا بعض الذين جاءوا من بعد والين .

في جُبة Jubbe عثر والين على مستوطنة صغيرة ومتواضعة ، ولكنها كانت عبارة عن ملتقى كبير للرعاة المترحلين ؛ وخلال رحلة استمرت أسبوعين زار والين صخور جبل تلك المستوطنة ، وهي من صخور المسلمين ، وعليها رسوم ونقوش فجة مكتوبة بالخط الكوفي . وظن والين أنه كان يهبط اعتبارًا من الجوف نازلاً إلى أرض منخفضة ، وهو يقول في هذا الصدد :

"هذه الرقعة من الأرض [الصحراء الشمالية] في رأيي ، هي وشبه الجزيرة العربية كلها تنحدر ناحية الجنوب أو الجنوب الشرقي ... وأنا أرى أن سوريا هي والصحراء المجاورة لها هي أعلى جزء من شبه الجزيرة العربية كلها ... وأنا في كل الأماكن التي ذهبت إليها في الداخل في المنطقة التي تقع شرقي السلسلة الحاجزة ، لم يحدث مطلقًا

أن نزلت إلى وادى أو مجرى مائى شتوى لم يكن مجراه يتجه جنوبًا أو ناحية الجنوب الشرقى . يزاد على ذلك أن المناخ نفسه يؤكد انخفاض الجزيرة العربية فى اتجاه الجنوب الشرقى ."

وبالرغم من كل ذلك ، فإن الجزيرة العربية لا تقع ناحية الجنوب وإنما ناحية الشمال الشرقى ؛ وإذا كان والين ، الذى اقتبس هو بنفسه الرواية المتناقضة ، التى أخذها ياقوت Yakut عن هيثم(*) ، عن واد كبير متعرج ، يحمل أسماء عدة ، ولكن اسمه الشائع هو وادى الرمة ، وأنه يجرى اعتبارا من منطقة قريبة من المدينة (المنورة) ممتدًا فى الاتجاه الشمالى الشرقى ليصل إلى المنطقة المجاورة لكل من الكوفة ونهر الفرات ؛ لو كان والين قد تفكر فى تحرى صدق هذه العبارة من خلال أقوال المواطنين النجديين ، لتوقع أو بالأحرى حقق اكتشافًا مهمًا زعمه لنفسه كل من فيتزستاين Wetzstein ودوتى ، وهوبر Huber وسوف نرى كيف أن اعتبارات من هذا القبيل أوقعت بالجريف فى أخطاء مماثلة .

وهنا أصبحت حائل بدلاً من كل من فيض Faid أو بالأحرى قفار Kafar ، المستوطنة الرئيسية فى جبل شمر ، وقد وصلها والين خلال اثنى عشرة ساعة تقريبًا وافدًا عليها من النفود ، وذلك عن طريق المرور خلال شعب منخفض فى جبل أجأ Aja . كان والين مثل أولئك الذين جاءوا بعده ، قد تأثر على الفور بالحياة الصاخبة العامرة بالحركة فى تلك البلدة النظيفة جيدة البناء ، كما تأثر الرجل أيضًا بأسواقها العامرة والمفتوحة ، والإحساس العام بالأمن والنعمة . ومع أن عبد الله بن الرشيد لم يكن قد مضى عليه عشر سنوات فى حكم هذه البلدة ، إلا أن الإنسان كان بوسعه الذهاب حيثما شاء فى تلك البلدة ، التى كانت من قبل جبلاً عامرًا بالمخاطر ؛ يضاف إلى ذلك أن البدو جميعهم ، حتى فى منطقة القصيم فى الجنوب ، وحتى فى تيماء فى الغرب ، وكذلك بدو الحدود الشرقية ، كانوا جميعًا يدفعون الزكاة لشيخ الشمر ويحترمون أوامره . كان مجلس عبدالله بن الرشيد يحفل بالكرم الحاتمى كل يوم ، كما كان الرجل يمارس العدل الأبوى فى مجلسه المفتوح لكل شمال الجزيرة العربية . وهذا هو والين يتحدث عن مؤسس أسرة بن الرشيد فيقول :

(*) هيثم : المقصود به ابن الهيثم . (المراجع)

"القوة والسلطة لم تكونا وحدهما هما اللتان جلبا لعبد الله بن الرشيد ، هذه السلطة الكبيرة بين العرب ؛ وإنما يرجع النصيب الأكبر فى كل ذلك ، إلى صفات ومناقب ذلك الرجل ، الشخصية والعظيمة ، وإلى شجاعته ، ورجولته ، وعدالته الصارمة ، التى تميل إلى القسوة فى أغلب الأحيان ، وإلى التزامه الكامل بكلمته ووعوده ، ولم يحدث أن ارتكب ذلك الرجل عملا شائنًا يدينه ، وفوق كل ذلك ، إلى كرمه وحبه الذى لا مثيل له للفقراء ، الذين عُرف عنهم ، أنهم لم يقصد أى واحد منهم أبواب ابن الرشيد ورده خائبًا . وهذه الفضائل التى تعلى من شأن البدوى الذى يتحلى بها ، كانت كلها فى عبدالله بن الرشيد إلى حد بعيد ."

والين هذا درس المكونات السكانية لجبل شمر دراسة متأنية ، وسجل تلك المكونات تسجيلاً علميًا دقيقًا أكثر من أى مستكشف من أولئك المستكشفين الذين جاءوا بعده ؛ وبفضل معرفة والين الواسعة بالأدب العربى والموروث العربى استطاع الرجل إلى حد بعيد اقتفاء أثر تلك المكونات السكانية وصولاً إلى أصولها . ولكن والين فشل فى توضيح السِّمة التى تميز هذا المجتمع عن مجتمع الواحات الرئيسية فى وسط الجزيرة العربية . هذا الفارق يكمن فى الحقيقة التى مفادها أن المكون الرئيسى فى هذا المجتمع ، الذى أصبح مستقرًا ويمارس مهنة الفلاحة إلى حد ما ، لم يفقد روحة البدوية أو عاداته البدوية التى نشأ منها فى الأصل . ولنبدأ بالأسرة الحاكمة ، على سبيل المثال ؛ كبراء بيت بن الرشيد ليسوا مثل كبراء بيت سعود فى الرياض ، أى حكامًا لطوائف مستقرة يتوحدون معها ، كما أن القبائل البدوية المحيطة بهم ، متميزة عنهم ؛ ولكنهم مشايخ أولاً وأخيرًا ، مشايخ لقبيلة بدوية كبيرة وأساسية ، وثانيًا أنهم من مستوطنات تخدم تلك القبيلة من ناحية الأسواق ونقاط الحشد والتجمع . وحكام حائل شأنهم شأن السواد الأعظم من أفراد القبيلة يمضون قسمًا كبيرًا من العام فى الخلاء (البر) ، مفضلين الخيام السوداء على الأبراج المصنوعة من الحجارة أو من اللبن ؛ وهذه الحقيقة وحدها ، إذا ما نحينا جانبا حيوية الأسرة الحاكمة كلها ، هى التى ساعدت على انتشار الأمن والعيشة الهنيئة فى جبل الشمر . وبدلاً من الواحات الرئيسية التى تحيط بها قبائل مختلفة من البدو ، الذين بينهم عداوات شديدة ،

وبدلاً أيضًا من الأسباب الجغرافية القوية جداً ، التى لا يمكن التحكم فيها إلا عن طريق الحياد ، كما هو الحال فى جنوبى نجد ؛ بدلاً من كل ذلك ، نجد أن واحات الشمال كلها تخضع لقبيلة واحدة ، يرتبط أعضاؤها المترحلين بأوثق العلاقات والمصلحة المجتمعية مع الأعضاء المستقرين . هذا يعنى أن النظام المعمول به فى البلدان الشمرية هو النظام نفسه السارى فى إستبس الشمر وصحراواتهم ؛ يزاد على ذلك ، أن التنظيم الأبوى ، الذى يعد أنبل كود للسلوك والأخلاق ، هو والموروث الملهم لعنصر بدوى غير عادى ، متوفر فى المستوطنات التى يتجول خلالها ذلك العرق البشرى . سوء فهم جورج والين لهذه السمة المجتمعية وقع فيه أيضا بالجريف ، ولم يجر تصحيح سوء الفهم هذا إلا عندما جاء آل بلنت Blunts[٤] ، حيث كانا أكثر تعاطفًا مع البدو الرحل ، وقد وصلا إلى حائل بعد جيل من مجىء والين إليها . ولكن دقة جورج والين فى الأمور الأخرى شهد بها كل أولئك الذين جاءوا بعده .

فيما يتصل بحج جورج والين إلى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ، نجد أن الرجل لم يترك لنا أية رواية مفصلة عن هذا الأمر ، وهذه حقيقة مؤسفة ، لا لأن ملاحظة هذا المستعرب العلامة لأولئك الذين رافقوه من الفرس ، أو ملاحظته لطقوس المدينة (المنورة) ، أو حتى ملاحظته لطقوس مكة (المكرمة) ، كانت لها قيمة عالية ، وإنما لأن الطريق الذى سلكه الحج فى ذلك العام كان هو الطريق المباشر من حائل إلى المدينة (المنورة) الذى لا يتوافر لدينا أى وصف لها إلى يومنا هذا . يقول جورج والين إن المسافة جرى قطعها خلال خمس وثمانين ساعة من السير السريع ، وأن جبل أجا Aja انقطع وجوده على الجانب الأيمن بعد ست وثلاثين ساعة من المسير ، مخلفًا وراءه فتحة امتد السهل خلالها فى اتجاه الشمال الغربى "بلا أية اعتراضات جبلية ، أو تموجات إلى ساحل البحر الأحمر ،" ولاحظ جورج والين بعد ذلك ، سلسلة منخفضة من الرمل أو الحجر الجيرى بدأت تظهر فى "أراضى قبيلة حرب وفى الأجزاء الداخلية من الحجاز".

عاد جورج والين إلى القاهرة ، وقبل أن يرسل أية معلومات إلى أوروبا عن رحلته رجع ثانية إلى الجزيرة العربية . شق والين طريقة فى هذه المرة إلى مويلة Muweila ،

على ساحل مدين Midian ، المعروفة بالفعل من خلال التقرير الذى كتبه روبل Rüpple (فى العام ١٨٢٦ الميلادى) ، والمعروفة أيضا من خلال المسح الذى قام به مورسبى Moresby ؛ ومن مدين قام جورج والين ، فى اليوم العشرين من شهر فبراير من العام ١٨٤٨ الميلادى بالتوجه إلى الداخل خلال جبال جرانيتية غير مستقرة ولم يجر استكشافها ، إلى أن وصل إلى بلدة تبوك Tebuk ، تلك القرية القديمة جداً الواقعة على طريق الحج السورى . والعجيب فى الأمر أن والين فى هذه المرة وفى رحلة أخرى قام بها بعد ذلك إلى جبال الحرَّة ، لم يتعرف الطبيعة البركانية الحديثة لتلك الجبال ، بالرغم من كلامه عن عبور تلك الجبال .

"كانت هناك رقع مستوية من التربة الحجرية الداكنة المكسرة تنتشر هنا وهناك على شكل قطع مخروطية أو هرمية من الصخور . وعند قواعد تلك الكتل الصخرية كانت الأرض مغطاة بغطاء كثيف من الأحجار المسامية سوداء اللون والخفيفة جدا . الجبال هنا مكونة من الحجر الرملى أحمر اللون ... ولكن أجناب هذه الجبال وحروفها تغطيها تلك القطع السوداء إلى حد أن لون الصخر الأحمر الموجود أسفلها لا يمكن ملاحظته إلا عن طريق الفحص الدقيق".

ولتوضيح سوء فهمه توضيحاً تاماً ، أورد جورج والين الملاحظة التالية :

"من المحتمل أن يكون صخر هذه التلال من نوع الحجر الرملى المحتوى على خام الحديد ، هذا يعنى أن اللون الأحمر راجع إلى وجود أكسيد الحديد ، الذى يتحول إلى اللون الأسود ، أو بالأحرى إلى فوق أكسيد Peroxide بعد أن يتشرب المزيد من الأكسجين من الجو ؛ من هنا تتحول شظايا صغيرة من ذلك الأوكسيد إلى اللون الأسود تماماً فى قشرتها الخارجية ، ونتيجة التفاعل الذى يحدث على سطح هذه الشظايا الصغيرة يصبح شكلها مثل الجمار المتقدة" .

فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل وصل جورج والين إلى حدود ممتلكات الشمر مرة ثانية ، ولكن من ناحية واحة تيماء ، التى لم يحدث أن زارها أى من الأوروبيين ، شأنها فى ذلك شأن بقية واحات خيبر كلها ؛ هذه الواحة ، تيماء ،

معروفة لكل دارسى الأدب الإسلامى . اكتشف جورج والين أن المستوطنة الرئيسية فى تيماء تقع على رقعة من الأراضى الكلية التى تكاد تحيط بها صحراء النفود ، وأن هذه المستوطنة يجرى ريها من بئر كبير واحدة ، ذائعة الصيت فى الجزيرة العربية كلها ، واسمها بير Bir الحدَّاج Hudaj . فى هذه المستوطنة ينمو القمح وأفضل أنواع التمور ، التى يقوم على إنتاجها حوالى مائة أسرة تعتنق كلها المذهب الوهابى ، والذين وجدهم والين أتباعًا متشددين للمذهب الحنبلى . وبالرغم من معرفة جورج والين بوجود واحة كبيرة فى العلا Ala (Elah) التى تبعد مسير ثلاثة أيام فى اتجاه الجنوب ، إلا انه لم يسمع ، أو لم يكن متحمسًا تمامًا للتحرى عن بلدة الحجر ، ذلك المكان الذى يحتوى على منازل غريبة مقطوعة فى الصخور من زمن النبى صالح (عليه السلام) (مدائن صالح) ، والتى تقع على الطريق المؤدية إلى هناك .

غادر جورج والين تيماء بعد أن أمضى فيها أسبوعًا ، غادرها بصحبة رجل من قبيلة بشر ، الذى سبق له القيام بإرشاد قافلة من الخيل عندما كانت فى طريقها إلى الحاكم المناب فى مصر ، وفى اليوم التالى التقى والين رجالاً آخرين من جنوب نجد ، كانوا يبحثون أيضًا عن خيول لشرائها . كان بصحبة هؤلاء الرجال مسئول مصرى زنجى . وانضمت الجماعتان إلى بعضهما البعض ، وواصلتا مسيرهما فى اتجاه الأراضى الجرانيتية المرتفعة ، وأمضت ليلة يوم ٢ من مايو فى بلدة قفار ، وأمضت الليلة التالية فى حائل . ووجد جورج والين الأمير عبد الله بن الرشيد قد لحق بآبائه هو الآخر ، وأن ولديه طلال ومتعب كانا يحكمان بدلاً منه تحت وصاية عمهما عبيد(*) المحارب الشرس . بقى السويدى فى حائل مدة شهر فى هذه المرة ، ولكننا لم نسمع أى شىء عن أعماله هناك طوال ذلك الشهر . ونظرًا للاضطرابات التى أصابت بلاد الأمير فيصل ، ونظرًا أيضًا لأسباب أخرى ، لم يأت الرجل على ذكرها ، تخلى عن فكرة الاتجاه جنوبيًا أو شرقًا ، وفى اليوم السابع من شهر يونيو انضم الرجل إلى جماعة

(*) عبيد بن الرشيد : كان الساعد الأيمن لأخيه عبد الله بن الرشيد ، ساعده فى توطيد نفوذه والسيطرة على العديد من الأقاليم والقبائل المناوئة ، وبالإضافة إلى فروسيته كان شاعرًا مجيدًا سجل غزواته فى بعض قصائده التى صار يتغنى بها البدو فى الصحراء . (المراجع)

صغيرة مكونة من خمسة من رجال القبائل كانت متجهة إلى مشهد على Meshed Ali لإحضار شيء من الأرز . وجرى اختيار المدق (الطريق) المباشر الواقع غرب الطريق الذى سلكه الحجاج الفرس ، باعتباره الطريق الأقل تعرضًا للغزو والغزاة . هذا الطريق يؤدى إلى ركن من أركان النفود ، ولكن بعد مسير يومين يصل ذلك الطريق إلى منطقة التربة الكلسية الصلبة ، التى يوجد الماء بها بين الشقوق حتى فى فصل الصيف . فى اليوم الرابع جرى الصعود إلى حافة النفود التى أطلق والين عليها اسم الدهناء ، وطابق بينها وبين انتفاخ شاهده فى النفود قبل ثلاثة أعوام ، بالقرب من الجوف ، يبعد حوالى ثمانين ميلا ، عن هذه الحافة من حواف النفود . ظن والين أن تلك الدهناء مستمرة على شكل السلسلة الجبلية الساحلية المنخفضة فى منطقة الخليج الفارسى وحتى منطقة رأس الخيمة . ومن الجانب البعيد لتلك الدهناء قام مرشدو والين بوضع "النجم القطبى بين حواجبهم" ، وواصلوا مسيرهم فوق الحواف الزلطية عديمة الملامح ، وواصلوا هبوطهم نازلين ، إلى أن شاهدوا قبة قبر على (عليه السلام) فى اليوم الخامس عشر من شهر يونيو .

ومن مشهد على انتقل والين إلى بغداد ، ولم يعد بعد ذلك إلى الجزيرة العربية ، ولكنه وافته المنية فى فنلندة ، بعد ذلك بأربع سنوات . التقرير الذى كتبه والين بالإنجليزية عن رحلته الثانية ، أرسل إلى الجمعيه الملكية الجغرافية فى العام ١٨٥٠ الميلادى ؛ وعلى حد علمنا ، لم يترك والين أى تقرير آخر اللهم باستثناء بحث دقيق وكامل عن رحلته الأولى ، والذى أرسل إلى الجمعية نفسها فى العام الذى توفى فيه والين . ونحن هنا لا يسعنا إلا أن نقول إن التقارير التى وضعها أولئك الذين جاءوا بعده أخذت الكثير عن تقريره . واقع الأمر أن والين كان آخر الرواد الأوائل ، الذين بدءوا ، بعد نيبور ، يستكشفون الجزيرة العربية ، كما كان والين آخر من تخطى عنوة ذلك الإقليم الكبير الذى لم يجر استكشافه بالرغم من أهميته الفائقة . واعتبارا من تاريخ رحلة والين نجد أن كل رحّال من الرحالة الأوروبين الذين قاموا برحلة مهمة فى داخل الجزيرة العربية إنما كان يلمس أو يعبر أو يترسم الطريق الذى سار عليه من جاء قبله . واقع الأمر أنه كانت هناك مساحات كبيرة تُركت لاستكشافها خلال السنوات

الخمسين التى تلت ذلك ؛ ومع ذلك فإن مناطق السكنى جرى استكشافها كلها . ولكن الصحراء الجنوبية هى التى أخفت أسرارها ، وما تزال تخفيها إلى يومنا هذا .

يمكن لنا الوقوف على استكشاف الجزيرة العربية إلى يومنا هذا وذلك عن طريق إلقاء نظرة على الخريطة الدقيقة التى نشرها كارل ريتر ، ذلك الجغرافى الروسى العظيم ، فى العام ١٨٥٢ . لم يهتم كارل ريتر ، بأى مكان آخر فى قارة آسيا ، قدر اهتمامه الشخصى بالجزء الجنوبى الغربى من شبه جزيرة العرب . والفضل فيما آلت إليه شبه جزيرة الأناضول على أيدى الذين جاءوا بعد والين ، من أمثال هاينريش Heinrich كيبرت Kiepert ، وهو الرجل الذى أنهى العمل الذى بدأه ريتر وكان يرمى إلى تركيز الاهتمام على آسيا ، الفضل فى كل ذلك يرجع إلى والين Wallin نفسه . المجلدات الكثيرة الخاصة بالجزيرة العربية ، من العمل الوصفى الكبير الذى نشر فى العام ١٨٤٦ الميلادى وفى العام ١٨٤٧ أيضا ، فى أعقاب الروايات الأولى التى نشرها كل من فيردى Wrede وآرنو Arnaud ، وصلت إلينا ، قبل أن نعرف أى شىء عن والين . هذه المجلدات احتوت على خلاصة الدلائل الجغرافية الخاصة بالجزيرة العربية ، التى توافرت حتى العام ١٨٤٥ الميلادى . اعتمد ريتر على كل من بطليموس السكندرى والجغرافيين المسلمين كأساس ، وراح الرجل يراجع ما قاله هؤلاء الجغرافيون ويقارنه بالتقارير والروايات التى جاء بها أولئك الرحالة الذين أتينا على ذكرهم .

هنا يحق لنا القول إن والين أدخل بعض التحسينات على ما جاء به جومار عن جغرافية الجزيرة العربية ، لا فيما يتصل بمناطقها الجنوبية وحدها ، والتى جرى استكشافها خلال السنوات العشر الماضية ، وإنما ما يتصل أيضا بمناطق الجزيرة العربية الغربية ومناطقها الوسطى ، التى لم تكن تتوافر عنها أية دلائل أو معلومات جديدة ، ووالين لم يعد يؤيد مسألة الصرف السطحى للعارض عن طريق وادى عفتان ومنه إلى خليج البحرين ، ولما كان جورج والين يعلق أهمية كبيرة على الملاحظات التى جاء بها سادلير Sadlier ، وليس على الملاحظات التى جاء بها سلفه الفرنسى ،

فقد أكد والين على وجود حاجز مستمر من الأراضى العالية يقع شرقى الوديان النجدية ، كما ركز أيضاً على أنه إذا كان لوادى عفتان وجود على الإطلاق ، فإن مياه هذا الوادى ، مثل مياه وادى حنيفة ، الذى يتميز عنه ، تصل خليج البحرين عن طريق قنوات تحت الأرض . كما تمسك جورج والين فى ذات الوقت بنظرية كل من شيدوفو Chedufau وتاميسير Tamisier التى مفادها أن صرف عسير ، بعد أن يجرى تجميعه فى بحر صالوح Bahr Saluh ، يجرى نقله فى اتجاه الشمال ، ثم يحتمل أن ينتقل بعد ذلك إلى الخليج فى نهاية المطاف ، بعد أن يتسبب فى تخصيب المناطق الجنوبية القصية من نجد ، والأفلاج ، والحريق .

وبفضل سفينة الأبحاث والاستطلاع الهندية التى تحمل اسم "بالينورس" Palinurus ، أصبح الخط الساحلى من الجزيرة العربية معروفاً حالياً ، فيما عدا منطقة واحدة تقدر بحوالى ثلاثمائة وخمسين ميلا فى الجنوب الشرقى ؛ كما أمكن أيضاً تعيين بعض المواقع الداخلية تعييناً دقيقاً فى ضوء علاقة هذه المواقع بالساحل . وقد تمكن ريتر من تعديل خارطة عسير ، من منطلق معرفته أن الطائف إنما تقع فى الموقع نفسه الذى سبق أن حدده لها الجغرافيون الأوائل ، أى أنها تقع إلى الجنوب مباشرة من خط الطول الذى تقع عليه مكة ، كما أدخل ريتر مزيداً من التفاصيل على الملخص التخطيطى الذى رسمه الفرنسى للمنظومة الجبلية . ولكن فيما يتعلق بالمشكلات المهمة الخاصة بالانحدار والصرف فى اتجاه الشمال من الطريق الذى يرتبط بين مكة والرياض - أى فى الجزء الشمالى بكامله من الجزيرة العربية - نجد أن ريتر كان لا يزال جاهلاً بهذا الأمر ؛ كما أنه لم تكن لديه فكرة أوضح من أفكار سابقيه عن الطبيعة شبه البركانية للمنظومة الجبلية لساحل البحر الأحمر ، أو علاقة تلك المنظومة بالسلاسل الداخلية ، التى من قبيل سلسلة جبال الشمر . يزاد على ذلك أن ريتر لم يكن لديه سوى معلومات التصور الوسيطة الإسلامية عن بعض أماكن بعينها فى الجزيرة العربيه ؛ وبناء عليه ، إذا كان ريتر يزعم أنه كان أفضل علماً من الجغرافيين الذين سبقوه ، فيما يتعلق بطبيعة الواحات الشمالية فى كل مناطق النفود ، فإن الرجل كان ما يزال يتخيل واحة الجوف وكأنها تمتد إلى مسافة ، أبعد مما هى عليه ، ناحية الجنوب . يزاد على ذلك أن

ريتر ضيق النفود لتصبح مجرد حزام لا يعتد به ، كما اضطر ريتر إلى بعثرة الأسماء على خريطته فى اتجاه الشمال والشرق من جبل الشمر ، وذلك على النموذج القديم الذى يفترض وجود مسافات متساوية بين المحطات التى وردت فى بيانات الأحداث اليومية للحج .[1]

خلاصة القول : إن معلومات ريتر ، عن ما يقرب من ثلث الجزيرة العربية ، أى بالأحرى ذلك الجزء الذى يقع شمالى دائرة العرض ٢٥° ، كانت أدنى بكثير من المعلومات المتوفرة فى الوقت الحالى . أما فيما يتصل ببقية الجزيرة العربية فإن التقدم العلمى الذى تحقق خلال ما يقرب من ستين عاما من الأبحاث ، منذ عصر ريتر ، لا يعد كبيراً أو ذا شأن ؛ يضاف إلى ذلك أن الحقيقة التى مفادها أن مسألة بقاء الجغرافيا الوصفية ، التى جرى تأليفها فى العام ١٨٤٥ الميلادى ، مرجعًا من الطراز الأول لمساحة تقدر بما يقرب من مليون ميل مربع من الأرض فى العام ١٩٠٤ ، هذه الحقيقة توضح وتؤكد كمال العمل الذى أنجزه ريتر Ritter وعدم تمكن المستكشفين المحدثين من الدخول إلى أعماق الجزيرة العربية .

هوامش الفصل السابع

(١) راجع كوسين Caussin دى De برسفال Perceval فى كتابة "العرب قبل الإسلام" المجلد الأول ، الفصل الثانى ص ٦٠٥ .

(٢) راجع مراجع الفصل الأول .

(٣) يسجل بركخاردت أن الشمر كانوا يتصرفون تصرفا مستقلا عن الوهابى ؛ هذا يعنى أنهم كانوا يهاجمون الحج السورى ، الذى كان يحظى بحماية الأمير .

(٤) المقصود "بآل بلنت" هنا هما : بلنت وزوجته . (المترجم)

مراجع الفصل السابع

Seetzen, Beiträge zur Geographie Arabiens Von Zach's Monatl. Corresp., 1808, xviii. pp. 358, 383.

Burckhardt, Travels in Arabia, Appendix vi.

G. A. Wallin in J. R. G. S., xx. P. 293, xxiv. P. 115.

K. Ritter, Erdkunde von Asien, Pts. xxi., xiii. (Berlin, 1846, 1847).

القسم الثانى

الخلف

الفصل الثامن

مناطق الحدود الغربية

مع منتصف القرن التاسع عشر يبدأ ذلك الذى يمكن أن نسميه الجيل الثانى من مستكشفى الجزيرة العربية . هؤلاء الرجال ، الذين تمثلت مهامهم فى المراجعة ، التى تعد من وجهه نظر زماننا وليس من وجهه نظر زمانهم هم ، أفضل المهام . عمل هذا الجيل الثانى من المستكشفين يمكن فهمه إذا ما توقفنا عن ربطه بالجهل المعاصر وربطناه بالعلم الحالى .

الحدود الغربية لشبه الجزيرة العربية طبيعتها واحدة فى كل أماكنها . هذه الطبيعة عبارة عن شريط منخفض متباين الأبعاد ، ولكن عرضه لا يزيد على مسير يومين ، وهو الذى يتكون منه الشاطئ . هذه التهامة ، تعد إضافة حديثة نسبيًا إلى كتلة الجزيرة العربية الرئيسية ، وقد جرى جرف هذه التهامة ، فى بعض أجزائها ، من الهضبة الوسطى ، وجزء آخر من هذه التهامة على شكل تشكيلات مرجانية فى البحر الأحمر الدافئ[1] . من خلف هذا الشريط المنخفض ، أو بالأحرى من خلف هذه التهامة ، تظهر الكتلة القارية الرئيسية فى اتجاهها ناحية البحر على شكل سلسلة جبلية مستمرة متباينة الارتفاع ، وأكتاف متجهه ناحية الغرب ، ومع ذلك ، فإن منظومة الجبال الظاهرة ، هى فى واقع الأمر حافة الهضبة المنحدرة انحدارًا شديدًا ، والتى تأخذ فى الابتعاد التدريجى ناحية الشرق أو الشمال ، هذه الهضبة هى وسط الجزيرة العربية ، انحدار هذه الهضبة القصير والشديد فى اتجاه البحر ، ووجود الأراضى المنخفضة عن سفحها ، هو ما يطلق عليه اسم الحدود الغربية .

من هنا ، فإن وديان الحدود الغربية ، ليست هى قنوات الصرف الرئيسية فى الجزيرة العربية ، ولكن هذه الوديان لها مسارات قصيرة ، التى لا يزيد طول امتدادها نحو الداخل ، على مائة وخمسين ميلاً ، فى اتجاه طيران الغراب ، تحت أى ظرف من الظروف ؛ ولكن لما كانت تلك الوديان تحمل الأبخرة المتساقطة على شكل مطر أو ندى أو ثلج ، والتى تأتى من الغرب ، وتتساقط على ميول مفاجئة تراكيبها سهلة التفكيك فى أرض معرضة لتباينات كبيرة وسريعة فى درجات الحرارة ، فقد أدت تلك التساقطات إلى نحت ذلك السطح من الجزيرة العربية نحتًا عميقًا ، وبخاصة فى الجنوب ، حيث تؤدى الرياح الموسمية إلى زيادة حجم المياه فى تلك الوديان . من هنا جاء المظهر الجبلى لكل من اليمن ، وعسير بدرجة أقل ، وذلك نقلاً عن روايات وتقارير الرحالة الذين رأوا هذه الأراضى وهم قادمين من ناحية البحر الأحمر ومتجهين صوب الداخل . فى الحجاز ، وفى ظل فشل الرياح الموسمية فى الوصول إلى هناك ، نجد أن الهضبة ينحدر سطحها انحدارًا هينًا نحو البحر ؛ ولكن إلى الشمال من خط طول ٢٦ْ يبرز فى المنظر عنصر جيولوجى جديد . فقد حدث فى هذه المنطقة عدوان قديم من الصخور البلوتونية (الجوفية) على طول الواجهة الغربية على امتداد مسافة طويلة ؛ وقد أسفر ذلك العدوان الصخرى ، عن سطح جبلى الطابع فى الساحل الشمالى الغربى أكثر من أى جزء آخر من شاطئ البحر الأحمر .

فيما يتعلق بالمعلومات التى لدينا عن ذلك الإقليم البرى الجرانيتى ، الذى يطلق عليه فى بعض أجزائه الاسم "مدين" Midian ، ونتيجة لاستعمال خاطئ لمصطلح "الحجاز" ، يتعين علينا أن ننسب الفضل إلى أهله ، إلى حد بعيد ، وبخاصة ريتشارد Richard فرانسيس Francis بيرتون Burton الذى ذاعت شهرته . تشهد السجلات أن أحدًا من المستكشفين لم ينزل أو يهبط على أرض الجزيرة العربية لاستكشاف منطقة مدين قبل العام ١٨٢٦[٢] ، عندما وصل الرحال الأفريقى إدوارد Edward روبل Ruppell ، الذى سبق له أن زار سيناء قبل ذلك بأربعة أعوام ، إلى المويلة Mueila التى هى المستوطنة الرئيسة فى مدين ، ومن تلك المستوطنة شق بيرتون طريقه شمالاً بطول الساحل ، متتبعًا طريق الحج المصرى ومتجهًا إلى خليج العقبة ، تعرف بيرتون طبيعة الصخور

البلوتينية (الجوفية) الموجوده على القمم العالية ، التى تكاد تقترب من البحر فى هذه المنطقة ؛ وفى كل من وادى دريام ، الذى يبعد أميالاً قليلة عن المويلة ، وفى المغائر Mugair ، التى تقع إلى الشمال من خليج عين Ain أون Une ، عثر بيرتون على آثار مهمة لصورة من صور الحياة الباكرة . فى العام ١٨٣١ الميلادى جاءت سفينة المسح والاستطلاع "بالينوروس" Palinurus ، بقيادة مورسبى Moresby ، الذى أبحر معه ولستد Wellsted الذى ارتاد عُمان فيما بعد . أسفرت الأعمال التى قاموا بها ، وذلك نقلاً عن رواية ولستد نفسه ، عن مسح هيدروجرافى(*) للسواحل والشواطئ ، ونقلاً عن ولستد فى روايته التى دونها فى الجزء الثانى من كتابه الذى يحمل العنوان "ترحال" Travels ، يبدو أن أحداً من تلك السفينة . لم يغامر بالدخول إلى مسافة بعيدة داخل أرض مدين ؛ ولم يحدث قبل أن يقع اختيار جورج والين على اختيار الطريق الذى يربط المويلة بتبوك Tebuk ، فى العام ١٨٤٨ ، باعتباره أقصر الطرق المؤدية إلى نجد ، لم يحدث أن تمكن الجغرافيون من الحصول على أية معلومات فيما يتصل بالبلاد الواقعة خلف التلال الجرانيتية الضخمة ، التى ترتفع وتقع على بعد مسافة تقدر بحوالى مسير يوم واحد من ناحية شاطئ البحر ، اكتشف جورج والين أن هذه التلال الصخرية تكون سلسلة ساحلية متميزة عن الهضبة نفسها ، التى ترتفع واجهتها ارتفاعاً خلف هذه التلال على شكل جدار مستمر ، هو الذى يربط جبل شيرار(**) Jabal shera فى أقصى الشمال بأراضى الحجاز العالية فى الجنوب . ومر جورج والين مروراً سريعًا من خلال السلسلة الأولى عن طريق وادى Wady سدر Sadr ، الذى يعد عضواً رئيسيًا فى سلسلة من "الفيومرات" Fiumaras التى ترتكز على قيعان رملية ؛ وقد لاحظ والين هذه الفيومرات" عندما كان يهبط نازلاً إلى الساحل فى الاتجاه الجنوبى الغربى ؛ ثم تسلق جورج والين بعد ذلك الجدار الشرقى الواقع خلف جبل حرب Harb ، ليجد الرجل نفسه بعد ذلك فوق أراضى سهل الحسمة الكبير ، الذى هو بمثابة العتبة الأولى من أعتاب نجد .

(*) مسح هيدروجرافى : مسح مائى . (المترجم)

(**) جبل شراة : من أعظم جبال العرب . (المترجم)

هذا الذى رآه جورج والين شاهده بيرتون أيضًا بعد جورج والين بثلاثين عامًا .

هذا المغامر الشهير الذى يزداد شيبًا على شيبه فى قنصليته فى تريستى Trieste ، سبق أن اقتيد قبل بضع سنوات للتحقق من وجود بعض الرسوبيات الثمينة فى صخور مدين ، وذلك فى إثر بيان عابر ورد على لسان حاج من الحجاج المصريين ، كان قد سلك الطريق البرى وصولاً إلى المدن المقدسة ، عندما قارن بيرتون هذه المعلومات بالتقرير الذى قدمه روبل Ruppell عن المدن الخربة فى الإقليم نفسه ، أقنع نفسه بحتمية وجود بقايا مركز من مراكز التعدين ، وهو ما يمكن أن يكون مؤشرًا على وجود الخام . على كل حال ، لم يحدث قبل مطلع العام ١٨٧٧ الميلادى ، أن أصبح لدى بيرتون الوقت الكافى ، ولم تكن الحكومة المصرية التى نقل بيرتون إليها دلائله ، على استعداد لتحرى صدق هذه الدلائل على أرض الواقع ، وبعد أن تولى بيرتون قيادة جماعة صغيرة فى ذلك العام ، جرى توجيهه للتقدم صوب المويلة Mueila ومن المويلة قام الرجل باستطلاع سريع للطريق الذى سلكه روبل Ruppell ؛ وفى اللحظة المناسبة غير الرجل مساره صاعدًا إلى وادى الدريام Deriam لكى يتحرى سلسلة الجبال الساحلية فى مناطقها القريبة . التقرير الذى أعده بيرتون عن الآثار المتبقية من الأعمال القديمة فى ذلك الوادى وفى وادى مغائر Mugair شعيب Shuaib أيضًا ، فضلاً عن الأنقاض الموجودة فى مجير شعيب ("الذى يقول عنها كتاب "وصف العالم"(*) أنه كان بها "ألواح مدون عليها أسماء ملوك") ، وكذلك عينات الخام التى كانت بصحبته ، كل ذلك جعل الحكومة المصرية تزداد عزمًا وتصميمًا على القيام بمسح على نطاق واسع ؛ وفى النصف الثانى من العام نفسه عاد بيرتون إلى المويله Mueila ومعه مصادر أوسع وجماعة أكبر .

وإذا كان لنا أن نلخص النتائج التى توصل إليها بيرتون ؛ فإننا نقول : إن بيرتون استكشف فى بداية الأمر كل المنطقة الواقعة إلى الشمال من المويلة ، أسفل جدار الهضبة ، ووصل استكشافه إلى منتصف الطريق المؤدى إلى خليج العقبة . فى هذه المنطقة نجد أن سلسلة الجبال الساحلية تمتد نازلة نحو البحر ، ثم تنحدر فجأة فى

(*) كتاب وصف العالم "جيهان نوما" لحاجى خليفة المعروف باسم كاتب چلبى . (المراجع)

جبل تيبزم Taibism ، ثم تغلق الإقليم الساحلى الذى يعرفه العرب باسم أرض Ard مدين Madyan أو إن شئت فقل : أرض The land مدين of Midian هذا هو الإقليم الذى سبق أن رآه من قبل كل من رويل وبيرتون ، وكان رويل قد رسم خارطة دقيقة لذلك الإقليم ، وهذه الخريطة ليس فيها أى نوع من الغرائب . والساحل الحقيقى فى هذا الإقليم كله ناتج عن الطمى الذى تحمله السيول التى تهبط على هذه المنطقة نازلة عليها من حوض الحسمة Hisma ، الأمر الذى يجعل هذه السيول تضع البقايا المنجرفة من الرمال الحجرية فى الهضبة ، بين كتل الجرانيت فى السلسلة الساحلية . أما الوديان ، التى منها وادى دريام ، والتى أعلاها هو وادى سدر ، لا تنتج سوى حياة نباتية صحراوية فى المناطق ما بين التلال الجرداء ، والمنطقة ما بين المويلة والمخنة Makhna خالية من أى شكل من أشكال الاستيطان الدائم ؛ ومع ذلك فإن طريق الحج الذى جرى تمهيده فى القرن السادس عشر ، مزود بمجموعة من الأبيار المتتالية . والسكان البدو المترحلون من قبيلة عقبة Ogba يزعمون أن المويله أرث لهم آل إليهم من أبائهم ، وأن هذا الحق محفوظ لهم ، بالرغم من التحلل الذى اعترى القبيلة وأن الذى يحفظ لهم هذا الحق هو قانون التملك البدوى ؛ ولكن هؤلاء العقبيين لا يستطيعون الوقوف فى وجه الحويطات المعتدين الذين يسكنون الجزء الأعلى من الحسمة Hisma .

هذه المنطقة كلها جرى رسمها على خرائط بواسطة الضباط المصريين الذين كان بيرتون يترأسهم ، وبالرغم من أن الخريطة التى رسمها هؤلاء الضباط كانت مخططًا أكثر منها مسحًا ، إلا أنها تعد أفضل الخرائط التى لدينا عن أى جزء من الأجزاء الداخلية من الجزيرة العربية ، اللهم باستثناء المنطقة المجاورة لعدن Aden . وبعد أن فرغت جماعة بيرتون من ذلك العمل ، عادت مرة ثانية إلى المويلة كيما تستعد لغزو المناطق الواقعة جنوبى مدين ، التى لا يطلق العرب عليها اسمًا من الأسماء . توجه بيرتون ، فى بداية الأمر ، نحو الداخل إلى أن وصل إلى أعالى وادى صور Sur . وواصل مسيره إلى الجنوب من الطريق الذى سلكه جورج والين ، ثم مر من خلال السلسلة الساحلية (التى أسماها باسم "الغات" Ghats قياسًا على الأسماء الهندية) ، ثم صعد بيرتون بعد ذلك إلى الهضبة الداخلية ، الذى ينخفض مستوى قمتها عن أكثر

القمم الجرانيتية ارتفاعًا فى الغرب بحوالى ألفى قدم . ومن تلك الهضبة رأى بيرتون أمامه حوض الحسمة الشاسع أحمر اللون ، يحده من ناحية الشرق الانتفاخ الطويل ذو الطبيعة البركانية الحديثة التى تعرف باسم الشفا Shefa أو بالأحرى حرَّة Harrah العويرض Aueirid ، التى كان دوتى يتجول فوقها آنئذ . هذه الكتل البركانية ، التى يصل طولها إلى ما يقرب من سبعة آلاف وخمسمائة قدم ، تشكل نقطة الذروة من الهضبة فى هذا الإقليم ؛ ولكن مفترق المياه يقع على بعد مسافة قليلة من هذا المكان فى اتجاه الشرق ؛ والسبب فى ذلك أن كلا من الحرَّة والحسمة تصرف مياهها فى البحر الغربى .

بالرغم من أن بيرتون أغرته الأنقاض الموجودة فى الحسمة ، فإنه لم يصر على المضى قدمًا فى مساره نحو الداخل ، غير عابئ بجر المتاعب على نفسه وعلى جماعته من بدو الماز Maze ، أثناء قيامه بعمل يقع خارج نطاق المهمة المحددة له ؛ وقد تنفس المصريون الذين كانوا معه الصعداء ، عندما هبط بيرتون نازلاً إلى الوادى الغربى من جديد ، وشق الرجل طريقه فى اتجاه الجنوب تحت الجدار خلال سلسلة من الأحواض الرملية المرتفعة ، ليعثر على كثير من آثار وأطلال استيطان قديم وأشغال قديمة ، وفى نهاية المطاف استكشف الرجل جانبى السلسلة الجبلية الساحلية فى اتجاه الجنوب إلى أن وصل إلى وادى حمض ، الذى هو الحد الشمالى الحقيقى للحجاز ، وهو يتقاطع مع "الغات" (سلسلة الجبال الساحلية) قبل أن تنتهى إلى جبل Jabal رضوى Radwa ، خلف ينبع Yambo ، أهمية هذا الوادى الكبير الذى ينحدر قادمًا من الأجزاء الداخلية من الحرَّات ، والذى يحمل مياه صرف حافة الهضبة بدءًا من مدائن صالح إلى نقطة فى أقصى جنوب المدينة المنورة ، وقف عليها وأدركها بيرتون فى ذلك الوقت ؛ ولكن الموقع الدقيق لمصادر مياهها وجغرافية فروعها بقيت بلا استكشاف إلى أن جاء دوتى وقام باستكشافها . وينتهى الاستكشاف المصرى بصعود الجبل الجرانيتى العظيم الموجود خلف المويلة Muweila ، أو بالأحرى جبل شار Shar ، وهو الذى كان يسمى هيبوس Hippos ، فى قديم الزمان ؛ واكتشف بيرتون أن ارتفاع جبل شار هذا أقل عن الارتفاع الذى قدر له منذ زمن طويل ، بحوالى ألفين وخمسمائة قدم .

فشل بيرتون فى كونه مستكشفًا للذهب ، ولم يقتنع الخبراء بعينات الخام التى كانت معه ولا بالتقرير الذى كتبه ؛ وتوقف الكلام عن الدورادو(*) مدين . ولكن يكفى بيرتون شرفًا أنه لم يغفل المصالح الأقل ربحية ، يضاف إلى ذلك أن البحث المطول الذى أرسله بيرتون إلى الجمعية الجغرافية الملكية بعد عودته ، هو بمثابة أفضل المراجع التى لدينا عن منطقة مدين ، بل إنه يعد أيضًا أحدث ما وصلنا عن هذه المنطقة ؛ والسبب فى ذلك أن أحدًا من المستكشفين الأوروبيين لم يكتب عن أى جزء من المناطق الداخلية فى منطقة مدين ، – بما فى ذلك جوليوس Julius يوتنج ، الذى يقول : إنه عبر ركنًا فى العام ١٨٨٤ الميلادى ، من هذه المنطقة عندما كان هاربًا إلى بلدة الوجه el-Wij من النتائج التى يمكن أن تترتب على إهدار دم رجل جهينى بالقرب من العلا . واقع الأمر أن احتمال الحصول على معلومات أكثر مما ورد عند بيرتون عن مدين ، يعد احتمالاً ضعيفًا . عندما تقوم جماعة على هذا القدر الجيد من التزود بالمعدات شأنها شأن بيرتون نفسه ، وتحت قيادة مراقب على هذا القدر الكبير من العلم والكفاية ، وعندما تقوم مثل هذه الجماعة بتفحص منطقة ضيقة ، وعندما تتهيأ الفرصة لمثل هذه الجماعة للقيام بالمسح والاستطلاع ، فإن مثل هذه المنطقة تكون قد تم استكشافها تمامًا ، واقع الأمر أن بيرتون لم يدرس الجبال الجرانيتية مجموعة بعد أخرى ؛ بل إنه ترك بعض الكنتورات (وبخاصة فى الجزء الجنوبى) غامضة فى الخريطة التى رسمها ؛ لكن فى ضوء تماثل الظروف المحلية السائدة فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، نستطيع القول وبصورة مؤكدة إنه لم يعد فى مدين سر جغرافى واحد بلا حل .

فى جنوبى واحة الحمد Hamd ، أى حدود الحكم المصرى فى تلك الحقبة ، نجد أن ذلك الحظ السعيد يطالعنا ، هذا يعنى أننا كلما اقتربنا من المدينتين المقدستين ، قلت فاعلية المسح والاستكشاف . وبالرغم من ذلك ، فنحن لدينا معرفة طيبة بهاتين المدينتين ، وعن شمالى الحجاز بشكل عام ، وهذه المعرفة أفضل من تلك التى كشف ريتر Ritter عنها فى العام ١٨٥٢ الميلادى ، ولن يكون من باب التزيد إذا ما قلنا إن

(*) الدورادو El-Doradó : مدينة خرافية عامرة بالذهب . (المترجم)

هيدروغرافيا الإقليم كله أصبحت معروفة معرفة دقيقة فى أيامنا هذه ، والسبب فى ذلك أن مفهومنا عن هذه الهيدروغرافيا يرتكز على السماع بدلاً من ارتكازه على الاستكشاف الحقيقى الذى قام به المستكشفون الأوروبيون . وليس هناك من شك فى أن المعلومات الخاصة بتلك الهيدروغرافيا ، والتي جمعها شارلز دوتى فى العام ١٨٧٧ الميلادى من المواطنين ، صحيحة إلى حد بعيد . قال بيرتون[٢] عن وادى حمد Hamd (أو أن شئت فقل حمذ Hamz) إنه لم يكن مثل الوديان الساحلية الأخرى ، بمعنى أنه ليس مجرد مجرى قصير من مجارى السيول ، وإنما هو فتحة محددة فى الأراضى العالية ، أوصلتهم إلى الداخل خلال مسير دام خمسة عشر يومًا ، الأيام الستة الأولى منها تُوَصِّلُ الرحالَ إلى العلا el-Ala ، التى تبعد مسير يوم عن الحجر Hejr . أما دوتى ، الذى سوف نحكى عنه الكثير فيما بعد ، فقد جاء من الشمال قاصداً منطقة الحجر ذاتها ، - أى قاصداً مدائن صالح ، المكان الشهير بصخور قوم ثمود المنحوتة ، - وفى الحجر عرف دوتى أن مجرى السيل الذى ينزل من واحتها الصغيرة ، "ينساب فى وادى الحجاز العظيم الذى يسمى وادى الحمض el-Humth ، والذى يطلق عليه بعد أن يتفرع فى الشمال أسفل قرية العلا el-Ala ، اسم وادى جزل Jisl . قيل لدوتى إن هذه التفريعة الشمالية ، يصلها الماء قادمًا من جانبى حرة العويرض ، ثم تنساب هذه التفريعة بعد ذلك فى وادى الحمض "umth" (ويصح فيه أيضًا وادى حمد Hamd) ، الذى هو وادٍ كبير يقارنه العرب بوادى الرمة ذاته ، ويمتد الوادى بعد ذلك فى اتجاه البحر الأحمر فيما بين الوجه Wij وينبع Yambo وبعد ذلك بعام كان دوتى على بعد درجة واحدة فى أقصى الجنوب ، ليكتشف أن المياه التى تأتى من الحافة الشمالية ، والحافة الغربية ، والحافة الجنوبية لحرة خيبر إنما تنساب أيضًا إلى وادى "الحمض" Humth ، لتنضم بذلك إلى التفريعة الجنوبية الكبيرة التى تهبط نازلة نحو الأسفل ، حاملة اسم وادى Wady القرى(*) Kora ، من المدينة (المنورة) لتمر بعد ذلك من بين

(*) وادى القرى : وادٍ خصب غزير المياه كان محطة من محطات الطريق التجارى القديم الذى يصل بين اليمن والشام . (المراجع)

جبل أحد والمدينة ، ومن منطقة بعيدة فى الجنوب ، -- بل وحتى من منطقة مكة (المكرمة) . أطـول أعضـاء تـلك المنظـومـة لا يقـل طـول مـجـراه ، حسب مـا ورد فى التـقـارير ، عن عشر درجات .

ومن سوء طالعنا أن أحداً من الأوروبيين ، منذ عهد فارثيما Varthema لم يبلغنا بأى شىء عن طريق الحج السـورى المتـجـه من العـلا el-Ala إلى المدينة (المنورة) ؛ والسبب فى ذلك، أن هذا الطريق بكامله يمر فى هذه الأرض المجوفة من وادى القرى . ولم يقل لنا أى أحد من الأوروبيين أى شىء أيضاً عن استمرار طريق الحج هذا خلال أراضى بنى عامر Amr متجهاً إلى مكة ، والذى يتحتم عليه الصعود بعد ذلك إلى رأس منظومة وديان الحمد ، قبل أن يعبر سلسلة جبال الحرّة ليصل بعد ذلك إلى وادى فاطمة الذى يعد واحداً من الوديان الفرعية . ولكننا عندما نقارن ملاحظات بركخاردت بملاحظات بيرتون ينجلى الشك تماماً عن الحقيقة التى مفادها أن الأرض العالية فى شمالى الحجاز إنما تصرف مياهها فى البحر الأحمر ، وهذا هو ما يقوله دوتى بالفعل ، وأن ذلك التـصريف يكون عن طريق منظـومـة من الوديـان التى تتـجـمع عند حـافـة الهضبة كلها فيما بين خطى طول سبعة وعشـرين واثنين وعشـرين ، ليصب بعد ذلك فى وادى حمد .

ونحن مدينين بالشكر للمغامرة الباكرة الأكثر ذيوعاً وشهرة عن رحلته الحالية ، لأن هذه المغامرة الباكرة هى التى أكدت هيدروغرافية(*) هذه المنطقة ، وهى أيضاً ألتى أضافت إلى معرفتنا إضافة كبيرة فيما يتعلق بمنطقة شمالى الحجاز وبخاصة منذ أيام بركخاردت . هذه المغامرة الباكرة ، إذا ما عرفنا الهدف الحقيقى منها وفهمناها فهماً جيداً ربما ازدادت أهمية على أهميتها وشهرة على شهرتها . إنصافاً لهذا الرحال العظيم ، أنه لم يقم بالحج إلى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) فى العام ١٨٥٤ الميلادى طلباً للشهرة وذيوع الصيت ، وإنما لأن الرجل كان مشاركاً فى الجهل العام بمدى جدة وجدوى تلك المغامرة أو العمل الشجاع .

(*) هيدروغرافيا : علم المساحة البحرية . (المترجم)

كان بيرتون يعرف تماماً أن كلاً من على بك(*) هو وبركخاردت لم يتركا له سوى القليل جداً ، أو بالأحرى لم يتركا له شيئاً كى يكتب عنه فيما يتعلق بالمدينتين المقدستين ، وأن كل ما عليه هو المرور السريع متنكراً بين الحجاج ، من ينبع إلى جدة ، وذلك عن طريق كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ؛ وقد استخف بيرتون بهذا العمل واستصغره أمام إمكانياته وقدراته العلمية . واقع الأمر أن بيرتون ذهب إلى مكة (المكرمة) بدافع من الأسباب نفسها التى حفزت أفضل من سبقوه ، من أمثال سيتزن Seetzen وبركخادرت إلى القيام بهذه الرحلة . ولما كان بيرتون راغباً منذ زمن طويل فى اختراق الجزيرة العربية ، بل وعبورها إذا ما أتيح له ذلك ، وبخاصة قلب الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، ثم الترحال بعد ذلك فى أراضى إسلامية أخرى فى كل من آسيا وإفريقيا ، فقد سعى الرجل على الفور إلى اكتساب اسم وطابع وشخصية حاج من الحجاج . كان رجال قوافل الحجاز قد قالوا : إن المرور المباشر خلال الصحارى الجنوبية إلى مسقط ، والذى ورد ذكره فى كتاب "وصف العالم" لم يجر مطلقاً ، بل إن البدو أنفسهم قالوا عنه إنه شىء غير عملى . يزاد على ذلك ، أن مناسبات كثيرة وأحداثاً كثيرة أيضاً وقعت للرجل أثناء قيامه بالحج ، هى التى ربما تكون قد أقنعته بأن تنكره لن يكون صعب الاختراق على نحو يمكن أن يفيده أو يستفيد منه عندما يكون فى نجد ، الذى تزداد فيه غيره الوطنيين من الأوروبيين المعتدين وحقدهم عليهم . وتحتم على بيرتون فى نهاية المطاف تغطية ذلك النوع من الفشل بشكل من الأشكال ؛ ومع ذلك فإن أسلوب بيرتون الحى ، وقوته الوصفية التى تمثلت فى تقريره جذبا إليه جمهوراً كبيراً ، بقى جاهلاً وغير عارف بالتقرير الجاد الذى أعده بركخاردت ؛ كما سيطر التقرير الذى أعده بيرتون على الخيال الشعبى واستحوذ عليه إلى حد أن أولئك الذين كانوا يفكرون فى ذلك الوقت ، فيمن حاولوا الوصول إلى مكة ، أيقنوا أن بيرتون وحده هو الذى نجح فى ذلك(٤) .

(*) الرحالة الإسبانى دومنجو باديا أى لبليخ المعروف بعلى بك العباسى . (المراجع)

بالرغم من كل ذلك فإن فريضة الحج التى أداها بيرتون لم تكن خلواً من النتائج الجغرافية . وبالرغم أيضاً من أن الرجل لم يكن لديه ما يقوله لنا عن الطريق من ينبع إلى المدينة (المنورة) ، أكثر من ذلك الذى سبق أن قاله لنا كل من على بك ، وبركخاردت ، وسادلير ، إلا أنه من المفيد لنا أن نقرأ تقريره عن المدينة (المنورة) نفسها ، التى زادت مساحتها وزادت أهميتها خلال السنوات الخمس وثلاثين التى مرت على آخر زيارة أوروبية لتلك المدينة . كما استطاع بيرتون تصحيح بعض التفاصيل الخاصة ببعض الأماكن المهمة القريبة جداً من المدينة (المنورة) ، والتى وردت فى تقرير بركخاردت ، الذى بلغ من الضعف والوهن حداً عجز معه عن الخروج من البلدة إلى مسافات بعيدة . أما فيما يتعلق بالحرم النبوى والحياة الاجتماعية فى المدينة (المنورة) فقد اعترف بيرتون وأقر بأنه ليس لديه ما يمكن إضافته إلى التقرير الذى أعده من سبقه أيضاً إلى مكة (المكرمة) . واعتباراً من تاريخ زيارة بيرتون ، لم يزر المدينة (المنورة) سوى جى . اف . كين Keane ، فى العام ١٨٧٨ الميلادى . ويبدو أن نمو هذه المدينة قد تزايد كما تزايدت أيضاً مساحتها .

كان بيرتون حظيظاً عندما مضى قدماً مع الحج ، إذ أوصله ذلك إلى الأطراف الشرقية القصية للطرق الأربعة المؤدية إلى مكة[٥] . كان بركخاردت قد تتبع الطريق الساحلى ووصفه وسار عليه ، وهو الطريق الذى يحمل اسم الدرب Darb السلطانى as-Sultani . الطريق التالى لهذا الطريق ، هو طريق Tarík الغابر al-Ghabir ، وهو يمر خلال بلاد بنى Beni صُب Sub ، وهو قليل الأهمية . أما الطريق الثالث ، الذى أشرنا إليه وأتينا على ذكره هو الذى يوصِّل مباشرة إلى وادى كورة Kora ؛ بيرتون لابد أن يكون قد عرف الكثير عن هيدروغرافية الحجاز ، وبخاصة أن بيرتون كان قد لاحظ بالفعل أن صرف كل من المدينة (المنورة) وجبل أُحُد فى ضوء هذا الطريق - يتجهان صوب منطقة الوجه ؛ وإذا كان بيرتون لم يسلك هذا الطريق الثالث ، فذلك يعنى أنه سلك الطريق الرابع الذى يسير بمحاذاة حافة نجد ، وهو ما يطلق عليه اسم الدرب الشرقى ash-Sharki ، وهو يعد جزءاً من طريق الملكة زبيدة القادم من بغداد إلى مكة ، ولكنه يندر استخدامه حالياً تخوفاً من بنى حرب المضطربين بصفة دائمة ، هذا الطريق

أوصل بيرتون إلى منطقتين (حرتين)(*) ، هما أهم معلمين من معالم الحجاز الداخلية ؛ كما لاحظ بيرتون أيضًا أن الصرف فى أقصى الشرق كان ما يزال يتجه غربًا . كان بيرتون ، فى واقع الأمر ، يعبر رءوس "الفيومرات" Fiumaras الشرقية الواحد بعد الآخر ، فى منظومة وادى الحمد Hamd الذى يقع أسفل مصادر هذه "الفيومرات" فى المنخفضات الدائرية الصغيرة التى بين نقط الاتصال المنخفضة ، التى تشكل بدورها قمة منحدر الجزيرة العربية الطويل الذى يتجه ناحية الشرق ، وبعد أن التقى الطريق الذى كان يسلكه بيرتون بطريق الحج الفارسى عند صفين Sufeine ، صعدت قافلة بيرتون إلى الحرة الرئيسية ، وقطعت منطقة صخور البازلت الأسود إلى أن وصلت إلى رافد يدعى وادى فاطمة ، ثم قصدت القافلة بعد ذلك إلى عرفات ومنه إلى مكة ، بعد أن قطعت مسافة تقدر بحوالى مائتين وخمسين ميلاً .

بيرتون فى وصفه لعاصمة الإسلام ، لم يفعل أى شىء سوى (وهذا نقلاً عن كلامه هو) أن ينسب الفضل إلى أهله ويحيى ذكرى بركخاردت ، ذلك الرجل الدقيق" ؛ وفيما يتعلق بالحرم المكى ، اكتفى بيرتون بإيراد المخطط الذى رسمه على بك . هذا الجزء من تقرير بيرتون كان للاستهلاك العام أكثر منا بحثًا علميًا ؛ والذى يهمنا هنا هو ملاحظة أن تقرير بيرتون يؤكد تأكيدًا سريعًا على الصواب العام الذى أصابه أولئك الذين سبقوه من المحدثين ، وكذلك الصواب الذى حققه فارثيما Varthema هذا الكلام يعنى عدم وقوع بيرتون فى أى خطأ من الأخطاء ، هذا يعنى أيضًا أن بيرتون أمام هذا الوصف الخاص بمكة (المكرمة) لم يكن أمامه من شىء يمكن استكشافه ، فضلاً أيضًا عن عدم وجود أى شىء لمن سيجيئون بعده ، من أمثال مالتزان Maltzan ، وكين Keane ، اللذان لم يريا مكة إلا أثناء فريضة الحج .

الشىء الوحيد المتبقى ويستحق القيام به على أساس علمى ، قام به العلامة الهولندى المستعرب ، سى C سنوك Snouck هيرجورنجى ، بعد ثلاثين عامًا من الرحلة التى قام بها بيرتون ، هبط هيرجورونجى إلى أرض جدة فى خريف العام ١٨٨٥ الميلادى ، وأمضى الرجل خمسة أشهر على الشاطئ قبل أن يتجه إلى مكة متنكرًا

(*) المفرد حرة . (المراجع)

فى زى طبيب بارع . وطوال خمسة أشهر أخرى أمضاها الرجل فى المدينة المقدسة قام بدراسة المجتمع دراسة كاملة ومستفيضة وذلك خلال الفترة فيما بين رحيل قافلة الحج وعودتها ؛ ويبدو أن هيرجورونجى كان على استعداد لتمديد مقامه إلى أجل بعيد لولا العمل الدنئ الذى قام به نائب القنصل الفرنسى فى جدة ، الذى قام لأسباب سنأتى على ذكرها فيما بعد عندما نتكلم عن مسألة حجر تيماء ، بإبلاغ الأمر إلى السلطات العثمانية ونجاحه فى طرد هيرجورونجى قبل أن يتمكن من مواصلة رحلته إلى المدينة (المنورة) . وهيرجورونجى هو الأوروبى الوحيد ، وربما باستثناء بركخاردت ، الذى شاهد ورأى حياة أقدم المدائن فى الجزيرة العربية فى ظل الظروف العادية ؛ ونحن عندما نضيف إلى هذه الحقيقة تسود هيرجورونجى للغة العربية ومعارفه المتينة فى المصادر المحلية فيما يتعلق بتاريخ الحجاز ، نجد أن كل هذه الأشياء تجعل لكتابه الذى وضعه عن مكة أهمية كبيرة ، وهيرجورونجى يورد فى كتابه وصفًا دقيقًا للمدينة ، شاهدًا بذلك على دقة بركخاردت ، ويبدو أن المدينة لم يحدث فيها تغير كبير منذ بركخاردت ، ذلك السويسرى ، اللهم فيما يتعلق فقط بالجزء السكنى من المدينة ، الذى يرتفع ارتفاعًا متدرجًا حول الحرم المكى والمبانى الدينية ، حتى مع ازدياد الارتفاعات من حول مسورات الحرم من ناحية المواقع المصرية . ونتج عن ذلك بقاء الكعبة فى تجويف عميق ، عند مستوى ينخفض عن مستوى الشوارع بحوالى مترين أو ثلاثة أمتار ، الأمر الذى يجعلها تستقبل مياه السيول كلها . على كال حال ، فإن أقيم الأجزاء فى الكتاب الذى وضعه هيرجورونجى ، علاوة على الوصف التاريخى من ذلك الكتاب ، يتمثل فى ذلك الجزء الذى خصصه الرجل للمجتمع المكى ، – وشوارعها التى تستخدم أسواقًا للعبيد ، وأماكنها المقدسة ، وسدنه هذه الأماكن ؛ ومنازل مكة ، وأعيادها ، ونقاباتها ، ورذائلها المتمثلة فى اضطرابها . وتعصبها ، وشهواتها ؛ وفضائلها فى الكرم الحاتمى، وفى إنسانيتها . كتاب هيرجورنجى يعد دراسة دقيقة لحياة الحضر العربية ، من منظور أوروبى خالص . كل ما هنالك أن ذلك الكتاب لا ينقصه سوى شىء من ذلك التعاطف الذى استشعره بالجريف بحكم دمه اليهودى ، تجاه المجتمع فى كل من حائل والرياض ، كما ينقص ذلك الكتاب أيضًا تلك الحميمية التى نتجت عن تخلى دوتى عن نفسه تخليًا كاملاً لكل ما يحيط به .

هناك أوروبيون آخرون دخلوا الحجاز بعد بيرتون Burton ، ولكن هؤلاء الأوروبيين سلكوا مسارات وطرق معروفة ، وهذه هي الطائف جرت زيارتها مرتين بعد أن عادت من جديد إلى سيادة الشريف[٦] ، كانت أول زيارة بواسطة جيمس James هاميلتون ويصحبته رجل لم يذكر اسمه ، وكانت تلك الزيارة في العام ١٨٥٤ الميلادى ؛ الزيارة الثانية قام بها دوتى في العام ١٨٧٩ ، هذان الرحالان لم يرددا تمامًا أصداء المكيين فوق "هذا الجزء من الأرض السورية" ؛ أما الرحال الثانى ، أى شارلز دوتى ، فقد شهد بارتفاع المدينة وبرودة هوائها ، وبلدة الطائف تقع على قمة منحدرات الجزيرة العربية ؛ والسبب في ذلك أن مياه الفيضانات الناجمة عن السيول تنساب في الاتجاه الشمالى الغربى ومنه إلى البحر الأحمر ، كما تجرى هذه المياه أيضًا في الشمال الشرقى إلى وادى الرمة ، الذى ينساب في الخليج الفارسى . وقد تحاشى الرحالان ، هاميلتون ودوتى ، مدينة مكة . وقد التزم هاميلتون السير في شمالى مكة صاعداً ، وماشيًا على حدود عرفات (وهذا هو ما فعله دوتى أثناء نزوله من هذا الطريق) ، ثم عاد هاميلتون من طريق مختصر إلى الجنوب ، أما جى J ف F كين Keane فقد توجه من مكة إلى مدين في العام ١٨٧٨ الميلادى سالكًا الطريق الذى سبق أن سلكه بركخاردت ، وعاد من الطريق نفسه . هوبر Huber، وهو في طريقه من القصيم في العام ١٨٨٤ الميلادى ، جرى الإمساك به في مكة ظنًا أنه واحد من لصوص الإبل ، ولكن سرعان ما أطلق الشريف سراحه وأرسله على الفور إلى جدة تحت الحراسة .

اعتبارًا من دائرة عرض الطائف وحتى خط طول ١٦° ، وهذه مسافة تقدر بحوالى خمس درجات ، وهى تمثل حدود الهضبة ، سواء في الأرض العالية أو الأرض المنخفضة ؛ هذه المسافة ما تزال غامضة وغير واضحة . كما أن جنوب الحجاز ، هو وعسير ، ومناطق الأراضى العالية في شمالى اليمن لم يقم أحد بزيارتها منذ زيارة جومار لها ، في تهامة الجنوبية لم يكن أمام الرحّال الحديث سوى أن يضع يده على التغيرات التى حدثت مع مرور الزمن منذ قيام نيبور برحلته ، - التغيرات التى من قبيل التدهور الذى حدث في تجارة البن ، بسبب المنافسة الأجنبية ، وكيف أن هذا التدهور ترتب عليه تدهور آخر في كل من بيت الفقيه وزبيد Zebid ؛ وكيف أن نهوض عدن Aden

تجارياً قد أدى إلى زيادة ذلك التدهور ، الأمر الذى أدى فى نهاية المطاف إلى الدمار الكامل الذى أصاب منطقة المخا(٧) .

وقع حادثان سياسيان مهمان غيرا ظروف الاستكشاف الأوروبى فى اليمن اعتباراً من آخر تاريخ تناولناه فيه ؛ هذان الحادثان السياسيان غيرا ظروف اليمن إلى الأفضل . أول هذان الحادثان هو احتلال بريطانيا لعدن ، الذى حدث بصفة نهائية فى العام ١٨٣٩ الميلادى ، وتلاه التوسع التدريجى للنفوذ البريطانى ، لا فى اتجاه الشرق بطول الساحل الجنوبى ، وإنما فى اتجاه شمال لحج Lahej ، إلى سفوح جبل صابور Sabor وإلى كتابى Katabe هذا التوسع ربما كانت له نتائج أفضل وأبعد أثراً لو كان صادراً عن قوة مصرة على تطوير وتنمية المصالح العلمية عن طريق العمل السياسى . يزاد على ذلك أن الشكوى التى تقدم بها فى العام ١٨٨٩ عالم النبات الألمانى شوينفرث Schweinfurth ، والتى مفادها أن السلطات البريطانية فى عدن لم تفعل أى شىء طوال خمسين عاماً من أجل إزالة الظلام الذى خيم على جنوب الجزيرة العربية ، هذه الشكوى كانت تنطوى على كثير من الحقيقة والصدق . هذا يعنى أن سياسة الألمان ازدادت ليبرالية على ليبراليتها فى الفترة الأخيرة . وعندما جرى احتلال عدن فى بداية الأمر لم تنصرف الأذهان للتفكير فى الأراضى الواقعة خلفها ، كان مقدراً للموقع البريطانى الجديد أن يكون جبل طارق شرقى جرى اقتطاعه من جزيرة العرب ، - مجرد محطة للتزود بالفحم فى التجارة الهندية ، تتصل علاقاتها كلها بالبحر وحده ، وهكذا وصل عدم اكتراث شركة الهند الشرقية إلى مسافة كبيرة فى الداخل ، الأمر الذى أعاد إلى الأذهان التاريخ غير المجيد لآخر موقع أوروبى فى الجزيرة العربية ، الذى تمثل فى مسقط البرتغالية ، كان حاكم لحج الوطنى - ولحج هذه تبعد عن عدن مسير يوم واحد أو أقل - ما زال يسب العلم البريطانى ويلعنه ، ووعد ذلك الحاكم بطرد هؤلاء الكفار وإلقائهم فى البحر من جديد ؛ وخلال بضع سنين اتخذت الإجراءات الكفيلة بإذلال هذا الحاكم ، وتأمين البحر . فى ذات الوقت بدأ التشكك فى الإنجليز واحتقارهم ينتشر فى كل أنحاء جنوبى اليمن ، وهذا نقلاً عما عرفه أرنود Arnaud عن ذلك الموضوع فى مأرب فى العام ١٨٤٣ الميلادى .

من هنا ، فإن عدن التى كان مفترضاً لها أن تكون قاعدة لا تقدر بثمن فيما يتعلق باستكشاف الأراضى الداخلية ، بقيت ، فى حقيقة الأمر ، بلا تأثير حقيقى فى مسألة العلم هذه ، طوال جيل على وجه التقريب ، اللهم باستثناء المناطق المجاورة مباشرة لتلك القاعدة ، وبخاصة منطقة لحج ، التى سبق أن زارتها فى العام ١٨٣٥ الميلادى جماعة من سفينة الأبحاث "بالينوروس" Palinurus ؛ ولم يبدأ العلم الاستفادة من الغزو البريطانى إلا بعد التغييرالسياسى الثانى شديد الزخم فى اليمن . كان ذلك التغيير السياسى الثانى متمثلاً فى تكرار الغزو العثمانى الذى تمثل فى انتصارات مختار فى العام ١٨٧٢ الميلادى(*) ، كانت لذلك التغيير نتيجتان : أولهما وضع حد للفوضى الضاربة التى تسبب فيها انحلال أئمة اليمن فى صنعاء ؛ كما استشعر المستكشفون المرتقبون الاطمئنان فى نهاية المطاف ، إلى أن القوة المهيمنة تمنعها علاقاتها الحميمة مع أوروبا من رفض حمايتها لها ، على الجانب الآخر ، أدى النير الجديد الذى وضع على أعناق اليمنيين إلى جعلهم ينظرون إلى الأوروبيين نظرة تقدير ، وبخاصة القوة التى كانت فى عدن ، باعتبار أن الأوروبيين هم المنقذون المنتظرون . وبناء على ذلك ، واعتباراً من ذلك التاريخ ، أصبح استكشاف اليمن أكثر جاذبية للأوروبيين بعد أن توقف قرابة الثلاثين عاماً (اللهم باستثناء الرحلة التبشيرية التى قام بها ستيرن Stern متنكراً ، إلى صنعاء فى العام ١٨٥٦ الميلادى) . قلة قليلة من أولئك المستكشفين الجدد كانوا يعملون فى الجيش العثمانى ، مثل شارلز Charles ميلنجن Millingen ، أو كانوا يحظون بالحظوة العثمانية من خلال علاقاتهم المصرية ، ومنهم ديفلرز Deflers ، وشوينفرث Schweinfurth ، وهيرمان Herman بركخاردت الذين تجاهلوا عدن ؛ ومع ذلك استخدمت غالبية هؤلاء المستكشفين تلك القاعدة فى الحصول على المعدات ، وفى الحصول على المعلومات الأولية ، ولإقامة علاقات مع التجار ورجال القوافل اليمنيين ؛ وإذا لم يكن هؤلاء المستكشفين قد نجحوا فى الدخول إلى الممتلكات العثمانية مباشرة عن طريق اليمن ، فيكفيهم جميعاً أنهم حاولوا ذلك ، يزاد على ذلك ، أن أولئك

(*) كان هذا هو الغزو العثمانى الثانى لليمن ، أما الغزو الأول فقد كان فى عام ١٥٣٨ ، وانتهى بطرد العثمانيين من اليمن فى عام ١٦٣٥ . (المراجع)

المستكشفين لم يكونوا كلهم من البريطانيين ، مثل هيج Haig أو هاريس Harris ، أو كيث Keith فالكونر Falconer . ويدخل ضمن هذا العدد من المستكشفين كل من مانزوني Manzoni الإيطالى ، والفرنسي هاليفى Halevy ، والنمساوى جلاسر Glaser ، والأمريكى زويمر Zwemer .

حزام الأرض المرتفعة جرت رؤيته ومشاهدته ؛ فقد رآه وشاهده كل من نيبور وآخرون ، ووصل استكشاف ذلك الحزام إلى الجنوب ، وبخاصة فى منطقة الطريق السريع الذى يربط المخا بصنعاء ؛ أما بوتًّا Botta فقد صعد إلى جبل صابور Sabor وألقى نظرة على الجنوب على بلد Balad الإنجريز al-Angris المستقبلى ("أى حى الإنجليز") . أبحاث أولئك المكتشفين تركت مثلثًا صغيراً بلا استكشاف ، رأس هذا المثلث على الأرض العالية فى يريم Yerim أو ريدة Reda ، أما قاعدة المثلث فهى عبارة عن ساحل الجزيرة العربية الجنوبى من الشيخ Sheikh سعيد Said (التى جرى احتلالها ذات مرة لتكون محطة من محطات التزود بالفحم ، وما تزال فرنسا تحتفظ بها) إلى شقرة Shukra ، والضلع الغربى من ذلك المثلث مكون من سلسلة جبال صابور ، التى تفصل وديان البحر الأحمر عن الوديان التى تجرى فى اتجاه المحيط ؛ أما الضلع الشرقى فيتكون من ذلك الانتفاخ الأرضى غير المنتظم ، الذى تنبع منه مياه المغذيات الجنوبية الغربية لوادى حضرموت . والمثلث كله يصرف مياهه فى اتجاه الجنوب ، وتتخلله مجارى وديانية تتجه ناحية ساحل عدن ، وفى أعالى كل مجرى من تلك المجارى يوجد طريق طبيعى يؤدى إلى الأراضى الداخلية العالية . هذه المنخفضات فيها حياة نباتية طبيعية ، وتجرى زراعة القسم الأكبر منها ؛ ولكن مناطق الاتصال فيما بين هذه المنخفضات عامرة بالتراب وغير منتجة ، وذلك على ارتفاع يقدر بحوالى ألفى قدم ، وذلك بالقرب من حدود اليمن التركية . والحياة النباتية التى تمتد من هنا إلى كل من يريم وتعز Tais تعد ممتازة سواء أكانت فى التلال أم الوديان ، وبخاصة فى شهور البرد ، يضاف إلى ذلك أن وديان هذه المنطقة هى أجمل وديان الجزيرة العربية كلها .

طريق الشمال الرئيسى الذى يبدأ من عدن يقع أعلى وادى تابان Taban ، ويتفرع بالقرب من مسامير Misamir ، أى على بعد مسافة تقدر بحوالى خمسين ميلاً فى الداخل . ومن هذه المنطقة يمتد طريق يدور حول كتلة جبل صابور الرئيسية ليصل إلى تعز ، وهناك طريق آخر يمتد إلى كتابى Katabe، ثم يمتد بعد ذلك عن طريق إب Ibb ، أو سوبى Sobe إلى يريم . والطريق الأول سار فيه (فى الاتجاه العكسى) سيتزن فى العام ١٨١٠ الميلادى عندما كان عائداً من المخا إلى عدن ، ونحن لا نعرف شيئاً عن رحلة سيتزن سوى اسمها ؛ والوصف الوحيد الذى لدينا عن هذه الرحلة هو وصف مقتضب جداً قام به س . م . زويمر ، ذلك المبشر الأمريكى الذى أوفد لليهود ، والذى شق طريقه فى العام ١٨٩٤ الميلادى من عدن إلى تعز . وفى محطته الرابعة ، وجد زويمر نفسه فى الأراضى العالية ، التى تحل فيها المنازل المبنية من الحجر محل المنازل المبنية من اللبن ، والتى تبدأ فيها أيضاً الحياة النباتية الغزيرة والثرية . الطريق الآخر ، وهو الأكثر أهمية ، وصفه رينزو مانزونى وصفاً كاملاً ؛ فقد عبر مانزونى ذلك الطريق وهو فى طريقه من عدن إلى صنعاء فى العام ١٨٧٧ الميلادى ، كما مر من الطريق نفسه فى رحلة العودة أيضاً . وفى بعض الأحيان الأخرى كان رينزو مانزونى قد انحرف قاصداً كلا من إب Ibb وتعز . أما الطريق الرئيسى المؤدى إلى صنعاء فقد سلكه الإنجليزى والتر Walter هاريس Harris ، فى العام ١٨٩٢ الميلادى ، أما الطريق الآخر الذى يتقاطع مع هذا الطريق ، ويمتد من تعز إلى ريدة Reda ويقطع رأس المثلث فقد سلكه ديفلرز deflers ، عالم النبات فى العام ١٨٨٧ الميلادى . هيرمان بركخاردت وصل أيضاً إلى ريدة Reda قادماً من دمار Damar ، فى العام ١٨٩١ الميلادى . الطريق الصاعد إلى هضبة الأرض المرتفعة وصفه الجميع وصفاً دقيقاً . هذا هو هاريس يتحدث عن "وديان خضراء ثرية وارفة ، فيها أشجار خشبية فى بعض الأماكن ، وتتخللها مجارى مائية فضية تحتوى على مياه متراقصة ؛ وتلك حقول منحدرة عامرة ومبتهجة بالمحاصيل والزهور البرية ؛ وتلك منحدرات أخرى تغطيها الغابات" ؛ ولكن كل ذلك ليس من مزارع البن . مزارع البن لا توجد إلا فى شمالى تعز فقط وفى شرقى بلاد يافع Yafia . وخارج الحدود التركية ، بل وداخلها أيضاً ، نجد أن قبائل الحواشب Hawashib تتسبب فى أخطار المنطقة وتجعلها غير آمنة ؛ ولكن فى منطقة الأرض الأعلى من

أراضى الحدود التركية ، تنتشر البلدان الصغيرة المبنية بيوتها من الحجر مما يعطى إحساسًا بالمزيد من الاستقرار ، والأراضى العالية فى شمالى يريم وريدة جرداء ، وخالية من الحياة النباتية .

وصل كل هؤلاء المستكشفين إلى صنعاء ، شأنهم شأن المستكشفين الآخرين ، وقد وصلوا إليها من الحديدة ، فى أوقات متباينة ؛ ولكننا إذا ما استثنينا التقرير الذى كتبه هاريس Harris ، عن الموقف السياسى فى صنعاء بعد التمرد الذى حدث فى العام ١٨٩١ ، فإننا يتعين علينا ألا ننظر إلى أى شىء غير الكتاب الذى ألفه مانزونى ، وجرى نشره قبل ذلك بثمانى سنوات . هذا الإيطالى (مانزونى) حفيد اليساندرو Alessandro مانزونى Manzoni الشهير ، سبق له أن اقترح ، بعد أن أقام فى المغرب فترة من الزمن ، القيام بعمل رائد من أجل وطنيته فى الحبشة Abyssinia ؛ ولكنه بسبب افتقاره إلى الموارد والوسائل وبعض الأسباب الأخرى ضاعت منه فرصة قيامه بذلك العمل الرائد . وعندما وصل مانزونى إلى عدن فى العام ١٨٧٧ الميلادى ، خطر بباله فكرة أن يكون صاحب اسم وشهرة من خلال ارتياد اليمن ، ثم فى النهاية ارتياد وسط الجزيرة العربية . في ذلك الوقت ، لم يكن بوسعه الحصول على العون والمساعدة على ذلك من بلاده ، ولما كان غير راغب فى القيام بتلك المغامرة الخطرة ، ونظرًا أيضًا لجهله بذلك الذى يمكن أن يشكل عنوانًا حقيقيًا لتلك الشهرة ، لم يفعل الرجل أى شىء سوى أن ذهب إلى صنعاء ثلاث مرات فى الفترة ما بين العام ١٨٧٧ الميلادى والعام ١٨٨٠ ، الأمر الذى مكنه من رؤية القسم الأكبر من جنوبى البلاد ، التى لم يكن فيها جديد سوى جزء يسير جدًا . المجلد الضخم الذى كتبه ذلك الإيطالى ، يكشف فى معالجته لتاريخ اليمن وإثنيته ، عن نقص معارف ذلك الإيطالى وعدم دقته ، وهو عندما يشير فى كتابه إلى المستكشفين الذين سبقوه ، يتضح أنه ليس على دراية كاملة بمؤلفاتهم وجوره وظلمه لهم ، ولكن فيما يتعلق بصنعاء على أقل تقدير ، نجد أن رحلات مانزونى الطويلة (التى أمضى خمسة أشهر فى واحدة منها) هى وحرية الحركة مكنته من دراسة طبوغرافية صنعاء ومجتمعها دراسة كاملة ومستفيضة أكثر من الدراسة التى قدمها نيبور ، وكرتندن Cruttenden ، (الذى شكك فى زيارته لأسباب غير مقنعة) ، أو تلك الدراسات التى قدمها أولئك الرحالة المتعجلين .

مانزونى هو أول من أعطانا فكرة عن الطابع المغربى لعاصمة اليمن ، وعن عمارتها ونوافذها المرمرية ، وعن شوارعها وطابع بناياتها الشعبية القديمة ، التى منها القصرين والمسجد الكبير (الذى كان كنيسة فى يوم من الأيام ، وكان يشتهر أيضًا باسم الكعبة الصغيرة Lesser Ka'abah) ويحظيان بشهرة واسعة . ومانزونى يتناول مسألة المناخ باستفاضة ، ويحاول تفسير ذلك الجو غير الصحى الذى يحيط بتلك المدينة الباردة ، التى تقع على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر(٨) . كان الاحتلال التركى أسفر بالفعل عن إدخال شىء من النفوذ الأوروبى . كان هناك عدد كبير من اليونانيين ، الذين شقوا طريقهم إلى شاطئ البحر الأحمر ، بعد انتهاء العمل فى قناة السويس ، وراحوا يعملون بالتجارة فى الأسواق ؛ وأخذت السلع الغربية فى الانتشار بين الناس ؛ وكانت السلطات العثمانية قد بدأت إنشاء المساكن والمستشفيات الجيدة لينتفع بها المسئولون العثمانيون والجنود ، وهذا هو - على حد تعبير زويمر Zwemer ، الذى شاهد ذلك المكان فى العام ١٨٩٤ الميلادى - ما يضفى على الحى الرئيسى طابعًا قاهريًا . جاء تقدير مانزونى لعدد سكان صنعاء نصف التقدير الذى جاء به هاريس ، بعد مضى خمسة عشر عامًا ، وما يزال هو الأكثر دقة وصدقًا .

لم يخاطر مانزونى بالذهاب إلى المناطق غير المكتشفة ، التى تقع ناحية الشمال وناحية الشرق من صنعاء ؛ بل إن الرجل لم يجرؤ حتى على الذهاب إلى تلك الكنتونات مثل همدان ، وعمران ، وكوكبان ، التى بحكم كونها جزء من الهضبة الوسطى ، وبحكم ارتباطها الوثيق بصنعاء مما يحتم عدم تركها فى أيدى تثور من حولها الشكوك ، كل ذلك هو الذى جعل مختار Mukhtar يهيئ نفسه لغزو هذه الأماكن غزوًا كاملاً فى العام ١٨٧٢ الميلادى . كانت الرغبة فى المضى إلى أبعد مما وصل إليه نيبور ، هى التى جعلت شارلز ميلنجن Millingen ، ذلك الطبيب الإنجليزى الذى كان يعمل فى الجيش التركى ، يقوم برحلة إلى شمال طريق الحديدة Hodeida فى العام ١٨٧٣ ؛ وتبعه ديفلرز Deflers ، عالم النبات الفرنسى ، فى العام ١٨٨٧ ، ومن بعده هيرمان بركخاردت فى العام ١٨٩٠ الميلادى . هذه الكنتونات تقع على الأرض المستوية شأنها شأن العاصمة اليمنية تمامًا ، ولكنها أعلى منها قليلاً ؛ وهذه الكنتونات تصرف مياهها

فى اتجاه الجوف عن طريق الوديان الكبيرة ، وعن طريق خاريد Kharid وسوابة Swaba ، اللذان يقول جلاسر Glaser عن وديانهما الواسعة ، إنها كانت المقرات الرئيسية للحضارة الحميرية ، وهى الآن تجرى زراعتها وتحميها مدن مسورة تسويرًا جيدًا ، الأمر الذى كلف مختار الكثير والكثير ، ومع ذلك بقيت معادية للأتراك عداء مستحكمًا .

فى العام ١٨٨٤ الميلادى ، قام إدوارد Edward جلاسر Glaser ، عالم الآثار الألمانى ، باستكشاف هذا الإقليم نفسه ولكن إلى مسافة أبعد فى اتجاه الشرق واتجاه الشمال ، ووصل إلى مسافة أبعد من تلك التى وصل إليها أولئك الذين سبقوه ، وبعد أن فشل جلاسر فى العام السابق ، فى تخطى عمران ، نظرًا لاضطراب الأحوال بين قبيلتى حاشد وبكيل الكبيرتين ، عاد الرجل إلى صنعاء وطلب من المارشال العثمانى أن يمد له يد العون والمساعدة . وبفضل تهديد المارشال العثمانى لرئيسى كل من أرحب Arhab وحاشد ، تمكن جلاسر من المرور خلال المنطقة البركانية التى تلى همدان Hamadan فى الأرض الفضاء الواقعة خلف الواديين الكبيرين ، اللذان أتينا على وصفهما ، ثم عبر بعد ذلك وادى سوابة إلى أراضى حاشد ، ولكن عمله هذا لم يمر دون احتجاج وعصيان وتمرد . وصل جلاس إلى خمر Khamr ، أول البلدات الرئيسية فى حاشد ، ثم وصل إلى وادى دى Di بين Bin ، وهما يقعان إلى الشمال من خط طول ١٦° ، وحقق الرجل بعض الاكتشافات النقشية الحجرية ؛ ولكن حال القبائل كان حرجًا ، الأمر الذى حتم عليه العودة على وجه السرعة ليكون داخل مناطق النفوذ التركى فى عمران ، وقد أسفرت رحلة جلاسر القصيرة عن بعض النتائج المهمة ، والسبب فى ذلك ، أن هذه النتائج لم تمكن رسامى الخرائط فقط من وضع تفاصيل جديدة على الخرائط الخاصة باليمن ، فى منطقة تزيد على درجة واحدة فوق صنعاء ، وإنما أعطت تلك النتائج للجغرافيين مفهومًا واضحًا عن طبيعة "هضبة" اليمن ، التى هى فى حقيقة الأمر ، ذلك الجزء العلوى المستوى من منحدر داخلى طويل ، والذى يصرف ماءه عن طريق القنوات المهمة المتجهة ناحية الشمال الشرقى إلى رمال الأحقاف .

.....

لكن الزيادة الكبيرة فى المعرفة تحققت فى الأماكن التى فيها مجال كبير للتعلم ؛ وبخاصة فى بلاد سبأ التى تقع إلى ناحية الشرق من القمم الموجودة فى غربى صنعاء . والأرض المستوية التى تنحدر انحداراً خفيفًا تتكسر فى شرقى المدينة بسبب البلدان والمدن الترابية العالية ، التى يزداد المنحدر خلفها انحداراً على انحداره ليصل إلى تجويف هائل يمتد من الجنوب إلى الشمال . هذا التجويف له طبيعة تشبه طبيعة السهوب صحراوية النبوت ، اللهم باستثناء المسافة الممتدة بطول مجرى قنوات الصرف ، وفى بعض المنخفضات ؛ هذا التجويف تحده من ناحية الشرق رمال الصحراء الجنوبية الكبيرة العالية . والجزء الجنوبى من أرض هذا التجويف هو منطقة الجوف المركز القديم لحضارة سبأ ، والتى تقع عاصمتها ، مأرب ، فى منتصف الطريق بين مناطق غرب اليمن الخصبة ووديان حضرموت الوارفة التى كانت مصدراً للصمغ العربى . والجزء الشمالى من التجويف الكبير يفصله عن الجوف تورم أو انتفاخ رملى هو وادى نجران ، الذى يشتهر بأنه كان آخر معقل من معاقل المسيحية فى الجزيرة العربية . مياه هذا الجزء تنساب فى الاتجاه الشمالى الشرقى ، لتحيط بالرمال الشرقية ثم تنحدر فى نهاية الأمر نازلة إلى وادى الدواسر . مجارى الجوف المائية بحكم توجهها إلى الجنوب الشرقى تضيع مياهها إما فى الرمال ، أو قد تتسرب إلى وادى حضرموت .

التقرير الذى قدمه أرنود Arnaud عن جنوبى الجوف فى العام ١٨٤٣ الميلادى ، هو وصور النقوش الحميرية ، ساهمًا فى إزالة الشكوك المتعلقة بالموقع الحقيقى والرئيسى لمنطقة سبأ . ولكن لأن أرنود شاهد من النقوش أعداداً أكبر بكثير مما استطاع نسخه ، ونظراً أيضا لأنه تأكد له أن ما رآه لا يكاد يصل إلى معشار تنكارات تلك الحضارة الباكرة ، فإن الأمر كان ما يزال يحتاج إلى قيام الباحثين بإلقاء المزيد من الضوء وبخاصة من جانب الباحثين فى مجال التاريخ السامى القديم . ولم يحدث قبل مرور خمسة وعشرين عامًا أن تقدم باحث جرىء لكى يسير على الطريق نفسه الذى سلكه أرنود من قبل ، ويصل إلى منطقة أبعد من تلك التى وصل إليها أرنود نفسه . فى العام ١٨٦٩ الميلادى قام جوزيف Joseph (يوسف) هاليفى Halévy ، ذلك الشاب اليهودى المتعلم ، فرنسى الجنسية ، بالسفر إلى عدن ، وشجعه على ذلك النقيب س . ب . مايلز C. B. Miles

الذى كان منذ ذلك التاريخ يؤدى خدمة كبيرة للجغرافيا فى جنوب الجزيرة العربية ، وحاول يوسف هاليفى شق طريقه فى اتجاه الشمال الشرقى وهو متنكر فى زى عالم مقدسى(*) Kudsi ، أو بالأحرى حبر من أحبار القدس ؛ ولكنه عاد أدراجه من الحوطة Hauta بأمر من سلطان لحج ؛ واضطر يوسف هاليفى إلى الدوران حول ساحل اليمن عن طريق البحر . ووصل يوسف هاليفى أخيراً إلى صنعاء ، ولاقى الرجل مصاعب كثيرة فى إقامة علاقات مع الجالية اليهودية كثيرة العدد ولكنها مغلوبة على أمرها ؛ وعن طريق جولة فى اتجاه الشرق إلى منخفضات خولان ، تمكن يوسف هاليفى من الحصول على نقوش جديدة وتأكد الرجل من أن شخصيته المنتحلة تكفى للمحافظة على حياته ، حتى وإن كانت تعرضه يوميًا للشتم والسباب واللعان . وعقد يوسف هاليفى عزمه على السفر إلى نجران . ولما كان يوسف هاليفى قد منع بواسطة حاشد وبكيل من استخدام طريق مكة السريع ، فقد جعله ذلك يتنكر فى زى متواضع ويقصد منطقة نهم Nehm – عبارة عن كانتون فى أحد التلال فى منطقة المنخفضات الشرقية ، التى تفصل هضبة صنعاء عن تجويف الجوف ، الذى شبه هاليفى علاقته باليمن بالعلاقة التى بين اليمن والشريط الساحلى التهامى من الناحية الغربية ، عبر هاليفى جبل يام Yam ، أعلى الجبال بين سلاسل الجبال اليمنية ، على الرغم من أنه صادف واحداً من الوديان المتجهة صوب الشمال الشرقى ، وهو ينحدر نازلاً من همدان ، ومن ثم وصل الرجل إلى الجيل el-Gail ، التى هى المستوطنة الرئيسية فى الجوف الشمالى ، أو إن شئت فقل : الجوف الأدنى ، الذى يقع فى واحة فيها نخيل وماء جارٍ . فى هذا الجوف الشمالى ، أو بالأحرى فى هذا الجوف الأدنى اكتشف يوسف هاليفى بعض أنقاض مين Min ، الذى اكتشف أن موروث المينائيين مسجل باسمه . وتجاوز هاليفى قرية ثانية ، هى قرية الخاب el-khab ، ثم تجاوز بعدها رقعة من الأرض الرملية الجرداء التى تعد حافة من حواف الأحقاف المريعة . وراح العلاّمة المقدسى Kudsi يدور حول

(*) مقدسى : أى من علماء القدس . (المراجع)

الصحراء تارة برفقة قافلة من القوافل ، وتارة أخرى برفقة رفيق rafik من البدو ، ولم يكن معه أى شىء من الحماية سوى الخوف الخرافى من الشخصية التى كان ينتحلها . كانت الرمال فى اتجاه الشرق تمتد حتى الأفق . ولم يتمكن هاليفى من معرفة أى شىء عن ذلك الذى يكمن وراء تلك الكثبان الرملية المتحركة ، التى كان اسمها كافيًا لإثارة الرعب فى نفوس البدو المرافقين له ، وأخيرًا تبدت لعينى يوسف هاليفى عند الأفق الشمالى بيارات النخيل ؛ وفى اليوم الثالث من شهر يونيو من العام ١٨٧٠ الميلادى حظى يوسف هاليفى باستقبال حار من يهود مخلاف Makhlaf فى نجران ، الأمر الذى خفف من آلامه النفسية والجسدية التى كابدها .

هذا "الحبر" rabbi ، هو أول أوروبى بعد إيليوس Aellus جالوس Gallus يزور نجران "Negrana" وصف يوسف هاليفى تلك الوديان المهمة وصفًا مستفيضًا وبخاصة وادى نجران Nejran ووادى حابونا Habuna ، وهما يعدان "أقصى نقطتين فى الشمال" يمكن أن يصل إليهما أى مغامر من المغامرين ، فى اتجاه الإقليم المجهول من جنوب غرب نجد . أما نجران التى تقع فى تجويف بين حافتين متوازيتين ، فتبدو جديرة بحضارتها القديمة ، كما تبدو جديرة أيضا برفاه مجتمعها الحديث ، فضلاً أيضًا عن تسامحها الغريب ، فشل يوسف هاليفى أثناء مقامه القصير فى رؤية أية آثار أو تذكارات من آثار المسيحية (الكلوريدية ؟ Collyridian) ، ولكن التسامح الفريد والحب الذى يحظى به اليهود فى نجران ليس فى روح الإسلام المتشدد . ويشهد يوسف هاليفى على غزارة إنتاجية الوديان وخصوبتها ؛ ووصف هاليفى الوادى الجنوبى من تلك الوديان بأنه غارق فى الأحقاف ، فى حين أن وادى حابونا الذى يقع فى الشمال ، تجرى مياهه لتنضم إلى وادى الدواسر وإلى مجارى عسير المائية . ويظن يوسف هاليفى أنه عثر فى مدينة الإخدود el-khudud على أنقاض مدينة نجرانا Negrana القديمة أو بالأحرى Metropolis Nagara ؛ وسر أهمية هذه المدينة ، وسر أهمية مدينة نجران الحديثة ، بالنسبة لحركة القوافل ، التى يمكن أن تنقل هذا الطريق من اليمن إلى نجد إن قدر له أن يتحاشى رمال الأحقاف .

عاد هاليفى إلى الجوف من طريق غربى لا يصطبغ تمامًا بالصبغة الصحراوية ، أوصله إلى أكثر من وادٍ من الوديان العامرة بالأنقاض وتقع على الحافة الشرقية لهضبة ساشان Sachan . من الواضح أن الأراضى العالية المجهولة ، التى تقع ناحية الغرب من الطريق الذى سلكه هاليفى وإلى الشمال من أبعد نقطة من النقاط التى وصل إليها جلاسر هى عمران Amran ، وأرحب Arhab ، وهمدان ، وهى تمثل المنحدرات الأولى لمنحدر شرقى كبير ، يصرف ماءه فى اتجاه نجران . وعندما وصل المستكشف (هاليفى) إلى الجيل el-Gail من جديد ، لم يعد إلى صنعاء مباشرة ، ولكنه واصل سيره فى اتجاه الجنوب بمحاذاة السفح الشرقى للمنخفضات العالية فى جبل يام إلى أن وصل إلى وادى دانا الذى اكتشفه أرنود ، ثم وصل بعد ذلك إلى أنقاض مأرب وإلى أنقاض سدها القديم . بذلك يكون هاليفى قد عبر أرض الوادى كله بالإضافة إلى تلال الجوف الرملية التى تتخلل ذلك الوادى ؛ ولكن الرجل أضاف شيئًا قليلاً إلى ما قام به أرنود ، نظرًا لأن هذه المنطقة بصفة خاصة تتشدد مع اليهود . وعندما تحول هاليفى إلى ناحية الغرب فى نهاية المطاف لكى يتحاشى الطريق الذى سار فيه سلفه ، أدى ذلك إلى انحرافه إلى منطقة خولان التى لم يزرها أحد من المستكشفين ، ومنطقة خولان هذه ليست سوى امتداد جنوبى لمنخفضات نهم Nehm ، وبذلك يكون هاليفى قد وصل ثانية إلى صنعاء عن طريق تينام Tinam .

بعد ذلك بثمانية عشر عامًا ، وصل جلاسر إلى مأرب ، واكتشف الرجل أن أسلافه تركوا له الكثير الذى يتعين عليه استكشافه ، وتجول جلاسر ، فى مأرب مدة ثلاثين يومًا خلال شهرى مارس وأبريل من العام ١٨٨٩ الميلادى ، تحت حماية تركية مشددة ، ولم يتمكن الرجل فقط إلا من نسخ ما يزيد على أربعمائة نقش حميرى على وجه التقريب ، من إجمالى حوالى ثمانمائة نقش تقريبًا ، جرى جمعها من منطقة مأرب ، وإنما قام الرجل بعمل مخطط بمقياس رسم واحد إلى ربع مليون . ولكن حماة جلاسر ، الذين فشلوا فى منع الأشراف المحليين من التدخل فى عمل جلاسر ، عجزوا أيضًا عن الحصول على موافقة له بالمرور إلى أعالى حضرموت ؛ وبذلك تبقى الفجوات المتروكة بين حدود جلاسر وأبعد النقاط التى وصل إليها كل من فيردى Werde ، ومايلز Miles ، ومونزنجر Munzinger بحاجة إلى قيام مغامرين مستقبلين باستكشافها .

يضاف إلى ذلك أن السلطات العثمانية كانت قد أغلقت اليمن فى وجه المستكشفين منذ أيام جلاسر Glaser ، ولم يجد العلم الغربى راويًا له إلا فى ذلك التاجر الإيطالى ، الشجاع والمخلص جوسبى Giuseppe كابروتى Caprotti ، الذى بقى على قيد الحياة من بين شقيقين ، أقاما فى أول الأمر فى صنعاء اعتبارًا من العام ١٨٨٣ الميلادى ، قدم جوسبي تقاريره إلى جمعية الاستكشاف Società d'Esplorazione Commerciate فى ميلانو Milan ؛ يضاف إلى ذلك أن النسخ التى نشرها هذا الرجل من النقوش الجديدة ، وصلت إلى أصقاع بعيدة ، مما جعل الإقدام على القيام باستكشافات جديدة أمرًا غير ضرورى(*) .

(*) ملاحظة : علمت مؤخرًا (من خلال تقارير البروفسير أيوتن) أن الدكتور أدولف Adolph كوش Koch زار شريف الطائف فى شهور يونيو ، ويوليو ، وأغسطس من العام ١٨٧١ الميلادى ؛ ولكن هذا المستكشف ، الذى يشغل حاليًا منصبًا دينيًا حاليًا فى هس Hesse (بالرغم من أنه كان قبل ذلك فى بلاط الإسكندر Alexander فى بلغاريا) ، لم ينشر أية تقارير عن رحلته . هذا الحذف نفسه يتكرر مع آخر أوروبى يزور مكة ، وهو المصور الفرنسى - الجزائرى جرفيز Gervais كورتيلمونت Courtellemont (فى العام ١٨٩٤) . راجع جى لافورست Laforest فى : B .S .G de Lyon ، الفصل الثالث عشر ص ١٠١ .

هوامش الفصل الثامن

(١) هناك وصف طيب لذلك الشريط الساحلي في كتاب جي .اف . كينز المعنون "الحجاز" ص ٩٨ .

(٢) وصل إيليس Eyles إروين Irwin إلى ساحل مصب خليج العقبة في العام ١٧٧٧ الميلادي ، ولاحظ الرجل بعض الخصائص الهامة ، التي منها الجبل ذو القمتين الذي يقع خلف المويله ، والذي أطلق عليه اسم "قرنا الثور" .

(٣) راجع "أرض مدين" ص ٢١٩ .

(٤) قائمة الزائرين الأوروبيين لمكة (المكرمة) قائمة طويلة جداً . هذه القائمة تضم إيطاليين مثل : فارثيما وفيناتي ، وتضم من الألمان : وايلد Wild ، وسيتزن ، وفون Von مالتزان ؛ ومن الإنجليز : بيتس Pitts ، وبيرتون ، وكين Keane ؛ وسويسري هو بركخادرت ؛ وأسباني هو باديا Badia ؛ وسويدي هو والين ؛ وهولندي وهو هيرجرونجي Hurgronje ؛ وفرنسي هو كورتيلمانت Courtellemont . أما هوبر فقد وصل إلى بوابات مكة فقط في العام ١٨٨٤ ، ولكنه لم يدخلها ، وإلى جانب هؤلاء نحن نعرف الكثيرين الذين ارتدوا عن دينهم ، ونشك في كثيرين أيضاً . فقد سمع نيبور عن جراح فرنسي واثنين من الإنجليز ، وهذا بيرتون يقتبس عن حاج لم يذكر اسمه ؛ ودوتي أتى على ذكر أكثر من واحد من الفرنجة ، بل إن دوتي نفسه التقى واحداً من الطليان ، أطلق على نفسه اسم فيرُاري Ferrari ، الذي كان في طريقه إلى مكة (المكرمة) بصحبة الحج الفارسي ؛ أما بيتس Pitts فقد عثر على أيرلندي في البلدة (مكة) ؛ ومالتزان يقول : إن ليون Leon روشيز Roches ، القنصل الفرنسي في تونس أدى فريضة الحج ، كما أدى تلك الفريضة أيضاً واحد من البحارة البريطانيين ، وأنا هنا لا أأتي على ذكر اليونانيين الذين يعيشون في الليفانت (الشرق الأدنى) . وهناك أيضاً كثير من الأوروبيين المرتدين عن دينهم الذين كانوا يعملون في الجيش المصري ، إلى جانب فيناتي ، كل هؤلاء لا بد أن يكونوا قد زاروا مكة ؛ ولكن الضباط الفرنسيين والإيطاليين ، الذين لم يتخلوا عن المسيحية ، كانت تجري عرقلتهم بأوامر عليا ، ومحمد علي (باشا) الذي يشك في التزامه بالإسلام وتمسكه به ، يبدو أنه حرص مثل ولده في المدينة (المنورة) على ألا يعطي أية فرصة للمتشددين . يضاف إلى ذلك أن كلا من فارثيما ، ووايلد ، وبيتس ، وسيتزن ، وبركخادرت ، ووالين ، وبيرتون ، وكذلك كينز ، زارو المدينة (المنورة) ، أما سادلير فقد شاهد المكان من بُعد .

(٥) نقلاً عن سنوك Snouck هيرجورونجي ، فإن هذه الطرق ثلاثة ، وهو يلغي الطريق رقم ٢ عند بيرتون معتبراً إياه مجرد ممر جبلي فقط ، وهو يقول : إن قبيلة حرب تستحوذ على هذه الطرق كلها . راجع أيضاً كتاب ف . ويستنفيلد Wustenfeld المعنون "Die van Medina auslaufenden Hauptstrasse" .

(٦) ينبغى القول هنا : إن و . سكمبر Schimper ، عالم النبات ، زار الطـائف فى العام ١٨٣٦ الميلادى ، أى بعد عشرين عاماً من زيارة بركخاردت ، ولكن تلك الزيارة حدثت قبل جلاء المصريين عن البلاد .

(٧) فى العام ١٨٨٤ الميلادى ، أبدى هوبر فى جدة ملاحظة مفادها ، أنه فى الفترة ما بين العام ١٨٧٩ والعام ١٨٨٣ حلت جاوة محل اليمن باعتبارها المورِّد الأول للبن إلى الحجاز ، إنتاج البن اليمنى الذى بلغ ثمنه ١٥٧٥٠ جنيهاً إسترلينياً فى العام ١٨٨٣ لم يكف سوى الاستهلاك المحلى فقط (يوميات هوبر ص ٧٥٥) .

(٨) متوسط درجة حرارة صنعاء يقل عن ٢٤ْ فهرنهيتية ، عن متوسط درجة الحرارة فى تهامة .

مراجع الفصل الثامن

E . Rüppell, Reisen in Nubien, etc . (Frankfurt, 1829).

R . F . Burton, in J. R. G. S., vol . xlix. P. i. Cf . Gold Mines of Midian (London, 1878) and The Land of Midian Revisited (London, 1879).

R. F. Burton, A Pilgrimage to Al Medinah and Mecca (Memorial ed., London 1893) . Cf. article in J. R. G. S., vol. xxiv. P. 208.

J. Snouck Hurgronje, Mekka (Hague, 1888), with two portfolios of views . Cf. article in Verhandl . der Gesellschaft für Erdkunde (Berlin), iv. p. 140 and communication to Münchner Allg . Zeitung, Nov. 16, 1885.

Heinrich Freiherr von Maltzan, Meine Wallfahrt Mach Mekka (Leipzig, 1865).

J. F Keane, six Months in Meccah (London, 1881); also My Journey to Medinah (London, 1881); six Months in the Hejaz (London, 1887).

J. Hamilton, Sinai, Hedjaz, and Soudan (London, 1857); C. M. Doughty, Arabia Deserta (Cambridge, 1888).

R. Manzoni, Il Yemen (Rome, 1884); G. Schweinfurth, in Verh. d. Ges. Für Erdkunde (Berlin, 1889), No. 7; S. M. Zwemer, Arabia, the Cradle of Islam, p. 62 (Edinburgh, 1900).

C. Millingen, in J. R. G. S., 1874, p. 118; A. Deflers, Voyage en yemen (paris, 1889) .

J. Halévy, Rapport d'une mission archéologique, etc., Extrait II. du Journal Asiatique, 1872. CF. Bull. Soc. Géographie, VI me série, vol. vi . pp . 5, 249, 581; vol. xiii. P. 466.

E. Glaser has published several works as a result of his explorations in Yeman, notably Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, vol. ii. (Berlin, 1890); but for ordinary purposes of geography it is enough to refer to his map in Petermann's Mittheilungen, 1886, Taf. i., and his articles in the same periodical for 1884, pp. 170, 204, and 1886, p. l. Notice of his third journey occurs in the same for 1888, p. 221, 1889, p. 27.

H. A. Stern, Journal of a Missionary Journey into Arabia Felix (London, 1858).

W. B. Harris, A Journey through the Yemen (London, 1893) .

H. Burckhardt, in Zeitschrift der Gesellschaft für Erdkunde, 1902, No. 7, p. 593.

الفصل التاسع

مناطق الحدود الجنوبية

إذا كانت الحقيقة التى أوردناها فى الفصل السابق فيما يتعلق بالطبيعة العامة للجزيرة العربية ، والتى مفادها أن شبه الجزيرة العربية عبارة عن هضبة هائلة ، تأخذ فى الارتفاع الحاد المتدرج من الشـرق إلى الغـرب ، إذا ما وضعنـا هذه الحقيقـة فى اعتبارنا مع انسياب صرف شبه جزيرة العرب كله فى الاتجاه الشمالى الغربى ، فإن ذلك يقودنا إلى نتيجة مفادها أن أعلى متوسط لارتفاع هذه البلاد يكون فى الجزء الجنوبى الغربى منها . الركن الحقيقى من ذلك الشكل البيضاوى القـارى موجود ، فى حقيقة الأمر ، فى منطقة ردمان Radman من بلاد اليمن ، أى فى الشمال الغربى من ذمار Damar وفى الجنوب الشرقى من صنعاء Sana فى هذه المنطقة ، ردمان ، تعود حافة الهضبة الخارجية إلى الاتجاه شرقًا من جديد ، أو بالأحرى الاتجاه صوب الشمال الشرقى ، وتخرج من إطار معرفتنا لتنضـم إلى الصحراء الرملية الكبرى ؛ ومن هنا ، وكما هو الحال فى الغرب ، نجد فى الجنوب أيضًا إفريزا ، أو بالأحرى حافة عريضة تنحدر فى اتجاه البحار ، هذا الكتف الجبلى ، أو بالأحرى جبل صابور Sabor ، الذى ينحدر فى اتجاه باب المندب ، يشكل نوعًا من سلاسل الجبال المسنَّمة التى تفصل المنحدرات الغربية والمنحدرات الجنوبية فى سقف الجزيرة العربية ، كما تنساب من جنب من أجناب ذلك الكتف وديان قصيرة تتجه نحو البحر الأحمر ، كما تنساب الوديان من الجانب الآخر نحو المحيط الخارجى .

الحدود الجنوبية تشبه الحدود الغربية من منطلق أنها مكونة من حزام ساحلى من الأرض المنخفضة ، ترتفع من خلفها الكتلة القارية فى اتجاه حافة الهضبة الداخلية ؛

ولكن الشريط الساحلى فى الجنوب أقل اتساعًا واستمرارًا وذلك لسببين . أولهما ، أن هذا الشريط الساحلى لم يجر تكوينه فى اتجاه البحر على شكل تركيبات مرجانية ، بالدرجة نفسها التى عليها المياه الغربية أكثر دفئًا وهدوءًا ؛ السبب الثانى ، أن تأثير الصرف من حيث التعرية على هذا المحور السهل من وجه الهضبة يعد أقل من الجانب الآخر . كما نجد أيضًا أن الأكتاف الممتدة نحو الخارج تقترب من البحر كثيرًا جدًا فى هذه المنطقة عنها فى الحجاز أو اليمن ، فضلاً عن اقترابها فى كثير من المواضع من علامة المد .

انخفاض أو انحدار الهضبة الداخلية فى اتجاه الشرق يؤثر إلى حد ما فى صرف الوجه الجنوبى لتلك الهضبة ، الأمر الذى يجعل القسم الرئيسى من ذلك الصرف ينساب بشكل أكبر إلى ناحية الشرق أكثر منها إلى ناحية الجنوب . وأهم قسم من تلك المياه السطحية هو الذى يأتى من الركن الجنوبى الغربى شديد الارتفاع فى تلك الكتلة القارية ، الذى يحظى بتأثير الرياح الموسمية عليه ؛ ونحن نجد أن هذا الماء لا ينساب مباشرة إلى البحر ، وإنما يقطع مسافة طويلة عبر قناة طويلة تسير موازية لحافة الهضبة من فوقها ، ويسير الماء ببطئ فى اتجاه المنحدر الجنوبى . كل هذه القنوات تتجمع فى قناة واحدة فى نهاية المطاف هى وادى مسيلة Wady Masila أو إن شئت فقل : وادى Wadyحضرموت Hadramaut ، لينتهى بعد ذلك إلى البحر فى منطقة لا تبعد كثيرًا عن نقطة منتصف الساحل الجنوبى[١] . والمسافة من أبعد رأس من رءوس هذه المنظومة من الوديان فى شمالى ريده فى اليمن إلى مصبها النهائى فى شرقى سيهوت Sihut ، لا تقل عن خمسمائة ميل ، فى اتجاه طيران الغراب ، كما أن المجرى الفعلى لأطول وادٍ من بين هذه الوديان يصل طوله إلى حوالى ثمانمائة ميل تقريبًا . ووادى حضرموت يجىء من حيث الطول بعد وادى الرمة الموجود فى وسط الجزيرة العربية ، ومع ذلك يعد وادى حضرموت أطول الوديان وأهمها[٢] . من منظور معلوماتنا المؤكدة .

هذه الهضبة ، فى أقصى أجزائها الغربية من المنحدر الجنوبى ، تتخللها بعض الصخور الوعرة المتداخلة ، التى تبرز من خلال الكتلة الجيرية (الكلسية) ، الموجودة حاليًا على شكل سلسلة من الجبال القصيرة مختلفة الاتجاهات ، التى تنساب منها

سلسة من الوديان القصيرة فى اتجاه الساحل . ومع ذلك ، وفى اتجاه الشرق ، خط طول خمسون درجة ، نجد أن تلك التداخلات يتضاءل ظهورها ؛ كما نجد أيضا أن وجه الهضبة الجنوبى يتزايد انخفاضه تدريجيًا ، ويأخذ فى الانحدار انحدارًا هينًا فى اتجاه المحيط ، من خلال رمال الصحراء الوسطى المنقولة ، كما تقل الوديان هى وأعماقها فى هذا الوجه الجنوبى . وهنا نجد أن الأراضى الأكثر ارتفاعًا فى الجنوب الغربى وكذلك ارتفاع الأرض فى عُمان Oman فى الشمال الشرقى يحرمان المنطقة الساحلية من ظفار Dofar إلى رأس Ras الحد El-Had من معدل سقوط الأمطار الذى يعد من استحقاتها .

لم يكن أى جزء من أجزاء هذه الأراضى الحدودية معروفًا تمامًا فى منتصف القرن التاسع عشر ، ويمكن القول أيضًا : أنه فى فى بداية القرن العشرين لم يكن أى جزء من أجزاء الحدود الجنوبية معروفًا سوى ذلك الجزء المتاخم لعدن . والعجيب بحق ، أنه قبل العام ١٨٥٠ الميلادى ، كان السواد الأعظم من المعوقات متوفرًا ، وفى متناول من يريده ، عن ذلك الجزء الأوسط من الحدود الجنوبية ، الذى نعتبر الوصول إليه صعبًا فى أيامنا هذه ، أعنى حضرموت نفسها ؛ السبب فى ذلك أن وادى Wady ميفات Meifat وحده هو الذى جرى استكشافه استكشافًا سطحيًا أو عابرًا بواسطة كل من كرتندن Cruttenden وولستد Wellsted ، وأن فيردى Wrede هو الذى استكشف الأرض الواقعة شرقى وادى ميفات فيما بين خط طول الشحر Sheher وخط طول ١٦ْ ؛ بالإضافة إلى أن كلا من هينز Haines ، وولستد ، وآخرين قاموا باستكشافات كثيرة حول المناطق المحيطة بحضرموت ، وجاءت تلك الاستكشافات أكثر من الاستكشافات التى جرت فى المناطق الواقعة فى غرب المناطق الداخلية ، وأنا أعنى بذلك تلك المناطق التى ألقى نيبور عليها نظرة عابرة . هذا الجهل النسبى بالحدود الغربية دام طوال عشرين عامًا أخرى ، ونحن سبق أن أوردنا الأسباب التى أفضت إلى تعطيل النفوذ البريطانى فى عدن فى شمال البلاد . ولكن ينبغى أن نضيف هنا أن الشك فى القوة المسيحية المعتدية وتحديها ، ظهر جليًا فى الناحية الشرقية التى كان سلطان بنى Beni عثمان Uthman يراقبها ويضع عيناه عليها ؛ كما تجلى الإصرار على استبعاد وطرد

الرحالة الإفرنج ، على إثر الجفاف الذى أعقب - على حد تعبير فيردى - اكتشاف نقب الحجر . لم تبدأ بريطانيا العظمى فى شهر أسلحتها ، وذهبها ونفوذها التجارى فى جنوب غرب الجزيرة العربية ، إلا بعد أن حل المسئولون الإمبرياليون محل حكومة شركة الهند الشرقية فى عدن ؛ هذا الإحلال هو الذى جعل الأوربيين يتأكدون من توفر الحماية لهم والتسامح معهم فى شرقى لحج وفى شمالها .

بعد خمسة وثلاثين عامًا من حملة كل من كرتتدن Cruttenden وولستد ، جرت زيارة وادى ميفات مرة أخرى ، وأمكن الوصول إلى النقاط البعيدة التى فشل فيردى فى الوصول إليها ، قرر النقيب س S ب B مايلز Miles فى العام ١٨٧٠م الميلادى اختبار العلاقات الودية التى سبق أن وطدها مع عدن ومع رؤساء المناطق الشمالية الشرقية ، ثم قام هو والمستكشف العلمى الكبير ، و. م . مونزنجر Munzinger الذى مات عقب ذلك مباشرة على الساحل المقابل من (إفريقيا) بالانتقال عن طريق البحر إلى بير Bir على Ali ، ثم دخلا إلى المناطق الداخلية . عمومًا ، كان موزينجر صادقًا فى ثقته . وبالرغم من أن استقبال الرحالة لم يكن وديًا فى المستوطنات الكبيرة ، التى من قبيل الحوطة Houta وحبان Habban ، إلا أن واحدًا من الرؤساء الذين كانوا يكنون الاحترام والتقدير للراج(*) raj البريطانى ، أو إن شئت فقل : الإحساس بالحظوة لكونه بين أيدى ممثلى ذلك الراج البريطانى ، كان يقدم دومًا الحماية والكرم لكل من لهم صلة أو علاقة بذلك الراج ؛ وهناك قامت الجماعة بصعود وادى ميفات بسلام إلى أن وصلت إلى قمة ذلك الوادى ، فى المنطقة التى تسد فيها سلسلة منخفضة من الجبال مجرى رافد جنوبى من روافد منظومة حضرموت . وهنا علم مايلز Miles ، أنه عن طريق نيساب Nisab نفسها ، وهى المستوطنة الرئيسية فى ذلك الوادى ، وهى أيضًا المستوطنة الرئيسية أيضًا فى حريب Harib فى الوادى الغربى البعيد ، هناك طريق مباشر وسهل يوصل إلى مأرب وإلى جوف Jauf اليمن . ولكن النفوذ البريطانى لم يمتد ولا يمتد ،

(*) الراج : كلمة هندية تعنى الملك ، ومن الملاحظ أن البريطانيين كانوا يستخدمون الألقاب الهندية خلال سيطرتهم على الهند . (المراجع)

مهما صغرت المسافة ، إلى ما وراء مستجمع مياه الأمطار فى حضرموت ؛ ولما كان مايلز يشغل منصباً رسمياً ، فقد ألزمه ذلك بعدم المخاطرة بالدخول إلى أراضى أجنبية ، ومن ثم تحول مايلز إلى ناحية الجنوب الغربى عن طريق بلاد العوالق Auwalik ، ووصل الرجل إلى بداية وادى Wady جراميس Jeramis فى الناحية الغربية ، ليعود بعد ذلك إلى ساحل لحج .

كان الجزء الأخير من المسار الذى سلكه مايلز Miles فى أراضى الفضلى والمنطقة الواقعة إلى الشمال منها فى اتجاه مفترق مياه حضرموت ، والذى أطلق عليه نيبور اسم 'جافا' Jafa ، قد سبقت مشاهدته من جانب كل من تيودور Theodore بنت Bent أثناء قيامه برحلته الأخيرة مع زوجته فى الغام ١٨٩٧ الميلادى . آخر المحاولات لمراجعة وادى ميفات تمت من خلال البعثة التى ترأسها عالم الآثار النمساوى فى ذلك العام ، وكانت تلك البعثة ، أو إن شئت فقل : الحملة تنوى الاختراق من ناحية شمال حبان لتصل إلى الوديان المجهولة فى أعالى حضرموت ، وقد خاب أمل تلك الحملة بسبب عصيان قادتها ، وعاد النمساويون أدراجهم إلى الساحل بعد أن وصلوا إلى إيسان Isan وهى أبعد النقاط التى وصل إليها ولستد .

نحن عندما نقارن ملاحظات الرحالة هذه بالمعلومات التى جرى جمعها من كل من عدن والحوطة بواسطة فون Von مالتزان Maltzan فى العام ١٨٧٣ الميلادى ، نكون بذلك قد كونا فكرة وافية عن ذلك الجزء من أراضى الحدود الجنوبية الغربية الواقع جنوب السلسلة الجبلية التى تنبع منها وديان حضرموت . هذه السلسلة تبدو متباينة بسبب تباين الصخور البركانية فيها ، وتلك الصخور عالية نسبياً . وقد حدد بنت Bent هو وزوجته الكتلتين الجبليتين اللتين شاهداهما فى الناحية الشمالية من يافع Yafia وبلاد العوالق ، ارتفاعاً واحداً قدراه بحوالى عشرة آلاف قدم ؛ ولكن هذه التقديرات التى أجريت من مسافة بعيدة بواسطة مراقبين ينظرون إلى هذه السلاسل الجبلية أو حواف الهضاب من جانب واحد ، لا يمكن الوثوق بها أو الاعتماد عليها اعتماداً تاماً . البلاد الواقعة فى جنوب هذه السلسلة الجبلية لها الطبيعة نفسها التى لمنطقة التلال المنخفضة فى اليمن ، والتى تعد امتداداً لها بطبيعة الحال . هذه المنطقة هى وطن

لمجتمع مستقر ، ليس فيه أى عنصر بدوى ، كما أن هذا الجتمع يعيش داخل وحول القرى ، وفى بلدات صغيرة من الطراز الذى سبق أن التقيناه وصادفناه على الطرق المؤدية من كل من المخا والحديدة إلى صنعاء . هذا المجتمع يقوم على زراعة سلسلة من أحواض الوديان القصيرة الممتدة ناحية الجنوب ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا المجتمع تربطه بالبحر علاقات مباشرة من خلال موانئ شقرة Shukra الصغيرة ، وسورية Suriya ، والحوراء ، وبير على ، وبالحاف Ba'l-Haf . أراضى الوادى ليست خصبة مثل بقية الأراضى الخصبة فى اليمن ، بالرغم من الاهتمام بزراعتها ؛ يضاف إلى ذلك أن رمال سلسلة الجبال القاحلة التى تتخلل هذه المسافة ، تعيد إلى الأذهان ذكريات أراضى تهامة الغربية ، ولكن هذه المنطقة الحدودية الجنوبية مع أراضى اليمن العالية كانت فى يوم من الأيام مقراً ومستقراً للحضارة السبئية ، وما تزال تحتوى على تذكارات تلك الحضارة .

هذا الشريط الواسع الخصيب والمستقر ، والمكون من أرض مرتفعة وأرض منخفضة لا ينتهى فى اتجاه الشرق بوادى ميفات ، ولكنه يستمر إلى مسافة معلومة خلف المكلا ، وهى المنطقة التى جرى عبورها مراراً وتكراراً بواسطة مستكشفى حضرموت . بعد هذه المنطقة تزداد قحولة المنحدرات ، وتقترب من البحر أكثر فأكثر ، إلى أن يضيق (على حد علمنا) الإقليم المنتج متحولاً إلى أشرطة غرينية ساحلية متناثرة هنا وهناك ، حول مصبات وديان قليلة ، أهم هذه الأشرطة الساحلية هو شريط ظفار Dofar الذى ينحصر بين خطى طول ٥٤ ، ٥٥ درجة ، ومن خلف هذا الشريط ترتفع الأرض ارتفاعًا كبيراً ، وقد قام بنت بزيارة شريط ظفار هذا فى العام ١٨٩٠ الميلادى ، ومثلما فعل الملازم سميث Smith ، أحد ضباط السفينة "بالينوروس" من قبل ، نجح بنت فى اختراق طريق قصير عبر المنحدرات الأولى فى الأرض المرتفعة ، وشاهد بنت Bent الكثير من المياه الجارية والمياه الراكدة ، والحياة النباتية ؛ ونظراً لعدم وجود مجتمع مستقر إلا على الشاطئ ، وعدم وجود أحد سوى نوع من البدو الرحل غير المتحضرين كانوا يعيشون فى تلك المرتفعات ولا يمتلكون سوى أعداد قليلة جداً من الماشية ، يتحتم علينا هنا أن نصل إلى نتيجة مؤداها أن تلك الأرض الخصبة لم يكن لها أى امتداد فى داخل البلاد .

على كل حال ، يتعين علينا هنا أن نقر بأننا ، إلى يومنا هذا ، لا نعرف سوى القليل جداً عن أراضى الحدود فى شبه الجزيرة العربية فى المنطقة الواقعة بين رءوس capes فرتق Fartak والحد Had ، التى هى منطقة المهرة ، والجارة Gara ، وقبائل الجنبة Jeneba ، ولكن الجزء الأكبر من هذه المنطقة تقول عنه عُمان إنه ملك لها . قبائل هذه المنطقة كلها من النوع البدائى تماماً ، وليست لديهم أية منفعة أو صلاحية تجارية ، وهم دوماً يسلبون أموال الغرباء وينهبوهم . ومن المحتمل - بل وهذا مؤكد عن قبائل المهرة - أن تكون هذه القبائل كلها من مخلفات عرق من أقدم أعراق الجزيرة العربية ، جرى طرده قسراً ، من الأراضى الخصبة فى الجنوب على أيدى الشعوب السامية ، التى تسيطر حالياً على شبه الجزيرة العربية ، والناس هنا يتكلمون لغة هى فى أصلها ليست سامية ، ويمارسون مسألة تأليه الحيوانات ، ولهم كل عادات وشكوك الشعب اللاجئ ، وهذا هو كارتر ، جراح السفينة "باليناروس" ، يقدم إسهاماً طيباً يتمثل فى النتائج الجيدة التى أسفرت عنها التحريات التى قام بها فيما يتعلق بطبيعة قبائل المهرة وجارة وعلاقة ذلك بالمجتمع الآسيوى فى بومباى وذلك فى الفترة ما بين ١٨٤٥ الميلادى و ١٨٤٧ ؛ كما قدم الرجل دراسة أخرى أجراها على المهرة فى جزيرة سوقطرة ، المملوكة لسلطان المهرة ، كما امتدت تلك الدراسة أيضاً إلى عاصمة السلطان فى بلدة قشن Kishin نفسها[٣] . هذا وقد تأكدت فى الوقت الراهن حقائق ارتباط لغة هؤلاء البشر باللغة العربية الفصيحة ، ولكننا - إلى الآن - لا نعرف أكثر مما لدينا عن موطن هؤلاء السكان ، لأنهم لم يمكنوا أية عين أوروبية من النظر إلى ما وراء الحدود . لو كانت وديان هؤلاء السكان لها طبيعة أراضى الحدود الجنوبية القريبة لما بقيت ملكيتهم لتلك الأراضى بلا إزعاج أو مضايقات ، وهذا هو ما يجعلنا نجزم بأن أراضى هؤلاء السكان هى كلها عبارة عن سهوب ذات نبوت صحراوية من النوع الذى شاهده ولستد فى العام ١٨٣٥ الميلادى ، عندما جرى إحضاره إلى الحدود الشرقية فى المنطقة التى تقيم فيها قبائل الجنبة Jeneba .

يتبقى بعد ذلك أهم جزء من أراضى الحدود ، وهو بحاجة إلى الاستكشاف ، هذا الجزء يتمثل فى الإقليم الداخلى شبه المجهول من المنطقة الوسطى ، أما حضرموت فهى بصورة عامة ، عبارة عن أرض تلك الوديان المنحوتة أفقياً فى الجزء العلوى من

الواجهة الجنوبية للكتلة القارية ، والتى تمتد من غربى خط طول ٤٥ درجة إلى شرقى خط طول ٥١ درجة ، فقد ظلت إلى زمن طويل سبباً رئيسياً من أسباب إحباط فضول أولئك المهتمين بتاريخ وجغرافية الجزيرة العربية . وهذا هو فيردى Wrede لم ير سوى قسم ضيق من هذه المنطقة فى العام ١٨٤٣ الميلادى ، ولم يظهر أو ينشر أى تقرير عن هذه المنطقة طوال ثلاثين عامًا ، ولم يجرؤ أحد طوال عشرين عامًا أخرى على تتبع ذلك الذى قام به فيردى . وقد اكتفى كل من مايلز Miles ، ومالتزان Maltzan ، وآخرون بمواصلة التحريات التى قام بها هينز Haines فى عدن والمكلا ، وفى سيهوت Sihut ، التى لقوا فيها قدراً من الحسد والغيرة حال بينهم وبين إحراز شىء من التقدم المعقول . لولا التحرى والتقصى الذى كان يجرى على بعد مسافة كبيرة من هذه المنطقة وفى ظل ظروف مختلفة تماماً لما حدث ذلك التقدم الذى طرأ على تعرفنا حضرموت طوال هذه الفترة . ففى العام ١٨٨٣ الميلادى ، ظنت إدارة Department المستعمرات Colonial الهولندية Dutch ، فى ضوء تزايد التدفق العربى على ممتلكاتها فى شرقى الهند ، أن الأمر يحتاج إلى التعجيل بالحصول على تقرير رسمى عن أصل المهاجرين وعلاقاتهم ؛ وهنا كلفت هذه الإدارة باحثًا عربيًا هو ل .L و .W سى C فان Van دن den بيرج Berg ، الذى كان مقيمًا فى جاوة Jaua . واكتشف هذا الباحث أن نسبة كبيرة من أولئك العرب جاءوا من حضرموت ، تلك المنطقة التى وجد بركخاردت المهاجرين منها ، منذ زمن بعيد ، على قدر كبير من الجد والاجتهاد بين سكان مكة ، كما قال عنهم بوتا Botta ، إنهم أنجح التجار فى تهامة اليمن ، كانت المعلومات التى حصل عليها فان Van دن Den بيرج Berg من أولئك الذين وفدوا حديثًا من حضرموت ، كاملة ومهمة ، وبخاصة أن أولئك المهاجرين كانوا يعتمدون فى معيشتهم على حكومة جاوه ، كما كانوا إلى حد ما متحررين من الإساءات المحلية ، إلى حد أن فان دن بيرج استطاع فى العام ١٨٨٥ الميلادى أن ينشر دراسة جغرافية عن البلاد ، ولكن الأبحاث التى جرت بعد ذلك فندت تلك الدراسة . وإذا كان فان دن بيرج قد ركز على فيردى Wrede ، وبخاصة تركيزه على أصالة مغامرات هذا الرجل ، وإذا كان الرجل قد ركز أيضًا على مستكشفين أوروبيين سابقين ، إلا أن الرجل قد حافظ حفاظًا شديداً على مصادره الوطنية ،

كما أن الخريطة التى ألحقها بتلك الدراسة كانت تقوم على مخطط قام به سيد Sayyid من سادة حضرموت ، كما جرى توصيل تلك الخارطة بالفعل إلى الأستاذ دى De جويجى Goeje فى مدينة ليدن Leaden .

مرت سبع سنوات أخرى ، ثم بدأت تظهر فى نهاية المطاف بعض التقارير المستقلة عن شهود عيان مسيحيين ، وذلك بالرغم من احتجاز عالم النبات الفرنسى ديفلرز Deflers فى المكلا فى العام ١٨٨٨ الميلادى . فقد انطلقت حملتان أوروبيتان متميزتان متجهتان إلى أعالى حضرموت ، تحت رعاية عدن خلال العام ١٨٩٣ الميلادى .

فى ذلك الوقت كان النفوذ البريطانى يتنامى على الساحل ، ولم يكن السلطانان المنابان فى كل من الشحر Sheher والمكلا Makalla يعتمدان فى جزء كبير من مداخيليهما على التجارة الأفريقية وحدها ، والتى تعد عدن سوقها الرئيسية ، وإنما كانت لهذين السلطانين المنابين علاقات حميمية مع الهند من خلال الحكام المحليين هناك ؛ يضاف إلى ذلك أن موقف هذين السلطانين المنابين من الدولة Power التى تسيطر على الولايات الوطنية الهندية تغير تغيراً كبيراً فى إثر النتائج التى ترتبت على التمرد(*) . ولما كان الوجود البريطانى قد ترسخ فى هذه المنطقة ، وأصبح ذلك واضحاً جلياً للجميع ، ولما كانت بريطانيا العظمى تسيطر على وتتحكم فى الأمراء المحليين ، الذين كانوا يرتبطون بعلاقات مع حضرموت ، ومع شرق ، وغرب ، وجنوب عمان ، وعدن وزنزبار ، ونظراً أيضاً لأن بريطانيا العظمى كانت سيدة المحيط الهندى ، فقد كان بوسعها وبإمكانها ، إذا ما أرادت ذلك ، إضفاء الصفة القانونية على رؤساء الساحل الذين لم تكن لهم فقط مجرد ممتلكات موروثة فى الداخل ، وإنما هم سماسرة التجارة أيضاً فى تلك المناطق .

على كل حال ، كانت بريطانيا بحاجة إلى المزيد من الحزم ، لم يكن هؤلاء السلاطين على استعداد للتحكم فى سلطتهم ، والوصول إلى حل وسط فيما يتعلق بسمعتهم

(*) يشير المؤلف إلى ثورة الهند فى عام ١٨٥٧ التى قامت ضد النفوذ البريطانى ، غير أنه يطلق عليها تعبير التمرد بهدف التقليل من شأنها . (المراجع)

الاجتماعية وذلك عن طريق إدخال النصارى(*) إلى أكثر الوديان تشدداً فى الجزيرة العربية ، أو أن يصبح هؤلاء السلاطين مسئولين عن أمنهم وسلامتهم ، فى المناطق التى يعرقل الإشراف فيها سلطة هؤلاء النصارى ، وبخاصة فى الأماكن التى فيها تسلسل هرمى دينى تحت اسم السادة Sayyids ، ناهيك عن فوارس الإسلام ، من هنا ، كان حكام عدن على حق تماماً عندما رفضوا ممارسة الضغوط نيابة عن بعض الجماعات الاستكشافية المستقبلية التى لم تكن مؤهلاتها توحى بتحقيق أفضل النتائج العلمية ؛ وعندما جرت الموافقة ، فى نهاية المطاف ، للجيولوجى ليو Leo هيرش Hirsch ، كان ذلك من منطلق أن ذلك الرجل ذاع صيته باعتباره باحثًا عربيًا متعمقًا ، خبيرًا بالشريعة الإسلامية ، وأنه سوف يسير أموره بطريقة سلسة ولبقة . وعندما جرت الموافقة بعد ذلك بوقت قصير لتيودور Theodore بنت Bent ، بالرغم من افتقاره إلى المؤهلات المطلوبة ، كان ذلك من منطلق أن جماعة ذلك الرجل كانت تضم مساحًا هنديًا مسلمًا هو ومجموعة العاملين معه ، وكان ينتظر منهم تقديم إسهامات قيمه لعلم الجغرافيا .

اكتشف هيرش Hirsch ، الذى اعتزم ارتداء الزى الوطنى ، والترحال بصفته مسيحى يود دراسة أدب الإسلام وعاداته وتقاليده ، أن الرسائل التى حصل عليها فى البداية لم تمكنه مما كان يريده فى كل من الشحر ، وسيهوت Sihut وقشن Kishin أو المكلا ؛ ولم يحظ هيرش بموافقة سلطان المكلا على مرافقته والحفاظ على سلامته فى الداخل ، إلا بعد أن عاد هيرش إلى عدن ، والحصول منها على تزكيات حاسمة. هذا السلطان ، سلطان المكلا ، ابن أخو ، عميد أسرة العمودى الكبيرة ، لم يكن مشغولاً، فى ذلك الوقت فقط ، انشغالاً بالغًا بوجود البريطانيين فى كل من عدن والهند، وإنما كان له أقوى ممثل من ممثليه فى حضرموت . كان رئيس الجماعة(**) Jemadar، من قلعة الحوطة فى وادى عين Ain ، هو المسيطر على المنطقة الوسطى الخصبية فى داخل البلاد ، وكان هو أيضًا صاحب الكلمة فى المستوطنات الكثيرة فى وادى دوعن Doan ،

(*) النصارى : المقصود هنا هم أتباع النِّحلة اليهودية – المسيحية القديمة ، والاسم مشتق من مدينة الناصرة ، فى فلسطين . (المترجم)

(**) الكلمة Jemadar الأصل فيها هى الكلمة العربية "جماعة" Jema ، واللاحقة Dar تعنى "مالك" ليصبح معناها " رئيس الجماعة" ، وإن كان السعوديون يطلقون عليه اسم "أمير الجماعة"، وتمييزًا لهذا الأمير عن "الأمير" الذى من الأسرة المالكة" يضيفون النعت "صاحب السمو" إلى "أمير الأسرة المالكة" . (المترجم)

ووادى عمد Amd ، ووادى أديم Adim ، فضلاً عن سيطرته أيضاً على البلدان الكبيرة فى وادى شيبام Shibam ، وسايون Saiyun ، ووادى كريم ؛ وبذلك كان بوسع هذا السلطان عزل المجتمع شبه البدوى المترحل الذى يعيش فى الوديان الشرقية العالية ، عن قبائل المهرة المرتابة التى تسيطر على الجزء المنخفض من الوادى الرئيسى .

قام المرشدون بتوجيه هيرش خلال المناطق الساحلية المنزرعة فى المنطقة الواقعة خلف المكلا ، ومنها إلى وادى حوير Hauaire ، ثم أوصلوه بعد ذلك إلى أرض منخفضة جرداء ، يطلقون عليها اسم "الجول" Jol ويصل ارتفاعها إلى حوالى ستة آلاف وخمسمائة قدم ؛ وقد أوصل المرشدون هيرش إلى هذه المنطقة من الطريق نفسه الذى جرى المرور منه عند إحضار فيردى Werde من سجنه ؛ وكانت أول المستوطنات التى وصلوا إليها فى حضرموت ، هى تلك البلدة الصغيرة التى يطلقون عليها اسم السيف Sif ، التى خسر فيها الرائد الأوروبى حياته منذ وقت قريب ، وعندما نزل هيرش من وادى دوعن Doan ، سار فى الطريق نفسه الذى سار عليه سلفه من قبل فى منطقة حوراء Haura ؛ والسبب فى ذلك أن فيردى اقتصر على الإقليم الشرقى دون أن يقتفى أو يتتبع أى رافد من الوديان الفرعية إلى مصبه فى القناة الرئيسية ، ولما كان هيرش باحثاً فى مجال الآثار الحميرية بصفة أساسية ، فقد عقد العزم ، بادئ ذى بدء ، على مشاهدة ورؤية الأنقاض والآثار التى سمع فيردى Wrede عنها فى وادى جيبان Gaiban الفرعى (وقد أطلق نيبور على هذا الوادى اسم جهبون Ghahbun) ، الذى يتصل بوادى دوعن أسفل حجارين Hajarein عثر هيرش فى ذلك الوادى على مبانى ونقوش مدينة مغرقة فى القدم ، ولكن تلك المبانى والنقوش لم تكن تلك "المقابر الملكية" التى زكاها فيردى ، ولما كانت حجارين ، تقع على ربوة مرتفعة فى الجنوب ، فقد أورثها ذلك المزايا التجارية لهذه المدينة ، وضريح مشهد Meshed على Ali فى الشمال ، ذلك الضريح الهائل المقدس . وعندما واصل المستكشف مسيره عبر سلسلة من الجبال الشرقية متجهاً صوب وادى العين الموازى لهذا الوادى ، مر الرجل خلال البيارات الثرية والمراعى العامرة بالثروة الحيوانية فى العجلانية Ajlaniya ؛ ثم اتجه هيرش بعد ذلك شمالاً عبر الهضبة الجرداء قاصداً وادى حضرموت الرئيسى . وبلدة الحوطة تقع على

القمة الموجودة فى منتصف الطريق ، وهى تتحكم فى ذلك الطريق وفى مجموعة من الوديان الكبيرة .

عامل رئيس الجماعة ، أو بالأحرى أمير الجماعة ، ألا وهو عميد أسرة الكايتى Kaiti القوية ، عامل هيرش نفس المعاملة التى سبق أن لقيها فيردى Wrede من سلطان عمد Amd ونظراً لأن رئيس الجماعة أو بالأحرى أميرها لم يكن لديه أى شك فى أصل زائره الأوروبى ، ونظراً أيضا لتأكده التام من انتحال هيرش لشخصية الباحث الطبيب ؛ فإنه لم يهتم بهذه الأمور ، ولكنه مد له يد الرفقة الصادقة ، وبعد أن أكرم وفادته قدمه لنائبه فى شيبام . وهناك ، فى شيبام ولأول مرة ، يدخل أوروبى ذلك المكان الذى يمكن أن نعتبره الجزء الرئيسى من وادى حضرموت ، أى تلك المنطقة التى تحتوى على أكبر مستوطنات ذلك الوادى ، والتى تعد مركز هذا المجتمع الخاص القديم .

لقى هيرش استقبالاً فاتراً فى شيبام ، ولكنه وجد تسامحاً كبيراً فى تجواله خلال الوادى ، إلى أن وصل إلى كايتى Kaiti . وزيادة فى الأمن حصل هيرش على مرشد من رجال قبيلة الكثيرى ، التى تتجول فى السهل المستوى فى الشمال ، ثم قصد هيرش بعد ذلك ، إلى كل من سايون Saiyun وتريم . ولم تقع للرجل أية حوادث فى بلدة سايون ، ولكنه فى تريم واجه السادة Sayyids المتعصبين الذين كانوا مستعدين للتشكيك فى صلاحياته ، الأمر الذى حتم عليه العودة بعد ساعة أو ساعتين ، على وجه السرعة إلى شيبام ، ويعمل على تقوية مركزه عن طريق رئيس الجماعة ، أو بالأحرى أميرها Jemadar ويعد أن جرى تحذير هيرش من الوثوق بنفسه أكثر من اللازم فى شيبام جمع الرجل كل ما وصلت إليه يداه من ملاحظات ومشاهدات للأشياء القديمة والحديثة وعاد إلى الساحل من جديد . ونظراً لأن الرجل لم يكن مضطراً إلى زيارة الحوطة مرة ثانية ، فقد توجه مباشرة إلى وادى Wady بن Bin على Ali كثيف السكان ، ومنه إلى الجزء العلوى من وادى أديم Adim الكبير الذى يصب بالقرب من تريم Trim . وعند نهاية وادى أديم وجد الرجل نفسه مرة ثانية فوق منخفضات الجول Jol ، ذلك الجزء من الأراضى البرية ، القاحلة المكسرة ، التى تتقاطع معها الفيومرات Fiumaras ، التى ضل المرشدون طريقهم خلالها ؛ وواصلت الجماعة هبوطها نازلة إلى نيجا Nega ، التى لقى فيها السلطان العمودى بعض الإجراءات المتشددة ، ومنها عادت الجماعة عن طريق بيارات النخيل والحقول الخصبة فى الجيل Gail إلى المكلا .

تجول بنت Bent نحو الداخل فى شتاء ذلك العام ، وفى ظل الرعاية والحماية نفسها ، اقتفى الرجل أثر هيرش ولزم المسار الذى سار فيه ، سواء فى الذهاب أو العودة ، الأمر الذى حتم عدم السير فى المسار نفسه بعد ذلك . كانت الجماعة تشتمل بالإضافة إلى إمام Imam باهادور Bahadur شريف ، وهيئة العاملين معه ، على عالم النبات ، وليام William لنت Lunt ، الموفد من كيو Kew ، بالإضافة إلى خبير مصرى من خبراء الطبيعة ، وزوجة قائد الجماعة ، التى يحق لها القول : بأنها المرأة الأوروبية الوحيدة ، غير ليدى Lady آن Anne بلنت Blunt ، التى اخترقت الجزيرة العربية من الداخل[٤] . تمثل الانحراف الوحيد والمهم عن مسارات السلف ، فى رحلة قصيرة قامت من شيبام فى اتجاه أعالى وادى Wady سير Ser ، الذى يأتى نازلاً من ناحية الشمال ، سالكًا طريق القوافل الصحراوى شبه المهجور ، الذى يحتوى على قبر النبى صالح ، نبى قوم عاد(*) . وهذا القبر عبارة عن حفرة فى الحجر تشبه قبر حواء بالقرب من جدة ولكن أصغر منه . ونبى ما قبل التاريخ هود (عليه السلام) فى حضرموت ، قبره يقع أسفل الوادى الرئيسى . كان الهدف الرئيسى عند بنت Bent هو زيارة قبر النبى هود هو والمنطقة البركانية (؟) فى بير Bir برهوت Borhut . ولكن بنت لم يكن أحسن حظًا من فيردى Wrede . وقد أن بدو الكثيرى ، قصار القامة ، أشباه العراة ، غير المتحضرين تمامًا ، كانوا يغلقون الطرق الشرقية كلها ، وهنا رفض رئيس الجماعة ، أو إن شئت فقل : أميرها ، الدخول فى أية مفاوضات معهم . ولقيت جماعة بنت Bent الاستقبال نفسه الذى لقيته جماعة هيرش من قبل : نوع من السماح المشروط ، أى بشرط عدم التوغل طولاً أو عرضًا ، وبالتالى لم يستطع بنت Bent الدخول فى علاقات حميمة مع المجتمع المحلى مثلما حدث لسلفه ، وبالتالى لم يعد إلينا بنت بمعلومات كاملة ودقيقة . ومع ذلك كانت جماعة بنت هى المزودة بمعدات أفضل وكان متاحًا لها استعمال آلة التصوير ، وتدوين الملاحظات . والخارطة التى رسمها إمام شريف ، عن هذا الجزء من الجزيرة العربية ، هى الأفضل اللهم باستثناء خارطة مدين أو منطقة عدن ؛ يضاف إلى ذلك أن

(*) أخطأ هو جارث حين ذكر أن النبى صالح هو نبى قوم عاد ، والصحيح أنه نبى قوم ثمود . أما نبى قوم عاد فهو هود الذى يقع قبره فى الأحقاف بحضرموت . (المراجع)

الملاحظات التى دونها لينت Lunt عن الحياة النباتية ساعدت على دعم وضبط الدراسة القيمة والمراجعة القيمة التى أجريت على مجموعات هيرش ، التى قدمها شونيفرث Schweinfurth للجمعية الجغرافية الملكية .

نحن عندما نستعرض تقارير هؤلاء المستكشفين ندهش لتلك الإضافة الطفيفة التى زادوها على المعلومات السخية التى قدمها فان Van دن Den بيرج Berg باعتبارها معلومات من الدرجة الثانية . تقسيم فان دن بيرج الرباعى لأراضى الحدود الرئيسية إلى أحزمه ساحلية كان تقسيماً صحيحاً . فمن خلف حزام الأرض المنخفضة المكون من مسطحات ساحلية وتلال عند سفوح الجبال ، يوجد حزام آخر من المنخفضات المتباينة التى تتخللها قلة قليلة من القمم العالية . ومن خلف هذا الحزام ، يوجد حزام آخر من الوديان العميقة ، التى تنحدر ناحية الشرق ؛ وأخيراً هناك حزام جيرى (كلسى) قاحل هو الذى يعزل الرمال الوسطى الهائلة . فى حزام الوديان استطاع فان Van دن Den بيرج Berg فهم العلاقة التى بين الوادى الرئيسى الذى يحمل أسماء عدة ، والذى ينخفض نازلاً من شبوه Shabwa(٥) ، التى بدأ منها فيردى رحلته التى قام بها إلى الأحقاف ، والوديان الجنوبية الكبيرة ، عمد Amd ، ودوعن Doan ، وحجارين Hajarein ، والعين ، التى تتمتع بخصوبة مستمرة فى مجراها الأوسط وفى روافدها الفرعية المتمثلة فى كل من بن Bin على Ali وأديم Adim . يضاف إلى ذلك أن مقارنة فان دن بيرج للأجزاء العليا الرملية فى الوادى الرئيسى بالخصوبة المستمرة للمجرى الأوسط للوادى الرئيسى ، هو والمغذيات الجنوبية كانت مقارنة صحيحة ؛ كما كانت فكرته العامة عن مستوطنات الوادى صحيحة أيضاً ، من حيث إنها كلها ، باستثناء قلة قليلة من البلدان ، كانت عبارة عن مزارع مبعثرة هنا وهناك بدلاً من قرى مكتنزة ، وربما يكون فان دن بيرج قد ضلل فيما يتصل بموضوع البلدان ، وفان Van دن بيرج Berg لم يضع فحسب مستوطنات الوادى الرئيسى كلها ، بدءاً من شيبام وانتهاءً بتريم فى أقصى الشرق على الخريطة التى رسمها ، وإنما قيم الرجل قيمة تلك المستوطنات تقييماً خاطئاً . شيبام التى تعد على سبيل المثال ، أكبر تلك المستوطنات ، والتى يقدر عدد سكانها بحوالى ستة آلاف نسمة ، وضعها فان دن بيرج على بعد مسافة كبيرة أسفل كل من تريم Terim وسايون Saiyun ، الذى قدر هيرش عدد سكانهما بحوالى أربعة آلاف

للأولى وأربعة آلاف وخمسمائة نسمة للثانية . ولكن التنافس بين هاتين المستوطنتين ، وكذلك التغييرات التى تطرأ على كل منهما ، بلغ حداً يمكن أن يكون فان Van دن Din بيرج على صواب فى ذلك الوقت ، وبخاصة أنه اعتبر سايون عاصمة لحضرموت ، كما اعتبر تريم راعية لسايون .

وإذا ما استثنينا قلاع الحكام التى يصل ارتفاع الواحدة منها إلى عشر طوابق ، والتى هى من النوع الذى لاحظه فيردى بالفعل فى بلدة الخريبة Khoraibe ، التى تعد البلدة الرئيسية فى وادى دوعن Doan ، نجد أن هيرش لم يجد فى تلك المنطقة ما يستحق الملاحظة فى تلك البلدان . وبلدة تريم ، بالوصف الذى أسبغه هيرش عليها ، بسوقها الكبير مربع الشكل وأحيائها الخمسة التى تحيط بها الأسوار ، هى أكثر البلدان تحضراً فى واقع الأمر ؛ هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن المساجد العدة ، والشوارع جيدة التنظيم ، والحدائق الواسعة تضفى على سايون منظراً ورؤية أكثر جمالاً وسحراً عن ذلك الذى أضفاه كل من هيرش بنت Bent على شيبام . وفى كل الأحوال ، فإن شيبام فيها بيارات نخيل ضخمة ، كما أن قربها من مركز السلطة فى الحوطة هو الذى يفسر ازدحامها بالسكان . والبلدان هنا هى والوادى لا تختلف اختلافاً عن بلدان ووديان جنوبى اليمن . يضاف إلى ذلك أن سكان حضرموت كلها لا يتجاوز عددهم مائتا ألف نسمة ، وحضرموت لا تشترى سوى القليل ولا تبيع سوى القليل أيضاً ؛ لأنها راضية عن كفاية نفسها بنفسها فى إطار عزلتها الذاتية .

يرجع الاهتمام الحالى بحضرموت إلى شهرتها القديمة . مسألة احتفاظ حضرموت باسمها القبلى ، الذى يرجع إلى الأزمان الإغريقية القديمة ، ومسألة أنها تعد واحدة من مناطق البخور فى العالم ، هما اللتان أحيتا الآمال فى تحقيق اكتشافات أثرية فى وديانها المخبأة . هذه الآمال الكبيرة خابت إلى حد بعيد . يضاف إلى ذلك أن بقايا النقوش التى أحضرها كل من فيردى ، وهيرش ، وبنت Bent تعد شيئًا متواضعًا إذا ما قارناها بالمحصول الوفير الذى جناه جلاسر Glaser من مأرب وحدها . على كل حال ، يجب أن لا يغيب عنا أن جلاسر نجح فى المناطق التى فشل فيها من سبقوه إليها ، وأن حضرموت ينبغى زيارتها من إنسان يتمتع بحماية جيدة ، ويحظى بمساعدة حثيثة وواعية لما يقوم به من استكشاف . يزاد على ذلك أن سكان المدن

لا يقدمون الممتلكات السرية فى منازلهم لمن يجىء إليهم ، سواء أكان خبيراً وضليعاً فى لغتهم مثل هيرش ، أو لشخص من أمثال بنت Bent ، الذى تواصل معهم بلغة عربية ركيكة ، أو عن طريق المترجمين .

يجب أن لا نظن أن الاهتمام بحضرموت ينبغى أن يقل ويتضاءل ، السبب فى ذلك أن حوالى نصف الوادى الرئيسى لم يجر استكشافه بعد ، وأن الجزء الصغير من ذلك الوادى هو ذلك الجزء الذى تعيش على حدوده قبائل المهرة . وقد ورد فى التقارير أن ذلك الجزء هو المسرح الوحيد للنشاط البركانى الفعلى فى الأرض الرئيسية من الجزيرة العربية ؛ ولكن الأمر يتطلب قيام أحد المستكشفين باستطلاع دخان بير Bir بورهوت Borhut ، تلك البئر الكبيرة التى لعنها على Ali ، وذلك نقلاً عما ورد فى كتاب "وصف Jihan العالم Numa" . يزاد على ذلك ، أن مجتمع بير برهوت يمثل بعض السمات والخصائص المهمة للباحثين فى مجال الحياة السامية ، وعلى العكس من بقية أجزاء الجزيرة العربية ، ونظراً أيضاً لاحتماء حضرموت من الغزو ، بفضل الصحارى المحيطة بها ، فإن هذا الجزء (حضرموت) من الجزيرة العربية ما يزال يحتفظ بشكل شديد البدائية من أشكال المجتمعات التى تحكم نفسها بنفسها ، إذ إن هناك أربعة أنظمة متدرجة هى التى تحكم هذه الولاية State . هناك نظامان ، أو نسقان أرستقراطيان من بين هذه الأنساق الأربعة ؛ أحد هذين النسقين هو ذلك الذى يطلق عليه اسم السادة Sayyids ، وهذا النسق هو الأعلى من حيث الفضيلة فى الأصل المقدس ؛ والنسق الثانى ، من هذين النسقين ، هو الطبقة القبلية ، وهى تلى النسق الأول من حيث فضيلة السمات الحربية والقتالية . يلى هذين النسقين طبقة وسطى من الحضر ومن الزراع ، الذين يمتلكون طبقة كبيرة من العبيد ، الذين معظمهم من أصل أفريقى . ولكن هؤلاء العبيد لهم حقوق معترف بها من سادتهم نظير الخدمات التى يقومون بها ، ولا يجرى قهرهم أو ظلمهم بأى حال من الأحوال ، هذه العناصر موجودة أيضاً ، فى واقع الأمر ، فى أجزاء أخرى من العالم السامى ، ولكنها ليس لها وجود فى أى مكان من الانسجام والتناغم الهلينى . لا وجود لذلك السيد الأعزل ولا وجود أيضا لتسوده على القبلى المسلح ؛ العبد الذى من هذا القبيل لا وجود له فى أى مكان من الكومنولث Commonwealth هذا الانقسام المجتمعى أقره واعترف به الرحالة جميعهم ، كما اعترف به أيضاً فان Van دن Den بيرج Berg ، باعتباره تنظيم موجود منذ قديم الأزل .

هوامش الفصل التاسع

(١) اقترح بنت Bent أن الأجزاء المنخفضة من تلك الوديان إنما هى عبارة عن أذرع بحرية قديمة .

(٢) هناك بعض التساؤل حول ما إذا كان وادى مسيلة هو نفسه وادى حضرموت أم رافداً جانبياً .

(٣) دراسة حديثة جداً أجراها الهر و . هين Hein هو زوجته . راجع :
Zeitschrift d. Ges Für Erdkunde, 1902, No. 9.

(٤) أنا لا أدخل فى اعتبارى احتمال وجود نساء يونانيات فى اليمن أو فى أى مكان آخر غير اليمن ؛ أو النساء اللاتى فى الحرملك الإسلامى ، مثل تلك المرأة البريطانية الجنسية التى شاهدها كين Keane فى مكة .

(٥) شبوه : يصح فيه أيضاً ساوة Sawa : العاصمة القديمة لـ "Atramolitae" والتى يقول عنها بلنى Pliny ، إنها كانت تحتوى على ستين معبداً .

مراجع الفصل التاسع

On Aden, etc., see Capt. F. M. Hunter's Monograph (London, 1877).

S. B. Miles and W. M. Münzinger, in J. R. S., 1871, p. 210.

J. T. Bent, On the Yafei and Fadhli Countries, in G. J., 1898, p. 411. Cf. Southern Arabia, chaps. vi. - xvii. ; xviii. - xxiii. ; xxxv. - xxxvii., and G. J., 1894, p. 315 (Hadramaut), and 1895, Aug. p. 109 (Dofar).

C. Graf von Landberg, Die Südarabische Expedition (Munich, 1899). Cf. D. H. Müller on ditto (Vienna, 1899).

H. Freiherr von Maltzan, Reisen in Arabien, etc. (Brunswick, 1873).

L. W. C. Van den Berg, Le Hadhramut et les Colonies Arabes de L'Archipel (Batavia, 1885).

L. Hirsch, Reise in Sud Arabien (Leyden, 1897). Cf. Petermann's Mittheil. 1894, pp. 20, 246.

Capt. J. B. Haines gave an account of Smith's visit to the Gara in J. R. G. S, xv. p. 117.

الفصل العاشر

مناطق الحدود الشرقية

على بعد حوالى سبعمائة ميل فى الجنوب الشرقى من وادى حضرموت يبدأ ساحل الجزيرة العربية فى الاتجاه من جديد صوب الشمال الغربى على شكل زاوية حادة ، وبعد حوالى أربعمائة ميل أخرى يعود الساحل إلى الاتجاه من جديد صوب الجنوب الغربى ليواصل امتداده إلى مسافة بعيدة . من هنا نجد فى الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية بروزًا كبيرًا بيضاوى الشكل يعترض الانتظام البيضاوى لشبه الجزيرة . هذا يعنى أن العلاقة التركيبية للأراضى العمانية بالكتلة الرئيسية لشبه الجزيرة العربية تعد مسألة غير مؤكدة ؛ والسبب فى ذلك أن البرزخ الواسع الذى يربط بين الاثنين ، فيما عدا السواحل ، لم يجر استكشافه بعد ، ونحن لسنا على يقين من انحدار الصحراء الجنوبية الكبيرة ناحية عمان ، أو ارتفاعها مرة ثانية ، أم إنها ما تزال تحتفظ بالمستوى التى هى عليه فى شمالى حضرموت ، على بعد حوالى سبعمائة ميل ، وبالتالى يصبح السؤال المطروح هنا متعلقًا بمسألة اعتبار الهضبة الرئيسة امتدادًا شرقيًا ناحية عمان ، أم أنها امتداد داخلى يترك تجويفًا رمليًا بينه وبين الأرض العمانية المرتفعة ارتفاعًا واضحًا وجليًا . الشىء الوحيد المؤكد هو أنه بالرغم من أن تلال عمان الساحلية لا تختلف اختلافًا كبيرًا عن المنحدرات المرتفعة الموجودة على جوانب شبه الجزيرة المتجهة ناحية البحر ، إلا أن الكتلة الأرضية الكبيرة الواقعة خلف هذه المنحدرات ، والتى يطلقون عليها اسم الجبل الأخضر هى عبارة عن سلسلة جبلية حقيقية أكثر من أية منطقة أخرى من مناطق الحدود ، اللهم باستثناء الأماكن التى كانت مواضع للنشاط البركانى .

يضاف إلى ذلك أن اتجاه تلك السلسلة الجبلية ناحية الشمال ، عبر رأس Ras الجبل el-Jabal، متجهة إلى البحر ، يوحى بأن هناك علاقة تركيبية بينها وبين سلسلة الجبال الفارسية أكثر منها مع مرتفعات شبه الجزيرة العربية .

الجبل الأخضر يقسم المنطقة المأهولة فى عمان إلى قسمين . القسم الأول عبارة عن منطقة ساحلية ضيقة ، تنحدر فى اتجاه الشمال الشرقى نازلة من القمم إلى خليج عمان ، ولكن تعترض ذلك الانحدار سلسلة فرعية ، ترتفع فى المنطقة الجنوبية ارتفاعاً منحدراً من ناحية البحر . القسم الثانى أقل شهرة من القسم الأول ، ويكاد يكون غير معروف . ولما كان هذا القسم الثانى يقع خلف سلسلة الجبال ، فهو ينحدر انحداراً واضحاً لا مبتعداً عن تلك السلسلة ، وإنما فى اتجاهها نازلاً من ارتفاع كبير فى الناحية الغربية . ومن الناحية الشمالية والجنوبية ينحدر القسم الثانى انحداراً كبيراً ناحية الخليج الفارسى والمحيط الهندى كل على حدة ؛ وهذا القسم الثانى يتحد ، من الناحية الغربية ، مع الرمال الجنوبية الشاسعة .هذان القسمان هما الأكثر خصوبة فى المنطقة الوسطى منهما ؛ نظراً لأن هذه المنطقة تتمتع بمزايا أبخرة الرياح الموسمية ، التى تتجمد بفعل قمم الجبل الأخضر العالية . وقد شاهد ولستد هذين القسمين فى أفضل أحوالهما ، غير أنه لم يشاهد أياً منهما بكل تفاصيله . فى القسم الأول ، تحاشى المستكشف الرائد (ولستد) مرتفعات السلسلة الجبلية الفرعية المتشابكة ، التى تمتد فى اتجاه الشرق خلف مدينة مسقط . وفى القسم الثانى ، لم ير ولستد Wellsted أى شىء من ذلك الذى يقع خلف عبرى ibri، التى تتراجع الرمال فيها إلى اتجاه الجنوب والغرب ، مخلفة وراءها رقعة واسعة من السهوب والواحات ترتكز على الخليج الفارسى .

سار أوشر Aucher إيلوى Eloy، الرحّال الفرنسى ، بعد ذلك بعامين فى المسار نفسه الذى سلكه ولستد Wellsted فى المناطق الوسطى من عمان ، على جانبى الجبل الأخضر ، قام أوشر إيلوى برحلة نباتية عن طريق نخل Nakhl (ويصح فيه أيضاً Naxal) إلى أن وصل إلى سلسلة الجبال الرئيسية . وبعد أن عبر أوشر المسار الذى

سار فيه ولستد ، وصل الرجل إلى نزوى ، واكتشف أن الوهابيين كانوا قد وصلوا فعلاً إلى يبرين Gabrin، وهنا عاد الرجل إلى الجنوب ليدور حول الكتف الجنوبى فى سلسلة الجبال العالية وذلك عن طريق وادى سيكى Siki الضيق ليصل إلى وادى سمايل Semail، الذى سار فيه إلى أن وصل إلى الساحل من جديد . هذا يعنى أن خط عودة أوشر كان جديداً . ولكن الرواية التى وردت فى تقرير أوشر ، عن ذلك الطريق كانت مقتضبة جداً إلى حد أنها لم تضف شيئًا إلى ما كتبه ولستد عن ذلك المسار ، ولكن تقرير أوشر كان عامراً بكل ما يتصل بالنبات والحياة النباتية فى ذلك المكان . هذا العالم الفرنسى شأنه شأن بيرتون عندما زار مدين بعد ذلك بأربعين عامًا ، اكتشف ثراء الحياة النباتية برغم ضعف أنواعها . هذه الرحلة القصيرة نفسها قام بها ، بعد أوشر إيلوى ، المستكشف مايلز Miles، عندما جرى ترفيعه إلى رتبة العقيد وعين ممثلاً بريطانيا مقيماً فى مسقط ، ونحن يمكن أن نفيد ونتعلم من خبرات هذا الرجل اعتباراً من العام ١٨٧٦ الميلادى .

تبدأ قمم سلسلة الجبال الفرعية ، أو إن شئت فقل : سلسلة الجبال الساحلية ، من الناحية الشمالية ، أى من خلف مسقط ، بجبل يطلق عليه اسم جبل Jabalتين Tyin، الذى يتعدى خمسة آلاف قدم ، وهو يتصل بصورة أو بأخرى بالجبل الأخضر من خلال جبل نخل Nakhl، وفيما بين جبل نخل وسلسلة الجبال الرئيسية يوجد كُلٌّ Col منخفض ، يتصل به وادى سمايل الواسع الخصيب ؛ هذا الكل Col يصل الطريق الرئيسى بوسط البلاد . واقع الأمر ، أن هناك امتدادان جنوبيان للجبل الأخضر . أحدهما هو ذلك الذى تناولناه هنا بالوصف ؛ أما الامتداد الثانى فهو يتفرع من جبل نخل ، حول رأس وادى التين . وبالرغم من وجود الينابيع حارة الماء فى عمان ، إلا أن تركيب تلك الينابيع ليس من التراكيب البركانية . بل إن الجبل الأخضر Green Mountain نفسه ليس اسماً على مسمّى ، لأنه عبارة عن سلسلة من الجبال الطباشيرية القاحلة ، ولها قلب عبارة عن كتلة واحدة ؛ ويصل هذا الجبل الأخضر إلى أقصى ارتفاع له وهو عشرة آلاف قدم ، ثم ينحدر بعد ذلك فجأة فى

اتجاه الجانب البعيد . تأوى ثنيات الجبل الأخضر قلة قليلة من مستوطنات بنى Beni ريام Riyam، الذين يسيطرون أيضًا على وديان نزوى شديدة التصحر ، كما يسيطرون أيضًا على وادى شريزى Shiraizi وسيكى Siki ويزرعون قصب السكر والكروم . أما القرى الكبيرة فهى أفضل إنشاءً وبناءً أو أفضل تسويراً وتكثر فيها البساتين وبيارات النخيل . وهناك مياه كثيرة تنساب فى اتجاه الغرب والجنوب ، ولكن أحدًا من تلك المجارى المائية لا يصل إلى الساحل بصورة دائمة من فوق سطح الأرض ، بما فى ذلك مجارى وادى سمايل المالية ، التى تمد بيارات النخيل التى يبلغ طولها ثمانية عشر ميلاً بالماء والتى يسكنها حوالى عشرين ألف نسمة ينتمون إلى المستوطنة الرئيسية فى الوادى . والوديان شديدة الارتفاع هى والوديان شديدة الانخفاض داخل عمان ، برغم ولائها لإمام مسقط إلا أنه لا يملك التصرف فيها حسب إرادته . ورؤساء القبائل فى هذه الوديان يحافظون على استقلالهم الذاتى ، كما أن شيخ تلك القبائل الكبير المولى عليهم ، يحمى نفسه بصورة مستمرة من هجمات شيوخ القبائل ، وهذه الحماية أكثر بكثير من انتفاعه بإسهامات هؤلاء الشيوخ .

توغل مايلز Miles فى الداخل بعد ذلك بثمانى سنوات ، مستهدفًا بذلك ملئ الفراغ الذى كان قائمًا بين الطريق الذى سلكه ولستد من صور Sur إلى منطقة جعلان Jailan فى أقصى الجنوب والطريق الذى سلكه هو وأوشر Aucher إيلوى إلى الجبل الأخضر . وبعد أن دار مايلز Miles حول جبل تين عن طريق ممر كهزا Kahza ، نزل إلى حوض الوادى ، الذى اشتق اسمه من اسم الجبل ، ويروى حوالى ثلاثين قرية من قرى بنى جبر Jabar . وبعد أن ينحنى وادى التين ناحية الشمال الشرقى ، عند أسفل منطقة جُبْره Gobreh، يصل إلى الساحل بالقرب من قريات Kiryat، عن طريق شق أو فلج طويل يعرفه البحارة باسم "فجوة الشيطان" Devil's Gap ؛هذا الفلج يخافه رجال القوافل ويخشونه مخافة السيول التى يمكن أن تملأ ما بين ضفتيه ، بالماء خلال دقائق معدودات .

فيما يتعلق بالجزء المتبقى من عمان والذى يتجه ناحية البحر فقد تم استكشافه ولم يتبق منه شيء . الجزء الساحلى الشمالى من الباطنة Batina، والذى يمتد من السيب Sib إلى شناص Shinas، شديد الخصوبة وكثيف السكان فى المنطقة الواقعة بطول خط الشاطئ ، وأحواض الوديان ، ولكن هذه المنطقة قاحلة من الداخل فيما بين المجارى المائية .يزاد على ذلك ، لم يكن هناك أية معلومات عن أقصى الشمال ، وبخاصة فى المنطقة التى تمتد فيها الجبال الفاصلة ناحية البحر على شكل طنف ضخم يطلقون عليه اسم رأس الجبل Ras al-Jabal، لتنتهى بعد ذلك نهاية مفاجئة عند "رأس السندان Head "Anvil، أو بالأحرى رأس مسندم Ras Musandam . رأس مسندم هذه ليست سوى عمود مرتفع من الصخر تحيط به مجموعة من الأخوار ، أو إن شئت فقل : الخلجان الصغيرة ، التى قام البحارة البريطانيون باستكشافها خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر عندما كانوا يطاردون القراصنة القواسم(*) Jauasmi ويداهمونهم ، ولكن الجزء الداخلى من شمالى عمان كان بحاجة إلى مزيد من الاستكشاف ، وبخاصة المنطقة جنوب وغرب الطريق المؤدى من شناص إلى الشارقة Sharja، الذى سار فيه هوايتلوك Whitelock فى العام ١٨٣٧ الميلادى . المستوطنة الرئيسة هنا هى البريمى Bireima، التى لم يجر توقيعها على خارطة برغو Berghau فى العام ١٨٣٥ الميلادى ، هذه البريمى تحولت إلى معقل من المعاقل الوهابية ، كما أصبحت مقراً لممثل الرياض ، وبالتالى رفضت البريمى الانصياع لسلطة سلطان عمان ؛ ولم تستطع حكومة مسقط ضمان سلامة أى إنسان خارج ساحل الباطنة ، إلا بعد أن تدهورت قوى وسلطات الأسرة المالكه السعودية أمام نجم حائل الصاعد ، وبعد أن ضاع نفوذها على سواحل الخليج الفارسى .

(*) ينفى القواسم من أنفسهم ماتردده المصادر الأجنبية ، خاصة المصادر البريطانية ، عن اشتغالهم بالقرصنة ، ويعتبرون العمليات البحرية التى كانوا يقومون بها ضد السفن الأجنبية نوعًا من الجهاد الدينى والدفاع عن مياههم وأرزاقهم . (المراجع)

إلى هنا ، يكون هذا هو ما آلت إليه الأحوال بعد التغييرات التى حدثت فى العام ١٨٧٥ الميلادى (أى بعد أربع سنوات من قطع مدحت باشا للاتصالات مع نجد ومع عمان بعد أن قام باحتلال الأحساء) ؛ هذه التغيرات مكنت مايلز ، فى ظل الحراسة ، من القيام برحلة خاطفة إلى البريمى فى شهر نوفمبر من العام ١٨٧٥ الميلادى ، قام الرجل بمسيرة قوامها ما يقرب من أربعين ميلاً ، قام بها من صحار Sohar عبر الوديان ، التى كانت فى أحواضها مياه على بعد مسافات متقطعة ؛ ووصل الرجل إلى حدود الباطنة وعن طريق ممر منخفض (حوالى ١٨٦٠ قدم) فى سلسلة الجبال الفاصلة ، وصل مايلز إلى منطقة الظاهرة Dahira . بعد ذلك بثلاثة أميال وجد مايلز الأرض أكثر ارتفاعًا وشبهها بالسهوب ، ولكنها تتخللها مثل نجد الواحات ، بين الحين والآخر ؛ كما كانت هناك بعض الواحات الوارفة وشديدة الخصوبة ، من بين هذه الواحات الخصبة ، هناك واحة البريمى ، التى تقع على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق مستوى سطح البحر ، ويصل طولها إلى أربعة أميال ، وتحتوى على قرى عدة متميزة فيها حوالى خمسة عشر ألف نسمة ، والبريمى هى الواحة الرئيسية بين الواحات الخصبة . والبشر الذين يزرعون أراضى البريمى هم أناس أذكياء ولكنهم ليسوا متشددين ، وهم يقومون بزراعة بساتين البريمى عن طريق الرى ويستغلون الأرض استغلالاً كاملاً حتى آخر بوصة ، كما يقومون برعى قطعان كبيرة من الحيوانات فى السهوب المجاورة ، فى ظل حماية قلعة ضخمة مبنية من اللبن . كان زويمر الرحالة الأمريكى المبشر ، ثانى رحال يصل إلى هذه الواحة ، وقد وصلها قادمًا من أبو Abu ظبى Thabi على ساحل الخليج ، وقد اكتشف زويمر أن مجتمع البريمى فى العام ١٩٠١ الميلادى ، كان ما يزال وهابى المشاعر ، بالرغم من خضوعه لحكم مسقط الكافر(*) .

(*) يقصد المؤلف بحكم مسقط الكافر المذهب الإباضى المخالف للتعاليم السلفية التى نادى بها أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين كانوا يعتبرون الإباضية من فرق الخوارج . (المراجع)

الواضح أن هناك منطقة من الواحات الخصبة تقع إلى الجنوب من البريمى . وقد تلقى مايلز دعوة ملحة وحارة لزيارة المدرة el-Madra، التى هى واحدة من المستوطنات الرئيسية فى هذه المنطقة الخصبة ؛ يضاف إلى ذلك أن الناس حكوا لزويمر عن سلسلة من القرى تقع أسفل هذه الحافة التى يطلقون عليها اسم جبل عقدة Jabal Okdat، الذى يمتد موازياً لنتوء عمان الرئيسى ، غير أنه يمتد نحو الداخل إلى مسافة أبعد من نتوء عمان . وبالرغم من كلام المستكشف السابق عن وقوفه فى بريمى على حافة "بحر الرمال الطارد والأرض الخراب الجرداء التى تمتد امتداداً مستمراً وبلا انقطاع لمسافة ثمانمائة ميل تقريباً عبر شبه الجزيرة العربية" ، إلا أننا نشك فى مسألة بداية الصحراء الحقيقية جنوب وغرب النقطة الأخيرة التى وصل إليها . وقد ورد فى أحد التقارير التى تلقيناها مؤخراً أن الرائد كوكس Cox يحتمل أن يكون قد نجح فى نهاية المطاف ، فى عبور منطقة الظاهرة Dahira كلها بدءاً من بريمى Bireima إلى عبرى Ibri، وبذلك يكون الرجل قد ربط ملاحظات ولستد بملاحظات مايلز Miles الأمر الذى يجعله فى موقف يمكنه من أن يعطينا معلومات أفضل عن جبل عقدة Okdat وعن حافة الصحراء .

إذا كانت المعلومات التى لدى الجغرافيين عن هذه البلاد ، وبخاصة جنوبى بريمى ، غير كافية وضعيفة ، فذلك يعنى أن أولئك الجغرافيين ما زالوا لا يعرفون شيئا عن غربى بريمى . والسبب فى ذلك أن السمعة الساحلية للقبيلة المحلية الساحلية التى يسمونها بنى ياس(**) Beni Yass، وهم أسوأ قرصنة من القواسم Jauasmi، هى التى أفلحت فى منع البحارة من النزول على شاطئ الخليج المجاور ، كما أن هذه السمعة السيئة هي التى منعت الرحالة أيضا من المرور من خلال الممر

(**) يكاد هوجارث ينفرد بهذا الرأى الذى مفاده أن بنى ياس كانوا أسوأ قرصنة من القواسم ؛ إذ تكاد تجمع المصادر الأجنبية أن بنى ياس لم يحدثوا أضراراً للملاحة فى الخليج مثل ما أحدثه القواسم ، الأمر الذى دفع بريطانيا إلى إرسال العديد من الحملات البحرية للقضاء على قوتهم البحرية . (المراجع)

الأرضى الذى يربط الأحساء بعمان ، وقد أبلغ مايلز ، عندما كان فى بريمى ، أن هناك سهبًا مستويًا يمتد من هذه النقطة إلى الهفوف ، وأن عابرى السبيل يستطيعون عبور تلك الرقعة ، أو بالأحرى ذلك السهب المستوى ، فى أربع وعشرين رَحلة ؛ وقيل له أيضًا إن الماء فى تلك الرقعة مالح ولكنه يصلح للشرب ، ووفير ، وأنه بالإمكان الحصول على الماء بيسر وسهولة من بئر أو بئرين بعد مسير يومين . إضافة إلى وجود مستوطنات دائمة فى تلك الرقعة من الأرض .

هذا السهب الزلطى المتموج ، الذى لا يتجول فيه سوى قلة قليلة من البدو الرُّحل بائسى المظهر له أهمية عند الجغرافيين بغض النظر عن فقره ؛ والسبب فى ذلك أن استكشاف هذا السهب يمكن أن يحل مشكلة كبيرة فى هيدروغرافيا الجزيرة العربية . وقد تناهى إلى مسمع المستكشف مايلز أن ذلك السهب تتداخل معه رقعة من الأرض المالحة ، تمتد نحو الداخل من شاطئ الخليج ، لمسافة تستغرق أيامًا عدة من المسير ، وأن هذه الأرض المالحة هى التى تشكل الحدود فيما بين عمان ونجد . هذه "السبخة" ، على حد قول رواية مايلز ، مستمرة من خلال وادى Wady يبرين ، الذى هو عبارة عن واحة فى الصحراء الجنوبية ، يعرفها الجغرافيون المسلمون على إنها تقع على بعد مسافة متساوية من كل من اليمامة Yemama والأحساء ، ولكن الجغرافيين يحددون موقعها حاليًا عند خط طول ثمانية وأربعين درجة . وسوف نورد المزيد عن هذه الرقعة . هذه الرقعة من الأرض عامرة بالنخيل ، ولكنها عامرة بحمى الملاريا الأمر الذى يجعلها غير مناسبة لسكنى البشر فيها ، ولكن آل مرة يزورونها فى موسم حصاد التمر ، وآل مرة أبلغوا عن مشاهدتهم لأنقاض بعض المساكن ، كما أبلغوا أيضًا عن عثورهم على بعض العملات المعدنية التى وجودها على سطح الأرض .

أكثر من ذلك ، أن مايلز بلغه أن الشريان العظيم لجنوبى نجد ، والذى يطلق عليه اسم وادى حنيفة ، يقع فى تلك الرقعة المالحة ، ثم يمتد فى النهاية إلى الخليج فى خور الديوان el-Duan، الذى كان يطلق عليه اسم جرهاء Gerra فى يوم من

الأيام . وسوف أعود إلى هيدروجرافيا هذا الوادى عندما أتناول نجد ؛ ولكنى سوف ألفت الانتباه فى الوقت نفسه إلى اتفاق المعلومات التى جاء بها مايلز ومع العبارات المؤكدة التى جاء بها الجغرافيون المسلمون ، والتى سبق الإشارة إليها فى الفصل الأول والفصل الثالث ، والتى مفادها أن جنوب وسط الجزيرة العربية يصرف مياهه فى الخليج الفارسى عن طريق وادى كبير يطلقون عليه اسم وادى "عفتان" . Aftan هيدروغرافية هذا الوادى التى نادى بها الجغرافيون المسلمون جرت إدانتها ، على أيدى كل من سادلير Sadlier وبالجريف ، وبيلى Pelly، وهم أنفسهم الذين رأوا بأعينهم موقع هذه الرقعة ، أو بالأحرى هذه الأرض فى جنوب نجد ؛ ولكن تقرير مايلز Miles عن وجود مستوى كبير لمياه الصرف فى اتجاه الجنوب ، يجعلنا نثير من جديد التساؤل حول ما إذا كانت المياه التى لا تستطيع الانسياب شرقًا مباشرة إلى الخليج ، قد لا تتصرف هناك مكونة بذلك كوعًا يمتد جنوبيًا عبر أراضى أو مناطق لم يجر اكتشافها بعد ؟ فى مثل هذا الحال يمكن أن تكون مياه وادى حنيفة مجرد رافد فقط من منظومة واسعة تصرف قسمًا كبيرًا من مياه جنوبى الجزيرة العربية مثل وادى الرمة الذى يصرف مياه شمالى الجزيرة العربية .

هنا نخرج من مخرج فى رقعة الأرض المجهولة الواقع عند خط طول ٢٥ درجة ، بعد الخروج من هذه الرقعة نسير فترة من الوقت فى المنحدرات الزلطية المتموجة حيث نجد مجموعة أو بالأحرى مجموعات من العيون والينابيع الكبيرة ، التى ينبثق ماؤها بدرجة حرارة عالية ليشكل واحات توائم بين كل من الأحساء والقطيف ، كما تشكل هذه الينابيع بعض الرقع الخضراء على سواحل خليج البحرين وشبه جزيرة قطر . أما تلك العيون والينابيع التى تنبع من المنطقة الموجودة أسفل الجرف المنخفض ، الذى يشكل حافة تمثل آخر الرفوف المنخفضة فى المنحدر الطويل من الهضبة الداخلية ويتجه صوب البحر ، فى هذه المنطقة المنخفضة الارتفاع من شاطئ الخليج الحار ، هذه الينابيع والعيون تتسبب فى وجود حياة نباتية مدارية تحيط مستوطنتين أهم من أية مستوطنة من المستوطنات التى فى داخل عمان أو حضرموت . والهفوف

والمبرز يبدو أن فى كل منهما حوالى عشرين ألف نسمة ، كما أنهما تعدان مقرات لحضارة عالية نسبيًا ، فضلاً عن كونهما أيضًا مقران من مقرات المجتمعات الإنسانية المرفهة .

وجود واحة الأحساء الخصبة ، التى يصل طولها تقريبًا إلى خمسين ميلاً كما يصل عرضها إلى خمسة عشر ميلاً وإلى حوالى أربعين ميلاً نحو الداخل ، هو الذى يحدد المسار الرئيسى لطريق القوافل من شاطئ الخليج إلى نجد ، كما أن الجغرافيين المسلمين يعزون تقسيم شبه الجزيرة الكبير إلى وجود هذه الواحة ، فضلاً عن التصاق مثل هذا التقسيم من الناحية السياسية بواحة الأحساء منذ زمن طويل . وبناء على ذلك نجد أن قلة قليلة من المستكشفين الأوروبيين هم الذين مروا خلال واحة الأحساء وهم فى طريق مغادرتهم وسط الجزيرة العربية من الناحية الجنوبية الشرقية أو خاطروا وغامروا بالدخول إلى وسط الجزيرة قادمين إليه أيضًا من تلك الواحة . وقد تتبعنا سادلير Sadlier فى المسار الذى سلكه إلى الهفوف . وبعد سادلير بخمسة وأربعين عامًا نجد جيفورد بالجريف يصل إلى الأحساء قادمًا إليها من الرياض . هذا اليسوعى المتنكر ، الذى فرح بنجاحه فى نجد المتشدده ، كان أكثر تعاطفًا مع الأحساء وأمضى فيها أيضًا وقتًا أطول من أولئك الذين سبقوه إليها ؛ كما أن رواية بالجريف الحية والوافية عن الأحساء تظهره وكأنه لا يتحرج من الكشف عن ميله شبه الشرقى لأولئك الناس الذين يقوم حكمهم على الحياة على مبدأ اللذة .

بالجريف وهو بصحبة أهل الهفوف والمبرز المترفين ، يصور نفسه وكأنه يتصرف بطريقة سهلة وسلسة . فهو يستحم ، ويسبح ، ويصارع ، ويشرب القهوة ، ويدردش مع الناس ، ويأكل معهم ، ويدخن معهم ، ويشاركهم فى تندرهم بالمطوعين(*). وهو يشارك أيضًا الناس فى رحلاتهم الخلوية المهمة ؛ وعندما كان يدخل علينا وقت العصر البّراد اللطيف " كان لابد ـ وذلك بموافقة الجميع ـ من أداء الصلاة ، وهنا كنا نعيد

(*) المطوعون أو المطاوعة : هم رجال الدين الوهابيين المتشددين ، ويتضح من السياق أن التندر بهؤلاء الرجال كان بين الشيعة من أهالى المبرز والهفوف . (المراجع).

ركوب دوابنا ونعدو مسرعين إلى المنازل" . وبالجريف وهو يستعرض الجمال الأنثوى ينظر إليه بعينى الراهب Friar توك Tuck وليس بعينى "الأب ميخائيل كوهين" . "وفى الأحساء يتضح للرجل تحسن كبير فى هذه المسألة ... والأكثر من ذلك أنه أحس بمزيد من الفرح والانشراح عندما وجد أغانيه ، مثاراً لحديث الناس" .

بالجريف يعطى أوصافًا جادة وعجيبة لكل من المدن والواحات المحيطة بتلك المدن ؛ وهذه الأوصاف تتفق تمامًا مع ما جاء به من سبقوه من أمثال سادلير ومن جاءوا بعده مثل بيلى Pelly وزويمر Zwemer . واقع الأمر أن زويمر ، الذى ذهب إلى الأحساء ، فى ظل حماية تركية فى شهر أكتوبر من العام ١٨٩٣ الميلادى ، اكتشف أن المخطط الذى رسمه "السورى" للهفوف دقيقًا جداً بعد مضى ثلاثين عامًا .كان بالجريف قد قدر عدد سكان الهفوف بحوال أربعة وعشرين ألف نسمة ، - وهذا رقم ليس بالكبير ؛ نظراً لأن بيلى قدر هذا العدد بعد ذلك بعامين ، بما هو أكبر من عدد سكان الرياض نفسها[1] ، - كما قدر عدد سكان المبرز بحوالى عشرين ألف نسمة ، فى حين قال سادلير أن عدد سكان المبرز لا يقل عن عدد سكان العاصمة - وفيما يتعلق بتفاصيل الحياة مثل المنازل وإدارتها ، والمنتجلى والتجارة ، والعادات والتقاليد - نجد بالجريف يتكلم عن هذه الأمور كلامًا حميمًا يندر أن يصل إليه أوروبى فى الشرق ، ونحن فى أجزاء كبيرة من جنوبى نجد يتعين أن نتخذ من بالجريف مصدراً أساسيًا ؛ لأنه ليس هناك من يبزه أو يتفوق عليه فى ذلك . ولولا بالجريف لجاءت معرفتنا بطبيعة الأرض وشعبها سيئة على نحو يتعذر معه فهم تاريخها السابق أو اللاحق . ومسألة إفراز الأحساء لحركة القرامطة المنافسة ، التى صمدت فى وجه الإسلام ؛ وكذلك الأسباب التى جعلت الحكام الوهابيين والحكام العثمانيين ، يشتهون هذه المنطقة ، ثم يكتشفون بعد ذلك الواحد بعد الآخر ، إنها تشكل شوكة فى ظهر

(١) كان رينو قد قدر ذلك العدد بأقل من ذلك فى العام ١٧٩٩ الميلادى ، ولكنه يعترف أن عدداً كبيراً من السكان هربوا من الوهابيين ؛ يضاف إلى ذلك أننا لا نعرف المعيار أو المقياس الذى استعمله فى تقدير عدد السكان ، كان رينو قد قال أن عدد سكان الدرعية صغير أيضًا .

الجميع ، - كل هذه التساؤلات لم يستطع كل من سادلير ، وبيلى وزويمر تقديم أية إجابات عنها .

بعد رحلة ، لم يقل بالجريف شيئًا عن زمنها أو مدتها ، استأنف الرجل هو وزميله السورى سيرهما فى اتجاه البحر فى مطلع شتاء العام ١٨٦٢ الميلادى ، واختارا ميناء القطيف الشمالى ، الأبعد ولكنه أكثر ملاءمة من ميناء العقير Ajer . ولابد أن يكون الطريق الذى سلكه بالجريف هو ورفيقه ، هو الطريق نفسه الذى سلكه سادلير ، فيما عدا أنه كان ينحرف أكثر ناحية الشرق ، كما كان مباشرًا وغير ملتو ، والسبب فى ذلك أن بالجريف هو ورفيقه لم يكونا مضطرين إلى زيارة مخيم موجود فى منطقة أبيار ربيع Rabia . وفيما بين الواحات الداخلية والواحات البحرية عبر بالجريف ورفيقه منطقة من الرمل والزلط يتوفر فيها الماء ، ومن الواضح أنها كانت مأهولة فى يوم من الأيام ، ولكنها مرتع حاليًا "للبدو المترحلين" ، فضلاً عن إهمالها أيضًا ؛ وفى اليوم الرابع وأثناء نزولهما من آخر منحدرات الحجر الرملى وجدا مناطق يزرع فيها قصب السكر ، وتكثر فيها بيارات النخيل ، وخاصة فى منطقة القطيف ، عندما وصل بالجريف ورفيقه إلى هذه المنطقة شاهدا تحت أقدامهما :

"مسطحات الخليج الضحلة الميتة . وكيف أن مياه هذا الخليج تختلف عن مياه البحر المتوسط اللامعة ، تلك المياه اللامعة العامرة بالحياة ، عندما ودعناها فى غزة قبل ثمانية أشهر . المياه هنا (مياه الخليج) تبدو مثل لوح من الرصاص ، نصفها مياه رشح ، والنصف الآخر نباتات مائية ؛ كان ذلك البحر عامرًا بالطين والوحل أمام أعيننا ... كان البحر بلا أمواج وبلا حراك ... داخل هذا التجويف تركد المياه الضحلة ... مياه الخليج ؛ وعندما يحدث المد الكامل تضفى تلك المياه على نفسها مظهر العمق الهادئ الخادع ، ولكن عندما يحدث الجزر فإنه يكشف عن أصداف عديدة ، وجزيرات ، وخصل من النباتات البحرية ، وضفافًا من الرمل ، فيما بينها قنوات ملتوية ، مليئة بالوحل والطين" .

بعد ذلك بعامين قام العقيد لويس Lewis، بيلي Pelly، المندوب البريطاني المقيم في بوشـهر(*) Bushire، والذي وصل إلى الرياض قـادمـًا إليـها من الكويت ، قـام الرجل بالسـير في المسار نفسه الذي سلكه بالجريف ، إلى أن وصل (لويس بيلي) إلى الهفوف ؛ ولكن لويس بيلي توجه من الهفوف إلى البحر في منطقة قرية العقير الجرداء . ولكن لويس بيلي هو وزويمر ، الذي وصل إلى المكان الذي سبق أن وصل إليه بيلي لم يضيفا شيئًا ذا قيمة إلي ما قاله بالجريف عن الأحساء . وزويمر هو الشخص الأوروبي الأخير الذي شاهد هذه المنطقة بعد التغيير السياسي الكبير الذي حدث في العام ١٨٧١ الميلادي . في ذلك العام ، دُعي مدحت باشا ، حاكم بغداد في ذلك الوقت ، للقيام بغزو نجد . وكان الذي تقدم بتلك الدعوة لمدحت باشا هو عبد الله ، أحد المطالبين بالعرش بعد أن جرت هزيمته ، وبعد أن خاب أمله عندما أحجم البريطانيون عن القيام بمساعدته فيما يريد الحصول عليه . وبالتعاون مع شيخ الكويت حاول مدحت باشا القيام بغزو نجد عن طريق الهفوف ، ولكنه لم يستطع تجاوز منطقة الواحة ، ولم يجرؤ مدحت باشا على دخول الحزام الرملي ، نتيجة للقوات النجدية التي كانت تقف في مواجهته . ورضي التركي لنفسه بتأسيس ولاية Vilayat جديدة ، لم يكن يسيطر فيها ، في واقع الأمر ، إلا على الشريط الساحلي الممتد إلى قطر ، وواحة الأحساء هي الوحيدة التي تقع نحو الداخل ، ثم أضفى على عبد الله لقب "قائمقام Kaimmakam نجد" . على كل حال ، فقد ثبت أن الغزو الذي قام به مدحت باشا كان حاسمًا ، وذلك بالرغم من تمرد الأحساء أكثر من مرة . ولكن القرامطة(**) أيضًا كانوا يكرهون مدحت باشا التركي ، مثلما كانت تكرهه أيضًا

(*) كانت بدشهر – وهي ميناء يقع على الساحل الشرقي من الخليج العربي – مركزا للمقيمية البريطانية منذ عام ١٨٢٢ حتى انتقلت إلى البحرين في عام ١٩٤٦ ، ثم ألغيت في عام ١٩٧١ عقب الانسحاب البريطاني من الخليج العربي .

وقد عين الكولونيل لويس بلي مقيمًا سياسيا بين عامي ١٨٦٢ – ١٨٦٨ . وفي عام ١٨٦٥ قام بزيارة الأمير السعودي في عاصمته الرياض ، ونجح في الحصول على تعهد من الإمام فيصل بن تركي بمنع رعاياه من الاعتداء على السفن البريطانية في الخليج . (المراجع) .

(**) المقصود بالقرامطة شيعة الأحساء . (المراجع) .

البقية الباقية من الوهابيين فى المنطقة الساحلية ، الأمر الذى اضطر مدحت باشا إلى الإبقاء على حصاره للواحة منذ ذلك التاريخ ، ولم يكن يسمح للأوروبيين بالدخول إلا لليمن فقط . هذا يعنى أن مدحت باشا كان قد قرر البقاء فى منطقة الهفوف والأحساء . وبالرغم من أن الأحساء كانت صغيرة ، ومعزولة ، ومكلفة إلا أنها كانت تتحكم فى أفضل طريق مؤد إلى منطقتين من الجزيرة العربية كان الخليفة يضع عيناه عليهما منذ زمن بعيد ، ألا وهما : عمان ونجد .

هذا السهب الزلطى ، الذى ينزل على شكل تموجات طويلة تمتد نتوءاتها من الشمال إلى الجنوب إلى أن تصل الساحل غير المأهول بالسكان ، يعود إلى الظهور من جديد عندما تبدأ مياه الأحساء فى الاختفاء فى الرمال . هذه الأحساء لا يعرف عنها سوى القليل جداً ، كما أن المتيسر عنها من المعلومات قليل جداً أيضاً ، إلى أن نتجاوز حدود الجزيرة العربية ونصل إلى دلتا نهر الفرات . والأوروبى الوحيد الذى شاهد اتساع هذه المنطقة ، وبخاصة فى الجزء الواقع منها بين القطيف والكويت ، هو لويس بيلى Pelly الذى كتب تقريراً عن كل ما هو موجود على الجانب الأيمن والجانب الأيسر من الطريق الذى سارت فيه جماعته فى العام ١٨٦٥ الميلادى ، وقال : إن الطريق خال من المعالم تماماً وخال من الماء أيضاً . وخلال الموسم الذى قام فيه بيلى برحلته ، وكان ذلك فى شهر فبراير ، كانت نباتات المنطقة شاحبة وقليلة ، وذلك بسبب الأمطار التى سقطت مؤخراً ، ولكن الرجل لم يشاهد أية مستوطنة من أى نوع ، ولم ير فى المنطقة أى نوع من الشجر . ولم يشاهد بيلى أية خيمة من خيام بدو ، بنى خالد ، أو آل مرة ، أو عجمان ، منصوبة فى تلك الأرض ، التى لا يودها أو يرغب فيها أى أحد من الناس . هذا السهب ينتهى ناحية الغرب على شكل مخاد من الحجر الرملى ؛ هذه المخاد الرملية تشكل أول نتوءات الرقعة الجرداء الضيقة ، والتى تتصل رمالها برمال الصحراء الجنوبية ، لتنضم كلها بعد ذلك إلى رمال شمالى النفود .

شواطئ هذا السهب البائس تشبهه تماماً - فهى خالية من نهايات الوديان ، وليس فيها من الماء شيء سوى الماء المالح ، كما يخلو ذلك السهب أيضاً من المساكن

المستديمة على امتداد مسافة ثلاث درجات تقريباً من دوائر العرض ؛ أى على امتداد المسافة فيما بين القطيف والكويت . يحدث التغيير عندما نصل إلى الخليج العميق ، الذى تقع الكويت على شاطئه الجنوبى . فى هذه المنطقة توجد واحة كبيرة من واحات النخيل ، تمتد إلى مسافة قصيرة نحو الداخل فى أعلى حوض وادى واسع ضحل ، يبدو أنه مخرج من مخارج الصرف الكبير فى شمال الجزيرة العربية ، الذى يطلق عليه اسم : وادى الرمة . هذا المخرج لا يجرى فيه الماء إلا بعد هبوب العواصف العاتية ، ولكن الماء يمكن الحصول عليه عذبًا وسائغًا على بعد أقدام قليلة تحت السطح . وفرة مياه الأبيار ، وواحة النخيل ، والخليج المحمى المنفتح على الخليج الفارسى ، وجود هذه الأشياء كلها فى رقعة صحراوية صحية ، لا تبعد سوى مسير يوم واحد عن أقرب مخرج من مخارج تصريف مياه بلاد الرافدين ، هو الذى جذب أنظار المروجين من أبناء الفرات إلى الكويت ، منذ بداية مشروعات الخط الحديدى الآسيوى(*) . هذه البلدة البدوية الصغيرة الزاهرة يمكن أن تكون محلاً لصراع كبير (أوحل وسط) بين المتنافسين الغربيين فى الشرق ، وسوف تعنى هذه البلدة الكثير والكثير لأوروبا أكثر من مجرد كونها بقعة أو منطقة أخرى فى الجزيرة العربية ، اللهم باستثناء عدن فقط . هذه البلدة البدوية الصغيرة لن تقتصر أهميتها على أوروبا لوحدها . السبب فى ذلك أن هذه البلدة هى بوابة الجزيرة العربية من الناحية الشمالية الشرقية ، وامتلاك مفتاح هذه البلدة سوف يمكن الخليفة من الوصول بسهولة إلى المنطقة الساحلية من نجد ، كما سيمكنه أيضا من الوصول إلى المنطقة الداخلية الكبيرة ، التى يطمع الخليفة فيها لعلاقتها الجغرافية بمنطقة الحجاز الثمينة . وشيخ الكويت عندما أعلن ولاءه لمدحت باشا فى العام ١٨٧١ الميلادى حصل على وعد منه بأن بلدته سوف يكون لها استقلال إدارى ذاتى ، ولكنها ستظل قضاءً Kaza عثمانيًا (أى من الممتلكات العثمانية) ، وقبل شيخ الكويت لنفسه ولورثته من

(*) المقصود به خط سكة حديد بغداد الذى بدأ التفكير فى هذا المشروع فى عام ١٩٠٨ . (المراجع)

بعده لقب قائمقام . هذا يعنى أن تركيا لن تكون بلا حقوق فى الكويت ، كما هو الحال فى المجاملات الدولية عندما تترك للأمم السلطات العليا والاستقلال . يتبقى بعد ذلك أن نرى إن كانت تركيا سوف تؤكد هذه الحقوق ، أم أنها سوف تحصل على ثمن نظير إعطاء هذه الحقوق لدولة مسيحية .

مراجع الفصل العاشر

Aucher Eloy, Relation de Voyages en Orient, edited by the Comte de Jaubert (Paris, 1843) .

S. B. Miles in G. J., 1896, p. 522 and 1901, p. 465, and also in Journal of the R. Society of Bengal, vol. xivi., i., p. 41.

S . M . Zwemer, in G. J., 1902, p. 54. On Major Cox's Journey, see note in G. J., 1902, p. 452

W . G . Palgrave, Central and Eastern Arabia, vol. ii., chaps . xii. and foll.

Lewis pelly, in J. R. G. S., 1866., p. 169. Cf. Proceedings, 1864 - 65, p. 295, and J. R. G. S., 1865, p. 178.

الفصل الحادى عشر

الشمال الأوسط

هيا بنا إلى قلب الجزيرة العربية ، حيث السهول الأوسع ، وإلي تقارير المغامرات التي اكتسبت أو استحقت المزيد من الشهرة . نحن أغفلنا مسألة استكشاف نجد اعتباراً من العام ١٨٥٠ الميلادى ، ولكننا فى تناولنا لأراضى الحدود فى الجزيرة العربية ، اعتباراً من ذلك التاريخ ، استطعنا مرة أو مرتين ، أن نلقى نظرة عابرة على أولئك الرحالة النازلين إلى الجزيرة العربية ، أو الصاعدين منها ، أولئك الرحالة الذين من قبيل كل من بالجريف ، ودوتى Doughty وهوبر . الرحالة الأوربيون كلهم ، بدءاً من سادلير Sadlier هاجموا قلب الجزيرة العربية من الناحية الشمالية . ونحن بدورنا سوف ندخل الجزيرة العربية من الشمال أيضاً ، وسوف نتجه جنوبياً ، لنبدأ ، فى نهاية المطاف ، تناول ، ذلك القلب الشاسع من جنوب الجزيرة العربية ، الذى لم تره عين أوروبية ، وربما ، فى الأغلب الأعم ، لم تطؤه قدم أوروبية .

نحن بدورنا ، اقتفينا أثر المسار الذى سلكه والين عبر رمال صحراء النفود الكبيرة ، التى تقع فيما بين الجزيرة العربية والكتلة القارية الآسيوية ، ذلك الحاجز المرعب الذى يحرس بوابات الاقتراب من هذه الأرض والدخول إليها . لو كان الرائد السويدى قد حكى قصة رحلاته على الفور ، وأفاض فى حكيها ، مع التقليل إلى حد ما من الجانب العلمى ، لو حكى الرجل هذه القصة من خلال وسيط أكثر تشويقاً ، لتبعه الكثيرون وراحوا يسيرون على الطريق نفسه ، ولاستطاع أن يسرق أو يجرد

واحداً من أولئك الذين جاءوا بعده من جزء كبير من الإثارة التى ترتبت على الفرصة التى أتيحت له . السبب فى ذلك أن والين عندما غادر شمالى نجد للمرة الأخيرة ، لم يكن قد أثبت ودلل على إمكانية عبور صحراء النفود ، وإنما اكتشف الرجل أيضاً ذلك التنظيم السياسى البارز للفروسية البدوية ، الذى نشأ مؤخراً فى جبل Jabal الشمّر Shammar، ليتمكن من الوقوف على ذلك الذى كان يستهوى مستكشفى وسط الجزيرة العربية ويشدهم إليه ، وذلك اعتباراً من رحلة بالجريف . ترسخت ممتلكات الشمر بعد وفاة عبد الله بن الرشيد فى العام ١٨٤٧ الميلادى ، ولم يكن ينتظر تلك الممتلكات سوى التوسع على أيدى الخلف الذين جاءوا من صلب مؤسس ثروات وحظوظ تلك الأسرة . ولكن إذا كان والين قد أورد القليل جداً فى تقريره عن النفود ، إلا أن التفاصيل الكثيرة التى أوردها ذلك الرجل عن إمارة حائل جرى التعبير عنها بطريقة مرتبكة وغير شيقة . وتأسيساً على ذلك ، فإن الأوروبى الذى جاء بعد والين بخمسة عشر عاماً ، إلى جبل الشمر ، وجد (وترك) نقاطاً كثيرة من جغرافية شمالى الجزيرة العربية معلقة وغير مستقرة وذلك على العكس مما لو كان واحداً له وزن وعيار والين Wallin قد مر بهذه المنطقة الشمالية ، وكانت روايته تستهدف تحريك شكل من أشكال الإيحاء . هناك بعض الأسباب التى تجعلنا نظن أن بالجريف عندما بدأ القيام برحلته لم يكن على علم تماماً ، مثل عامة الناس ، بالاكتشافات التى حققها من سبقه إلى ذلك المكان ، بالرغم من أن والين أصبح على علم بتلك الاكتشافات قبل الجلوس لإعداد العدة لكتابة قصة الرحلة التى قام بها . المؤكد أن بالجريف لم يدخل الجزيرة العربية مستهدفاً اختبار صدق تلك الاكتشافات أو توسيع دائرتها ، ولكنه دخلها لأسباب مختلفة تماماً ، وقد تكون شبيهة بتلك الأسباب التى دفعت والين إلى القيام بمغامرته .

فى أواخر شهر يوليو من العام ١٨٦٢ الميلادى ، نزل سوريان غريبان ، سواء أكانا تاجرين أم مطعِّمين ضد الجدرى ، أم كلاهما معاً ، من فوق دابتيهما أمام قلعة

حائل ، ووسط جمع غفير غريب راح الرجلان ينتظران كرم الأمير ، كان واحدٌ منهما يدعى سالم Salim أبو محمود Mahmud العيص al-Ays أما الثانى فكان يدعى بركات الشامي . وإذا كان الهدف الرئيسى من وصولهما إلى حائل أصبح معروفًا فى نهاية المطاف للأمير طلال(*) (وهذا على حد رواية سالم أبو محمود العيص) ، إلا أن ذلك الهدف لم يكن معروفًا لنا شخصيًا فى ذلك الوقت . ولكننا بوسعنا التأكيد على حقيقة لم يجر تفسيرها لحاكم الشمر تفسيراً صادقًا على وجه الإطلاق ؛ هذه الحقيقة ، هى أن الرحال الأصغر كان مظهره مثل مخبره ، إذ كان الرجل سورى من دمشق ، أما الرحال الرئيسى فقد كان إنجليزيًا من عرق عبرى من ناحية الأب ، وكان اسمه وليام William جيفورد بالجريف Palgrave، وكان من قبل ضابطًا فى الجيش الهندى ، ولكنه حاليًا قس يسوعى فى مؤسسة التبشير فى مدينة زحلة فى لبنان .

لماذا جاء بالجريف إلى حائل؟ قبل أن يروى الرجل قصة أسباب مجيئه إلى حائل ، نجده يقدم لمغامرته بعبارة حول هذا الموضوع يقول فيها :

"القارئ ، ربما يود أن يعرف الهدف المخصص لهذه الرحلة والظروف الحاكمة لها ، لقد كان يحدونى أمل كبير فى الإسهام فى شيء من أجل الصالح الاجتماعى لهذه المناطق الشاسعة : كان يحدونى أمل تحريك مياه الحياة الشرقية الراكدة حتى تلحق بأنهار التقدم الأوروبى الجارية ، وتتصل بها ؛ وربما لدى أيضًا دافع لتعرف ذلك الذى كنت أجهله حتى ذلك الحين ، وكذلك الرغبة فى الاستكشاف التى تملأ قلوب الإنجليز : كانت تلك هى الدوافع الأساسية ، ويمكن لى بصفتى المؤلف ، أن أضيف إلى ذلك ، أننى كنت منضمًا فى ذلك الوقت إلى الجمعية اليسوعية ، تلك الجمعية التى اشتهرت فى حوليات التاريخ بأعمالها التى تستهدف حب البشر والناس ؛ ويجب

(*) طلال بن عبد الله آل الرشيد تولى إمارة حائل عقب وفاة أبيه فى عام ١٨٤٧ ، وانتهى حكمه بانتحاره نتيجة لوثة عقلية أصابته فى عام ١٨٦٨ . (المراجع)

أيضاً أن أعترف ، بصفتي المؤلف بخالص شكرى لإمبراطور فرنسا(*) الحالى ، على كرمه فى توفير المخصصات النقدية اللازمة لهذه الرحلة" .

لكن بالجريف كان من عادته استخدام الكلمات فى إخفاء الفكر والأفكار . ويجب أن نتأكد من أنه عندما روى لطلال ووزيره فى حائل "رواية موجزة ولكن واضحة عن ظروف رحلته والغرض منها ، من أين وإلى أين ، ذلك الذى نرغب فيه وهذا الذى ننتظره أو نتوقعه" ، لم يقل شيئًا عن تسريع مياه الحياة الشرقية الراكدة . ورد عليه أمير الشمر فى نهاية المطاف "قائلاً ": عد على أى صورة تحلو لك ، ... وسوف يسرى كلامك هنا مسرى القانون ؛ وأن كل ما تود أن تراه منفذًا سوف يتم الالتزام به فى كل الأنحاء التى يغطيها حكمى" ؛ بل إن وزير طلال بن الرشيد أردف قائلاً : "مساهم نشط" فى آراء الغرباء . ترى ، هل كان هذان الزعيمان الوهابيان يتعهدان بمساعدة البعثات التبشيرية اليسوعية فى نجد من منطلق أسباب ودوافع المحبة ؟ ولكن ، ما هى الأسباب التى جعلت إمبراطور فرنسا يوفر المخصصات المالية لتلك الرحلة عن طيب خاطر؟

قد لا نتطلع إلى معرفة أسرار الكلية اليسوعية ، ولكننا يحق لنا استعادة بعض الحقائق التى تصلح لأن تكون فرضية علمية عملية ، معروف أن المذابح الكبرى التى جرت فى لبنان وفى دمشق حدثت فى العام ١٨٦٠ الميلادى ، وأعقب تلك المذابح تدخل أوروبى نيابة عن المسيحيين السوريين ، وفى ذلك التدخل الأوروبى سعى إمبراطور فرنسا ، نابليون الثالث فى ذلك الوقت ، وتآمر على أن يقوم بالجزء العملى فقط من ذلك التدخل ، وذلك عن طريق إرسال قوة استكشافية إلى بيروت دون انتظار لرفاقه . وكانت الإجراءات الحيوية والمهمة التى اتخذتها الحكومة العثمانية ، بضغط من كل من

(*) الإمبراطور نابليون الثالث كان رئيسًا للجمهورية الفرنسية الثانية باسم لويس نابليون ١٨٤٨ ، وفى عام ١٨٥٢ تمكن من تحويل فرنسا إلى النظام الإمبراطورى حتى عام ١٨٧٠ حين سقطت الإمبراطورية الفرنسية نتيجة لهزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية أمام بروسيا ، وعلى أثرها قامت الجمهورية الفرنسية الثالثة . (المراجع)

فرنسا وبريطانيا ، قد أزالت على وجه السرعة كل الأخطاء المحتملة لاندلاع تلك المذابح من جديد ؛ ولكن قوات الإمبراطور لم تكشف عن أى دليل من دلائل الانسحاب إلا بعد أن تبنى اللورد بالمرستون Palmerston موقفًا أوضح من خلاله أن بقاء قوات الإمبراطور – فى رأيه هو – له هدف آخر غير حماية الحياة المسيحية والممتلكات المسيحية . واقع الأمر أنه قد تأكد أن نابليون الثالث كان يهدف ، فى ذلك الوقت ، إلى احتلال سوريا احتلالاً فرنسيًا فاعلاً ، أو تأمين ذلك البلد لعميله الحاكم المصرى المناب(*) ، الذى كان الإمبراطور مهتمًا بخلافاته مع سيده العثمانى .

مع بداية المذابح الدمشقية ، استدعى نابليون (الثالث) إلى باريس بالجريف اليسوعى ، الذى كان يقيم منذ سنوات عدة فى سوريا ، تحت اسم "الأب ميخائيل" ، الذى كان الجميع يعرفون أن الاسم "كوهين" Cohen إنما هو اسم عائلة ذلك الرجل . هذا الأب ميخائيل ، كان يرتبط منذ ارتداده عن اليهودية إلى المسيحية ، ارتباطًا وثيقًا بالفرع الفرنسى من جمعية يسوع ، ولما كان بالجريف شخصًا متقلبًا ، فقد كانت الشكوك تدور من حوله فى بعض التعاطفات التى لا علاقة لها بجنسيته . ونظرًا لأن بالجريف كانت لديه موهبة الطلاقة اللغوية التى يتمتع بها اليهود ، ونظرًا أيضًا لأنه كان فيه الكثير من شخصية وطابع الشرق الأدنى ، فقد قدم الرجل نفسه للإمبراطور (نابليون الثالث) على إنه مبعوث محتمل إلى المجتمعات العربية . وأعيد بالجريف إلى دمشق من جديد فى العام ١٨٦٢ الميلادى ، واختار بالجريف واحدًا من المدرسين المحليين فى كلية زحلة Zahleh ، هو بركات Barakat الجريجراى Jurayjuray، ليكون له رفيقًا أمينًا ، واصطحبه إلى الجليل Galilee، وتنكرا فيها . وانتقل الاثنان من غزه Gaz إلى معان ، ويمما وجهيهما شطر كل من الجوف وحائل .

كانت مهمة هذين الرجلين دينية إلى حد ما فيما يتصل بمصالح الكلية اليسوعية فى الشرق فى ذلك الوقت إذ كانت تلك المهمة مرتبطة بمصير ومصالح فرنسا

(*) المقصود به الخديو إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) . (المراجع)

السياسية . هذا "الأب ميخائيل" لم يكن فيه شيء من الطبائع الرسوليه ، ونحن لا يمكن أن نزكى رجلاً ارتد عن دينه وعن كنيسته عقب عودته من رحلته مباشرة إلى الجزيرة العربية ، وفى خلال خمس سنوات بعد ذلك راح الرجل يكتب عن الاثنين محتقراً إياهما[1] ؛ وراح يكتب عن الأشياء كلها من منطلق روحى خالص . والأكثر ترجيحاً هنا هو أن هدف بالجريف الرئيسى كان يتمثل فى تنفيذ خطة سياسية معينة . ونحن عندما كنا نناقش الهدف من رحلة والين ، كانت السياسة المصرية مهتمة فعلاً بمنطقة نجد ؛ يضاف إلى ذلك أن عروض بالجريف لم تكن أول العروض التى قدمت لأمير من أمراء نجد نيابة عن فرنسا ، وبخاصة عندما علم العقيد بلى Pelly بذلك عندما كان يحضر مجلس الأمير فيصل . فى العام ١٨٦٢ الميلادى ، أدى الجزم بحتمية تنفيذ قناة السويس إلى زيادة اهتمام كل من فرنسا ومصر بالجزيرة العربية [2] ؛ يزاد على ذلك ، أن مسألة تأمين ضمان قوة فاعلة فى الأراضى الموجودة شرقى البحر الأحمر أصبحت أمراً مطلوباً ومرغوباً فيه من نابليون (الثالث) حتى يمكن تأسيس ممتلكات فرنسية أو فرنسية ـ مصرية فى سوريا .

نحن بدورنا لا يمكن أن نتجاوز هذا الحد ، إذ يحتمل أن لا يعرف أحد البنود الدقيقة لمهمة بالجريف . ولم تسفر تلك المهمة عن شىء فى نهاية الأمر ؛ والسبب فى ذلك أن المدافع الألمانية كانت قد غيرت ، عقب افتتاح قناة السويس مباشرة ، ثقل فرنسا فى الميزان العالمى(*) ، ولكن فيما يتعلق بالطابع العام لمهمته فنحن لا نقل شكاً فيها عن شك معاصريه . وعندما عاد بالجريف من رحلته استقبله إخوانه المواطنين استقبالاً فاتراً ؛ وفى الوقت الذى كانت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية تستمع إلى تقريره وقصته ، كانت شقيقتها الجمعية الفرنسية فى باريس تكرم وتمتدح الرجل الأول الذى عبر وسط الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب .

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى هزيمة فرنسا أمام بروسيا فى الحرب السبعينية ١٨٧٠ . (المراجع)

لقد أطلت فى تناول مهمة بالجريف وذلك حتى يمكننى تمهيد القارئ لتلقى الانتقادات التى وجهت إلى التقرير الذى كتبه بالجريف عن رحلته . ومن الضرورى هنا توضيح أن ذلك المستكشف ذهب إلى الجزيرة العربية حبًا ووفاء للعلم ، ولم يذهب إليها أيضًا بدافع من الضمير العلمى الذى يمكن أن يجعله يلاحظ كل ما رآه وما سمعه ، ويقيم دقة العبارات . الواقع أن بالجريف ذهب إلى الجزيرة العربية لمصلحة مختلفة ، التى كان مفترضًا أن تعطيه انحيازًا من نوع معين . قال بالجريف : إنه فقد أوراقًا كثيرة فى حادث تحطم القارب الذى وقع له على ساحل عمان فى نهاية رحلته ؛ ولكننا نشك فى احتواء تلك الأوراق على أى شىء من الأوراق ذات الطابع العلمى . وخطأ بالجريف فى تدوين الملاحظات يتمثل فى اعتماده تمامًا على الذكريات والانطباعات ؛ ولم يهتم بأن يقول للقارئ الأساس الدقيق الذى يمكن أن يؤسس عليه القارئ تأكيداته أو استخلاصاته . واقع الأمر أن كتاب بالجريف يوحى للقارئ بأن مؤلفه لم يتأمله منذ البداية ، الأمر الذى جعل الجمعية اليسوعية تحتج على نشر الكتاب دون فرض عقوبات عليه (٢) .

ومن المؤكد أن التفسير البديل الواضح لمبالغات بالجريف الكثيرة ، ومحذوفاته الكثيرة أيضًا ، وكذلك عباراته الخاطئة التى حظيت برضى "كبار النقاد" ، إنما يعد أمرًا خاطئًا وغير موفق تمامًا ، والمعروف وبلا أدنى شك ، أن بالجريف قام بالرحلة التى وصفها . وكل من زاروا نجد من بعده ، لم يشككوا فى مصداقية تلك الرحلة ، وأن الكثيرين منهم شهدوا بدقة تقريره فى بعض النقاط ، وقالوا : إن هذه الدقة لا يمكن أن تصدر إلا عن طريق شاهد عيان . من هنا ، فإن بارون Baron نولد Nolde ، يأتى على ذكر ذلك التقوُّل ليفنده على أنه "ليس صحيحًا ، ولا يشكل تعارضًا فى أغلب الأحيان"(*) . وهذا هو مستكشف آخر من المستكشفين الثقات ، شارلز مونتاجو دوتى

(*) هذه العبارة وردت باللغة الألمانية وقد ترجمتها إلى العربية الأستاذة صفية أبو ستيت مديرة شركة لوفتهانزا سابقًا . (المترجم).

، يقول فى خطاب أرسله لى شخصيًا ، إنه لا يشك ولو للحظة واحدة فيما قام به من سبقه (بالجريف) ، وأنه هو نفسه فهم ملاحظات بعينها وجهت إليه ، وهو فى حائل ، وكانت تشير إلى بالجريف(٤) . يضيف دوتى : "قال لى الكنينى"(*) فى عنيزة شيئًا من هذا القبيل: 'كيف يمكن أن تتجول فى أرض بلا قانون من هذا القبيل ، وتطلق على نفسك صراحة وعلانية اسم نصرانى وإنجليزى ؟ مثل ذلك الرجل [الذى لا أتذكر اسمه] لم يفعل ذلك أثناء ترحاله فى هذه البلاد' ." وأخيراً هذا هو ولفريد Wilfrid بلنت Blunt يكتب : "أنا لا أشك فى قيام بالجريف بالرحلة التى حكاها فى كتابه ... وأنا أشهد بصحة وصفه للحياة الاجتماعية فى نجد ، باعتبار أن هذه الحياة صورة أمينة لما رأيته أنا" . ويجب أن نقول هنا : إن وصف بالجريف لمجتمع نجد الواحى وثيق الصلة تمامًا بذلك الوصف الذى جاء به دوتى . وهذا بحد ذاته كفيل بدرء الشكوك كلها .

جاء المطعِّمان السوريان قادمين من معان سالكين الطريق نفسه الذى سلكه والين قبلهما ، وتوقفا قرابة ثلاثة أسابيع فى الجوف بسبب ممارستهما لتلك المهنة المنتحله . ورواية بالجريف عن السمات الرئيسية للواحة تتفق مع تلك السمات التى جاء بها من سبقه إلى تلك الواحة ، ولكن السمات التى جاء بها بالجريف كانت أكثر وصفية وتأثيراً . ويبدو أن بالجريف مصمم على الاستفادة من كل شىء إلى أبعد الحدود الممكنة . فالواحة تطيل نفسها إلى مسافة سبعين ميلاً ، وعدد سكانها يفوق أكبر التقديرات التى جاء بها الرحالة الآخرون ، والحدائق التى وجدها بلنت وزوجته صغيرة ومتواضعة ، هى من خلال عينى بالجريف شهيرة ، وتفوق أى مثيل لها فى نجد أو الحجاز ؛ والسكان ، الذى أدانهم والين Wallin، وقال إنهم فلاحون أجلاف توحى ملامحهم بالشر(٥) ، هم عند بالجريف أناس ظرفاء من حيث المظهر والمخبر . "جنون العظمة" هذا نجده أيضًا عند بالجريف عندما عبر صحراء النفود – لا ، بل

(*) الكنينى أو الخنينى – كما ينطق هذا الاسم عادة – كان واحداً من التجار الأثرياء فى عنيزة الذى ارتبط به الرحالة دوتى بصداقة وثيقة . (المراجع)

وفى صحراء النفود نفسها ، التى يراها "بحراً شاسعًا من النار" ، تسرى "موجاته التى احمرت بفعل الحرارة" من الشمال إلى الجنوب ؛ هذا البحر النيرانى يتراوح متوسط ارتفاعه ، بين مائتين وثلاثمائة قدم . وعليه فإن رحالنا (بالجريف) يقدر عدد سكان لقيطه Lakeita بحوالى ألفين وأربعمائة نسمة ، فى الوقت الذى قدر فيه والين عدد مساكن هذه القرية بما لا يزيد على مائة وعشرين منزلاً ؛ وقدر عدد سكان حائل بحوالى عشرين ألف نسمة ، والتى كان عدد سكانها فى ذلك الوقت لا يتجاوز نصف هذا العدد ، وفى العام الثانى بعد زيارة بالجريف قدر كارلو جوارمانى عدد سكان حائل بحوالى سبعة آلاف وخمسمائة نسمة .

وبالرغم من اصطباغ وصف بالجريف للنفود بالخيال إلا أنه له وزنه وقيمته أيضًا ، من منطلق أن بالجريف كان أول أوروبى يلاحظ حفر حدوة الفرس ، التى تشكل أشهر ملمح لتلك الرمال العميقة ، ولكن الناس لم يفهموه حق الفهم أو يعرفونه حق المعرفة . حفر حدوة الفرس هذه ، هى التى أطلق عليها البدو المرافقين له اسم فلج Falj على كل حفرة من هذه الحفر ؛ والكلمة 'فلج' عربية الأصل ، وهى تطلق على الحفر العمودية ، مثل تلك التى سبق وصفها فى عُمان Oman، حتى يمكن أن تتقاطع مع عروق المياه الموجودة تحت سطح الأرض ، وبذلك يمكن استغلال مثل هذه الأفلاج فى الرى على الطريقة الفارسية . ولكن لما كانت هذه الحفر قد جرى بحثها من قبل أولئك الذين جاءوا بعد بالجريف ، فهذا يحتم علينا تقديم بعض المستكشفين الآخرين ، قبل أن نتناول مشكلات النفود بالمناقشة ، أو قبل أن نمضى قدمًا مع السوريين إلى جبل الشمَّر .

ونحن يتعين هنا ، ونحن نتحدث عن كارلو Carlo جوارمانى Guarmani الذى جاء بعد بالجريف مباشرة ، أن نقتصر فيما نحن بصدده هنا على أنه إذا كان جوارمانى قد عاد عبر النفود قادمًا من جُبة Juabbe إلى الجوف Jafu فى العام ١٨٦٤ الميلادى ، إلا أنه لم يترك لنا رواية مفصلة عن هذه المرحلة الأخيرة من رحلته فى نجد . كان جوارمانى يتنقل بسرعة أثناء الليل ومعه مجموعة من الخيول ، ودون

سـابق علـم بما فـعله من جـاءوا قـبله إلى هذا المكان ، الأمـر الذى جـعله يفـشل فى ملاحظة الأشياء ذات القيمة فى منطقة الرمال . وبعده بأربعة عشر عامًا جاء شهود أكثر دقة وأكثر ملاحظة . وخلال شـهور قلائل أمكن عبور النفود من نفس مـسار بالجريف ؛ وقد قامت بذلك العبور جماعتان كانتا متجهتين إلى حائل ، بعد أن توفى الأمير طلال بن الرشيد ، وتولى بعده مقاليد السلطة ، الأمير محمد ، ابن أخيه ، وهو رجل قوى ، بل إن محمد بن الرشيد(*) ربما كان أقوى وأكفأ أعراب القرن الذى عاش فيـه . ذيوع صيت الأمن الصـارم الذى سرى بفضل هذا الأميـر فى شمـال الجزيرة العربية كله ، وذيوع صيت تفكيره الليبرالى ، همـا اللذان شجعـا اثنين من الأوروبيين على المخـاطرة بالدخـول إلى ممتلكات مـحمد بن الرشيـد وهمـا متنكرين ، كمـا دخل الممتلكات نفسها أيضًا ثلاثة آخرون بلا أى تنكر على الإطلاق .

أول هـؤلاء المسـتكشـفين الذين جـاءوا بعد بالجـريف هو الفـرنسى ألاسـتيـان Alastian شارل Charles هوبر Huber، صاحب الذكرى المأساوية . تعود ذلك الرجل على أساليب العرب بحكم إقامته فى سوريا ، ومن الواضـح أنه كان متجانسًا ومتوافقًا مع مجتمـع العرب ، وبناءً على ذلك كلفته وزارة التثقيف العام باستكشاف نجد ، إلى أبعـد الحدود التى يمكن أن يصل إليـها ، وذلك من أجل العلم بشكل عـام ، ومن أجل المصـالح العـامـة لجنسـيتـه بشكل خـاص . وبحكم تـدريب هذا الرجل ليكون عـالمًا أو متـخصصًا من متخصصى الطبيعة ، فقد حولتـه الظروف إلى أثرى ، أو بالأحرى إلى واحـد من أولئك العاملين فى مـجال الآثار . وصل هوبر قادمًا إلى الجـوف من دمشق عن طريق بلدة بُصرى Bosra وبلدة كاف Kaf فى أواخر شـهر مـايو من العام ١٨٧٨ الميـلادى ، وفى اليـوم الأول من شـهـر يونيـو توجـه الرجل إلى حـائل . وقطـع الرجل مـسافـة الممـر الرملى الموجـود بـين أبيار الشـقيق Shakik، وجُبة Jubbe، بالرغم من

(*) الأمير محمد بن الرشيد : تولى الحكم فى إمارة جبل شمر فى عام ١٨٧٢ وتوسعت الإمارة فى عهده توسعًا كبيرًا وتمكن من الاستيلاء على الرياض والقضاء على الدولة السعودية الثانية فى موقعة المليداء فى عام ١٨٩١ وظل يحكم نجد بكاملها حتى وفاته فى عام ١٨٩٧ . (المراجع)

شدة الحرارة فى ذلك الفصل من العام ، قطع هذه المسافة فى ستة وسبعين ساعة ، أى أقل من والين بإحدى عشرة ساعة ، سالكًا المسار نفسه ، مستعملاً أيضًا دوابه الضعيفة . كان بالجريف قد عبر ذلك المجاز الرملى فى خمسة وثمانين ساعة ؛ أما جوارمانى فقد قطع ذلك المجاز فى مدة لا تزيد على خمسين ساعة .

عثر هوبر على محمد بن الرشيد فى معسكره المقام فى أم Umm الدليبهان el-Dulbhan، على حافة الصحراء وجرى استقبال هوبر بعد التظاهر بالنطق بالشهادة ، وحظى هوبر بثقة محمد بن الرشيد إلى أن لقى حتفه المؤلم . كان مفترضًا أن يقوم ألاستيان شارل هوبر بعبور النفود مرة ثانية خلال شهر أكتوبر من العام ١٨٨٣ الميلادى ؛ وكان ذلك الشهر مطيرًا على غير العادة ؛ كان عبور ألاستيان شارل هوبر للنفود فى هذه المرة بصحبة جوليوس Julius يوتنج Euting، المستشرق الإستراسبورجى(*) الذى جرى تشجيعه من قبل ملك فيرتمبرج (**) Würtemberg هو واللواء منتويفل Manteuffel على الانضمام إلى بلدياته ، حتى يمكن تسجيل الآثار المنقوشة القديمة – التى سبق أن شاهدها هوبر بواسطة باحث خبير فى النقوش السامية . عملية العبور هذه لا تتوفر لنا عنها معلومات كثيرة ، وقد قام بإعداد تلك المعلومات القليلة أناس آخرون بعد اغتيال هوبر فى العام التالى ؛ ولكن يوتنج نشر رواية كاملة عن ذلك العبور .

المجموعة الثانية التى غامرت بعبور النفود بعد ذلك بشهور قلائل من عبور هوبر لها أول مرة ، تظل عملاً فريدًا بين جماعات الاستكشاف فى الجزيرة العربية ؛ والسبب فى ذلك أن هذه الجماعة لم تكن تحتوى على مجرد امرأة أوروبية ، وإنما لأن هذه الجماعة لم تكن ترمى إلى هدف علمى أو تجارى أو سياسى عاجل ؛ هذا يعنى أن هذه الجماعة قامت بذلك العبور بدافع من الفضول الرومانسى ومن باب التعاطف

(*) نسبة إلى مدينة ستراسبورج Strasburg . (المترجم)

(**) كانت هذه المملكة تقع فى جنوب غرب ألمانيا . (المراجع)

الخيالى مع المجتمع البدوى . كان ويلفريد Wilfrid سكاون Scawen بلنت Blunt، الديبلوماسى والشاعر ، هو وزوجته ، حفيدة اللورد بايرون (الشاعر الإنجليزى) ، واللذان استبدءا حياة الصحراء قبل ذلك بأربع سنوات أمضياها بين رجال قبائل العناز والشمر فى الحماد (الصحراء) وفى سهوب بلاد الرافدين ، قد أعربا عن رغبتهما لرؤية أساس ومركز أرقى وأنقى السلالات العربية وأنقى أنواع لحوم الخيل . وعن طريق علاقة من علاقات الفروسية ، التى أقاماها مع أسرة من أسر واحة تدمر ، والتى جاءت أصلاً من واحة الأحساء ، أمكن لهذين الزوجين القيام بالرحلة المطلوبة ؛ ثم وصل بلنت Blunt إلى الجوف مع مطلع العام ١٨٧٩ بحثًا عن عروس لشقيقه ذلك الشاب الصغير الذى ينتمى لبيت من بيوت تدمر .

تم الزواج فى حائل ولكن الجماعة واصلت مسيرها لتلتقى أمير الشمر لقاء الشجعان بألوانهما الحقيقية وبلا زيف أو نفاق ، قابلا الأمير باعتبارهما من نبلاء أوروبا وبريدا أن يحييا بيت الرشيد النبيل . أظهر الأمير محمد ، الذى لم يرفض ذلك الطلب، شيئًا من الكياسة المشوبة بالحرج والقلق . وكان على الأمير مراعاة مغالاة ذلك القطاع الوهابى من مواطنيه ، الذين استثارتهم تعديات الفرنجة على أسوار بلدهم الأمين (٦) ، كما استثارهم أيضًا ذلك المنظر الجديد لتلك المرأة الإفرنجية . ومن حسن الطالع أن زيارة بلنت هو وزوجته لم تستغرق وقتًا طويلاً ، وجرى توديعهما بصورة نهائية وداعًا عامرًا بحسن النية والطوية .

وهذه المغامرة بالرغم من رومانسية مفهومها ومنجزاتها ، وبالرغم أيضًا من عدم علمية الأسباب التى ساقها المغامرون ، إلا أن رواية هذين الزوجين عن المغامرة يمكن أن تضارع أية رواية من الروايات الأخرى المعنية بتلك المنطقة ، من حيث الاتزان والدقة ، فضلاً أيضًا عن الملاحظة والتعاطف . واليوميات التى كتبتها السيدة آن Anne بلنت Blunt، وكذلك الملاحظات التى أضافها زوجها إلى تلك اليوميات ، تعد إسهامات هى فى علم الجغرافيا أقيم بكثير مما يدعون ، كما أن هذه اليوميات لا

يمكن إهمالها أو تجاهلها حتى فى وجود أولئك المراقبين المتفحصين للحياة العربية من أمثال بالجريف ، وجوارمانى ودوتى ، من خلال الخبرات التى سجلوها ودونوها ، أو حتى فى وجود أولئك المستكشفين الذين عبروا تلك المنطقة وهم مزودين بالعدة والعتاد من أمثال والين Wallin، وهوبر Huber ويوتنج Euting .

لم يعبر الرمال الشمالية ، منذ العام ١٨٨٣ الميلادى سوى أوروبى واحد ، على حد علمنا(٧) ، هذا الأوروبى هو ، على وجه التحديد ، إدوارد Edward نولد Nolde، الذى بدأ من دمشق بصحبة حاشية كبيرة ، وذلك فى شهر يناير من العام ١٨٩٣ الميلادى ، مستهدفًا زيارة الأمير محمد بن الرشيد فى حائل . ويبدو أن نولد كان قلقًا إلى حد ما ، كما كان أيضًا جنديًا خظيظًا ورائعًا إلى حد ما ، إذ كان الرجل يبحث عن المغامرات الواحدة بعد الأخرى ، إلى أن جاءت نهايته على يديه هو عندما كان فى لندن فى العام ١٨٩٥ ؛ يضاف إلى ذلك أن قدرة هذا الرجل وإرادته فى ملاحظة ذلك الذى يتطلع إليه الجغرافيون ، لم تكونا كما ينبغى أن يكون . وقيمة ذلك التقرير يتيم الأب الذى صدر بعد وفاة الرجل تتمثل فى أن ذلك التقرير سجل التغييرات السياسية تسجيلاً تاريخيًا ، وبخاصة تلك التغيرات التى حدثت فى مملكة الأمير (محمد بن الرشيد) ، وبخاصة علاقات ذلك الأمير بالسلالات البدوية الرئيسية ، وعلاقات ذلك الرجل مع القوة الحاكمة فى الرياض . ولما كان نولد Nolde قد حقق اختراقًا لمسافة قليلة فى جنوب نجد ، فى المنطقة الواقعة خلف القصيم ، فسوف نعيد الحديث عن الرجل مرة ثانية ؛ ولكن ينبغى أن نورد هنا ملاحظة مفادها أن نولد وحده هو الذى عبر النفود من مسار غير المسار الموصل إلى جُبة Jubbe . وأن المسار الذى سلكه نولد انحرف ناحية الشرق بعد دخول منطقة الرمال ، ثم اتجه بعد ذلك صوب الجنوب الشرقى قاصدًا حائل ، ليصل الرجل إلى الماء من جديد ، بعد أن قطع مسافة مائة وثمانين ميل ، فى الحيانية Haiynie، تلك القلعة الصحراوية من قلاع الأمير ، والتى جرى حفر أبيار قديمة إلى أعماق بعيدة خلال الصخر ... هذه القلعة هى حاليًا لحماية البدو التابعين والسيطرة عليهم ، وبخاصة عندما يرعون قطعانهم فى النفود فى فصل الربيع .

هؤلاء هم شهود العيان الذى يمكن أن نعول عليهم فى مسألة صحراء النفود ، وكلهم لم يتطرقوا إلا إلى منتصفها ، وهناك بعض المدقات ، أو إن شئت فقل : المسارات الأخرى تمتد عبر النفود ، وبخاصة ذلك المدق أو المسار المباشر الذى يتجه من الجوف إلى واحة تيماء ، الذى حدد غليه دوتى المحطات ؛ ولكن هذا المسار لم يسلكه دوتى ولا أى أحد آخر . ونحن ليس أمامنا من خيار سوى استخلاص تسعة أعشار طبيعة ذلك المسار ، الذى يغطى سبع درجات من خطوط الطول وأربع درجات من دوائر العرض ، وذلك من خلال ذلك العشر الذى تمت رؤيته ومشاهدته .

النفود إذا ما جئناها من الشمال أو اليمين تبدو لنا رمالها وكأنها ترتفع فجأة فوق مستوى السهوب المجاورة لها والأكثر منها صلابة ؛ وأرضية هذه السهوب الجيرية تمتد أسفل تلك الرمال . كان بلنت على يقين من أن تلك الأرضية تنحدر نحو الأعلى على امتداد الطريق من الجوف إلى جبل شمر ، على الرغم من أن الكتلة الرملية التى فوق هذه الأرضية قد تنحدر مرة ثانية انحدارًا خفيفًا تبتعد فيه عن وسط النفود . وقد حدد يوتنج Euting ارتفاع أعلى كثيب من الكثبان الرملية بحوالى تسعمائة وستين مترًا فوق مستوى سطح البحر . أما دوتى فقد شاهد حافة النفود وكأنها تقف مثل سلسلة من التلال البيضاء وذلك اعتبارًا من منطقة السهب إلى شرقى تيماء . أما مسألة إن كان هناك ارتفاع من الشرق إلى الغرب فلم تتأكد بعد ، ولكن ذلك أمر محتمل أيضًا ، وفى الأجزاء الجنوبية والغربية من النفود توجد أعمق الأحواض الرملية ، التى يصل سمكها إلى ما يتردد بين مائتين وثلاثمائة قدم . ويقول نولد : إن الكثبان الرملية فى أقصى الشرق يقل ارتفاعها ، ويصبح السطح أكثر انبساطًا ، وهذه الملاحظة أيدها أولئك الذين وصلوا إلى الحدود الشرقية وهم فى طريقهم من جبل شمر إلى وادى الفرات ، واكتشفوا أن المناطق الرملية أصبحت متقطعة وأقل سمكًا .

فيما يتصل بالتضاريس العامة للسطح الرملى نجد أن هناك اتفاقًا فى الأدلة والبيانات التى جاء بها الرحالة . ذلك أن الرحالة كلهم كانوا يعرفون أن هناك تموجات

طولية ، تمتد محاورها من الشمال إلى الجنوب ؛ ولكن تلك التموجات تختلف اختلافًا كبيرًا من حيث متوسط المسافة بين الأغوار والحواف . وربما يصل الفارق في المستوى إلى ما يقرب من مائة قدم . هذا يعنى أن طبيعة الرمل ليست واحدة فى الأجزاء كلها . وإذا كان هذا الرمل خاليًا من الطين ومن الجير فى كل الأنحاء ، إلا أنه أكثر كثافة واحمرارًا فى الوسط عنه فى الحواف الشمالية أو الجنوبية . يقول يوتنج Euting إن شمال النفود يشبه حقلاً من الجليد ؛ ودوتى هو الآخر شاهد الكثبان الرملية الجنوبية بيضاء اللون فى ضوء الشمس . وجسيمات الرمل فى الوسط قليلة الانحراف وذلك على العكس من رمال الحدود . هذا لا يعنى أن النفود لا تسقط عليها الأمطار . فقد شاهد هوبر بركًا من الماء فى شهر أكتوبر ، كما مر نولد Nolde هو الآخر بتجربة سقوط البرد على النفود فى اليوم الثانى من شهر فبراير ؛ لكن النفود ليس بها مياه سطحية جارية ، كما لا يظهر فى النفود أيضًا مجارٍ ناتجة عن حفر أو نحر الماء . ومع ذلك فإن الرمل ، وبخاصة النوع الأحمر الثقيل منه لا بد وأن يحتوى على قدر كبير من الرطوبة ؛ لأنه تكسوه من أعلى حياة نباتية صحراوية ، ليست سنوية النمو . وقد اندهش هوبر عندما قرأ وصف بالجريف للرمال ، وازداد دهشة لخضرة تلك الرمال وبخاصة أن ذلك كان فى شهر يونيو ؛ أما بلنت Blunt الذى لاحظ أن جوانب الفلج Falj كانت مكسوة أكثر من الأجزاء الأخرى فيقول عن النفود :

"إنها حلت له مشكلة تربية الخيول فى وسط الجزيرة العربية . فالأرض الصلبة ليس فيها ما يأكله الحصان ، ولكن هنا يوجد المزيد من ذلك العلف . والنفود تقدم بيانًا عن كل شيء . والنفود في واقع الأمر موطن البدو طوال القسم الأكبر من العام ، وذلك على العكس من كونها ذلك المكان المرعب المخيف ، على حد تعبير تلك القلة القليلة من الرحالة الذين شاهدوا النفود" .

رأى نولد Nolde قطعانًا هائلة ، يرعاها الرولة السوريون ، فى المنطقة المحيطة بالحيانيه ، كما اندهش رحالون آخرون لجماعات البدو التى تتجول فى الأرض

الخراب ، التى لم يكن يقيم فيها أحد فى ذلك الوقت . ويقال إن نياقهم الحلوب تصبر على الماء ثلاثة أسابيع عندما يجود عشب الصحراء ، مقابل أربعة أو خمسة أيام هى أقصى ما يمكن أن تصبر خلالها على الماء عندما تذوى الحياة النباتية الصحراوية ؛ وهذه الحقيقة هى التى تفسر ثقة البدو فى عبور تلك الصحراء من نقاط مختلفة وبقائهم على مسافات كبيرة من أبيار الماء . كما أن دوتى أعرب عن اعتقاده الذى مفاده أن الصحراء الجنوبية فى الجزيرة العربية يمكن عبورها بطريقة هؤلاء البدو ، مع استمرار نياقهم فى إدرار الحليب . يضاف إلى ذلك أن بعض الناس أتوا على ذكر حياة حيوانية كبيرة تتدرج من الوعول إلى الفئران فى رمال منتصف الطريق . وقد سجل معظم الرحالة ووافقهم دوتى على ما ذهبوا إليه ، من أن تلك الحيوانات لا تشرب الماء مطلقًا .

يتجادل الناس حول قضيتين فى مسالة النفود ، أولى هاتين القضيتين تتعلق بأصل التراكم الرملى لتلك الصحراء ؛ والمسألة الثانية تتعلق بالأفلاج ، التى تحدث فى المناطق الأكثر عمقـًا فى تلك الصحراء : هاتان المسألتان ليستا منفصلتين أو بلا رابط بينهما .

نحن هنا يجب أن لا تغيب عنا مسألة ملاحظة نوعين من الرمال فى النفود . ذلك النوع من الرمال البيضاء التى تميل إلى الاصفرار ، التى يسهل انجرافها ، وبذلك يمكن أن تكون قد أتت من مسافات بعيدة ، وذلك على العكس من حبيبات الرمال الحمراء الثقيلة . ونحن عندما نلاحظ أن تلك الحبيبات الرملية الحمراء تشكل رقعة واحدة فى وسط النفود ، وأن تلك الرقعة تكاد تكون عديمة الحركة ، ويجرى اعتراضها من ناحية المسار الشهير المطروق بواسطة كتلتين أو بالأحرى سلسلتين من سلاسل الحجر الرملى ، بلغتا من الدكنة والاحمرار حدًا جعل بالجريف يحسبها من الجرانيت ، وهنا نجد أن استنتاجًا طبيعيًا يفرض نفسه ومفاده أن حبيبات الرمال الحمراء إنما هى بقايا حوض محتضر من أحواض الحجر الرملى فوق أحجار الحجر الجيرى نفسها فى إقليم النفود ؛ ومن المحتمل أن يؤكد المزيد من الاستكشافات عبارة

يوتنج Euting التى مفادها أن تلك الطبقة يستمر ظهورها على شكل تلال مسطحة القمم . وقد أوضحت ملاحظات دوتى عن إقليم الحجر الرملى الذى فى الغرب وفى الجنوب الغربى ، الذى أغرقته الحمم البركانية ، ربما يكون هو المصدر الذى جاءت أو تجىء منه حبيبات الرمل الخفيفة . وقد ورد عند بالجريف (٨) أن المادة البركانية ، التى تشكل مصاطب هائلة فى الوقت الراهن ، والتى هى فى الأساس من الحجر الرملى تستمر على هذا الحال على سطح السهول المنخفضة فيما بين وحول مناطق الصخور البركانية . هذا يعنى أن القمم البركانية قد حفظت قسمًا من سهول الحجر الرملى من التعرية ، كما أن مسألة بقاء تلك القمم على ارتفاعها التى كانت عليه فى ذلك الحين – أى أثناء ثورة البركان – إنما تعد دليلاً دامغًا على الخراب والدمار الهائل الذى حدث فى الأماكن الأخرى . هذا يعنى أيضًا أن قدرًا هائلاً من تلك الجسيمات الرملية إنما جرى استطلاقه من تلك المنطقة ، والشىء نفسه ينطبق على أسطح الحجر الجيرى كلها فى شبه جزيرة العرب ، وذلك بفعل قوى التفكيك الطبيعية ، وهو ما يفسر مسألة الصحارى المتحركة كلها فى شبه الجزيرة .

هناك رقعة كبيرة من الحجر الرملى تقع فى الناحية الغربية من النفود ، حيث توجد التلال المستديرة من جبل شراة Shera . والرياح السائدة هنا (على الرغم من حجية بلنت ، التى جانبها التوفيق هنا) على حد قول كل أولئك الرحالة الذين تجولوا فى شمالى الجزيرة العربية تهب من الغرب ومن الجنوب الغربى(٩) ؛ وقد لاحظنا بالفعل أن الرمال تقل كثافتها فى الناحية الشمالية والناحية الشرقية من النفود عنها فى الناحية الغربية والجنوبية . وبذلك فإن جبل شراة الذى يقول دوتى إن صخوره "تشبه جبال الحجر الرملى الجرداء فى سيناء" ، واستمراره فى الامتداد ناحية الجنوب ، هو بمثابة المصدر الأساسى لرمال النفود المتحركة ، فى ظل الاحتمالات كلها .

تتبقى هنا مشكلة الفلج Falj . يرجع الكثير من الغموض الذى يحيط بحفر حدوة الحصان ، التى تنزل فى حالات قلائل ، بل فى أحيان نادرة تمامًا ، إلى أرضية النفود

الصلبة ، إلى الملاحظة غير الدقيقة والتعميم المتعجل المبنى على قلة قليلة من الأمثلة الواضحة الكثيرة . صحيح إن هذه الأفلاج ليست غريبة على تلك الصحراء ، ولكنها يمكن العثور عليها فى كل أرجاء صحراء الجزيرة العربية كبيرة العمق . هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن تلك الحفر ليست وقفًا على مكان واحد أو ثابتة فى مكان بعينه ؛ والسبب فى ذلك أن هوبر Huber يقول : إنه بالرغم من تأكيدات البدو له ، وليوتنج Euting، وإلى بلنت ، فإنه هو بنفسه رأى بعينيه مواقع الحفر المليئة بالماء ، كما رأى أيضًا حفرًا أخرى وهى بسبيلها إلى الامتلاء . يضاف إلى ذلك أن بلنت لا يعرض تلك الأفلاج على شكل خيوط غير منتظمة . هذه الأفلاج تمثل دومًا انحدارًا مفاجئًا ناحية الغرب وانحدارًا هينًا لينًا ناحية الشرق ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الأفلاج يكون لها مرافق لا يتبدل يكون موقعه عند أعلى نقطة فى تلك المنحدرات ؛ وقد لاحظ بلنت هو وزوجته ذلك المرافق ملاحظة لصيقة ؛ هذا المرافق ، على وجه التحديد ، هو عبارة عن جبيل ، أو كثيب من الرمل ، صغر أم كبر ، ولكنه يكون أبيض White المحيا Complexion، وذلك بغض النظر عن اللون العام لجسيمات الرمل فى أى جزء من أجزاء النفود . دراستنا لهذا الملمح تقنعنا بأن سبب الفلج ، هو الرياح ، أولاً وقبل كل شىء ، وهذا هو ما قال به بلنت وزوجته فى بداية الأمر (١٠) ؛ ثم نواجه بالآثار غير العادية لعملية التجريف العادية ، التى تؤدى إلى تحويل السطح الرملى إلى كثبان رملية ، تتناوب التجاويف التى تنتج عن الرياح . هاتان النظريتان اللتان سبق استعراضهما ، واللتان تعزوان هذه الظاهرة لرمال القاع المتسربة ، كما هو الحال فى الساعة الرملية ، سواء أكان ذلك التسرب بفعل المياه الجوفية (على حد قول بلنت) ، أو عن طريق عدم التساوى الأرضى الشبيه بالسلم (على حد قول يوتنج) ، هاتان النظريتان تبدوان حاليًا أقل احتمالاً عما كانت عليه فى يوم من الأيام فى ضوء الملاحظات التى سبق الإشارة إليها ، وهو ما يثبت أن تلك الحفر لا تختص

(*) هذه العبارة التى بين علامات تنصيص وردت باللغة الألمانية ، وقد ترجمتها إلى العربية السيدة صفية أبو ستيت مديرة شركة لوفتهانزا سابقًا . (المترجم)

بموقع بعينه كما إنها ليست ثابتة أو دائمة أو حتى متكررة ومنتظمة فى مواقعها . هاتان النظريتان لا تفسران الكثيب المرافق .

نحن إذن سوف نركز على الريح ونقول مع والثر " Walther إنه لا يوجد فى هذه المنطقة سوى الكثبان الرملية المتموجة ، أو بالأحرى المنقولة" (*) .

فى البداية تجزف الرياح الغربية الرمل ، وحيثما جرى اعتراض مسير تلك الرياح عن طريق دغل من الأدغال ، فإنها تكوم ذلك الرمل على شكل جُبيِّل صغير ، وذلك تطبيقًا للقاعدة الثابتة التى أوضحها مؤخرًا السيد / فوغان Voughan كورنيش Cornish أمام الجمعية الجغرافية الملكية ، والتى تقول إن مثل هذا الجبيل الصغير يكون له منحدر طويل فى اتجاه الريح فى حين يكون الجانب الآخر منحدرًا انحدارًا مفاجئًا . وخلف ذلك الجبيل الصغير تبدأ عملية الجرف من جديد ، وإذا ما اعترضها أى مانع جديد ، وإذا ما تكون كثيب رملى جديد ، فإن ذلك يؤدى إلى تجويف يشبه حدوة الفرس ، ويأخذ ذلك التجويف فى التعمق أكثر وأكثر من حيث الشكل الخارجى بحكم علاقة ذلك التجويف بالكثيبين الرمليين السابقين . وبذلك يميل الكثيب بعد ذلك إلى التناقص أو التحرك إلى الأمام طبقًا للقانون الشهير الخاص بانجراف الرمال ؛ ولكن دوران الريح حول جوانب الكثيب يمكن أن تؤدى إلى المحافظة على التجويف خاليًا ، بل ربما أدت إلى تعميقه أكثر وأكثر .

على كل حال ، فإن الريح إذا ما كانت قوتها هى تلك القوة المعتادة يصعب أن تكون قد أدت إلى تكويم الجسيمات الأثقل فى وسط النفود ، أو تسببت فى الأعماق الكبيرة التى نلاحظها فى التجاويف بين الحين والآخر . ومن المحتمل إذن أن تكون الكثبان الرملية هى والحفر التى تحدث فى الرمل الأحمر ، قد تكونت عن طريق العواصف الكهربية بالغة العنف التى لا تحدث إلا فى القليل النادر . هذه الحفر عندما تتكون يصعب أن تتأثر بالريح العادية فى المواسم العادية أيضًا ، وقد تظل على ذلك فترات طويلة دون أى تغيير فى شكلها الظاهرى على نحو يمكن أن يلاحظه البدو أو تعيه ذاكراتهم ، الأمر الذى يجعلهم يحسبون أن تلك الحفر موجودة دومًا وعلى طول

الزمان ، ثم يحدث بعد ذلك أن يستعملها الناس فى إقامة المخيمات . ولكن الرمال البيضاء الأخف من الرمال الحمراء ، والتى تهب دومًا هبوبًا خفيفًا على سطح الأرض الحمراء الأثقل منها ، يمكن أن تكسو الكثبان الرملية بطبقة من الرمال البيضاء فى اتجاه مهب الريح ، فى الوقت الذى يجرى جرف هذه الرمال البيضاء من التجاويف ، وهو ما يؤيد ما ذهب إليه كل من بلنت وزوجته ، من أن الفلج الأحمر لا بد أن يرافقه جُبيل أبيض .

هذا هو التفسير الذى يمكن أن ينطبق على هذه الظاهرة من ظاهرات النفود . غرائب أعمال الريح فى بعض الأماكن التى تهب عليها يمكن أن يفهمها الناس على نحو أفضل (على حد قول والثر Walther) إذا ما أمكن إخضاع حركة الحبيبات الثقيلة للدراسة نفسها التى أجريناها على الرمال الخفيفة ، (ونحن قد نضيف هنا) أيضًا ، إذا أجرينا المزيد من الدراسات على القوى الكهربية ، التى تلعب دورًا فى حركة كل أنواع الرمال على حد سواء .

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) راجع مقالات بالجريف عن المسائل الشرقية (١٨٧٠)، التى ينتهز الفرصة فيها ويروح يتكلم كلامًا لا يليق عن البابا ، وعن المعلمين اليسوعيين فى مدرسة القديس سوبلايس Suplice، وعن التقديس الهائل عند المسيحيين الكاثوليك". وبالجريف يقول عن البروتستنتية إنها" تصدم الذوق الإسلامى بدرجة أقل من المنظومة الكاثوليكية الحسية الدينية" .

(٢) راجع كتاب يوتنج المعنون تبوك Tagbuch الخ ص ١٦٩ ، للوقوف على علاقات الأمير طلال مع مصر فى تلك الفترة .

(٣) وجهة النظر هذه التى استطعت التوصل إليها لوحدى ، هى إلى حد بعيد وجهة نظر السيد ولفريد بلنت Blunt، الذى أبلغنى فى إحدى رسائله عن تفاهة الرواية التى أوردها بالجريف عن الخيول العربية ، التى أعرب عن اهتمامه بها . يضيف بلنت : "الفصل الذى كتبه عن الخيول ، يبدو كما لو كان قد كتبه فى فترة لاحقة ليسد به حذفًا كبيرًا أحدثه فى روايته عن البلاد" .

(٤) راجع كتاب "صحراء الجزيرة العربية" الجزء الأول ، ص ٥٨٩ ، ٦٠٤

(٥) أخر الزائرين ، وهو المبشر فوردر Forder، يؤيد ما ذهب إليه والين Wallin .

(٦) كانوا قد رأوا مؤخرًا كلا من دوتى وهوبر ، والمسألة هنا تتعلق بموضوع إن كانوا ، فى ذلك الوقت قد عرفوا الشخصية الحقيقية لكل من بالجريف وجوارمانى .

(٧) فى العام ١٩٠١ الميلادى ذهب إلى الجوف أ . فوردر Forder، ولكنه لم يتجاوز هذه المنطقة (المجلة الجغرافية ، ديسمبر من العام ١٩٠٢) .

(٨) ورد ذلك فى كتاب بالجريف وفى بحثه الذى قدمه للجمعية الجغرافية فى اليوم السادس والعشرين من شهر نوفمبر من العام ١٨٨٣م .

(٩) هذا نقلاً عن الخطاب الذى أرسله أى . أيه . فلوير Floyer إلى السيد/ فوهان Vaughan كورنيش عن تحركات الرمال حول العريش (المجلة الجغرافية ، مايو ١٨٩٨) . يقول الرجل إن قناة السويس قد تسببت فى وجود حزام عرضه عشرة أميال خال من الرمل المنجرف .

(١٠) راجع جى والتر Walther فى تقريره المعنون "التعرية فى غرب الجزيرة العربية من المنظور الرياضى والطبيعى" الوارد فى مجلة الجمعية العلمية الغربية ، الفصل ١٢٦ ص ٥٠٩(هذا الهامش ورد باللغة الألمانية وترجمته السيدة / صفية أبو ستيت مديرة شركة لوفنهانز سابقًا) (المترجم) .

مراجع الفصل الحادى عشر

W. G. Palgrave, Central and Eastern Arabia, 2 vols. (London, 1865) Cf. J. R. G. S., xxxiv. P. III, and Proceedings, viii. pp. 63, 97, 103; also Encyclopadia Britannica, 9th ed., s. v. Arabia. For Burton's view of Palgrave, see Preface to 3d ed., Personal Narrative of a Pilgrinage to Al-Medinah and meccah

C. Huber, Voyage dans l' Arabic Centrale in Bullctin de la Soci?té de Géographie, viime série, vol. 5, pp. 304, 468; vol . 6. p. 92, and Journal d'un Voyage en Arabic, published by the Asiatic and Geographical Societies of Paris in 1891.

J. Euting, Tagbuch einer Reise in Inner-arabien, th. i. (Leyden, 1896). The second part has not appeared .

Lady Anne Blunt, A pilgrimage to Nejd, 2 vols. (London, 1881), with appendices by W. S. Blunt.

E. Nolde, Reise nach Innerarabien, ete (Brunswick, 1895) .

الفصل الثانى عشر

الوسط

اجتاز هؤلاء المغامرون النفود بلا أذى ؛ وأغيثوا جميعًا باستثناء واحد فقط منهم ، بالقرب من الحافة الجنوبية للرمال فى واحة جُبة Jubbe؛ حيث توجد سلسلة من الحجر الرملى الصلب فى الناحيتين الجنوبية والغربية ، وهذه السلسلة تحمى منخفضًا جيريًا صغيرًا من الرمال الجارفة ، كما يتجمع فى ذلك المنخفض كمية من الأمطار تكفى لتزويد الأبيار بالماء . وبعد مسير رَحْلة طويلة فى اتجاه الجنوب من هذا المنخفض تنتهى الرمال فجأة متحولة إلى زلط جرانيتى ، وهنا يرى الرحال أمامه الهضبة العالية لجبل الشمر ، بصخورها الجرانيتية المشرشرة فى جبل أجأ Aja فى الجزء الأمامى من المنظر .

وصل أوروبيان آخران إلى جبل الشمر من طريقين آخرين ، قبل أولئك الرحالة الذين تتبعنا خطوط سيرهم ومساراتهم ، اللهم باستثناء كل من والين Wallin وبالجريف . من بين هذين الاثنين واحد يجيء على رأس كل أولئك الذين غامروا بالدخول إلى الجزيرة العربية ، وسبب ذلك هو العمل الجرئ الذى قام به هذا الرجل ، ونوعية الملاحظة التى قام بها ، والصدق التام للرواية التى جاء بها هذا الرجل أيضًا ؛ ولكن الشخص الذى سبق هذا الرجل وكان أقل منه شهرة لم يترك لنا سوى مجرد اسم جديد بالتكريم والتشريف . فقد جاء مسار هذا الرجل فى رحلته ، مماثلاً تمامًا للمسار الذى سلكه بالجريف ، بل إن ذلك المسار كان بلا أدنى شك مجرد نتيجة للمسار الذى سلكه بالجريف ، وذلك بالرغم من عدم معرفة ذلك الرجل أى شيء عن بالجريف الذى سبقه فى هذا المجال .

مسألة الانطباع الذى تركه بالجريف لدى راعيه الإمبراطورى ، فيما يتعلق بالأمور الأخرى أمر تدور من حوله الشكوك ؛ ومع ذلك فإن التقرير الذى أورده بالجريف عن الحصان النجدى ، بالرغم من اتصافه بالخيال الجامح ، أدى إلى القيام بعمل عاجل . ففى شهر سبتمبر من العام ١٨٦٣ الميلادى تلقى كارلو Carlo جوارمانى Guarmani ، ذلك الإيطالى الليفانتى ، والذى كان قبل ذلك ، أو وقتئذ مندوبًا قنصليًا لملك بروسيا فى القدس ، والذى ذاعت شهرته بعد قيامه بمهمة الجوف فى العام ١٨٥١ الميلادى ، كى يتمكن ويستعد للسير متنكرًا فى الأراضى العربية ، تلقى ذلك الرجل دعوة للذهاب إلى باريس ؛ وعقب هذه الدعوة إلى تورين Turin؛ ثم عاد بعد ذلك إلى القدس ، مكلفًا بمهمة شراء خيول من نجد لحساب أصحاب الجلالة فى كل من فرنسا وسردينيا .

هذا المبعوث الذى بدأ رحلته فى أواخر شهر يناير من العام ١٨٦٤ الميلادى ، وسط دموع وتكهنات أهله وأسرته ، كان يراوده أمل عظيم فى أن يحفر له اسمًا فى سجل المستكشفين . وقد استطاع جوارمانى بفضل علاقاته الحميمة مع بنو العناز Anaze، وبخاصة شيخ الرولة ، المرور سريعًا عبر أراضى بنى صخر والشرارات ، ليصل إلى تيماء Tema بلا حوادث فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير عن طرق خط الأبيار التى جرى حفرها على حدود النفود وإلى ناحية الشرق من طريق الحج السورى . وفور افتراق جوارمانى عن البدو ، الذين كانوا يعرفونه ، خطر بباله أن يطلق على نفسه اسم خليل Khalil أغا Aghä، ويتصرف تصرف المسلمين ، ومسئول عن الخيول لدى فؤاد Fuad باشا Pasha، حاكم دمشق . وبالرغم من كراهية الأتراك وعدم الترحيب بهم فى نجد ، ظن ذلك الإيطالى (وذلك بناءً على نصيحة من بالجريف) أنه فى هذه الشخصية المنتحلة لن يثير الكثير من الشكوك ، وذلك على العكس مما لو أعلن عن نفسه باعتباره أوروبى .

أصاب جوارمانى نجاحًا فى بحثه عن الخيول ، ولكنه لم يصب نجاحًا فى تحاشى العجز الذى أصاب المهمة الأوسع والأهم . وبعد أن عبر جوارمانى السهب

هو والحرة البازلتيه ، فى جنوبى تيمـاء (تلك الواحـة التى بدت له أكثر ازدحامًا بالسكان على العكس مما ذهب إليه والين) ، وجد نفسه ، أول أوروبى ، يدخل واحة خيبر[1] القديمة الشهيرة ، التى لا يسكنها سوى السود الأمر الذى يجعل هذه الواحة وكأنها قطعة من السودان . كانت واحة خيبر فى ذلك الوقت تحكم لحساب أمير الشمر بواسطة جاكم حبشى استقبل جوارمانى استقبالاً طيبًا ؛ ولكن جوارمانى لم يطل مقامه فى خيبر ، لعدم وجود خيول هناك ، وواصل الرجل مسيره بصحبة اثنين من قبيلة الحطيم إلى أن وصل إلى بلاد عتيبة ، ذلك السهب الجيرى ، الذى هو بمثابة مرعى طيب ، وملىء بالبدو ، الذين كان الأمير عبد الله ، فى ذلك الوقت والذى كان من قبل عدوًا لبالجريف – يشن عليهم هجومًا من قاعدته فى عنيزة التى قام بالاستيلاء عليها . وشق جوارمانى طريقه عندئذ إلى القصيم على أمل الوصول إلى جنوبى نجد ، ولكنه سرعان ما راح يواجه المتاعب . وهذا هو الأمير عبد الله لا يود لأحدٍ "من الجواسيس الأتراك" أن يكون فى مخيمه أو معسكره ؛ وبناء على ذلك أرسل عبد الله جوارمانى أسيرًا إلى الزامل فى عنيزة . ومع ذلك ، فإن الزامل ، ذلك الأمير المحلى ، الذى كان صغير السن وقتئذ ، والذى كانت تنتظره شهرة كبيرة فى الجزيرة العربية ، لم يكن على استعداد لتقديم يد العون والمساعدة لشخص تشكك فى عدائه لمصالح الأمير عبد الله . وبناء على ذلك قام الزامل بإرسال ذلك "التركى" Turk، بناء على طلبه هو شخصيًا ، إلى جبل الشمر .

طوال الأسابيع الستة التى تلت ذلك كان جوارمانى يبذل قصارى جهده من أجل العلم . كان الأمير طلال حانيًا وعطوفًا على أسير سيده ، ولم يكن الرجل يهتم بكونه تركيًا أو غير تركى ، ولذلك راح جوارمانى يشترى الخيل . كان خليل أغا حرًا فى تجواله فى كل أنحاء ممتلكات طلال بن الرشيد ، إذ كان يدخل حائل ويخرج منها ، بل إنه وصل أيضًا إلى تيماء وعاد منها ، كما زار الرجل أيضًا معقل "عُقْده" Eked الجبلى ، كما زار الرجل الواحات الرئيسية كلها فى الجبل قبل أن يرحل عن حائل ، ومعه مجموعة كاملة من الأفراس التى اشتراها ، وعبر الرجل صحراء النفود ، من

المسـار نفسـه الذي سلكه كل من والين Wallin وبالجـريف . يضـاف إلى ذلك أن اليوميات التى تشكل القسم الثانى من الكتاب الذى نشره الرهبان الفرنسسكان فى القدس نيابة عن جوارمـانى ، وكذلك خـرائط الطريق التى أرفقوها بالكتـاب ، جاءت بمثابة ملحق ثمين للتقريرين اللذين كتبهما كل من والين وبالجريف عن جبل الشمر . هذان المستكشفان ، خلال فترة معينة ، لم يريا سوى العاصمة والحضر فقط ، أما جوارمانى فقد شاهد أيضًا القرى والبدو . وجوارمانى هو أول من أعلمنا عن امتداد الأبيار والواحات التى يعتمد عليها جبل الشمر ؛ ناحية الغرب وناحية الجنوب الغربى ؛ ونحن عندمـا نقرأ كـتـاب جـوارمـانى ندرك على الفور أسـاس القـوة التى فى حـائل وحقيقة هذه القوة . هذا الإيطالى يرى أن الترحال عبر هذه السـهوب أمن كثيرًا عن الترحـال فى أرض أجداده . فقد استطاع الرجل فى تلك السـهوب ، أن يترك خيوله التى اشـتراها ، ويخلفـهـا وراءه ترعى على بعد مـائة ميل ، وليس معـها سـوى راعٍ واحد ، ليعود ويجدها فى انتظاره ، أو حتى عندما يرسل إلى راعيها ليلقاه فى حائل وبصحبته تلك الخيول .

جـوار مـاني لا يلمح إلى بالجـريف ، وربما كـان ذلك من قـبيل الاحـترام ، ولكنه يصـحـحـه (على نحول خال من اللياقة بلا أدنى شك) فى كثير من النقـاط ؛ من هذه النقاط على سبيل المثال مسألة سكان العاصمة والقرى الرئيسية ، ونوعية السوق فى حـائل ، ومظهر الأمير طلال نفسـه ، وعمر ولده أيضًا . وقد وجد جوارمانى الأمير طلال ، أمير حـائل ، قصير القامة متينًا ويبلغ من العمر أربعين عامًا ، وهو أسـمر اللون ، وله عينان سوداوان لماحتان وأنفه سامية بحق وحقيقة . والسلف الوحيد الذى أتى جوارمانى على ذكره هو ذلك اليهودى الفارسى تعيس الحظ ، الذى ادعى الإسلام ، وجاء من سوريا إلى حائل قبل وقت قصـير من وصول جوارمانى إليها ، لشراء بعض الخيـول لحسـاب الشـاه Shah؛ ولكن ذلك اليـهودى انكشف أمره وذبحـتـه الدهـمـاء . انتشـار خبر وفـاة ذلك اليـهودى ، ووصوله إلى القدس ، كان مفـترضًا أن يشـير إلى وفـاة جوارمانى ؛ ولكن ذلك لم يفت فى عضد ذلك "التركى" العتيد عندما كان فى حجرته :

"كنت أتناول أرزى وأنا بكامل الصحة ، كما كنت أؤدى ركعاتى بصورة منتظمة لله بقلبى ، ولكنى كنت أؤديها بشفتاى لمحمد (ﷺ) بكل الوقار والاحترام ؛ وكنت دائمًا أتذكر العظة التى ألقيت على جبل Mount البركات Beatitudes، ناهيك عن الرائحة العفنة لذلك الجثمان الإسرائيلى المتعفن ، وهو ما كان يجعلنى لا أدخل فى زمرة فقراء الروح وأدخل الجنة Paradise مع المغفلين" .

ويخرج جوارمانى سالمًا فى نهاية المطاف : ويعبر النفود ومعه خيوله ، ثم يقوم بتوديع الأمير طلال فى الجوف ، ليلاقى أصعب حادث له عندما يدخل الحدود السورية ، إذ كان عليه أن يهرب من رزية Razzia من رزايا الرولة فى وادى السرحان .

يضاف إلى ذلك أن دقة الأوصاف التى جاء بها جوارمانى ، هى ومعرفته الوثيقة بالأشياء العربية كلها ، توحى للقارئ بأن يولى جوارمانى المزيد من الثقة ، كما تجعل القارئ أيضًا يعين جوارمانى ويؤيده فيما جاء به فى مواجهة الآخرين ؛ ومن ذلك ، على سبيل المثال ، قول جوارمانى إن الوهابية لم تكن سارية فى جبل الشمر فى زمنه ، بالرغم من وجود عداء طبيعى قوى للمادية هناك . ولما كان جوارمانى قد درس العرب المترحلين لفترة طويلة ، فهو يكشف عن معرفته للقبائل البدوية وأفخاد تلك القبائل على نحو يضارع معرفة دوتى لتلك القبائل . يزاد على ذلك أن تجواله المتكرر فى شمالى نجد أعطاه فكرة أفضل عن فكرة من سبقوه ، فيما يتعلق بجغرافية جبال شمالى نجد ؛ ولما كان جوارمانى مزودًا ببوصلة جيدة ، فقد تمكن من تحديد اتجاهات مختلف السلاسل الجبلية بدقة لا بأس بها ، مكنت المتخصصين بعد ذلك ، من رسم خرائط تقريبية لتلك المنطقة . واقع الأمر أن جوارمانى يعطينا الكثير من أوضاع البوصلة الزاوية ، كما يعطينا أيضًا مسافات دقيقة فى جبل الشمر ، الأمر الذى يجعل جوارمانى يدعى التميز لا من حيث إنه كان أول من جعل رسم الخرائط العلمية لوسط الجزيرة العربية أمرًا ممكنًا ، وإنما لأن الرجل قدم أيضًا لرسامى الخرائط أشياء أكثر ممن جاءوا بعده اللهم باستثناء هوبر Huber .

جاء بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً إلى نجد مغامر كبير قادماً إليها من الشمال ، بل وسالكاً الطريق نفسه الذى سلكه جوارمانى . هذا المغامر ، هو شارلز مونتاجو دوتى ذلك الشاب الإنجليزى ، الذى كان يتجول فى العام ١٨٧٥ الميلادى بصحبة مرشدين له من البدو ، فى المنطقة الواقعة خلف نهر الأردن ، وصل دوتى إلى بلدة معان ، التى سمع فيها الكثير عن الآثار القديمة الموجودة فى مدائن صالح أو بالأحرى فى الحجر ، التى أطلق بطليموس السكندرى عليها اسم جيرا Gera، التى تبعد حوالى ثلاثمائة ميل عن طرق الحج . كانت الحكايات التى تروى عن المنازل الصخرية التى سكنها قوم ثمود قد استطلقت فى الرجل خياله ؛ وكانت عينا بركخاردت تتطلعان إلى رؤية تلك المنازل لكن دون جدوى ، كما تطلع بيرتون إلى رؤية تلك المنازل أيضاً ، ولكن الذى سبق أن شاهدها فقط هو فارثيما Varthema، ومن سبقه من الحجاج . ولما كان دوتى غير مستعد للتخلى عن عقيدته ، حتى ولو كان ذلك من الناحية الظاهرية ، فقد قرر الرجل الاستمرار فى السير على طريق الحج ، دون أية أخطار ، إلى أن وصل إلى بلدة الحجر ، وبالرغم من أنها من البقاع المقدسة إلا أنها لا تدخل ضمن أراضى الحجاز المحرمة على غير المسلمين ؛ ولكن مسألة تجاوز دوتى وحده لرجال القبائل ، الذين يحاصرون المسيرات السورية ، بدون أى شكل من أشكال الدعم والمساندة كانت تنطوى على فشل مؤكد واحتمال الوفاة . ومن ثم عاد دوتى إلى دمشق وراح يتخذ بعض الترتيبات مع القنصل البريطانى والسلطات العثمانية . ولكن القنصل كذبه ، وخيبت السلطات العثمانية أمله . ولكن الرجل ، اعتماداً على صداقته مع واحد من الباشوات الأكراد ، الذى كان يترأس قافلة الحج ، واحترام ذلك الرجل التركى لرجل غربى طلب منه الحماية ، قرر دوتى الإقدام على مغامرته ، وألحق الرجل نفسه بهدوء على قافلة الحج السورية ، وركب مع القافلة بلا أى تنكر ، قاصداً الجزيرة العربية وذلك بتدبير من أصدقائه .

أقر الباشا الشجاع كبير السن حقيقة وصول دوتى إلى مدائن صالح بأن عهد به إلى النقيب المغربى الذى كان رئيساً وقائداً للقلعة المحلية ، كما كان يرأس البدو

أيضًا الذين كانوا يتجولون فى المنطقة وسهوبها ويتلقون إعانة نظير مرور الحجاج ؛ وفى مدائن صالح بقى دوتى هناك تحت اسم خليل إلى أن عادت قافلة الحج ، وعاش الرجل الحياة التى كان يحياها ذلك الطاقم الذى كان يعيش فى تلك القلعة ، وكان دوتى يقوم برحلات تحت إرشاد البدو ، إلى الآثار الموجودة فى مدائن صالح ، وواصل تجواله إلى واحة النخيل فى العلا el-Ala والتى تعد بوابة للحجاز . وربما ثبت أن المقابر المحفورة التى كانت تحمل نقوشًا نبطية من العصر المسيحى القديم ، هى والواجهات المنزلية التى تشبه الواجهات التى فى بيترا Petra (بتراء) وكذلك النقوش النبطية والحميرية الجدارية ، كانت أقل من طموحات دوتى . غير أن ندرة تلك النقوش هى التى جعلته يتحمل صعاب ومخاطر السعى إليها ؛ يضاف إلى ذلك أن الصور والرسوم التى أرسلها دوتى من مدائن صالح إلى كل من رينان Re-nan ودى De فوج Vogue فى باريس أكسبته شهرة واسعة عند الباحثين فى الساميات Semitic .

معايشة دوتى لتلك الحياة وتجواله على هذا النحو أصاباه بحمى تحقيق المزيد من الاستكشافات ، بل وصل الأمر به إلى حد الاندفاع قدمًا فى اتجاه الجنوب إلى أن وصل إلى واحة خيبر ، ذلك المستقر القديم من مستقرات اليهود ، التى زارها جوارمانى (بالرغم من أن دوتى لم يكن يعرف شيئًا عن تلك الزيارة فى ذلك الوقت) . ولكن دوتى لم يجد لنفسه مرشدًا على الطريق المباشر إلى خيبر ، وكان لا بد له من أن يكون بصحبة أحد من البدو ، وهو ما استطاع تحقيقه عن طريق اللف والدوران ، وعندما عادت قافلة الحج تركها دوتى تمر ، واستأذن الباشا فى الحصول منه على تزكية ، وعلى بعض الأدوية والتعليمات من طبيب القافلة ؛ نظرًا لأن دوتى لم يكن معه ما يكفيه من النقود ، وأن ذلك سوف يحتم عليه من الآن فصاعدًا العيش على مكتسباته الهزيلة من العمل فى التحصين ضد الجدرى من ناحية ، ومن الكرم الذى لن ينكره البدو على إنسان يمارس عملية التحصين هذه . فى ظل هذه الموارد الضعيفة ، عهد دوتى بنفسه إلى شيخ من شيوخ الفجير Fejir وصرح

بكونه مسيحي [1] عقيد و"إنجليزى" Inglegsy، وراح الرجل يبدأ ترحاله الغريب عبر وسط الجزيرة العربية ، والذى دام قرابة عامين ، الأمر الذى أكسب دوتى معرفة لا مثيل لها عن مجتمع البدو ، الأمر الذى أسفر عن كتابة أكثر الروايات غرابة فى أدبيات الترحال .

المجال لا يتسع هنا إلى تتبع مسارات دوتى . فقد زار الرجل تيماء وعثر أيضًا على نقوش – كان من بينها (غير أنه لم يصوره) النص الآرامى القديم ، الذى اشتهر منذ ذلك التاريخ باسم "حجر تيماء" Teima Stone ؛ يضاف إلى ذلك أن التقرير الذى كتبه دوتى هو الذى حدى بهوبر Huber إلى الحضور إلى هذا المكان بعد ذلك بعامين . وبعد أن وقف دوتى على نفوذ ابن الرشيد وسلطته راح يتجول عائدًا إلى قلعة الحجر ، ثم ابتعد عنها قليلاً ليصل إلى صخور الحرة البركانية السوداء ، التى يجثم عليها الموءاهيب ، فى فصل الربيع ، بخيامهم سوداء اللون ؛ وتمكن دوتى بفضل هذه الرحلة من معرفة المصادر السرية لوادى حمض . وفى فصل الصيف عاد دوتى مرة ثانية إلى تيماء ، ثم واصل الرجل مسيره إلى حائل ، ليقضى فيها موسمًا كاملاً فى ظلال الأمير ، كضيف غير مرغوب فيه ، ولكن لا بد من تقديم فرائض الضيافة له ، وفى حائل استطاع دوتى مواصلة ترحاله إلى خيبر ، التى عبر منها منطقة السهب والحرّة ، وذلك بالرغم من تضليل البدو الرحل الخونة له . كانت خيبر فى ذلك الوقت خاضعة للحكم العثمانى ، وقدر له أن يعيش فترة طويلة داخل هذا السجن ؛ ولكن الرجل عثر على صديق مخلص وقف فى وجه حاكم خيبر الأسود ، وتحمل دوتى إلى أن تم عرض الأمر على المدينة (المنورة) ليجيىء الرد الذى يسمح لدوتى بالذهاب إلى حال سبيله فى أمن وسلام ؛ فى ذلك الوقت نفسه ، تمكن دوتى من اكتشاف مصادر وادى الرمة العظيم فى حرة خيبر . بعد ذلك ، استطاع دوتى من خلال زيارته للقصيم ، تأكيد وشرح وتوضيح الحل الذى قدمه فيتزستاين Wetzstein لهيدروغرافية (*) وسط نجد .

(*) هيدروغرافيا Hydrography : هى علم المساحة البحرية (المترجم) .

وجد دوتى نفسه ، على غير رغبه منه ، مشدوداً أو بالأحرى مربوطًا إلى حائل ، وكانوا أيضًا لا يرحبون به هناك . فقد كان الأمير فى الميدان خارج حائل ، وعلى يدى نائب الأمير ، الذى كان يخاف على الأمن العام ، لقى دوتى المصير نفسه الذى تهدد حياة نولد Nolde فيما بعد . فقد طردوه شر طرده ، ولقى الكثير من الاحتقار فى سهوب جبل الشمر إلى أن وصل أخيراً إلى بُريده Bereida فى منطقة القصيم . وبعد اضطهاده فى بريده ، لقى معاملة أفضل فى عنيزة البلد المنافس لبريده ؛ وبالرغم من الخطر الكبير الذى كان يتهدده فى بعض الأحيان ، وبالرغم من طرده من عنيزه ذات مرة ، إلا أنه تحمل كل ذلك وتماسك طوال أشهر عدة بفضل عطف بعض التجار المستنيرين وبفضل الزامل أيضًا ذلك البطل الذى اشتهر بتحرير المدينة ، إلى أن جاء موعد "قافلة الزبد" السنوية التى تتجه إلى مكة ، وانضم دوتى إلى تلك القافلة فى رحلتها عبر سهوب عتيبة إلى أن وصل إلى المحطة السابقة لمحطة المدينة المقدسة . فى هذه المحطة جاءت نهاية كل شيء على يدى شريف متشدد ، كان يتطلع إلى إهدار دم الغريب والاستيلاء على أشيائه ، ولم يستطع دوتى فعل أى شيء ، وبعد أن ضربوه وسلبوا ما معه ، بقى مع من أساءوا إليه وطلب منهم أن يجعلوه يمثل أمام أمير الطائف . هذا الحاكم الإنسان الذى كان يهتم بتجارته مع الهند ، والذى كان يعى تمامًا الثمن الذى حصَّلته المدافع المسيحية مقابل حياوات المسيحيين فى جدة فى يوم من الأيام ، كان على استعداد لشنق الآسرين بدلاً من الأسير نفسه ، كسى أمير الطائف الغريب وأطعمه ، وأعاد إليه ما أُخذ منه ، بل إنه سمح له بالذهاب إلى الأجزاء الجنوبية من وادى بيشه والتجوال فيها . ولكن نظراً لأن دوتى كان مريضًا ومفلسًا ، لم يطلب من الأمير سوى قافلة ، أو قفيل صغير يوصِّله إلى جدة ، وجرت بعد ذلك مرافقه دوتى عبر وادى فاطمة إلى نهاية تجواله الطويل فى الجزيرة العربية .

لم يسبق لأى أحد أن نظر نظرة فاحصة ودقيقة إلى أرض الجزيرة العربية وإلى الحياة فى الجزيرة العربية مثلما فعل دوتى ، ولم يسبق لأى أحد أن رسم هذه الأرض

وهذه الحياة من خلال الأدب ويمثل هذه الحساسية ، والصدق واليقين . ولم يقتصر ذلك التصوير الأدبى على الحياة البدوية ، التى لاقى منها الأمرين ، والتى تجول خلالها مثل أفقر الفقراء ، وإنما امتد أيضًا إلى حياة البلدان الواحية فى نجد ، وفيما يتعلق ببلجريف والعطف الذى كان يكنه لسكان المدن وينكره على البدو ، نجد أن أفضل ما يمكن قوله هو : أن الصورة الحية التى رسمها بالجريف لبلدة حائل أقل إقناعًا من الصورة التى رسمها دوتى لتلك البلدة ، كما أن رواية بالجريف عن الحياة فى الرياض يجدر بنا أن نقارنها بالوصف الذى أورده دوتى عن الحياة فى عنيزه . وعن مجتمع التخييم فى السهوب والصحارى ، والذى يتخذ طابعًا واحدًا فى كل أنحاء الدنيا ، ولا يتغير إلا ببطئ شديد على امتداد قرون من الزمن شأنه شأن كل ما يتعلق بالإنسان ، نجد أن الصورة الوصفية التى رسمها دوتى هى فصل الخطاب فى هذا الأمر ؛ والسبب فى ذلك أن دوتى لم ير فقط هذا المجتمع ككل - وبالرغم أيضًا من التحامل على كل ما هو سامى تحاملاً تعاطفيًا منقطع النظير وإنما أيضًا لوصفه ذلك المجتمع بلغة بلغت من الوضوح والدقة حدًا يجعل منها أمرًا محتومًا لأسلوب فائق الجودة . والإنسان هنا لا يسعه إلا أن يتمنى لو أن هذا الكتاب العظيم راق لجمهور أعرض من تلك القلة القليلة التى تتحمس للأشياء العربية ولا تشغل بالها بالتحمس للأشياء الإليزابيثية ، وأن هذا المؤلف الكبير كثف قصته ، واستعمل اللغة الأدبية التى كانت سائدة فى عصره . وفى ذات الوقت يجب أن نعلم أن الجهد الخارق الذى انطوت عليه عبقرية دوتى التجريدية على امتداد ما يزيد على ألف صفحة هى مجمل صفحات كتابه المعنون "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية" لا يواكب فقط التجريد الذى انطوت عليه مغامرة النصرانى فى "عرين أسد الإسلام" ، وإنما يواكب أيضًا ذلك المجتمع الذى كرس دوتى نفسه لوصفه .

أتى دوتى بكل هذه الأوصاف الجميلة التى تناولت الصحراء وأهل الصحراء باستعماله كلمات ومفردات العصر الإليزابيثى . وكل كلمة من الكلمات المستعملة تجيىء فى مكانها المناسب والصحيح كما هو الحال فى الأساليب العظيمة كلها ؛ وكل كلمة من تلك الكلمات لها وقعها وإيقاعها التام على كل قارئ من القراء الذين رأوا أو

شاهدوا ذلك السهب الترابي أو "بيوت الشعر" سوداء اللون . ونحن لا يمكن أن نوفي صفحات دوتي الحبلى حقها عن طريق الاقتباس منها ؛ ولكني ، على سبيل المثال ، أخشى أن أكون قد بالغت في امتداح الرجل في عدم وجود الكتاب ، ولذلك أتمنى أن يقرأ الاقتباس التالي أولئك الذين خبروا الإبل وتعاملوا معها .

"إذا ما حدث أن عثرت تلك الماشية الضخمة التي لا تشرب ، على ماء المطر محصورًا في أي تجويف من التجاويف بين الصخور ، فقد شاهدت تلك الماشية وهي تحني أعناقها الثقيلة الطويلة ؛ وبذلك تتشمم تلك الإبل الماء ، ولا تبلل منه سوى الحدود الخارجية لشفاهها المتدلية وتروح تحرك تلك الشفاة وتهز رءوسها ثانية ، كما لو كانت تجد الماء شيئًا كريهًا ، إبل البدو الرحل تكون قوية وعفية في تلك الأسابيع السمان من مراعي الربيع . في هذه الفترة تزداد لحوم الإبل وتختزن المزيد من الشحم في أسنامها تحسبًا لصيف الصحراء وتحسبًا أيضًا للعام الطويل . وعندما يجري إعادة تلك الإبل إلى مراحها عند غروب الشمس وبعد أن تملأ بطونها ، فإنها تعود وهي تعدو أمام رعاتها ؛ وهنا تخرج ربات البيوت ، من خيامهن وهن يرددن أثناء مجيء الإبل وولو - وولو - وولو ولتوقيف الإبل يقلن وه - هو ho - Who وه - هو - وه - هو ويتحدين الإبل التي تتعثر في حبل من حبال الخيام بقولهن هتش ! Hutch ويجري تبريك الإبل كل جماعة منها بجانب أو حول ، بل والقسم الأكبر منها أمام خيمة صاحب الإبل ؛ وترقد الإبل طول الليل وهي تسترجع وتجتر العشب الذي أكلته إلى أن يطلع نور الصباح . والعرب يقولون إن إبلهم لا تنام مطلقًا ؛ هذا يعني أن ذلك الجمل المُتعَب قد يمد عنقه الطويل على الأرض ، ويغلق عينيه اللامعتين برهة صغيرة ، ولكنه بعد فترة وجيزة يصحو من جديد ويبدأ عملية الاجترار من جديد" .

هذا الاقتباس لا يقل جودة عن مئات الصور الأخرى في ذلك العمل الهائل العظيم عن الصحراء . هذا الكتاب لا يرى القارئ فيه مشاهد منفصلة ؛ وإنما من يقرأ مغامرات دوتي الشخصية لا يحس فيها بفردية هذا الرجل أو تفرده ولكن بروح هذا الرجل يسري في كل شيء يتناوله . كتاب دوتي ينتمي إلى تلك النوعية النادرة

الفائقة التى لا يتكلم فيها مؤلفوها عن أنفسهم ، وإنما عن أولئك الذين قد يجدون أنفسهم فى مثل هذا الحال .

هذا هو النهج الذى سار عليه دوتى فيما يتصل بوسط الجزيرة العربية . نحن نعلم أن كل المستكشفين الذين أتينا على ذكرهم زاروا حائل ، كما زاروا أيضاً منطقة الشمر المركزية التى تشتمل على الجبلين آجا Aja وسلمى Selma . ربما يكون كل من بالجريف وبلنت ومعه زوجته ، ثم نولد Nolde قد زاروا هذه المنطقة المركزية وحدها . أما بقية الزائرين فقد مروا عبر السهوب الغربية من مسارات ودروب مختلفة ؛ ونحن نكرر هنا أيضاً أن الزائرين كلهم دخلوا القصيم اللهم باستثناء كل من والين Wallin، وبلنت هو وزوجته وكذلك يوتنج .

هذا السهب الزلطى الذى يصل عرضه إلى حوالي ثلاثمائة ميل ، وتتخلله شرائط من الرمل ، الذى يفصل جبل الشمر عن الخليج الفارسى ، لم يعبره أى أحد من الأوروبيين ؛ ولكن جرت العادة أن يعبر رجال ابن الرشيد ذلك السهب وهم فى طريقهم إلى الكويت ومعهم الخيول التى ستباع فى سوق بومباى . هذه الخارجيات الواضحة المنبثقة عن أبيار شيبه Shaiba، فى المنطقة التى يتجه عندها إلى ناحية اليمين الطريق القادم من جنوبى نجد ، والذى سلكه نولد Nolde أثناء عودته من مخيم الأمير محمد الحربى بالقرب من بريده ، ليتصل بطريق الحج الشمالى المؤدى إلى مشهد على ، ثم يتشعب بعد ذلك فى اتجاه اليسار . وبعد عبور رقعة من الأرض الجيرية فى اتجاه الشرق لمسافة تقل عن مائة وخمسين ميل ، تنزل الخيول إلى المجرى المنخفض من وادى الرمة ، ثم تشرب من سلسلة من الأبيار فى حوض ذلك الوادى ، على مقربة من الكويت . وطالما أن بيلى Pelly، الذى سار فى خط أو مسار لا يزيد طوله على مائة ميل فى اتجاه الجنوب الشرقى وهو فى طريقه إلى الرياض ، وطالما أن كلا من والين ، وهوبر ، وبلنت وزوجته ، وكذلك نولد قد سلكوا طرقاً إلى مشهد على لا تبعد كثيراً عن الشمال الغربى ، فقد أبلغوا جميعهم عن مرورهم عبر صحراوات سهوبية شكلها واحد وخالية من العلامات المميزة أو الفارقة ، مثل تلك

العلامات الموجودة على الهضبة ، وهنا يجوز لنا بعد كل ذلك أن ننحي جانبًا الإقليم الواقع شرقى حائل من منطلق أنه ليست له أهمية جغرافية ، اللهم باستثناء حقيقة واحدة : هى أن هذا الإقليم ينشطر إلى نصفين بسبب وجود قناة الصرف الرئيسية التى تنقل مياه شمالى الجزيرة العربية ، الأمر الذى يحتاج منا إلى رسم خارطة للمجرى الدقيق لتلك القناة وتغيراتها التدريجية .

المنطقة الوسطى من جبل الشمر تتكون من هضبة من صخور الجرانيت البارزة ، التى ترتكز عليها سلسلتين جبليتين متوازيتين تمتدان من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى . السلسلة الشمالية من هاتين السلسلتين ، ألا وهى جبل آجا Aja أعلى من السلسلة الأخرى وأكثر منها امتداداً . هذه السلسلة الشمالية تظهر فجأة خارجة من السهل عند دائرة عرض ثمانية وعشرين درجة ، وتمتد صخورها الجرانيتية ، دون أن يعترضها أى شىء ، لمسافة تقدر بحوالى مائة ميل ، وتواصل تلك الصخور امتدادها ، مع شىء من الانحراف الطفيف فى اتجاه الغرب مباشرة ، على شكل انتفاخ من الحجر الرملى ، يجرى ويمتد أسفل الصخور البركانية فى حرة الحجر . ونظرًا لأن هذه المنظومة يصل عرضها فى القسم الجرانيتى منها إلى ما يقرب من عشرين ميلاً ، فهى تعد أهم السلاسل الجبلية فى شمالى الجزيرة العربية ، وهذا هو ما عرفه بطليموس السكندرى عن هذه السلسلة . أما السلسلة الجنوبية من هاتين السلسلتين فهى قليلة الأهمية . وجبل سلمى لا هو بالعالى أو العريض وهو يذوب فى الهضبة بعد مسار يقل طوله عن خمسين ميلاً . الوادى الواسع فيما بين هاتين السلسلتين ، والذى يحصل على مياهه الجوفية من صرف هاتين السلسلتين ، يعد أفضل أجزاء جبل الشمر ، باعتباره رقعه من الواحات التى يتخللها سهب جرانيتى . والعاصمة حائل ، هى والقرى الكبيرة ، التى تعد قفار Kafar أهم قرية فيها ، تقع تحت الجدار الشمالى ؛ أما العاصمة القديمة فيض Faid، هى والقرى الصغيرة الأخرى ، فهى تقع مقابل العاصمة الجديدة عند أسفل الجدار الجنوبى . لكن فى كل من ثنيات التلال وعلى طول الأجنحة الخارجية هناك مناطق خصبة أخرى ، فيها بعض المستوطنات المنعزلة . والمستوطنات التى من هذا القبيل تكثر فى

الجنوب الغربي ، وفى الغرب من الجزء المنخفض من جبل سلمى ، الذى تبدأ منه روافد كثيرة هى التى تزود المجرى العلوى من وادى الرمة بالمياه . فى هذه المنطقة تقع قرية المستجدة Mestajedde وبعض المستوطنات الرعوية الصغيرة الأخرى ، التى كان جوارماني أول من زارها بحثًا عن الخيول .

فيما يتصل بالجزء الواقع إلى الشمال من جبل آجا Aja وجنوبى الرمال العظيمة ، – وهو عبارة عن هضبة متدحرجة ، جرانيتية الطابع فى الشرق وجيرية أو رملية فى الغرب – فنحن لدينا بالفعل الأوصاف التى جاء بها رحالة النفود . وهم يقولون : إن واحات النخيل الصغيرة التى من قبيل تلك الواحات التى مروا بها وهم فى طريقهم من جُبة Jubbe إلى حائل ، تعاود الظهور مرة ثانية عند الطرف الجنوبى الغليظ من جبل آجا Aja، بالقرب من مصب الشق الشهير الذى يسمح بالمرور المباشر عبر هذه الحافة الصخرية إلى حائل مباشرة . وقد جاء وصف دوتى لذلك الشق على النحو التالى :

"عندما كنا نقطع الميل الأخير من السهل ، الذى فيه صخور جرانيتية زرقاء وحمراء لنصل إلى الجوانب المنحدرة من جبل أجا Aja ، شاهدت ممرًا أمامنا فى الشق الذى ينفتح فى منتصف الجبل ، ولمسافة ثمانية عشر ميلاً إلى السهل الموجود فى الخلف ، هذا المضيق يطلق الناس عليه هنا اسم ريع Ria السلف es-Self والطريق فى بدايته منحدر ووعر ، وعند الساعة التاسعة تقريبًا مررنا على عين باردة كانت تنبع من الصخرة الموجودة فى الأعلى .

أنا لم أر أية مياه متساقطة فى الجزيرة العربية غير هذه المياه ، من هذه العين ملأنا قربتنا ، وخلع العرب ملابسهم وسارعوا إلى الاغتسال من ماء تلك العين - والعرب من عادتهم عندما يتاح لهم الماء فإنهم يبلبطون فيه مثل العصافير – جدران السد القديم لا تبعد كثيراً عن هذا المكان ، وفي خليج من خلجان هذا الجبل شاهدنا نخيل البدو البرى ، هذا النخيل كان الناس يولونه شيئًا من الاهتمام فى الماضى ، وفى أعلى نقطة من الريع Ria، وجدت أن الارتفاع هنا يقدر بحوالي خمسة آلاف ومائة قدم" .

تشكل الأرض المحيطة بالقفيفة Gofeife مرعى جيداً ، وتمتد على شكل رف فى الاتجاه الشمالى الغربى ، فى صورة "سهل مفتوح ومرتفع ،- ارتفاعه حوالى ثمانمائة قدم ... وكله ينتشر فيه الطُّفْل ، كما لو كان من حجر الحديد" ، وتتخلل هذا الطُّفْل بعض المناطق الرملية ،- يتواصل امتداده إلى تيماء والحجر . وأحسن أوصاف ذلك السهل هو ذلك الوصف الذى جاء على لسان دوتى الذى تجول فى السهوب كلها الواقعة شرقى وجنوبى تيماء يوم أن كان بصحبة مضيفيه من الفقارة ؛ غير أن هذا السهل جرى عبوره مراراً ، نظراً لوقوعه على الطريق المباشر الذى يربط حائل بتيماء(*) .

واحة تيماء التى تقع فى أرض منخفضة فى الركن الجنوبى الغربى من النفود ، والتى تناولها والين Wallin فعلاً بالوصف ، استرعت انتباه كثير من المستكشفين بشكل يتفوق على دائرتها الصغيرة وإنتاجيتها (بالرغم من أن دوتى ظن أن إنتاج تيماء كبير إذا ما قورن بإنتاج بقية شمالى نجد) . المُغْرى فى هذا الأمر هو تيماء القديمة . واحة تيماء ، التى تعد أولى واحات الجزيرة العربية فى المنطقة الواقعة خلف الرمال ، كانت فى غابر الزمان محطة من محطات الطريق ، وكانت لها أهمية أكثر من أهميتها الحالية ، بل إنها ربما كانت أيضاً نقطة فاصلة على الطريق المؤدية من بترا(**) Petra إلى جيرا Gerra فى الشرق وإلى سبأ Sheba فى الجنوب . من هنا يجرى العثور على كثير من التذكارات القديمة فى تيماء ، ومن بين تلك التذكارات أشياء معينة لا تنتمى إلى حضارة الجزيرة العربية ، وإنما إلى الحضارة السورية

(*) تعد تيماء واحداً من أقدم المواقع المستقرة فى الجزيرة العربية . ويمكن العثور على اسمها عبر كينفورم Cuneiform، فى نقوشه . وقد ورد أن م . رينيه دوسو Dussaud تجول سنوات عدة فى تيماء . والعهد القديم ، هو واشعيا وارميا وأيوب كلها أتت على ذكر تيمة Tema (المترجم)

(**) بترا : Petra مدينة قديمة تقع فى أحد الأحواض على الجانب الشرقى لوادى عربة ، فى الجنوب الغربى . كانت تلك المدينة القديمة عاصمة للأنباط أو مركزاً مهماً من مراكز تجارة القوافل . وقد ازدهرت تلك المدينة اعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد . وجرى ضم هذه المدينة إلى الإمبراطورية الرومانية فى العام ١٠٦ بعد الميلاد ، أفل ظلها ونسيها الناس إلى أن اكتشف بركخاردت أنقاضها فى العام ١٨١٢ . وهذه الأنقاض تشتمل على معابد ومنازل ، ومسرح كبير محفور فى الصخر الذى يغلب عليه اللون الأحمر . (المترجم)

التى تضرب فى القدم إلى أربعة أو خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، ومن المرجح أنها تلقى ضوءاً على التاريخ المسيحى biblical؛ هذه التذكارات استثارت اهتمام الباحثين بشكل كبير . وكان دوتى أول من دلل على وأثبت وجود نقوش فى تيماء ، وأن تلك النقوش لم تكن نقوشًا نبطية فقط وإنما كانت جميرية وآرامية أيضًا .. كان دوتى قد سمع عن نص طويل دون أن يراه ، وأن ذلك النص كان منقوشًا على حجر من الحجارة التى جرى استعمالها فى تبطين الجدَّاج Húdaj الكبير ، أو البئر إن صح التعبير ، الذى كان منهاراً فى ذلك الحين . كان هوبر Huber أكثر حظًا فى زيارته الأولى ؛ وعندما عاد فى العام ١٨٨٣ الميلادى بصحبة يوتنج ، نجح الرجل فى شراء الحجر ، وقام بنقله على أحد الجمال إلى مدينة حائل ، حيث قام مبعوث من القنصل الفرنسى فى جدة ، وبعد شىء غير قليل من الغيرة الدولية [٢] بإحضار ذلك الحجر . هذا الحجر ، توضح نقوشه .. أنها تسجيل للعبادة الأجنبية التى جاءت إلى تيمة (تيماء) ، والنقوش تبين الإله الجديد واقفًا أمام قسِّه ، الذى نصب الحجر . Stela وبعد ثلاثة أحجار أخرى ، التى يعد "الحجر الماءوبى" واحداً منها نجد أن حجر تيماء هو أهم وأقيم الآثار السامية المنقوشة .

تقع الواحة الغربية الأخرى المهمة على بعد مسير ثلاثة أيام فى اتجاه الجنوب . هذه الواحة يفصلها عن تيماء رقعة من الأرض الرملية ، ورقعة أرضية أخرى مرتفعة من الصخور البركانية المتجعدة ، وتشكل قمة الهضبة ، كما أنها تعد مفترقًا للمياه التى تنصرف من خلال أحد الروافد إلى البحر الأحمر ، ومن خلال رافد آخر إلى الخليج الفارسى . هذا يعنى أن هذه الواحة تحتوى على رءوس ، أو بالأحرى منابع كل من الواديين الشماليين الكبيرين : وادى الحمض ووادى الرمة . يقول دوتى عن الوديان الغائرة التى فى الناحية الغربية : إنها "تشبه سعفه النخيل" فى إطار كتلة الحرَّة ، وهى ، أى مزارع خيبر تعشش هناك على شكل مزارع سيئة الصرف ؛ ويقول عنها فارثيما " Varthema جبل اليهود" . هذه الواحة أقل إنتاجية من تيماء نظرًا لأن تربتها تعانى من شىء من المرارة ، وذلك بالرغم من وجود المياه السطحية ، التى

تشكل بحيرات جبلية صغيرة ، وهذا منظر نادر وفريد فى جزيرة العرب ؛ ولما كانت هذه الواحة محاطة بصخور بركانية حادة فإن المدقات التى تسلكها القوافل تتحاشى تلك الصخور . يضاف إلى ذلك ، أن قربْ بدو حرب الأقوياء والخطيرين من هذه الواحة ؛ ولأنهم يتجولون ويتنقلون فى السهب الجيرى كله الواقع ناحية الشرق والجنوب ، كل ذلك يجعل تلك الواحة قلقة وغير آمنة ، كما أن ذلك يكمل مسألة النقائص والعيوب فى تلك الواحة ، وهو ما يفسر افتقار هذه الواحة إلى الآثار القديمة وهجران اليهود لها منذ قديم الأزل ، لتعيش فيها فى الوقت الراهن سلالة خلاسية من السكان الزنوج . والحكومة العثمانية ، التى استولت على هذا المكان فى العام ١٨٧٤ الميلادى ، هى وأمير حائل يتنازعان نزاعًا طفيفًا على مداخيل هذه الواحة الصغيرة . وقد بقى دوتى فى ذلك المكان أشهر عدة فيما يشبه الأسر ، ثم جاء هوبر إلى هذا المكان فى العام ١٨٨٠ الميلادى . وكل من دوتى وهوبر يزعمان أن كل واحد منهما هو الذى اكتشف الأهمية الهيدروغرافية لمستجمع المياه فى تلك الواحة ، ولكن أسبقية دوتى ، التى يشهد عليها مراسلاته مع جلوبوس Globus، فى العام ١٨٧٩ الميلادى ، أمر لا يرقى إليه شك أو يحتمل النقاش (٢) .

الرواية التى أوردها جلوبوس Globusعن خيبر Kheibar هى الأكمل بطبيعة الحال ، ولكنها تعد أقصر من الوصف الذى جاء به جوارمانى ، أول أوروبى يزور خيبر ، والذى يقول :-

"خيبر Keibar قرية يعيش فيها حوالى ألفان وخمسمائة نسمة ، مبعثرين مثل تيماء Teimeداخل مزرعة ضخمة من مزارع النخيل ، مقسمة إلى سبعة أحياء ، كل حى ، أو بالأحرى منطقة تشغل واديًا من الوديان السبعة التى هى وديان جبل Jebel حار Harre، الذى تتفجر منه كثير من عيون الماء الصافى . هذه الوديان يجرى التحكم فيها من الصخر العالى الذى يتميز بأنقاض قلعة ضاربة فى القدم ، يطلقون عليها اسم قصر Kaser الجودى . el-Jeudi والسكان هنا يتكونون من المغاربة والأحباش Abyssinians، المنحدرين عن عَبيد أولاد السليمان uld-Suleiman وعَبيد

العليدان Aleidan، الذين بقوا في هذه القرية (خيبر) عندما تخلى عنها أهلها بعد أن أصابهم الجدرى منذ قرون مضت ، وظنوا أن الإصابة جاءت عن طريق الماء ، ولكنهم لم يتنازلوا عن كل حقوق ملكيتهم فى تلك القرية" .

يضيف جوارمانى أن قصة بقاء اليهود فى خيبر فى القرن الثامن عشر لا أساس لها على الإطلاق .

دوتى Doughty بدوره رسم للحرة الكبيرة التى تقع شرقى Kheibar صورة مشهودة تكشف عن الكثير من طبيعتها :-

"تورطنا فى أحواض الصخور البركانية ، ودخلنا فى أحيان كثيرة ، وبطريق الخطأ بين الرفوف الحادة ، أو كنا نشاهد أمامنا أماكن شديدة التحدر . الحقل البركانى هنا عبارة عن فيضان حجرى تجمد فى هذه المنطقة ؛ نرى هنا رءوسًا متدحرجة طويلة ، تشبه رءوس الخيل كانت تعلو فوق بقية الصخور .. كثير من هذه الرءوس كانت تعلو أو تتسنم تلك التداخلات الصخرية المجوفة التى تساقط البعض منها على شكل شظايا سريعة وعلى شكل أكوام تشبه أكوام كتل البناء . تظهر الصخور البركانية هنا كما لو كانت حزمًا من الحبال ؛ وقمم هذه الصخور هى صخور بركانية حادة مزججة ... وبعد أن واصلنا مسيرنا شاهدت بعض الصخور الحمراء حمرة الذهب تعلو الصخور السوداء ؛ تلك الصخور الحمراء كانت عبارة عن صخور من الحجر الرملى مستها أشعة شمس الصباح" .

فيما بين هذه الحرة وجبل الشمر يوجد سهب ترابى مشابة للسهوب الأخرى التى من هذا القبيل فى الجزيرة العربية ، وتتباين تلك السهوب طبقًا لقلة قليلة من ثقوب المياه التى يجرى استخدامها من حين لآخر بواسطة أفراد قبيلة حرب الجائلين ، كما تتباين تلك السهوب أيضًا طبقًا للوديان الضحلة التى تمتد نازلة إلى وادى الرمة . وعندما نقترب من نتوء جبل سلمى Selma تصبح المستوطنات أكثر ثباتًا وظهورًا ، وتتحد بين الحين والآخر مع بعضها البعض مكونة قرى صغيرة يسكنها الشمر .

وليس هناك ما يفيدنا عن تلك القرى ، أو القرى الأخرى التى تقع فى القسم الجنوبى من "البطن" Belly فيما بين السلسلتين . وهكذا نجد جوارمانى يتحدث عن تلك القرى التى شاهد الكثير منها ويقول : -

"كل هذه الأماكن عبارة عن مزارع نخيل شاسعة موجودة فى السهل الذى شكلته الرمال فيما بين الجبال ؛ هذه القرى ، أو بالأحرى المستوطنات ، محاطة بأسوار من اللبن ، الذى جرى عجنه وتجفيفه فى الشمس ، كما توجد هناك أبراج لتلك القرى . ومنازل تلك القرى لا تختلف بأى حال من الأحوال عن منازل تيماء ، اللهم باستثناء كبر حجم بعض هذه المنازل . إنتاج التربة هنا هو نفس إنتاج التربة فى تيماء . وليست هناك أية صناعة من الصناعات التى يمكن أن نأتى على ذكرها ؛ والنساء هنا ينسجن القماش المعتاد (العباءة) ، أو العباءة المقلمة وبعض أنواع الكليم الخشن" .

تقع حائل عند مصب السهل الواقع فيما بين الجبال ، ذلك المصب الذى يتحكم فى المخرج المؤدى إلى بلاد نهر الفرات ، ومفترق الطرق القادمة من النفود من خلال جبل آجا Aja، ويواصل ذلك السهل امتداده جنوبًا عن طريق فيض Faid إلى القصيم إلى أن يعبر الطرف الجنوبى المنخفض من جبل سلمى Selma . وحوض الوادى ، الذى يبدأ عند الصخور الجبلية الجنوبية الشرقية ، يكون شريطًا من الخضرة المتقطعة التى تتفرق عندها البلدة على الجانبين . وقد نمت حائل خلال نصف القرن الماضى من مجرد ضيعة على شكل قرية واحية، وما يزال ذلك واضحًا فيها ، إلى حى قديم متواضع إلى حد ما ، وإلى مدينة جديدة جرى بناؤها من حول مقر الأسرة الحاكمة . هذه القلعة جرى توسيعها فى الفترة ما بين زيارة والين Wallin وزيارة الطبيبين "السوريين" ، اللذين تركناهما منذ فترة طويلة جالسين أمام قصر الأمير ؛ وتبدلت أسوارها وأبراجها تبدلاً كبيراً عن أسوارها وأبراجها يوم أن زارها بالجريف . وقد لاحظ كل من زاروا حائل تطورها الجديد ونظافتها وليبرالية تجارتها إلى حد ما فى شوارعها .

كان بالجريف فى أحسن حالاته وهو يصف الحياة الاجتماعية فى حائل من خلال منازلها الخاصة . وقد خرج الرجل ليشاهد هذه الحياة بنفسه ؛ والذى شد اهتمام بالجريف فى حائل هو مجتمع الحضر . وبالجريف عندما يتكلم عن كل من ولستد Wellsted ووالين Wallin يقول فى تصديره لكتابه : -

"أبحاث هذين الرجلين المحترمين تركزت على الجانب الطبوغرافى ، هذا يعنى أنهما لم يعنيا أو يلقيا بالاً لظروف السكان ؛ وهذا الفراغ فى تقريريهما هو ما حاولت أنا شغله" .

بالجريف عندما صور يومًا خياليًا من أيام شهر أغسطس من العام ١٨٦٢ الميلادى ، كان يعتمد على ذاكرته ؛ وهو يحاول إعطاء انطباع حقيقى للأحداث ، والتصرفات ، وأحاديث الناس ، ونحن نلمس فى ذلك تعاطفه الشديد مع حياة المدن الشرقية ، كما نلمس أيضًا تسوده للعامية العربية ، الأمر الذى جعله يشارك هؤلاء الناس فى أشياء عجز الرحالة الآخرون عن مشاركتهم إياها . وهذه هى الصورة التى رسمها بالجريف عندما كان خارج بوابات حائل عند الفجر : -

"من خلفنا نرى العاصمة ، قصر طلال بشكله البيضوى ، المنازل ، البساتين ، الأسوار ، والأبراج ، كلها تبدو سوداء ، ومن خلفنا أشعة الضوء الشرقية الضاربة إلى الحمرة ، ومن خلف القصر والمنازل ، والبساتين ، نشاهد قمة ضخمة هرمية الشكل تتدلى من فوق المدينة ، وتربطها الصخور المنخفضة بسلسلة الجبال الموجودة ناحية الشمال والجنوب ، إنها حقًا أضلع حجرية تحمى قلب المملكة المركزى ، وفى السهل نفسه نستطيع أن نميز الآن ، فى ضوء الغسق الخافت ، العديد من البقع التى يميل لونها إلى الأسود والتى تنتشر ، بشكل غير منتظم فى كل أنحاء السهل ، أو التى نراها كما لو كانت تتكئ على حدها الذى يشبه الجرف شديد الانحدار ؛ تلك هى بساتين ومنازل عبيد(*) وبعض الشيوخ الآخرين ، بالإضافة إلى بعض القرى والكفور ، التى من قبيل قفار وعَضْوة ، وبيارات النخيل وأشجار الإثل (تلك الشجرة التى سوف أتناولها بالوصف فيما بعد) ، كل ذلك بدأ يختلط الآن بلون الغسق ، وهذا هو رحّال

وحيد على ظهر جمله ، وتلك مجموعة من ابن آوى تتسلل خلسة إلى كهوفها الصحراوية ، وتلك بعض الخيام البالية التى يسكنها بدو الشمر ، كانت تلك آخر تفاصيل المنظر الموجود أمامى على سطح الأرض ، وعلى بعد ، وفوق التلال الجنوبية ، تستطع أشعة سهيل [٤] Canopus بعظمتها لتعلن عن بداية عام عربى جديد ، فى حين يبدو النجم القطبى منخفضًا فوق القمم الجبلية .... وقبل أن تزين الشمس أعلى حواف جبال شمر بأشعتها الأولى ، أو قبل أن تزحف ظلال سلسلة الجبال الشرقية العملاقة لتتجاوز منسوب هذه الجبال ، بدأنا نشاهد مجموعات الفلاحين ، الذين يقودون حميرهم المحملة بالخضروات والفاكهة ، وهم يتوافدون مثل جماعات النمل من ممرات الجبال المحيطة بنا ، ويقتربون ببطئ شديد من المدقات المؤدية إلى العاصمة ، ونرى الخيالة على الطريق الغربى المؤدى إلى المدينة المنورة ويتجه صوب حائل" .

كان نولد Nolde آخر الأوروبيين الذين شاهدوا مدينة حائل ، وقد وجدها لم تتغير كثيراً خلال ثلاثين عامًا . ونحن إذا ما سلمنا بتقدير جوارمانى فى ستينيات القرن التاسع عشر لسكان مدينة حائل بدلاً من تقدير بالجريف ، نجد أن الأعداد تزايدت فى العام ١٨٩٣ الميلادى ، بمعدل الثلث تقريبًا ، وأن تلك الزيادة جاءت وبلا أدنى شك من الخلط بين أهل المدينة وبين الزنوج ، هذا يعنى أن الزيادة لم تكن من العنصر البدوى الخالص . ويحتمل أيضًا أن تكون المدارس الأربعة التى زارها نولد كانت بمثابة نوع من التقدم على المستوى الإنسانى . كان أمير حائل فى ذلك Nolde الوقت هو الأمير محمد بن الرشيد نفسه الذى سبق له استقبال كل من دوتى ، وبلنت وزوجته ، وهوبر ، ويوتنج ، ولكنه بعد أن زادت عظمته وتأكدت لم يعد يحرص على البر بمن يصلون من أوروبا ويكونون من المسيحيين المتشددين . فى شتاء العام ١٨٩٢ الميلادى قام الأمير محمد بسحق آخر فلول المقاومة فى جنوب البلاد ، والتى

(*) عبيد بن الرشيد : أخو عبد الله بن الرشيد مؤسس إمارة شمر ، وكان ساعده الأيمن فى تثبيت الإمارة وتوسعها ، كما استمر مؤيداً لأبنائه من بعده ، توفى فى عام ١٨٦٩ . (المراجع)

كان يتزعمها الزامل فى عنيزه ، والذى بلغ من العمر حاليًا ما يزيد على ستين عامًا . فى هذه المعركة الأخيرة تقاتل فيها أكثر من خمسين ألف رجل ، ولكن فروسية الشمر ورجال حرب استطاعت هزيمة سكان الواحة الجنوبية ، الأمر الذى جعل من حائل سيدة بلا منازع على نجد كلها طوال حياة الأمير محمد بن الرشيد . توفى محمد بن الرشيد على فراشه فى العام ١٨٩٧ الميلادى ، مخلفًا وراءه لابن أخيه إرثًا كبيرًا ، الذى يتولى الحكم حاليًا(*) ، ولكن يتعين عليه التزام الحرص بين الحين والآخر ، ويعمل ألف حساب وحساب لبيت سعود فى الرياض ، الذى ما يزال ينازع حائل السيادة على نجد .

فى المنطقة الواقعة خلف جبل سلمى Selma تعين على الرحال عبور سهل جيرى قاحل ، يبدأ فى الكشف عن بعض مناطقه الخصبة المتناثرة عندما يتجه صوب حوض وادى الرمة ، ويظهر ذلك فيما يسمى بالقصيم الأعلى Kasim al-A'l هذا القصيم الأعلى يحتوى على عدد قليل جدًا من المستوطنات ، كما يحتوى أيضًا على بعض المستوطنات التى تروى من مصادر المياه وبالتالى يفرض ابن الرشيد عليها نوعًا من الضرائب (الزكاة) . فى أقصى الجنوب تتحول الهضبة إلى أرض رملية ، وهنا يتبدى للرائى جزء من النفود فى الناحية اليمنى . هذا الجزء من النفود هو مجرد قسم صغير من اللسان الصاعد إلى وادى الرمة قادمًا إليه من الحزام الصحراوى الشرقى . فى هذه المنطقة تنخفض الأرض قليلاً ، وقد استطاع بالجريف من حافة هذه الأرض رؤية المنطقة الجنوبية من القصيم ، ممتدة أمام عينية وقد "تناثرت فيها البلدات والقرى ، والأبراج والبيارات ، كلها كانت تظهر منحدرة فى أضواء حرارة الظهيرة ، لتعلن عن وجود الحياة فى كل مكان ، ووجود النشاط والوفرة والثراء" .

ربما يكون خيال بالجريف فى تأمله للماضى قد ضخم هذا المشهد ، مثلما ضخم أيضًا بلدات القصيم إلى ضعفى حجمها أو ثلاثة أضعاف حجمها الحقيقى ؛ ومع ذلك

(*) تولى عبد العزيز بن متعب الحكم فى جبل شمر خلال الفترة من ١٨٩٧ – ١٩٠٦، وتميز عهده بانحلال إمارة شمر تدريجيًا على يد السعوديين . (المراجع)

فإن هذا الحوض الرملى الذى فى قلب نجد فيه الكثير من المزايا ، والفضل فى ذلك يرجع إلى وادى الرمة الذى نكون هنا قد وصلنا إلى منتصف مجراه الأوسط .

ويتردد أن نسيان مجرى هذا الوادى العظيم ، الذى لم يكن الجغرافيون المسلمون يعرفونه حق المعرفة ، واستمرار ذلك النسيان إلى العصور الحديثة ، هو الذى جعل والين Wallin ومن بعده بالجريف يعكسان الانحدار الرئيسى فى الجزيرة العربية ، متخيلين أن أعلى نقطة ارتفاع فى الجزيرة العربية تقع فى الشمال الشرقى . وبالرغم من عبور بالجريف حوض وادى الرمة الواسع فى منطقة بريدة ، إلا أنه لم يلاحظه شأنه فى ذلك شأن سادلير Sadlier، الذى صعد إلى ذلك الوادى ليصل إلى الحناكية ، أو جوارمانى الذى هبط من ذلك الوادى إلى عنيزه . ولكن بالجريف لم يكن قد نشر كتابه قبل أن يقوم جى J جى G فيتزستاين Wetzstein بالتقدم إلى الجمعية الجغرافية البروسية بالنتائج التى أسفرت عنها التحريات التى قام بها ذلك الرجل عن هيدروغرافية الجزيرة العربية ، وذلك عندما كان فى دمشق فى العام ١٨٦١ الميلادى . كان راوى فيتزستاين الرئيسى شخص يدعى الشيخ حميد ، وهو واحد من رجال الشمر فى بلدة الرس Rassبمنطقة القصيم ، وكان ذلك الرجل يتولى قيادة القوات العثمانية غير النظامية فى بلدة معان . لم ير فيتزستارين ذلك الرجل سوى ساعات قلائل ، ولم يقم فيتزستاين بشىء سوى تدوين بعض الملاحظات السريعة ، التى أرفقها بمخطط سريع . وبالرغم من الارتباك الشديد جاءت النتائج مفيدة للغاية .

عرف الرجل مما رُوى له أن هناك وادٍ كبير فى شمالى الحجاز ، كانت تتجمع فيه كل مياه الحره وكان ذلك الوادى ينقل تلك المياه فى اتجاه الشرق . هذا الوادى كان يطلق عليه اسم وادى Wady الحمض Hamd، وأن منبع أو مصدر ذلك الوادى كان فى جبل رضوه . كان ذلك الوادى يتجه ناحية الشمال بعد أن يتجاوز المدينة (المنورة) متجهًا إلى الحنكية ، على حافة حرة خيبر التى وصفها حميد على إنها الجزء البركانى الشمالى من سلسلة جرانيت آبان Aban، فى هذه المنطقة يتجه الوادى ناحية الشرق من جديد ، تحت اسم الروميم Rumem، ويتجاوز الرس Rass

متجهًا إلى عنيزه . وبعد عنيزه يصبح ذلك الوادى معروفًا باسم البطن Batn، ويواصل مسيره إلى زلفى Zulfa ، واعتبارًا من الزلفة يسير ذلك الوادى فى خط مستقيم متجهًا صوب الشمال ، إلى أن يصل إلى سوق Suk الشيوخ es-Shiuk لينتهى بعد ذلك فى وادى الفرات .

هذه الرواية تشبه جدًا تلك الرواية التى وردت عن ياقوت الحموى عن وادى الرمة ، التى سبق أن أشرنا إليها عندما استشهد بها والين ؛ ولكن هذه الرواية جاءت أقل غموضًا وإبهامًا ؛ والسبب فى ذلك أن الشيخ خلط بين قناتى الصرف الرئيسيتين والمتضادتين فى شمالى الجزيرة العربية وجعل منهما قناة واحدة . ووادى حمض ، كما سبق أن أوضحنا ، هو حقيقة واقعة ، وكانت تلك أول مرة نسمع فيها عن ذلك الوادى ، ولكن واقع الأمر أن وادى حمض ، ينساب من حرة خيبر والمدينة (المنورة) ولكنه لا ينساب إليهما ، كما أن ذلك الوادى هو الذى ينقل مياه شرقى الحجاز هو والحرات إلى البحر الأحمر . ووادى الرمة هو أيضًا حقيقة واقعة ، ولكنه متميز عن وادى الحمض ، إذ إنه يرتفع على الجانب الآخر من حرة خيبر ، ثم بعد ذلك يتخذ المسار نفسه الذى وصفه الشيخ حميد . وادى الرمة فى الجزء العلوى منه يعرف باسم وادى النجد ، وقد ذكره والين Wallin بهذا الاسم أيضًا .

ومن باب الاعتذار عن ذلك الخطأ الغريب الذى ارتكبه الشيخ حميد عندما جعل من الواديين المتضادين واديًا واحدًا ، ومن باب تفسير ذلك العمى الذى أصاب سادلير ، وجوارمانى ، وبالجريف فيما يتصل بشريان رئيسى عبروه أو تتبعوه ، يتعين علينا هنا أن نستعيد فى أذهاننا الحقيقة التى مفادها أن الوديان الكبيرة فى الجزيرة العربية هى مجرد فيومرات Fiumuras وليست مجارى مائية . هذا يعنى أن تلك الوديان ليس فيها مياه جارية حتى تبين مدى انحدار تلك الوديان بشكل واضح ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الوديان فى مواسم السيول تكاد تغص بالرمال فى أجزاء كثيرة منها الأمر الذى يصعب معه تمييز هذه الوديان عن الصحارى التى على ضفافها . ووادى الرمة ، عند هذه المرحلة ، يصبح أقل وضوحًا فى المنطقة التى هو

أصلاً فيها شديد الوضوح ، وهذه المنطقة هى ما يطلق عليه اسم منتصف القصيم . والمنخفض الضحل غير المحدد فى منطقة وسط القصيم ، والذى تكثر فيه الحدائق فى كل من عنيزة وبريدة ، قد لا تسترعى انتباه الغريب إلى أن ذلك هو وادٍ من الوديان ، وإنما تجعله يحسب أنها ما تزال تشكل جزءاً من وادٍ رئيسى واحد يصل طوله إلى آلاف عدة من الأميال .

كان فيتزستاين يدرك أن ما قاله الراوى عن هيدروغرافية المكان لم يكن بلا مشكلات أو صعوبات ، وبخاصة فيما يتعلق بوضع مستجمع مياه الحجاز فى غير مكانه ؛ ولكن فيتزستاين أورد وصف وادى الرمة باعتباره إضافة إلى علم الجغرافيا ، كان الناس يجهلونها منذ زمن بعيد . إقناع الجغرافيين يحتاج إلى شهادة غير شهادة المواطنين ؛ ولم تجئ تلك الشهادة إلا بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ، عندما شهد كل من دوتى وهوبر باستمرارية ذلك الوادى من خيبر إلى نهر الفرات ، وأن وادى الرمة (أو إرميك Ermek كما أسماه هوبر) [٥] . يعترف به أهل العلم على إنه الشريان الرئيسى لتصريف مياه شمالى الجزيرة العربية ، كما يعرفه أهل الخيال بأنه واحد من أنهار الجنة الأربعة .

هذه القناة الكبيرة تبدأ فى واقع الأمر من جنوب حرة خيبر المنحدر ، فوق الحنكية ، على ارتفاع يقدر بحوالى ستة آلاف قدم ، ثم يتجه مساره ناحية الشرق خلال سهب رملى إلى أن يصل إلى بلدة الرس Rass، وهنا تصل مياه تلك القناة إلى السطح . وبعد أن تقطع تلك القناة مسافة قصيرة من ذلك السهب يتصل بها من الناحية اليمنى فرع كبير قادم من سهب عتيبة ؛ وقبل عنيزة بمسافة قصيرة يتصل بتلك القناة فرع ثان يقع مساره محاذياً للطريق المباشر المؤدى إلى مكة . يصل عرض القناة فى هذه المنطقة إلى حوالى ميلين . وهنا تقع عنيزة على الجانب الأيمن من تلك القناة ، أما بريدة فتقع على الجانب الأيسر عند نقطة (قريبة جداً من خط طول ٤٤°) ؛ فى هذه المنطقة تضيق الرقعة الرملية التى تمر خلالها هذه القناة ، إلى ما يشبه العنق ، وهنا يظهر برزخ ثابت يربط بين سهوب الحجر الجيرى فى الشمال والجنوب .

وعلى بعد مسافة قصيرة خلف بريده يدخل الوادى حزام نجد الرملى الشرقى ، وهنا تتوقف الزراعة على طول مجرى هذه القناة . ولكن أحداً لم يتتبع تلك القناة من هذه المنطقة فى انحدارها نازلة إلى خليج الكويت ، أو إلى نهر الفرات بالقرب من البصرة ، وأية نقطة من هاتين النقطتين تعد مصباً لهذه القناة . والطول الكلى لهذا "المر المائى الجاف فى شمالى الجزيرة العربية" لا يقل عن حوالى ألف ميل تقريباً .

القصيم الأسفل بمستوطناته العشرين ، هو من صنع هذا الوادى . هذا الوادى العظيم يفيض مرة واحدة فى عمر الإنسان . وقد سمع دوتى أن آخر فيضان حدث كان منذ أربعين عاماً مضت ؛ وأن ذلك السيل أو الفيضان تسبب فى امتلاء أبيار القصيم كلها إلى حوافها طوال اثنى عشر شهراً ، ونتج عن ذلك بحر واسع ، نشأ عن سد رملى تكون فى تلك المنطقة مصادفة ، وأن هذا البحر الكبير استمر مدة عامين وجذب إليه كائنات وحيوانات غريبة لم يكن لها وجود فى القصيم من قبل . ولكن فى أسفل حوض ذلك السد كانت هناك كميات كبيرة "على عمق مشعاب واحد" ، فى كل مكان وعلى مدار العام ، وقد استعمل فلاحو كل من الرَّس ، وعنيزة وبريدة هذا الماء فى رى بيارات النخيل وحقول القمح .

ليس هذا هو كل ما يفعله ذلك الوادى لمنطقة القصيم ؛ فهو يوفر طريقاً طبيعياً مباشراً لأولئك الذين يتنقلون عبر الجزيرة العربية من بلاد نهر الفرات ؛ وهذا الطريق المباشر ناعم والماء فيه وفير ، كما أن القصيم تقع فى منتصف هذا الطريق المؤدى إلى مكة (المكرمة) ، كما يصل ذلك الطريق أيضاً إلى منطقة قريبة من المدينة (المنورة) . ولا يترتب على ذلك مجرد وجود عدد كبير من السكان الأقوياء الذين يمارسون الزراعة ، والذين يتغذون تغذية جيدة ويرتبطون بالأرض ارتباطاً وثيقاً ، وإنما يشكلون أيضاً طبقة من التجار الأثرياء ذوى المعارف الجيدة . هذه هى أسرة البسام ، على سبيل المثال ، الذين ساعدوا فى حماية دوتى عندما كان فى عنيزة ، ولهم أيضاً منزل كبير فى جدة ، وتجارة رائجة مع الهند ؛ وجرى فى دواوين عائلة البسام مناقشة كل من بالمرستون Palmerston، وبسمارك ، ودزرائيلى ، كما أنهم يحصلون على النقد على

شكل شيكات . وأفقر أهل القصيم يتنقلون ويترحلون إلى مناطق بعيدة ولا يتحاملون على أحد مثل البشر الآخرين في الجزيرة العربية . كان القصمان(*) يشكلون أغلبية العمال الذين كانوا يعملون في حفر قناة السويس(**) ؛ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء القصمان يعملون في نقل الحجاج السوريين والحجاج الفارسيين . والقصمان جميعهم يستشعرون روح الاستقلال في وطنهم ؛ يضاف إلى ذلك أن بلدان القصمان الكبيرة استمر العراك والشجار والحروب بينها من أجل تحاشي سيطرة الأمراء عليهم من الجنوب ومن الشمال . وقد حطمت الرس ، على سبيل المثال ، آمال إبراهيم باشا مع بداية غزوه لنجد . كما أن عنيزه كثيفة السكان استطاعت الصمود في وجه كل من الرياض وحائل أطول فترة ممكنة ؛ وكان الزامل هو كل شيء في المواجهة التي جرت مؤخراً مع محمد بن الرشيد ؛ ودوتي يرى أن عنيزة هي أفضل مثال على المجتمع الوطني الحر في الجزيرة العربية ، والذي يحكم نفسه في ظل رئيس يعرف ماذا يختار .

في عهد الزامل ، وعلى حد ما جاء عند سادلير Sadlier، كانت عنيزة هي أكبر البلدان ، إذا كان عدد سكانها حوالي خمسة عشر ألف نسمة ؛ ولكن بريدة التي لعبت دوراً أكثر صلابة ولكنه غير مشرِّف في الكفاح ضد الأمراء ، تبدو حاليًا وكأنها المكان الرئيسي في القصيم ، وقد اشترت برضوخها الامتناع عن تدميرها وتخريبها ، ذلك الدمار الذي أحدثه محمد بن الرشيد في عنيزه بعد هزيمته لها في العام ١٨٩٢ الميلادي . وبريدة وعنيزة ليس فيهما أشياء متميزة . وقد وصف بالجريف برجًا كبيراً في بريدة ، كما وصف أيضًا دائرة من الجدران على شكل حصن ؛ ولكن قصر الأمير المحلي بدا لدوتي صغيراً وحقيراً ومتواضعًا ، كما بدت المنازل له مهدمة ومدمرة . هذا يعني أن بريدة كانت تفتقر إلى نظافة حائل وأناقة حائل . يضاف إلى ذلك أن

(*) القصمان : أهالي إقليم القصيم في كل من بريدة وعنيزة . (المراجع)

(**) يتضح مما ذكره هوجارث أن العمل في حفر قناة السويس كان يجذب العديد من العناصر. (المراجع)

دوتى لم يسمح له بالبقاء فى بريدة إلا لفترة قصيرة جداً لم يتمكن معها من إضافة أى شىء إلى بالجريف أو يصحح له بعض الأشياء ؛ ولكن كان أمام دوتى متسع من الوقت لدراسة عنيزه التى لم يراها سلفه ؛ كما أن وصف دوتى للحياة اليومية للعرب فى المدينة (عنيزة) ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ، من وجهة نظر رجل غريب ، يعد شيئًا فريداً ولا مثيل له .

هوامش الفصل الثانى عشر

(١) أنا لا أفهم الأسباب التى تجعل زهمى Zehme يشكك فى تلك الزيارة التى قام بها الرجل إلى خيبر (Arabien Seit hundert Jahren ص ٢٠٢) . والرجل يتعامل دومًا مع جوارمانى من منطلق أنه رجل صادق تمامًا ، ومع ذلك فهو يتشكك فى عبارة جوارمانى التى تفيد دخوله إلى خيبر فى اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير (II Neged ص ٥٨) .

(٢) هذا هو شخص عاش فى مكة ، هو الدكتور جى سنوك هيرجرونجى ، يتهم دوتى بالخطأ ويعنفه وهو يستعرض أو يراجع بحماس وإعجاب شديد ، كتاب دوتى فى المقال الذى كتبه هيرجرونجى فى المجلة الفرنسية المعنونة "تاريخ الأديان" (العدد رقم ٢٠ ص ٨٢) . خطأ هيرجرونجى دوتى لأنه كان يطلق على نفسه دومًا كنية "النصرانى" التى هى مثار احتقار شديد . وربما كان أفضل له على حد قول هيرجرونجى ، أن يطلق على نفسه اسم "مسيحى Messihi" .

(٣) عبارة "الغيرة الدولية" بحاجة إلى شىء من التفسير . قصة حجر تيماء بعد اكتشافه تعد قصة غريبة ومبهمة ، ونظرًا لأن هذه القصة متصلة بتحرك ثلاثة من المستكشفين : هوبر ، ويوتنج ، وسنوك هيرجرونجى ، فلا بد من سردها هنا بإيجاز . شاهد هوبر الحجر أول مرة فى العام ١٨٧٩ الميلادى ، ولم يستطع الرجل فك سوى أسطر قلائل من سطور نقوش ذلك الحجر ، من سطحه الذى أصابه تلف كبير ، ويبدو أن هوبر وافق على مرافقة يوتنج له فى العام ١٨٨٣ الميلادى ، وذلك من منطلق أن واحدًا من الخبراء الأوروبيين القلائل فى الساميات يمكن أن يعطى صورة أفضل عن ذلك الحجر . يبدو أن الرحالين لم يكونا على وفاق تام ، كما أن روايتيهما عن الأحداث والأمور التى دارت فى حائل ، كانتا متباينتين تباينًا كبيرًا . وعلى سبيل المثال ، لم يأت هوبر على ذكر يوتنج فى مذكراته اليومية (المنشورة) ، وهو يتكلم عن أنه رتب الأمور حسب مرئياته هو . يوتنج ، من الناحية الأخرى ، يأتى على ذكر رفيقه مرارًا ، ولكنه يجعل منه مجرد شخصية ثانوية أو هامشية . وبالرغم من ذلك ذهب الاثنان إلى تيماء . وقام يوتنج بنسخ النقوش التى على الحجر ، وقام الرحالان بشف تلك النقوش . واكتشف الرجلان أن مسألة شراء الحجر أصبحت أمرًا يسيرًا ، وقام هوبر بالنصيب الأكبر فى هذه الصفقة وذلك بفضل معرفته الواسعة للمكان ولأهله أيضًا . ثم جرى إرسال ذلك الطرد إلى حائل ، ثم ذهب الرحالان بعد ذلك إلى العلا . el-Ala وفى العلا افترق الرجلان على حد قول يوتنج . ثم قام بدو جهينه بمهاجمة يوتنج ، الذى قتل منهم اثنين ثم هرب إلى الوجه حفاظًا على حياته ؛ ومن الوجه وصل يوتنج إلى القدس . عاد هوبر إلى حائل ، ثم اتجه بعد ذلك إلى جدة . ووصل إلى جدة عن طريق مكة (راجع صفحة ١٩٢) ، ثم قام بإرسال "شفافاته" Squeezes إلى بلاده ، ثم شرع بعد ذلك ، على إثر نصيحة أسديت إليه ،

بالعودة إلى حائل مرة ثانية ؛ وقتله مرشدوه فى مكان بالقرب من رابغ Rabig فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يوليو من العام ١٨٨٤ الميلادى ، - ويقال إنهم قتلوه ليسلبوا وينهبوا ما مع الرجل ؛ ولكن معروف عن هوبر أنه كان قد دخل من قبل فى مشادة مع قبيلة عتيبة ، وربما يكون قد تسبب فى إهدار دم أحد من أفراد هذه القبيلة .

فى ذات الوقت كان نولديك Noldeke قد تلقى ، وهو فى برلين ، رسالة مكتوبة بخط يوتنج ، ومرسلة من القدس فى اليوم الثانى عشر من شهر يونيو من العام ١٨٨٤ الميلادى ، يقول فيها يوتنج إنه "اكتشف" فى اليوم السابع عشر من شهر فبراير ذلك الحجر الذى رآه هوبر قبل أربع سنوات ، وأن الحجر كان فى طريقه إلى ألمانيا . وضمن يوتنج رسالته صورة من المشفوفات ، التى سارع نولديك بطباعتها طباعة مؤقتة . وفى اليوم الثالث من شهر يوليو تسلم ريفان مشفوفة هوبر التى أرسلت إليه من جدة وكتب وهو يشعر بالمرارة يقول : إن الرجل "حرم من ثمرة عمله بسبب ظروف ، أنا أراها ظروفًا مؤسفة جدًا" . وأعقب ذلك بنبأ وفاة هوبر . وبقى الحجر ومعه أشياء أخرى خاصة بالرحالين فى حفظ وصون أمير حائل ، الذى أرسل رسولاً إلى كل من مكة وجدة ليعرف منهما ذلك الشخص الذى يمكن أن يرسل إليه هذا الحجر وتلك الأشياء . بعد ذلك بفترة وجيزة حضر هيرجرونجى إلى جدة ، ليكتشف أن ادعاء يوتنج بملكيته للحجر كان ينازعه فيها الفرنسى . وهنا قام الرجل بتحذيره من منطلق الصداقة القديمة التى كانت بينهما ، ولكنه يقول : إنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك فى هذا الموضوع ، اللهم باستثناء توفير احتياجات المبعوث الذى أوفده مؤخرًا إلى حائل لوستالوت Lostalot نائب القنصل الفرنسى . ومع ذلك ، قام لوستالوت بإرسال تقرير مفاده أن هيرجرونجى كان متآمرًا مع برلين وبالتالى راح يساند مبعوثه ويدعمه ؛ وانتهى الأمر بأن وشى نائب القنصل الفرنسى بالهولندى (هيرجرونجى) عند السلطات العثمانية ، الأمر الذى أدى إلى طرده من مكة . وقام الأمير بتسليم الحجر هو والأشياء الأخرى . والحجر موجود حاليًا فى متحف اللوفر . كما أن المصاعب التى اكتنفت مسألة استعادة الحجر تعد الشاهد الوحيد على امتلاكه . ولكننا عندما نستعيد تلك العلاقة الثانوية التى تربط يوتنج بالمسائل الأثرية ، نجد أنفسنا نتشكك فى مسألة الشراء الأصلية وهل تمت فى تيماء لصالح برلين أم باريس .

(٤) جلوبوس ، الفصل ٣٩ ص ٢٥ ، الفصل ٤٠ ص ٣٨ .

(٥) سُهيل : بضم السين وتسكين الياء ، نجم من نجوم السماء (المترجم) .

(٦) كلمة "إريمك" Ermek هى كلمة تركية بمعنى "نهر" . ولا بد أن يكون هوبر قد سمع ذلك الاسم على لسان واحد من أفراد الحامية العثمانية فى خيبر .

مراجع الفصل الثانى عشر

C. Guarmani, Il Neged settentrionale: Itinerario da Gerusalemme a Anezch nel Cassim (Jerusalem, 1866). Cf. G. Rosen's article in Zeitschrift für allg . Erdkunde, Neue Folge, xviii. P. 201.

C. M. Doughty, Travels in Arabia Deserta, 2 vols. (Cambridge, 1888). Cf. Proceedings of R. G. S., 1879. p. 454; 1884, p. 382; and Globus. vols . xxxix., xl., xli.

C. Huber, letter dated Dec. 6, 1880, in B. S. G., 1881, p . 269, and articles, etc., cited for the preceding chapter .

J. C. Wetzstein, Nordarabien and die syrische Wuste nach den Angaben der Eingebornen , in Zeitschrift für allg. Erdkunde, xviii. pp. 408 - 498.

For the "Teima Stone," see Corpus Inscriptionum. Semiticarum, Part II., tom. i., No. 113.

الفصل الثالث عشر

الجنوب الأوسط

بالرغم من ندرة دلائل شهود العيان فيما يتصل بشمالي نجد إلا أن هذه الدلائل أشد ندرة فيما يتعلق بالجنوب . وهذا هو دوتي وهوبر استدارا عائدين إلى وطنيهما من القصيم ، قاصدين مكة عن طريق المدق المكي الكبير . هذا المدق المكي الكبير يمر خلال السهول العالية ، ويأخذ في الارتفاع التدريجي وبطريقة غير محسوسة طوال ثلاثمائة ميل إلى حافة الهضبة التي تقع فيما بين بقعتين من الصخور البركانية على دائرة عرض واحد وأربعين درجة . هذا المنحدر المترب الطويل ، الذي يغطي الزلط والحصى الأسود الجزء الغربي منه، خالٍ من المستوطنات الدائمة ، ولكن يوجد عليه كثير من النباتات الصحراوية والأبيار على بعد مسافات طويلة ، وهذا يصلح للعرب ويناسبهم . هذا الجزء هو أكبر المناطق الرعوية في الجزيرة العربية[١] ، وقد جرى تكييف هذا الجزء من الأرض كي يعول اثنين من كبريات القبائل المترحلة في الجزيرة العربية وهما : قبيلة حرب وقبيلة عتيبة .

بالجريف ونولد Nolde وحدهما هما اللذان واصلا سيرهما في الوسط الجنوبي من شبه جزيرة العرب ، ولكن نولد توقف قبل نهاية هذا السير بمسافة قصيرة . كان المغامر الألماني (نولد) قد اقتيد من بريدة إلى بعض المراحل في اتجاه الجنوب ، وذلك خلال الرمال التي تملأ حوض وادي الرمة ، إلى نقطة على حدود الوشم غير المعلّمة . وإلى الغرب من بلدة شقراء . في هذه المنطقة وبجوار بعض الأبيار غير المسمّاة أقيم مخيم الحرب الذي تلقى فيه الأمير محمد بن الرشيد استسلام وخضوع

الواحات الجنوبية بعد الانتصار الذى حققه على عنيزة فى أوائل شتاء العام ١٨٩٢ الميلادى . نولد لا يحكى لنا أى شىء عن طبيعة هذه المنطقة ، ولكننا نستخلص أنها ، مثل سهول عتيبة الموجودة فى ناحية الغرب . كان الإمداد والتموين يأتيان أثناء الليل إلى المخيم عن طريق النقل باستعمال الإبل ، كما كان ذلك الإمداد والتموين يأتيان من كل من عنيزة وشقراء . ضيّف الأمير ضيفه طيلة عشرة أيام ، ثم أرسله مباشرة ، ومن طريق مباشر فى اتجاه الشمال إلى أبيار شيبا Shiba على طريق الملكة زبيدة ، ومنها إلى مشهد على ، فى بلاد نهر الفرات . وهذا يحتم عبور نولد لوادى الرمة فيما بين بلدة الرس Rass وعنيزة ، دون أن يلمس المناطق الخصبة فى تلك البلاد ؛ والسبب فى ذلك أن نولد خلال مسيراته السبع إلى شيبا Shaiba يقول إنه لم ير أية مستوطنات ، اللهم باستثناء مجموعة واحدة من الأشجار ، فى الوقت الذى كان يجرى فيه جلب الماء كل ثلاثة أيام .

من هنا فصاعداً سيصبح بالجريف خير راوٍ لنا ، بل هو فى واقع الأمر يعد المصدر الأول فى هذا الجزء الذى يزيد على مساحة النصف فى الجنوب من نجد ، الذى تتوفر لنا عنه معلومات كثيرة مؤكدة ؛ أما فيما يتعلق بالجزء الآخر من الجنوب فإن الرواية التى أوردها عنه بالجريف هى الأكمل عن تلكم الروايات التى جاء بها أسلافه من أمثال رينود Reinaud، وسادلير Sadlier، وخلفه بلى Pelly، إلى حد أن رواية بالجريف تشكل نصًا تعد فى ضوئه روايات السابقين له واللاحقين مجرد تعليقات على ذلك النص . لقد رأينا بالجريف آخر مرة عندما كان فى بريدة . وقد وصل الرجل إلى بريدة قادمًا من حائل فى خريف العام ١٨٦٢ الميلادى ، ومعه خطابات من أمير حائل ، طلال بن الرشيد ، وأن تلك الرسائل لم تكن لتخدمه كثيراً فى مناطق الجنوب الوهابية بحق وحقيقة . يضاف إلى ذلك أن مرور بالجريف مروراً جسوراً وجريئًا من القصيم إلى الخليج الفارسى ، خلال أكثر مجتمعات الجزيرة العربية تشدداً ، هو بحد ذاته أكثر صنوف المرور رومانسية وغرابة فيما يتصل بخبرات هذا الرجل وتجاربه ، واستحقاقه للقب وشهرة المستكشف .

فى ظل ظروف الحرب الدائرة حاليًا ، حسب بالجريف أن الطريق المباشر إلى الجنوب ، أى ذلك الطريق الذى يمر بالوشم ، والذى سبق أن عبره سادلير ، كان مفتوحًا تمامًا أمام الغزاة العنيزيين ؛ الأمر الذى جعل الجماعة ، التى ألحق "السوريان" نفسيهما عليها ، وكان بعض أفرادها من الفرس ، تفضل الابتعاد عن ذلك الطريق وتتجه شرقًا إلى زلفى Zulfa، ومنها تسلك المدق المؤدى من البصرة Basra إلى الرياض . من هنا تحقق لبالجريف - وذلك على العكس ممن سبقوه أو حتى من جاءوا بعده - الترحال والتجوال خلال المناطق الجبلية فى كل من سدير والعارض ، ولم يسر الرجل فى المسار نفسه الذى اتخذه سادلير ، ولا الذى سلكه بيلى Pelly، إلى أن وصل (بالجريف) إلى العيينة Ayane .

فى اليوم الثانى من مغادرة بالجريف لبريدة ، وصل الرجل إلى الرمال الخفيفة التى تطوق التجويف الجيرى فى وسط القصيم ، وتجاوز تلك الرمال الخفيفة خلال يوم وليلة تقريبًا (ونحن يندر أن نسمع كلامًا دقيقًا عن بالجريف عندما يبدأ حكيه عن ساعات السير) . فى الجانب البعيد ، رأى بالجريف قرية زلفى Zulfa التى تتحكم فى وادٍ ينزل من الوشم ويسلك طريقًا طبيعيًا من جنوب نجد إلى بداية الخليج الفارسى ؛ وبالرغم من أن بالجريف لم يكن يعرف ذلك الوادى حق المعرفة ، إلا أنه (الوادى) كان يعد جزءًا من منظومة وادى الرمة . خلف قرية زلفى ترتفع بعض الصخور المتحدره ، التى تحد هضبة جبال الطويق الجيرية ، التى على شكل هلال ينحنى من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى ، الأمر الذى يجعل الهلال بوديانه الخصبة العميقة ، ومراعية المرتفعة ، جزءًا كبيرًا من جنوبى نجد المأهول بالسكان . وبشكل عام ، نجد أن النصف الشمالى من هذا الهلال يشكل منطقة سدير ، أما الجزء الجنوبى فيشكل منطقة العارض ، أما منطقة الوشم فتقع فى القوس .

تخوفت جماعة بالجريف من الوشم بسبب قربه من عنيزة الأمر الذى جعل هذه الجماعة تدخل منطقة سدير . وقد ثبت أن تلك المنطقة عبارة عن أرض طباشيرية منخفضة ، تنمو فيها بعض الأعشاب والحشائش المتناثرة ، كما توجد بعض الأدغال

الشجرية غير الكثيفة ، وفيها أيضًا بعض الطمى الذى يقبل الزراعة ، كما يتوفر الماء فيها فى قيعان متاهة من الوديان متحدرة الأجناب . والمجارى المائية فى هذه المنطقة تمتد إلى مسافة قصيرة فوق سطح الأرض قبل أن يجرى إنفاقها فى الرى أو يُعاد امتصاصها من جديد فى الأحواض الجيرية ؛ ومع ذلك فإن الأبيار فى هذه المنطقة لا يزيد عمقها على اثنى عشر ، أو خمسة عشر قدمًا ، إذ إن هذا العمق يكفى للحصول على ماء غزير . فى هذه الوديان الصغيرة تتوالى القرى الواحدة بعد الأخرى ؛ وقد عثر بالجريف فى تلك القرى على المدينة ، ووجد فيها الكرم ، واستقرار النظام ، ووجد أيضًا طرقها خالية من قطاع الطرق ، كما وجد فى تلك المنطقة ، بل وفى كل مكامنها أناسًا أصحاء ، وفلاحين مجدين ، ووجد فيها أيضًا رعاة للإبل والماشية والأغنام ، كما وجد فيها أيضًا فلاحى البساتين وكان الجميع يعيشون فى خوف ووجل من فيصل . أطلق بالجريف على اثنين من تلك المستوطنات ، هما المجمعة Mejma، التى كانت فى الماضى مقرا لأمراء سدير المستقلين ، والتويم Tueim، اسم بنادر ، وحدد سكان كل بندر من هذين البندرين بما يصل إلى خمسة عشر ألفًا من السكان . والهضبة ترتفع بشكل عام فى اتجاه الجنوب ، كما أن قمة تلك الهضبة تغطيها الأعشاب ، وتزخر أيضًا بالحيوانات التى يجرى اصطيادها .

يصل بالجريف بعد ذلك إلى بداية الوادى المتجه ناحية الشمال ، وهذا الوادى أعمق وأكثر امتداد عن بقية الوديان ، وعندما نزلت جماعة بالجريف إلى ذلك الوادى وصلت إلى حدود العارض عند حريملاء . Horeimle هذا الوادى الكبير الذى يدور حول كل من سدوس Sedusوالعيينة إلى أن يصل إلى أنقاض الدرعية ، وإلى الرياض[٢] ، العاصمة الحالية هو بمثابة القلب من جنوبى نجد ومسرح التنافس فيه . هذا الجزء من منتصف مجرى أو مسار ذلك الوادى ، الذى حفرت مياه الصرف فيه إفجيجًا(*) عميقًا ، يعرف باسم وادى حنيفة لم يجر استكشافه فى المنطقة الواقعة

(*) إفجيج : بكسر الهمزة وتسكين الفاء وكسر الجيم ، هو الوادى الصغير (المترجم)

خلف منفوحة Manfuha . أما مسألة إن كان ذلك الإفجيج يتصل أو لا يتصل بعد ذلك "بوادى عفتان" الذى يأتى من الجنوب الغربى ، فهى المسئولة إلى حد بعيد عن مسألة القول بأن وادى حنيفة يتجه مجراه ناحية الشرق . وبعد أن تجاوز بالجريف بروزاً من بروزات تلك الهضبة ، التقى الرجل بالوادى من جديد فى منطقة العيينة ووجد أن "عرضه يصل إلى قرابة الفرسخ ، وعامر بالأشجار وأشجار الآراك" . وسرعان ما بدأت حدائق الدرعية الغناء تكسو ذلك الإفجيج من صخرة إلى أخرى ، وخطر ببال بالجريف أن تلك البلدة المدمرة ربما كان يعيش فيها ما لا يقل عن أربعين ألف نسمة . فى هذه المنطقة ، قيل أن أوروبياً استطاع من قبل اختراق هذه المنطقة إلى مسافة قصيرة ، ولقى حتفه باعتباره جاسوساً . وبعد ذلك بساعات قلائل لاحت الرياض فى الأفق أمام أعين جماعة بالجريف .

"كنا نرى أمامنا وادياً طبيعياً واسعاً ، ومن أمام ذلك الوادى كنا نرى - تحتنا مباشرة ، منحدراً من الحصى كنا نقف على قمته ، وتقع عليه مدينة الرياض ، العاصمة تلك المدينة الكبيرة الواسعة ، التى تصنع الأبراج العالية ، والأسوار الدفاعية المتينة ، تيجاناً لها ، كما كنا نرى أيضاً كتلة من الأسطح والشرف ، التى كانت تشرف وتطل عليها قلعة الأمير فيصل الملكية ، تلك القلعة الضخمة غير منتظمة الأجناب ، وإلى جانبها مباشرة يوجد قصر فسيح ، بناه وعاش فيه ابنه الأكبر (الأمير) عبد الله ، وكانت تنتشر هنا أيضاً مبانى أخرى مميزه ، خلال متاهة من الأسطح الرمادية ، ولكنا لم نكن قد عرفنا بعد شيئاً عن هذه المنازل أو عن سكانها ، ومن حول المدينة ، وعلى امتداد ثلاثة أميال عبر السهل الذى يحيط بالمدينة ، شاهدنا بحراً من النخيل المتمايل فوق الحقول الخضراء ، وبساتين جيدة الرى ؛ بينما تناهى إلى مسامعنا فى المكان الذى توقفنا فيه أزيز غناء السواقى ، على بعد حوالى ربع ميل ، أو ما يزيد على ذلك قليلاً ، من أقرب أسوار المدينة إلينا . وعلى الجانب الآخر ، فى اتجاه الجنوب ، كان وادى الرياض يتصل بسهول اليمامة الأكبر والأكثر خصوبة ، تلك السهول التى تزداد فيها كثافة بيارات النخيل والقرى ، التى نستطيع

أن نميز من بينها مدينة منفوحة الكبيرة ، التى لا يقل حجمها كثيراً عن حجم مدينة الرياض نفسها ، ونشاهد أيضًا فى الخلفية البعيدة سلسلة الجبال الزرقاء ، وسلسلة جبال اليمامة" .

تجول بالجريف فى الرياض خمسين يومًا ، بما فى ذلك الوقت الذى أنفقه فى الرحلة القصيرة التى قام بها عبر تلال خرفة Kharfa الغربية المنخفضة ؛ وخرفة هى المدينة الرئيسية فى منطقة الأفلاج ؛ وعى بالجريف لمسئوليته تجاه العلم ، فى هذه البقعة التى يصعب الوصول إليها عن بقية الأماكن الأخرى ، هو الذى جعل الرجل يتحول إلى وصف الخصائص الطبيعية والاجتماعية ، ووصف الحياة الحيوانية والنباتية فى هذه المنطقة ، كما تناول بالوصف أيضًا العادات الدينية فى تلك البلدة ، كما وصف أيضًا عاداتها الاجتماعية ، ووصف أيضًا كلام الناس ، والأمراض ، والحقائق الأخرى المتعلقة بأهل العارض . هذه الدقة الطبوغرافية التى توخاها بالجريف أتى على ذكرها خلفه بيلى Pelly الذى تطرق أيضًا فى تقريره إلى عدالة وصدق الرواية التاريخية التى جاء بها بالجريف ، كما تطرق بيلى أيضًا إلى صدق الرجل فى وصفه وتشخيصه لكبار الوهابيين . ونحن من حقنا أن نسلم بصدق الصور الاجتماعية التى جاء بها الرجل ؛ والسبب فى ذلك أن الرياض كانت هدفه النهائى ، بل وشاغله الرئيسى فى الجزيرة العربية ، يضاف إلى ذلك أن ذكريات بالجريف عن الرياض لم تطغ عليها ذكريات المناطق الأخرى المتساوية معها فى الأهمية ، إلى أن وجد الرجل نفسه فى موقف يحتم عليه كتابة وتدوين تلك الذكريات .

ونحن لا يمكن لنا أن نقول عن بالجريف ، وبالذات فى هذا القسم من قصته ، أنه اتخذ لنفسه موقفًا علميًا محايداً . ولا بد لنا من الاعتراف اعترافًا تامًا بتحاملات بالجريف ومداهناته الأكثر خطورة ، والسبب فى ذلك أن الموقف كان يناسب ذلك ويتطلبه . وجد بالجريف نفسه وهو يصف بيت الوهابية ، عدوة المهمة المكلف هو بها ، كما وجد الرجل نفسه فى موقف شخصى يصلح للتناول الدرامى . وهذا هو بالجريف يجرد عدم المصداقية من سلاحها منذ البداية عندما يقول :

"أنا أعلم تمامًا أن الأحداث ، والشخصيات ، والمشاهد التى يتعين علىّ أن أضعها الآن أمام القارئ ، عرضة ، من حيث روايتها ، لأن تكون مصدر الكثير من الإزعاج من ناحيتين ؛ أولهما ما يتعلق بمظهر هذه الأحداث والشخصيات والمشاهد ، التى لا يصدقها البعض ، وثانيهما أننى أجعل نفسى فى كثير من الأحيان بطلاً لهذه القصة ، ولكن أى من هذين الجانبين غير الملائمين ، لا بد وأن يؤدى بالضرورة إلى أصل الحقائق ؛ وهذا هو ما رأيته ، وهذا هو ما حدث فعلاً ؛ وكل ما يسعنى عمله هو أننى سوف أحكى وأترك التعليق للآخرين" .

هذا الاحتجاج لم ينزع من بيرتون Burton سلاح النقد ؛ وبالتالى فإن هذا الاحتجاج لن يجردنا نحن أيضًا من سلاح النقد . القصة عند بالجريف ، كانت بمثابة عمل فنى ، ويتعين عدم إتلافها عند روايتها عن طريق افتقارها إلى قليل من التوشيه . ونحن ليس لدينا شك فى أن ما حدث لبالجريف فى الرياض هو ذلك الذى رواه على وجه التقريب . مسألة تصديقنا لما رواه بالجريف تصديقًا مطلقًا ، ومسألة تصديقنا أن الأطراف كلها فى المقابلة النهائية مع (الأمير) عبد الله ، كانوا جميعهم متوترين ، ومسألة أن الهرب كان مسألة صعبة المنال ، وأنه حدث بشق الأنفس ، كل هذه المسائل لا بد من أن ننسب الفضل فيها إلى الراوى ، أو المسجل الرومانسى لمغامرات "هيرمان Herman أجا Aga" . ونحن فى المواضع التى لا نستطيع فيها الوقوف على المقطوعات الدرامية فى قصة رجل بلغت مبالغاته الدينية والدبلوماسية هذا القدر الكبير من العظمة ، يتعين علينا عندئذ أن نضيف إلى تلك القصة شيئًا من الملح .

فيما يتصل بالوهابية ، لم يكن بالجريف ميالاً للحكم العادل على مجتمع كان تشدده لا يتفق تمامًا مع مزاجه القائم على اللذة ، فى حين كانت الروح الوطنية لهذا المجتمع تتوقع الفشل لمهمته .

"يالها من حدة ، ياله من تجبر طفولى ؛ إشعال جذوة هذا التشدد المحروق أمر مهلك ؛ هذا التشدد يعد الوهابى تابعًا مضافًا لمياه الإسلام المرة ؛ يالها من شجاعة ومثابرة شديدتين ولكن أسيئ استعمالهما" !

رفض بالجريف الاعتراف بروحانية الوهابية ، وأصر فقط على التمادى فى الأخطاء فى العقيدة والسلوك ، اللذان كانا يتضحان فى أحط أتباع الوهابيين . أفاد بالجريف كثيراً من القدرية الجدباء التى تترتب على الاستسلام غير المشروط الذى يوحد بينه وبين الإنسانية خليج بلا جسر ، كما أفاد بالجريف كثيراً من نفاق الأتباع الذى يقوم على التظاهر بالتقوى والورع ، المشبع بالطموح الفردى تمييزاً لأنفسهم عند الرب (الإله) . وبالجريف لم يتبين ولم يكن على استعداد أن يتبين أن القدرية ليست من جوهر تلك المنظومة التى تنص وتصر على أن الصلاة هى الواجب الأول على الإنسان ، كما صاغت كوداً للسلوك يقوم على التبرير . وقال بالجريف أيضاً إن التشدد الدينى المحزن فى زمنه كان مجرد حادث ، أو إن شئت فقل كان نتيجة لمحاولات خطره مر بها المؤمنون عن طريق الحرب والأوبئة ، وبخاصة عندما انتشر وباء الكوليرا بين الناس فى العام ١٨٥٢ الميلادى . معروف أن المجتمعات الروحية كلها تبدأ بمرحلة من التقشف ، وهى تعاود الرجوع إلى هذه المرحلة فى حالات الكرب الشديد ؛ وبالتالى تتعلق آمال المجتمع العربى ، الذى يكون من قبيل المجتمع الذى شاهده بالجريف فى الرياض ، بالمزيد من الاستقرار والمزيد من الدين والمزيد من السياسة ، وذلك على العكس من اللامبالاة الليبرالية فى جبل الشمر . ومعروف أن الثيوقراطية(*) ، وليست الأبوية الرعوية هى المسيطرة والدائمة فى الحكم السامى .

الخدمة الجليلة التى أسداها بالجريف إلى علم الجغرافيا تهيأت فرصتها أثناء مقام الرجل فى جنوب نجد عندما قام برحلته إلى الأفلاج Aflaj . منطقة الأفلاج ، التى تحمل هذا الاسم منذ زمن طويل ، كانت توقع دائماً توقيعاً خاطئاً على الخرائط الخاصة بالجزيرة العربية . وبلدة الخرفة Kharfa، عاصمة الأفلاج ، والتى تقع ، فى حقيقة الأمر ، على بعد حوالى ثمانين ميلاً جنوب غربى الرياض ، سبق أن ظهرت على

(*) ثيوقراطية : : حكومة دينية يدعى القائمون عليها (من رجال الدين) أنها تسير بتوجيه من الله مباشرة ، وأنها تستمد سلطاتها منه . (المترجم)

خارطة ريتر Ritter فى العام ١٨٥٢ الميلادى ، على بعد مسافة تزيد على ضعف هذه المسافة ، وعلى شواطئ البحيرة Lake سالوم Salume التى تدور من حولها الشكوك ؛ ووادى الدواسر ، الذى يقع فى الجنوب الغربى من الخرفة ، سبق أن تم توقيعه على الخارطة داخل منطقة نجران . خلاصة القول : إن هذه المناطق جرى توقيعها فى مكان قصى فى الجنوب يبعد عن مكانها الحقيقى بمعدل درجتين . وقد اكتشف بالجريف ، الذى وصل الخرفة بعد مسير يومين بإبل صائمة ، أن الأفلاج تبدأ مباشرة مع التلال الرملية المنخفضة التى تحيط بسهل الرياض من الناحية الجنوبية الغربية . كما اكتشف الرجل أيضاً أن هذه المستوطنة الرئيسة ، التى قدر عدد سكانها بحوالى ثمانية آلاف نسمة ، لم تكن قريبة من بحيرة من البحيرات ، كما أنه لم يسمع أى شىء عن "بحر Bahr سالوم Salum" . وفى ضوء المعلومات التى جاء بها بالجريف فإن انحدار الأرض كان نحو الأسفل فى اتجاه الجنوب الغربى ، وأن ذلك الانحدار استمر فترة طويلة ، إذ وصل مداه إلى ما يقرب من سبعين ميلاً داخل منطقة قلعة Kalaat بيشة Bishe؛ ولم يكن هذا الانحدار ناحية الأعلى ، مثلما ورد فى تقرير جومار Jomard عن الصرف فى هذه المنطقة . أما من كان منهما على حق ، فسوف يتبين لنا ذلك فيما بعد . سمع بالجريف ، أن وادى الدواسر ، كان يصل طوله إلى ما يقرب من مائتى ميل ، وأنه عبارة عن أرض تقل وتندر فيها واحات النخيل ، شأنه فى ذلك شأن منطقة الأفلاج نفسها ، وأن الذين يسكنون هذا الوادى هم من البشر الأجلاف المتشددين ، وأنهم يقومون بدور الناقلين على الطريق فيما بين نجران واليمن .

أما مسألة تعايش بالجريف هو ورفيقه مع الرياض ، ومسألة تعاملهما مع الأمير ، وولده العدوانى المحب للحرب ، وتعامله مع الوزير الخائن(*) ، وكذلك مسألة تعامله مع الوهابيين الحضر بشكل عام ؛ وكذلك مسألة قلق السلطات الدينية ، وكذلك مسألة السلاح المدنى الذى راودته الشكوك عن قيام بالجريف بالتجسس ؛ وكذلك مسألة قيام

(*) المقصود به الوزير محبوب وزير الإمام فيصل الذى كان معارضاً لأى تفاهم بين بريطانيا والسعوديين . (المترجم)

أبو عيسى ، تلك العبقرية الطيبة فى الجزء الأخير من المغامرة ، برسم خطة الهرب التى نجح تنفيذها ، - كل هذه المسائل يمكن الوقوف عليها من خلال قراءة أشد الفصول إثارة عن مغامرة فى الجزيرة العربية . بعد أن تخلص "السوريان" من الرياض فى نهاية المطاف ، يمما مسيرهما صوب منفوحة ، وسارا فى طريق ربما كان ذلك الطريق الذى سبق أن سلكه سادلير ، أو ربما كان طريقًا موازيًا ، على بعد مسافة قصيرة ، للطريق الذى سلكه سادلير . هذا الطريق أوصلهما إلى واحات اليمامة المنخفضة الحارة ، التى تفصلها الحريق الأشد حراً ، عن الرمال العظمى المجهولة ، وانطلق الاثنان من ذلك المكان ليعبرا خطًا من المرتفعات ليصلا إلى حزام صحراوى أورد له بالجريف وصفًا على اعتبار أنه من النفود الجنوبية . بالرغم من أن المرور خلال هذه الرمال الحاجزة الضيقة كان مؤلمًا ، إلا أنه لم يشكل أية مصاعب أمام ريـنود أو سادلير ، وكذلك بيلى Pelly؛ ولكننا نشعر بالحيرة ونحن نحاول فهم الطريقة التى تعامل بها بالجريف مع المسافات الطويلة فيما بين مواقع المياه ، عندما كان يسلك ذلك الطريق الذى كان يسير فيه فيلق من القوات التى كانت تحمل السلاح قادمة من الأحساء إلى الرياض لتشارك فى حصار عنيزة . بالرغم من كل ذلك ، استطاع بالجريف الوصول إلى الهفوف وتجاوز الهفوف ليصل إلى البحرين ومن بعدها إلى عمان ، ثم بعد ذلك إلى خارج الجزيرة العربية ، كما سبق أن أوضحنا .

حدث أول لقاء عام لبالجريف مع الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ؛ وكان ذلك فى اليوم الثانى والعشرين من العام ١٨٦٤ الميلادى . أضاف بالجريف إلى البحث الذى تقدم به ، والذى كان يحتوى على كثير من التفاصيل الجغرافية التى تجرأ على المخاطرة بها ، شيئًا عن التاريخ ، والسياسة ، والحياة الاجتماعية فى نجد ، وبخاصة طبيعة المذهب الوهابى ، وكلها موضوعات لم تسبب له حرجًا . لم يكن أولئك الذين كانوا يستمعون إلى بالجريف وهو يلقى بحثه ، مقتنعين تمامًا بما يقوله الرجل ، إلى حد أن رئيس الجلسة ، قام أثناء التصويت بحذف إشارة خفيفة كانت فى اتجاه "ألف

ليلة وليلة" . يضـاف إلى ذلك ، أن رجـال العلم الذين تربوا على كتب كل من جـومـار Jomard وريتـر Ritter لم يتـرددوا في التـشكيك في أراء الرجل عن هـيدروغـرافـيـة الجـزيرة العـربيـة ، وبخـاصـة مـسـألة الصـرف في اتجاه الشرق عن طريق "وادي عفتـان" . ومع ذلك كسب بالجريف الجدل الذي دار مع جي بي بادجـر حـول مسـألة الصرف ، فقد تمكن بالجريف من إثبات عدم وجود أي وادي في جنوب نجد ، يمكن أن ينقل المياه مباشرة إلى الأحساء ، وكان خصم بالجريف على غير علم تماماً مثله بوادي الرمـة ، الذي يقوم في واقع الأمـر بتصريف جـزء من مياه الصـرف في وسط الجزيرة العربية ، إلى الشمـال الشرقي . تفاصيل هذه الرحلة نشرت في جزئين في العام التـالي لعودة بالجريف ، وأحدث ذلك الكتاب ضجـة في كل من فرنسـا وألمانيا وبريطانيا ؛ وأعطت الجمعية الجغرافية الفرنسية صاحب هذه القصة درجة الامتياز ، تلك الدرجة التي حجبتها عنه الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية . بعد ذلك بسنوات كثيرة تهيأت لبالجريف فرصة تجميع ومراجعة أرائه عن الجزيرة العربية ، عندما وقع عليه الاختيار للمشاركة في الطبعة التاسعة من "الموسوعة البريطانية" ؛ وراح الرجل يتناول نقاطاً مختلفة ، على شكل مقالات دورية ، فاضت وزادت وربت عندما بدأ عمله بالدبلوماسـيـة فيمـا بعـد . ولكن الرجل لم يحقق الأمـر الذي راوده عندما كـان في مسقط ، حول استكشاف الجزيرة العربية مرة ثانية .

في هذين الجزئين اللذين صدرا تحت عنوان "وسط الجزيرة العربية وشرقها" ، وضع بالجريف كتاباً جلب له الشهرة على وجه السرعة ، ومنيعاً على النسيان ، ولكن الكتـاب لا يمكن أن تتحـقق له سرمـدية أو خلود الأعمـال أو المؤلفات الجليلة ، – ذلك الخلود الذي لا يتحقق إلا من خلال الجودة الأدبية الفائقة مضافاً إليها الصدق المطلق عندما يجري إضفاؤهما على مؤلف من المؤلفات أو على رواية مغامرة من المغامرات . صحيح أن القصة التي يرويها الكتاب ، هي من بين القصص المرموقة في كل أنحاء العالم . ومن بين مستكشفي الجزيرة العربية ، وإذا ما أخذنا بعين اعتبارنا الأسباب كلها ،– وإذا ما وضعنا في حسباننا المساحة التي غطاها كل مستكشف من أولئك

المستكشفين ، والمخاطر التى تعرضوا لها ، والنجاح الذى أصابه كل واحد منهم ، - إذا ما أخذنا كل ذلك بعين اعتبارنا نجد أن دوتى هو بحق الذى يمكن مقارنته ببالجريف ، اهتمامات هذا المؤلف ، ومعرفته ، وقدرته الفكرية ، وتكيفه غير العادى مع الظروف الخاصة فى الأرض التى زارها تميزه (دوتى) عن سائر الرحالة ، وبخاصة الصفوة منهم ؛ كما أن جودة تأليفه لقضية ترقى إلى مستوى كتاب رائع من كتب الرحلات .

لكننا بوسعنا أيضًا أن نضيف إلى قدرات بالجريف العالية فى التأليف القصصى وفى الحكى ، تعميماته الذكية ، واهتمامه الدرامى ، ووعية بالأسلوب ، وتعاطفه ، ولمساته الخفيفة . ومع ذلك هناك أيضًا بعض العيوب ، - ألتى منها الغموض وعدم الوضوح ، والتسرع ، والتصنع ، والكلمات النابية والطلاقة المملة التى هى خصلة من خصال أهل الليفانت . "للأوديسا" بالجريف هى المضاد ، أو الغريم للأويسا التى كتبها دوتى . هذه الأوديسا مشبَّعة بالرجل ، وأنانية من الغلاف إلى الغلاف ، هى تقرير فردى ، ولا شىء غير ذلك . فى هذا الكتاب يقدم بالجريف نفسه على أنه هو نفسه فقط ، ونحن عندما نقرأ بالجريف نجدنا نتعجب ونعجب دومًا بذلك الرجل ؛ ولكن قلة قليلة من القراء هم الذين يتعاطفون معه ، وقلة أقل من هذه القلة ، هم أيضًا الذين يوافقونه على رأيه فى الحياة .

استكشاف نجد بعد الاستكشاف الذى قام به بالجريف ، قام به رجل مختلف تمامًا ولهدف مختلف تمامًا أيضًا . هذا الاستكشاف يعد ، فى بعض جوانبه فريدًا فى تاريخ استكشاف الجزيرة العربية . فى ذلك الاستكشاف ، خاطر الممثل الرسمى للقوة الأوروبية ، بحكم منصبه بالدخول إلى وسط شبه الجزيرة العربية دون أن يخفى الرجل جنسيته ، أو عقيدته أو حتى طبيعة مهمته .

فى العام ١٨٦٤ الميلادى ، قرر العقيد لويس Lewis بيلى Pelly، الممثل البريطانى المقيم فى بوشهر Bushire، والمراقب الحقيقى للخليج الفارسى ، قرر الرجل من تلقاء نفسه وبمحض إرادته الذهاب إلى الرياض والالتقاء بالأمير الوهابى

شخصيًا . ويبدو أن الرحلة التى قام بها بالجريف مؤخرًا كان لها دخل بهذا القرار الذى اتخذه العقيد لويس بيلى . على كل حال ، فإن بيلى لا يتكلم إلا عن استجلاء بعض المشكلات الجغرافية ، وتسوية بعض المصاعب التى نشأت مؤخرًا بين الحكومتين الهندية والنجدية بسبب قمع حركة القراصنة فى الخليج الفارسى وحركة تجار العبيد من شرق إفريقيا . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الذين يسمون "الرؤساء المهادنين"(*) على ساحل الخليج الفارسى ، والذين كانوا يسطون على أسطول اللؤلؤ ويمارسون تجارة الرقيق ، لم يكونوا أى أحد غير تلك المخلوقات الوهابية ؛ وكان يجرى دعمهم وإسنادهم من داخل الجزيرة العربية ؛ هؤلاء الرؤساء المهادنون لم تتمكن البوارج البريطانية من إخمادهم نظرًا لأنهم كانوا يعتمدون على مواردهم الخاصة . وكانت عمان قد أمكن فصلها عن هؤلاء الرؤساء منذ زمن بعيد ، وذلك بفضل الضغوط البريطانية ، أما مسألة غلب نجد البعيدة على أمرها ، فتلك قضية أخرى . من هنا نجد أن حكومة الهند ، كانت قد رحبت ، كما سبق أن أوردنا ، بالغزو الذى قام به إبراهيم باشا ، كما رفضت حكومة الهند التماسًا تقدم به الأمير الوهابى ، اعتمادًا على العلاقات الودية السابقة ، وراحت الحكومة الهندية تشجع المصريين على إنهاء العمليات التى كانوا يقومون بها على ساحل الخليج الفارسى .

على كل حال ، فإن هذه الآمال كلها حبطت ، كما سبق أن قلنا فى المهمة التى قام بها سادلير ؛ واعتبارًا من تاريخ انسحاب المصريين بصفة نهائية ، استاءت إمارة الرياض المستعادة من الراج Raj البريطانى ، وتعكر صفو العلاقات بينهما ، وعندما بدأ فيصل فى ترسيخ قدميه فى الرياض فى مطلع الخمسينيات ، خاطر الرجل بالقيام باحتجاج شديد على التدمير الشامل للمتلكات الوهابية بواسطة البوارج البريطانية ، وأعقب ذلك الاحتجاج بقطع العلاقات بكل أنواعها مع السلطات

(*) أطلقت الحكومة البريطانية على شيوخ الساحل الجنوبى للخليج تعبير " الشيوخ المهادنون " بعد توقيع أولئك الشيوخ معاهدة الهدنة البحرية الدائمة فى عام ١٨٥٣ ، كما تغير اسم الساحل من ساحل القراصنة إلى ساحل الهدنة البحرية Tru cial coast . (المراجع)

البريطانية في الخليج . ولكن الكولونيل لويس بيلى الذى عين مؤخراً ممثلاً لبريطانيا مقيماً في بوشهر ، لم يكن راضياً عن ترك الأمور تسير على ما هى عليه . فقد بلغه أن فيصل كان حاكماً نشطاً وقديراً ، كما كانت نجد ولاية مركزية ومنظمة . وكان يراود لويس بيلى أمل مفاده أن الأمير(*) يمكن أن يفهم موقف بريطانيا من القرصنة ومن تجارة الرقيق ، وأن من مصلحته عدم دعم أو تأييد أو إسناد الرؤساء المهادنين . على كل حال ، لم تلق المحادثات البريطانية قبولاً . ولم تحظ رسالة بيلى الأولى إلى أمير الرياض إلا باستعادة الذكريات عن الممثل المقيم الدائم السابق ؛ أما رسالة العقيد لويس بيلى الثانية ، التى طلب فيها من الأمير سلامة الوصول إلى الرياض فقد بقيت بلا رد عليها . وبالرغم من ذلك عبر لويس بيلى الخليج إلى الكويت ، وأرسل رسالة ثالثة ، وانتظر بضعة أسابيع ، راح يتجول خلالها ويقوم بالقنص على ساحل الخليج مع الشيوخ الأصدقاء . وانتهز بيلى تلك الفرصة فى جمع المعلومات ، التى قام بيلى بجمع ذلك الذى يخص الجغرافيا ، منها فى رسالة أرسلها من المعسكر إلى السير هنرى Henry راولنسون Rawlinson، وجرى نشر هذه الرسالة فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية . أخيراً وصلت دعوة للعقيد لويس بيلى من الرياض ، ولكن تلك الدعوة لم تكن مصحوبة بمرشد أو حرّاس . ولم يخش لويس بيلى ذلك أو يخاف منه ، فقد اختار الملازم كلفايل Colville، كما اختار أيضاً الدكتور داوس Dawes، وهو من البحرية الهندية ليكونا له رفيقين ، بالإضافة إلى شخص آخر يدعى لوكاس Lucas للعمل مترجماً ، كما أخذ معه أيضاً طباخاً برتغالياً ، ومجموعة من الخدم الوطنيين ، وتوجه الرجل إلى الداخل سالكاً طريقاً واحداً من الطرق الأربعة المؤدية إلى الرياض ، وكان ذلك فى اليوم الثامن من عشر من شهر فبراير من العام ١٨٦٥ الميلادى .

(*) الأصح الإمام وهو اللقب الذى كان يطلق على الإمام فيصل بن تركى . (المراجع)

كانت جماعة الكولونيل لويس بيلى مزودة تزويداً جيداً بالآلات والأدوات ، ولكنها كانت تخشى استعمال هذه الآلات والأدوات ، لأن ذلك يمكن أن يورط ليس الأعضاء وإنما الحكومات فى ذلك النزاع أيضًا . ولكن عندما جرى نصب الخيام فى اتجاه الشمال طلبًا للبراد ، تهيأت فرص المراقبة أثناء الليل . وتجنبًا لملاحقتهم على الطريق ارتدى أفراد الجماعة العباءة الوطنية (البشت) والعقال ، ولكنهم لم يرتدوا أى شيء غير ذلك . لما كانت أحمال الجماعة خفيفة ، ولما كانوا مرتاحين فى الركوب على الراحلات ، فقد تمكنوا من السير بسرعة غير عادية ، إذ كانوا يقطعون خمسة وثلاثين ميلاً فى اليوم الواحد على امتداد ستة وعشرين يومًا أمضوها فى الرحلة إلى الرياض ، يضاف إلى ذلك ثلاثة أيام أمضوها فى الرياض .

كان مسير الأيام العشر الأولى ، كما سبق أن أوضحنا فى فصل سابق ، خلال بلاد فقيرة ، لم يعثروا فيها على الماء إلا على بعد مسافات طويلة ، ولم تشرب الجمال طوال هذه الأيام العشرة سوى مرة واحدة . لم ير الرحالة أية مستوطنة من المستوطنات ، وكل ما رأوه كان عبارة عن شجرة واحدة ؛ لم تكن هناك مستوطنات فى السهول أو الحواف الجبلية الزلطية التى تسير بمحاذاة شاطئ الخليج ، الحافة بعد الأخرى ، ثم تنتهى بعد ذلك إلى حواف أو سلاسل أخرى جبلية من الحجر الرملى . وفى اليوم السابع من المسير ، وصلت الجماعة إلى حافة الحزام الصحراوى ، الذى عبره بالجريف ، حيث توجد أبيار وبرة Wabya المئة ، ويصل عمق كل بئر من تلك الأبيار إلى أربعة قامات فى الحجر الرملى . لويس بيلى يشهد ويقر أن هذا الحزام الرملى يختلف عما يسميه العرب بالنفود ، من حيث إنه تربة صلبة موجودة فى أخاديد رمالها الدوارة ، أو إن شئت فقل : الدهناء Dahnā، – ومصطلح الدهناء هذا أطلقه والين Wallin على المخذة الكبيرة التى صادفها وهو فى طريقه من حائل إلى مشهد على . والمدق المطروق فى أغلب الأحيان فى غرب وبرة Wabra يمر مباشرة عبر الرمال إلى المجمعة Mejma فى منطقة سدير ؛ ولكن قافلة الكولونيل لويس بيلى خفيفة الحركة سلكت مسارًا على شكل خط مباشر، أوصلها بعد مسير دام خمسة

أيام بلا ماء ، إلى أبيار عرمة Orma، عند سفح جبل طويق Tueik . وتجاوزت الجماعة قمة الهضبة فى اليوم التالى ، واكتشفت الجماعة أن منخفضًا واسعًا يفصل هذه القمة عن قمة أخرى بعيدة ، هى عبارة عن سلسلة تلال العارض . وفى ذلك التجويف ، الذى هو عبارة عن رقعة من الأرض فيما بين الجبال ، والذى يطلق العرب عليه اسم "بطن" Belly، توجد سلسلة من المستوطنات ، بما فى ذلك تلك المستوطنات التى زارها بالجريف وهو فى طريقه إلى الجنوب عائدًا من المجمعة . واستهدافًا للوصول إلى الرياض على وجه السرعة ، تعين على لويس بيلى المحافظة على مساره فى اتجاه الجنوب ؛ ولكن الرجل أقنع مرشديه أن يتجهوا ناحية الغرب عبر قمة العارض ليدخلوا منها إلى وادى حنيفة ، وبذلك يمكن الوصول بالقافلة إلى سدوس Sedus . كان لويس بيلى قد سمع عن "عمود مكتوب" هناك ، ولذلك توقع العثور على بعض الآثار الحميرية أو المسمارية . Cuneiform والذى عثر عليه لويس بيلى كان عبارة عن عمود جميل مبنى من قطع صغيرة من الأحجار ، وملاط من الطين ، وكان عليه أيضًا صليبان محفوران . وأكد الناس لبيلى أن ذلك العمود موجود من قبل الإسلام ، ولكن الاحتمال الأكبر هو أن هذا العمود ربما كان تذكارًا من تذكارات مساجد فجر الإسلام التى دمرها القرامطة ، ونسيه الناس خلال فترة الوثنية الطويلة التى سبقت قيام الحركة الوهابية فى جنوبى نجد .

هذا الأثر نفسه جرى إبلاغ دوتى عنه باعتباره غريبة من غرائب الآثار القديمة ، وسجل الرجل ما سمعه ، لأنه كان جاهلاً بالشهادة التى أدلى بها لويس بيلى ، بدت سدوس للإنجليز وكأنها بلدة أنيقة فيها سكان واحيون بطيئون ، ولكنهم تعجبوا من قطع الأحجار الكبيرة التى بنيت فى العيينة للتحكم فى مياه السيول . وقد وصف لويس بيلى وادى حنيفة على أنه واد له جدران يصل ارتفاعها إلى حوالى ثلاثمائة قدم . ومن حدائق الدرعية اتجهت القافلة شرقًا ، وبعد أن عبرت لسانًا من ألسن الهضبة ، وصلت فى اليوم الخامس إلى الرياض ، التى رأتها القافلة وكأنها تقع فوق هضبة فى اتجاه الشرق وفوق مستوى وادى حنيفة ، كما كان لها منظر طيب .

خارج أسوار الرياض ، طُلب إلى الجماعة الانتظار ، وتقبل السكنى فى منزل صيفى من منازل الأمير . وفى هذا البيت لقيت الجماعة استقبالاً حاراً من الوزير محبوب ، الذى أتى بالجريف على ذكره ، وكان على لويس بيلى الانتظار لحين سماح فيصل لهم بالدخول .

انعقد فى ساعة متأخرة من نهار اليوم التالى اجتماع ، ولكن بعد شىء من التردد . لم تكن اللحظة مواتية ، وذلك على العكس مما كان يتوقعه لويس بيلى . والسبب فى ذلك أن فيصل العجوز كان قد أصابه الشلل مما أدى إلى تنازله عن العرش بعد ذلك بثلاثة أشهر ، كما أحس بعجزه عن الوقوف فى وجه ولده العنيد عبد الله ، هو والخائن محبوب . كان محبوب يعارض حدوث أى نوع من التصالح بين الأمير والقوة البريطانية . لو كان محبوب بحق ، على حد تأكيد بالجريف ، أفغانيًا هاربًا من بلخ Balkh، وسبق له الذهاب إلى الهند ، فذلك يعنى أنه كان لديه من الأسباب ما يجعله يعرف أن النفوذ البريطانى لا يخدم الوزراء الفاسدين من الدول المحلية . كما أن المكاسب التى يمكن أن تعود على نجد من هذه الزيارة والمحادثات سوف تعزى للأمير : أما الخسارة فسوف تكون عليه هو نفسه وعلى الأرستقراطية الوهابية التى تمتلك العبيد وتغير عليهم . يبدو أن محبوب عندما استشعر وقوف جماعة قوية من خلفه ، حرّض فيصل على إعادة لويس بيلى دون أن يلقاه ، ولكن يبدو أن فيصل لم يستمع أو يعمل بذلك . فى اللقاء الأول ، وبالرغم من تحرز الأمير تماماً ، فإنه وقف لتحية زائره بالرغم من شيخوخته وعماه ، ومع ذلك كان يأخذ حذره ويحرص على قدره وكرامته ، - وبذل جهداً كبيراً فى طرد الفكرة التى مفادها أن بوسعه التنازل عن الأرض أو الموافقة على التدخل المسيحى فى شئون نجد . قال فيصل : "نحن نكره دينكم ، ولكننا نسمع أن حكومتكم حكومة جيدة ومنظمة" . إن الله هو الذى قدر لفيصل أن حكم "أرض الجزيرة العربية بدءًا من الكويت إلى رأس الحد وما بعدها" ، - بمعنى حكم كل ساحل الخليج الفارسى ، - وأكد فيصل للمبعوث أنه يستشعر أنه ملك لهذه المنطقة وحاكم مطلق على ممتلكاته .

على كل حال ، يبدو أن الأمير تعلم من خلال المقابلة احترام بيلى ؛ لأن المندوب البريطانى يقول صراحة ، إنه من جانبه ، احترم المحارب العجوز الضرير ؛ وفى اللقاء الثانى كان الحديث وديًا وحارًا ، وانصب على الزراعة ، ووسائل رفع الماء ، وحال القبائل وإمكانية إنشاء وصيانة خط من خطوط التلغراف خلال الجزيرة العربية بدلاً من الكلام فى المسائل السياسية العالية . كان فيصل يتمنى لو أن الإنجليزى شاهد خيوله ، وقام برحلة إلى الخرج فى اليمامة حيث يرعى القطيع فى المرعى الموجود هناك ؛ ورجا فيصل الإنجليزى أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن يستقر ويقيم فى نجد . ولكن محبوب ، هو وجماعته بعد أن فشلوا فى تحقيق المصالحة ، فكروا فى تحويلها إلى نوع من المحاسبة ، وحثوا على توقيع معاهدة تعطى الحصانة لتجارة العبيد ؛ وعندما استشعر لويس بيلى أن الأمور قد تتطور إلى ما يمكن أن يقضى على المهمة التى جاء من أجلها ، قرر الرحيل . وبالرغم من محاولات التعطيل والعرقلة ، استطاع لويس بيلى تجميع إبله إلى بعضها ، كما تمكن من العثور على صياد صليبى(*) slayb ليكون له مرشداً ، وشرع بيلى فى التحرك فى اليوم الثالث . ولما كان ذلك المرشد الصليبى خائفًا من الوهابيين من ناحية ، ويخشى الطبيعة القبلية فى إخفاء عيون الماء من الناحية الأخرى ، فقد اقتاد قافلة بيلى إلى مدق قفر غير مطروق يقع إلى الشمال من المدق (الطريق) الذى سبق أن سلكه بالجريف ، متحاشيًا بذلك واحات اليمامة ، ومتجهًا مباشرة صوب الشمال قاصداً منطقة الهفوف . والخصائص والملامح التى أوردها بيلى عن الهفوف كانت مجرد تكرار لتلك الخصائص والملامح التى جاء بها كل من سادلير وبالجريف . اتضح أن خطوط التضاريس الرئيسية كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتعين على قافلة لويس بيلى عبور سبعة سلاسل جبلية متميزة أثناء هبوطها من فوق هضبة جبل طويق إلى الساحل .

(*) صليبى : أى من قبيلة الصلب غير المعروف أصلها ، وكان أفرادها يشتغلون بالمهن البسيطة . (المراجع) .

تنازل الأمير فيصل عن العرش فى صيف ذلك العام هو الذى جرد تلك البعثة الشجاعة من تحقيق أية نتائج فاعلة . ومع ذلك ، لم تمر تلك البعثة مرور الكرام ؛ والسبب فى ذلك ، أن عبد الله عندما اكتشف أن توليه العرش يحيط به نقاش وجدل خطير ، كان لا بد له من الاتجاه إلى بوشهر Bushire طلبًا للعون والمساعدة ، وراح يعرض استعداده لمسايرة السياسة البريطانية فى الخليج الفارسى إذا ما سمحت له بريطانيا بالاستمرار فى جباية الزكاة التى كان يحصل عليها من عُمان . كان لويس بيلى ، قد كون عن عبد الله ، فكرة سيئة هى التى منعت بيلى من تزكية التدخل لصالح (الأمير) عبد الله ، وراحت تساند أخاه سعود[٣] . وعندما اضطرت الظروف عبد الله إلى الذهاب إلى جبل الشمر ، تقدم من هناك بالتماس إلى بغداد ، وأسفر ذلك الالتماس عن قيام مدحت باشا فى العام ١٨٧١ الميلادى باحتلال الأحساء ، ورفع العلم العثمانى على شرقى الجزيرة العربية .

ونحن إذا ما ألقينا نظرة عابرة على الخارطة التى وقعت عليها مسارات ثلاثة من المستكشفين هم : سادلير ، وبالجريف ، وبيلى ، نتبين مسألة ما جرى استكشافه بواسطة الأوروبيين من منطقة وسط الجزيرة العربية الشاسع ، وبخاصة فى المنطقة الواقعة أسفل دائرة عرض ٢٦° . ونتبين أيضًا أن إجمالى شهادة العيان لا يعدو أن يكون مجرد رقعة مربعة من الأرض لا تزيد على مائتى ميل ، سواء قسناها من زلفى Zulfa إلى منفوحة أو من الحزام الرملى الشرقى إلى شقراء Shakra؛ بل إن هذه المنطقة لم تجر ملاحظتها بصورة مرضية ومقنعة مثلما حدث فى القسم الأكبر من شمالى نجد . السبب فى ذلك ، أن أى اثنين من هؤلاء المستكشفين الثلاثة لم يغطيا الأرض نفسها ، أو رأيا النقاط نفسها ، اللهم باستثناء تلك الوصلة القصيرة من وادى حنيفة ، الواقعة بين سدوس Sedus والرياض ؛ يضاف إلى ذلك أن ملاحظات كل مستكشف من هؤلاء المستكشفين الثلاثة ، بل وملاحظاتهم كلها ، معرضة لعدم أخذها بعين الاعتبار لمجموعة من الأسباب المختلفة . هذا هو سادلير Sadlier، على سبيل المثال ، جاء فى أعقاب جيش كان يجلو عن أرض شديدة العداء ، وبالتالى عجز

الرجل عن طرح الأسئلة على المواطنين أو الاستفسار منهم ؛ كما عجز سادلير أيضاً عن الاتجاه إلى يمين أو يسار ذلك الطريق المدمر . أما بيلى فقد كان سريع التنقل ، الأمر الذى جعله لا يرى سوى القليل جداً من أراضى نجد وذلك على العكس من المستكشفين الآخرين : أما بالجريف فقد تهيأت له فرصة رؤية ومشاهدة الكثير والكثير ، ولكننا لا يمكن أن نثق بما يقوله ثقة عمياء . ونظراً لأن بالجريف كان خالياً من الطموح ، ونظراً أيضاً لأنه لم يكن عنده ضمير الجغرافى العالم ، فقد جاء الرجل رائداً غير مقنع تماماً فى مسألة المسارات والطرق ، لأنه لم يسجل زمن المسيرات والوقفات ، ولم يلق بالاً للعلامات الأرضية ، لأنه بحكم تكوينه ، لم يكن مبالياً ، إن لم يكن محتقراً لتفاصيل المشى والمسير التى من هذا القبيل . بالجريف يقول : "الأصل فى الدراسة الصحيحة للجنس البشرى هو الإنسان" . وبالتالى كان الأمر بالنسبة لبالجريف هو "تقديم شكل من أشكال التبصر فى تلك الجزيرة العربية الواقعية والحية التى يمر الناس عليها مر الكرام فى كثير من التقارير والقصص ، كما يمرون مر الكرام أيضاً على سطحها الجغرافى فى كثير من الخرائط . والذى لا شك فيه أن تحديد مواقع جبال شبه الجزيرة العربية ، وتحديد مسارات أنهارها ، وتباينات مناخها ، وطبيعتها الجيولوجية ، وصخورها ، بل وكل ما يتصل بطبيعتها ، وجمادها كل ذلك ، أمور هى غاية فى الأهمية" ، وهو يرى ويصرح أن :

"مسألة محاولة كشف ذالك القناع الذى يغطى كلا من الحياة البشرية فى شبه الجزيرة العربية ، وجماعاتها ، وسياستها ، وذهنها وتحركها ، إنما تعد خدمة جليلة قد أسديت إلى العلم من جانب وإلى أوروبا من الجانب الآخر" .

ونحن نحس أن ملاحظة بالجريف عن مشكلات التضاريس والجولوجيا قليلة الأهمية كان من باب إرضاء فضول الجمعيات الجغرافية التى تتطلع إلى مثل هذه الأمور .

من هنا ، إذا كنا نرى أن تسعة أعشار النصف الجنوبى من وسط الجزيرة العربية عبارة عن مناطق وأراض غير مستكشفه من شبه جزيرة العرب ، فإن العشر

المتبقى لا يمكن لجغرافى أن يتناوله أو يتعامل معه بنفس الثقة التى يتعامل بها مع جبل الشمر أو القصيم . يزاد على ذلك أننا لسنا متأكدين من الحقائق الرئيسية فى تضاريس الجزيرة العربية أو هيدروغرافيتها . قد يبدو أن الارتفاع العام لهضبة جنوبى نجد عالٍ نسبيًا بالقياس على المنخفض العميق لحوض وادى الرمة ، وليس قياسًا على ارتفاع هضبة الجزيرة العربية ككل . وإذا كان لنا أن نحكم على هذا الارتفاع من منطلق اتجاه تلك الوديان ، فى ضوء ما توصلنا إليه وتتبعناه ، فنحن نجد أن هناك انخفاضًا ناحية الشرق فى جنوب وادى الرمة ، كما أن هناك انخفاضًا أيضًا فى شمالى وادى الرمة ؛ كما نجد أيضًا أن حوض وادى حنيفة ، الذى هو بمثابة قلب جنوبى نجد ، لا يقع على قمة منحدر قارى ، على حد قول بالجريف ، وإنما فى منطقة منخفضة من ذلك المنحدر . السلسلتان الجبليتان المتوازيتان ، اللتان ترتفعان فى الناحية الشرقية من ذلك الحوض ، واللتان يطلق عليهما اسم جبل العارض وجبل طويق ، هما حدثان عارضان لا يغيران شيئًا من حقيقة المنحدر القارى ، بقايا الارتفاع القديم هنا ، مكونة من الحجر الجيرى الصلب ، الذى أفلح فى مقاومة عوامل التعرية العامة ؛ هذه البقايا تسد طريق مياه وادى حنيفة المتجهة مباشرة ناحية الشرق ؛ ولكن مياه وادى حنيفة : تحولت ناحية الجنوب ، لتشق لنفسها طريقًا إلى الخليج الفارسى فى نهاية المطاف ، سواء أكان ذلك من فوق سطح الأرض أو من تحته ، وذلك من خلال الإقليم الذى لم يجر استكشافه أسفل منطقة الحريق . أما قمم الصخور البيضاء التى تتراءى للناظرين فى جبل طويق ، فى اتجاه الغرب (حسبما ورد فى كتاب "وصف العالم") قد تبدو بارزة من حيث المظهر ، ولكنها منخفضة نسبيًا فى واقع الأمر ، – ويحتمل أن لا يزيد ارتفاع هذه القمم عن خمسمائة قدم ؛ وإذا لم يكن ارتفاع قمة تلك السلسلة الجبلية أكثر من ألف قدم فوق مستوى حوض وادى حنيفة ، كما هو محتمل ، فليس هناك من شك أن بالجريف كان مخطئًا تمامًا عندما افترض أن وادى حنيفة أو امتداده الشمالى فى سدير Sedeir إنما يحتوى على أكثر أراضى هضبة وسط الجزيرة العربية ارتفاعًا . نقاط الارتفاع على جبل طويق يقدر ارتفاعها بآلاف الأقدام عند أسفل كثير من القمم الجبلية عند

الحافة الغربية لشبه الجزيرة العربية ، كما هو الحال فى حرة العويرض Aueirid وحرة خيبر ، وجبل قوره Kora، فيما بين مكة والطائف ، يضاف إلى ذلك أيضًا الأراضى المرتفعة فى كل من عسير واليمن .

من بين المناطق الأربع التى ينقسم إليها المربع الصغير الذى جرى استكشافه ، نجد أن كلا من سدير والعارض تقعان على سلاسل الحجر الجيرى الجبلية التى تحد جنوب نجد من ناحية الشرق ؛ والوشم هى الجزء الشمالى من السَّهب الذى يقع فى اتجاه الغرب مباشرة ، وينزل منحدراً صوب السلاسل الجبلية ؛ والأفلاج هى المقابل للوشم من الناحية الجنوبية . ولا يمكن إضافة أى شىء إلى الوصف الذى أورده بالجريف عن سدير ؛ ولكننا ، فى ضوء انطباع لويس بيلى ، يمكننا استخلاص شىء عن الطابع الجبلى الذى عزاه بالجريف إلى منطقة الأفلاج . واقع الأمر أن هذه المنطقة تبدو كما لو كانت بلاداً متحدرة تتخللها مستوطنات متناثرة فى تجاويفها ، وأن القسم الأكبر من تلك المستوطنات تطل على ناحية الغرب والناحية الجنوبية . منخفضات العارض شبيهه بمنخفضات الأفلاج ؛ أما عن الوشم ، وعلى عهدة سادلير ، فإننا نقول : إن الجزء الأكبر منها عبارة عن سهب ، تتخلله قناة صرف مركزية تنساب ناحية الشرق إلى وادى حنيفة ، الذى يوجد على مجراه الأوسط شريط خصيب شهير ، تعيش عليه مستوطنة شقراء المهمة . ولما كانت مدينة شقراء تتحكم فى مدخل وادى حنيفة من ناحية الغرب ، فقد ازدادت أهميتها التجارية والعسكرية ، كما يسكنها أيضًا قرابة عشرة آلاف نسمة . وهنا يمكن لنا القول : إن بقية المنطقة عبارة عن مرعى جيد ، فيه أبيار ، وفيه أيضًا العديد من البقع الخصبة الصغيرة ، وبخاصة فى الناحية الجنوبية ، التى تلتقى فيها تلك البقع بحدود الأفلاج ، ويحتمل أن يصل إليها صرف مستقل من الجنوب الغربى . وأهم واحة من بين تلك الواحات هى واحة ضُرَمَه Dorama، التى تقع على رافد من روافد وادى حنيفة ، ذلك المكان المرموق فى الحملات العسكرية المصرية . فيما يتصل بالأفلاج ، ليس لدينا من شىء سوى الرواية التى جاء بها بالجريف عن تلك المنطقة ، والتى قمنا فعلاً بإيجازها . اسم هذه

المنطقة (هو صيغة الجمع من الاسم "فلج") ، وهذا الاسم يعنى مياها منسابة ورى صناعى ، وهذا يجعلنا أمام فرضية أن هذه المنطقة المستوية من الواحات إنما تقع عند قاعدة سهب طويل ، ينحدر قادمًا من ناحية الغرب وليس مثلما ورد عند بالجريف ، عندما قال : إن هذه المنطقة تقع على رأس ، أو بالأحرى عند بداية ، منحدر قصير . فى مثل هذا الحال يمكن القول : إن هذه المنطقة يحتمل أن تقع ضمن هذه المنظومة من منظومات الصرف مثل وادى الدواسر ، كما أنها تفرّغ صرفها فى رمال الحريق ، أو فى امتداد من امتدادات وادى حنيفة .

وادى حنيفة هو الشريان الرئيسى فيما يتصل بالصرف والمواصلات ، بل إنه هو أبرز معلم طبيعى ، بل إنه أيضًا يعد مقرًا للقوة السياسية فى جنوبى نجد . والقسم العلوى من منظومة وادى حنيفة يقع فى كل من الوشم والعارض ؛ أما القسم الأوسط من وادى حنيفة الذى تتجمع فيه روافد الوادى كلها على شكل جدول عميق ، فهو موجود فى العارض فقط ؛ أما القسم المنخفض من وادى حنيفة الذى ليس لدينا عنه أية معلومات فهو يذوب مختفيًا فى اليمامة . أما ما يحدث لذلك الجزء بعد ذلك ، فهو يعد بالنسبة لنا إشكالاً من الإشكالات . أبلغ بالجريف عن وجود واد كبير يسمى "السلّى "Soley فى اليمامة . وعلى حد قول بالجريف فإن وادى "السلّى" هذا له قناتان رئيسيتان إحداهما تمر بين سلاسل جبل العارض والطويق ، أما القناة الثانية فتمر خلال الحريق Harik . وبالجريف لم يوضح ما إذا كانت القناة الثانية تبدأ أو تمر فى طريقها على الحوطة ، ولكن يبدو أن بالجريف حسب منظومة "السلّى" منفصلة عن منظومة وادى حنيفة . ونحن عندما ندرس تحديد بالجريف لمكان الوادى ، نقف على غرابة تلك النتيجة ؛ ولكننا نفضل الاعتقاد بأن هذه القناة الثانية تتصل عند مسافة معينة بمنظومة وادى حنيفة ، غير أننا نحتفظ بالكلام فى هذه الموضوع إلى مرحلة لاحقة عندما نبدأ بالحديث عن الجزء غير المعروف من الجزيرة العربية .

عند منتصف مجرى وادى حنيفة نجد سلسلة من المستوطنات الكبيرة ، - مثل حريملاء Horeimla ، سدوس ، والعيينة Ayane ، وإيمان Eiman ، والدرعية ،

والرياض ، ومنفوحة ، - وقد قامت في كل مستوطنة من هذه المستوطنات قوة أساسية وقوية منذ أن بدأ الغرب التعرف على نجد . هذه المستوطنات كلها تشتهر ببيارات النخيل المزروع في الوادي ؛ أما العيينة هي والدرعية ، فهما حالياً ، ليستا سوى مزرعتين صغيرتين يفلحهما المزارعون من كل من إيمان والرياض : القسم الأكبر من البلدات مبني على مسافة معقولة من المجرى المائي ، كيما تكون بعيدة عن الفيضانات التي تحدث مفاجأة بسبب السيول التي تشتهر بها هذه المنطقة ؛ كما أن مستوطنات بعينها مثل الرياض ومنفوحة تقع خارج الوادي كلية ، وهي تقع على الرف الأول الجاف والعالي من سلسلة الجبال الشرقية .

فيما يختص بالعاصمة لا يمكن أن يكون الأمر كذلك دوماً ، والسبب في ذلك أن إسم العاصمة معناه التجويف الأخضر المشبع ؛ ومن المحتمل أن تكون بلدة جديدة قد نمت خلال القرن التاسع عشر حول قلعة الأسرة السعودية ، وكانت تقع على ربوة فوق مستوى البساتين . حجم هذه البلدة وعدد سكانها وردت عنهما أقوال متباينة جداً . ونحن يمكننا تخفيض الرقم الذي ذكره بالجريف إلى النصف ، أي يصبح سكان هذه البلدة عشرين ألفاً بدلاً من أربعين ألفاً ، والسبب في ذلك أن لويس بيلي رأى أن العاصمة ليست أكبر من بلدة الهفوف في الأحساء [٤]. الأرجح أن العاصمة شأنها شأن المستوطنات الأخرى ، توسعت أو انكمشت مع تقلبات القوة السياسية . ففي أيام (الأمير) فيصل الخوالي ، عندما كان قسم كبير من الحج الفارسي ينجذب إلى أسوار الرياض ، كانت المدينة ، بلا أدنى شك ، تعد المدينة الرئيسة في وسط الجزيرة العربية . وبعد أن تغير الانسياب التجاري إلى صف حائل بسبب الظروف السياسية ، قلت أهمية العاصمة الوهابية عن أهمية الأماكن الرئيسية حتى في القصيم .

لكن في ظل أي ظرف من الظروف السياسية نجد أن المياه السطحية في وادي حنيفة تضمن وجود مستوطنات كثيفة السكان في ذلك الوادي . أما تلك المستوطنات التي أوردنا عنها أرصافاً قدمها أولئك الذين رأوا تلك المستوطنات رأى العين ، فهي أكثر أهمية ، وأفضل توحداً بفعل الظروف الطبيعية ، كما أن موارد هذه المستوطنات

أكبر من موارد أية مستوطنة من المستوطنات الأخرى فى نجد ؛ وهنا يجب ألا يغيب عنا أن المستوطنات الكبيرة الأخرى ذات الشهرة العريقة ، التى لم يرها أحد من الرحالة ، ولكن التقارير تقول : إنها ذات طابع مماثل ، كما هو الحال فى الخرج فى منطقة اليمامة ، وكما هو الحال فى الحوطة فى منطقة الحريق ، يتعين إضافتها إلى هذه المستوطنات التى أتينا على ذكرها . وليس من الصعب علينا فهم كيف أن هؤلاء السكان المحددين والذين يتكونون من فلاحين أثرياء ، وتجار أثرياء وحرفيين والمبعثرين على شكل تجمعات كثيفة على طول وادى يبلغ من الطول ما يزيد على مائة ميل ، استطاعوا اعتناق موقف دينى مستقل ، وأن يكون لهم نفوذ كبير على السهوب مخلخلة السكان فى شبه الجزيرة العربية ؛ كما أنه ليس من الصعب علينا أيضًا تصديق خضوع ذلك الوادى فى الوقت الراهن لبدو جبل الشمر ، وأن ذلك الخضوع ليس سوى مجرد سحابة مؤقتة . وادى حنيفة مؤهل ليكون مستقلاً عن مناطق الجزيرة العربية الأخرى ، إن لم يكن هو المنطقة الأساسية بين كل تلك المناطق .

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) يتحدث دوتى عن زراعة علف الماشية فى ذلك المكان .

(٢) يقول بالجريف : إن الدرعية والرياض فى واديين مختلفين يتشعبان أسفل العيينة ؛ ولكن لويس بيلى Pelly لا يوافقه على ذلك .

(٣) راجع دوتى ، فى كتابه ، ترحال فى صحراء الجزيرة العربية ، (الجزء الثانى ، ص ٣٤٢) .

(٤) قارن أيضاً التفاوت بين تقديرى كل من دينور وبالجريف لسكان الدرعيه .

مراجع الفصل الثالث عشر

BIBLIOGRAPHY

The quoted works of Palgrave, Pelly and Nolde have been catalogued in the Bibliographies to chapters x. and xi.

الفصل الرابع عشر

المجهول من الجزيرة العربية

الأرض التى تتوحد فيها ظروفها التركيبية مع ظروفها الأرصادية meteorologi-cal كما هو الحال فى شبه الجزيرة العربية ، يمكن أن تحتفظ بأسرارها الجغرافية فى قلب مناطقها البكر الشاسعة جداً . والمناطق التى تتعدد وتتباين فيها التركيبات السطحية ، وبخاصة فى الأماكن التى تكون الأرض فيها قد تجعدت متحولة إلى ثنيات قوية ، وبالذات فى المناطق التى تؤدى زيادة الرطوبة فيها إلى تناقصات كنتورية عنيفة ، وكذلك المناطق التى تندر فيها الحياة النباتية والمجارى المائية الكبيرة ، فى مثل هذه المناطق يستطيع المستكشف أن يرى مشاهد ، ومجتمع ، وحياة نباتية ، وحياة حيوانية لعالمين مختلفين على جانبى سلسلة جبلية واحدة ، ويضيع منه اكتشاف غاية فى الأهمية بسبب اتساع الوادى . الحال ليس على هذا المنوال فى الجزيرة العربية . ذلك أن عيون الغرب لم تر بعد آلاف الأميال المربعة من الرمال الشمالية فى الجزيرة العربية ؛ ولما كان المستكشفون قد جابوا طرفى النفود ، ووصلوا إلى منتصفها ، فقد أصبحنا على يقين من الطبيعة العامة لتلك المناطق الشاسعة التى تقع فى المنتصف . معروف أن المنحدرات الحدودية فى كل من الحجاز ، وعسير ، وأبو عريش ، وحضرموت ، وعمان ومنطقة "نجد" العثمانية عبرها من خلال بعض المسارات القليلة جداً ، بعض الأوروبيين الذين لم تكن معهم المعدات الكافية ، ولم تمكنهم ظروفهم من القيام بالملاحظات الجغرافية المطلوبة ؛ ولكن أحداً من الجغرافيين العقلاء لا يمكن أن يصدق أن تلك المنحدرات الحدودية ما زالت تخفى حقائق مهمة عن

أصول الجغرافيا ، أو الهيدروغرافيا ، أو أى فرع آخر من فروع علم الجغرافيا . هذه المناطق جرت مشاهدتها ورؤيتها على فترات متقاربة جداً ، بالرغم من اتساعها ، وقد رأتها عيون استطاعت ، برغم قلتها ، تحديد الطبيعة العامة لتلك المناطق .

أنا لن أدرج أى جزء من أجزاء شمالى الجزيرة العربية ضمن الأراضى المجهولة ، ولن أدرج ضمن هذه الأراضى أيضاً الأراضى الساحلية . هذا يعنى أن كلامى هنا عن تلك الأراضى المجهولة إنما هو كلام نسبى . أراضى الجزيرة العربية كلها تكاد تكون كلها مجهولة وذلك من منظور وجهه نظر علمية محددة . من هذا المنطلق نقول : إن ما جرى مسحه مسحاً رياضياً من الجزيرة العربية لا يتجاوز واحد على مائة من مساحة هذه الجزيرة ؛ ولم يجر تحديد ارتفاع حتى ولو نقطة واحدة تحديداً دقيقاً فى المنطقة الساحلية ، ولذلك فنحن نعتمد على ما هو أكثر من التخمينات فى السواد الأعظم من النقاط الداخلية .

والملاحظات الفلكية الوحيدة لدوائر العرض وخطط الطول ، والتى جرت على الهضبة باستثناء اليمن ، تمت فى عجالة على أيدى لويس بيلى Pelly فى الرياض فى العام ١٨٦٥ الميلادى . يضاف إلى ذلك أن كنتورات السلاسل الجبلية الرئيسية ومسارات الوديان الداخلية الكبيرة لم يجر بأى حال من الأحوال رسم مخططات ميدانية لها ؛ وفيما يتصل باتجاه ، وهوية وتباين السمات والخصائص الأخرى نجد أن احتمالات الخطأ كبيرة نظراً لغياب المياه الجارية الدائمة ، التى يمكن أن تبدد كل الشكوك والظنون حول الانحدار والارتفاع النسبى .

يجب أن لا ننكر أيضاً أن مناطق كثيرة ، منها الكبيرة ومنها الصغيرة، فى شمالى الجزيرة العربية . وفى جنوبها ليست معروفة لنا حق المعرفة . وإذا ما نحينا رمال النفود الشاسعة جانبا فى الجزء الشمالى منها ، نجد أن الهضبة الغربية كلها هى والمنحدرات العالية المتجهة صوب البحر قادمة من جبل شراة Shera إلى منطقة حاشد اليمنية ، لم يجر استكشافها استكشافاً كاملاً ؛ كما نجد أيضاً أن تلك المنحدرات المتجهة صوب البحر تعترضها مساحات كبيرة من المادة الناتجة عن

الثورات البركانية ، هذا يعنى أن تلك المساحات فيها تشكيلات متباينة يمكن أن تكون مفاجآت صغيرة من وجهه نظر الجغرافيين . وعلى الجانب الآخر من النفود هناك أيضًا رقعًا شاسعة من السهوب التى لم يجر استكشافها ، وتنحدر نازلة إلى مئات الأميال فى اتجاه الخليج الفارسى ، ونحن بوسعنا الكلام عن الجزء الساحلى من تلك السهوب بشىء من الدقة واليقين إلى مسافة ميلين فوق مستوى علامة المد . يضاف إلى ذلك أن سهلى حرب وعتيبة الشاسعين ، اللذان يمر خلالهما طريقًا مكه (المكرمة) والمدينة (المنورة) القادمين من نجد ، والجزء العلوى من حضرموت ، ومن المهرة ، ومن قارة Cara فى جنوب المنطقة الساحلية ، ومن ساحل خليج قطر ، كل هذه المناطق تدخل فى عداد المناطق المجهولة إذا ما نظرنا إليها من وجهة النظر الوصفية الجغرافية .

القارئ المدقق للصفحات السابقة من هذا الكتاب ، والذى لاحظ إشارتنا فى أحيان كثيرة إلى بعض المشكلات المهمة فى هيدروغرافية الجزيرة العربية وفى تضاريسها ، وأن تلك المشكلات ما تزال بلا حل ، سوف يدرك أن تلك المشكلات ليست لها علاقة بهذه المناطق ولا حتى بالجزء الشمالى من الجزيرة العربية ، وإنما هى تتصل وتتعلق فى الأساس بالجنوب الأوسط ؛ لأن هذه المنطقة ، الجنوب الأوسط ، ما يزال فيها هى وحدها منطقة ، أو بالأحرى رقعة من الأرض البكر ، وأن تلك الرقعة فيها ما يجعل الجغرافى يتوقف قليلاً قبل أن يتجادل فى مجهوليتها عن سائر الأجزاء الأخرى من شبه جزيرة العرب . فيما بين النقاط الداخلية التى وصل إليها الأوروبيون فى محاولاتهم اختراق تلك الأجزاء ، هناك أرض فضاء تتوسط تلك النقاط ؛ وهذه أرض يقدر طولها بحوالى ستمائة وخمسين ميل من الشمال إلى الجنوب ، وتقدر بحوالى ثمانمائة وخمسين ميل من الشرق إلى الغرب . هذه المساحة المجهولة تغطى ما يزيد على نصف مليون ميل مربع ، أو بالأحرى ما لا يقل عن نصف سطح الجزيرة العربية . هذا الاتساع يبلغ من الشساعه حداً يمكن أن يخفى معه أسراراً كثيرة ، لم تكن قد خطرت على بال الجغرافيين إلى يومنا هذا ؛ واقع الأمر أن

هذه المساحة الشاسعة تخفى بعض الأسرار التى يتشكك فيها الجغرافى ولكنه عاجز عن كشف لغزها . وإلى ان يتم استكشاف الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية استكشافًا تامًا ستظل مشكلة مجرى ومصب الصرف الداخلى فى هذا الجزء بلا حل . ربما تكون هناك بحيرة مهمة فى الوسط ، على حد زعم شيدفو Chedufau، أو قد تكون هناك أكثر من بحيرة ، أو ربما تكون هناك قناة تصريف جنوبية تمتد عبر الجزيرة العربية فوق سطح الأرض أو تحت السطح ، وربما تكون مثل هذه القناة أهم وأطول من وادى الرمه الموجود فى الشمال . وتأسيسًا على وجود مثل هذه المسارات المائية قد تكون هناك أراضى خصبة مجهولة ، ومجتمعات بدوية مترحلة أو مستقرة لم تصلنا عنها أية شائعة من الشائعات . أو قد لا يكون هناك أى شىء من هذه الأشياء سوى الرمل والصخور . والى أن يتم استكشاف المنطقة الجنوبية استكشافًا تامًا سنظل على جهلنا بالاتجاه العام للمنحدرات الجنوبية الرئيسية فى الجزيرة العربية من ناحية ، وجهلنا من ناحية ثانية بالعلامة التى تربط البروز الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية ببقية الكتلة القارية ، ثم جهلنا بأصل مياه شمالى حضرموت ، من ناحية ثالثة ، وأخيرا جهلنا بالمآل النهائى الذى تئول إليه مياه جنوبى نجد . نحن لدينا أخبار عن قبائل بدوية مترحلة لا نعرف منها سوى أسماءها ؛ وهذه القبائل على وجه التحديد هى قبيلة كلب ، وقبيلة القحطان وعشائر آل - مرّة الموجودة إلى الشمال من الرقعة الكبيرة المجهولة ، ثم العوامى Awami، وجنبة Jeneba، وجارة Gara، ومهرة Mahra، والكثيرى فى الجنوب . نحن نعلم إنه لابد أن تكون هناك أبيار وواحات خلف الحدود التى وصلت إليها الاستكشافات الأوروبية ، كما هو الحال فى وادى Wady يبرين Yabrin، الذى ذاع صيته منذ قرون مضت . نحن نعرف أيضًا أن جماعات من الحجاج ، اعتادت فى الماضى السير فى طرق بعينها خلال أجزاء من هذه المساحة المجهولة ؛[1] ونحن نعرف أيضًا أن التجار إذا لم يمروا من وسط ذلك الجزء المجهول وهم فى طريقهم من اليمن إلى عمان ، أو من نجد إلى حضرموت ، فذلك يعنى أنهم يرتادون طرق القوافل التى تمر بأطراف ذلك الجزء المجهول . نحن على علم أيضًا أن هناك سمات وخصائص طبيعية على الحافة الجنوبية لذلك الجزء المجهول وأن تلك

السمات والخصائص تشير إلى تواصل نشاط بركاني من نوع لم نر له مثيلا في أي مكان آخر من شبه جزيرة العرب . لكن سواء أكانت هذه المساحة ضمن صحراء عامة ، أم مجرد جزء منها على هذا الحال ، أو أنها تحيط بها حلقه من الرمال ؛ سواء أكانت هذه المنطقة المجهولة مرتفعة أو منخفضة بالمقارنه مع الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية ؛ وسواء أكانت هذه المنطقة تحتوى على جبال عالية أو وديان منخفضة ، وسواء أكانت قابلة بحق للاختراق فى بعض أجزائها ، أم يجرى عبورها بواسطة البدو إذا ما أرادوا ذلك ، وبخاصة أن هؤلاء البدو يحتفظون بأبيارهم لأنفسهم ، – فإن كل هذه التساؤلات هى وتساؤلات أخرى كثيرة لا يمكن الإجابة عليها الآن إجابات شافية أفضل مما كان عليه الحال فى العصور الوسيطة .

هذه المنطقة الشاسعة المجهولة ينبغى النظر إليها باعتبارها قسمين : جهلنا بأحدهما أشد وأعمق من جهلنا بالقسم الأخر ، وربما كان مرد ذلك إلى أن ذلك القسم هو الأقل جاذبيه للمجتمع الإنساني . هناك الجزء الشمالى ، أو بالأحرى الجزء الشمالى الغربى ، والذى ليس كله صحراء ، ولكنه عبارة عن سهوب يتخللها عدد كبير من الواحات الكبيرة ؛ كما أن هناك أيضًا قسمًا جنوبيًا وشرقيًا أكبر من الجزء الشمالى ، والذى يتكون فى معظمه ، إن لم يكن كله من الرمال العميقة الجرداء ، التى تمتد عبر شبه الجزيرة العربية من نجران إلى حريق نجد ، ويحيط به من ناحية الشمال طريق وادى حنيفة – مكة . والطريق الوحيد فى هذه المنطقة هو الطريق الذى سلكه بالجريف فى رحلته التى قام بها إلى الأفلاج . هذه المنطقة ، فى رأى لويس بيلى ، والتى جرى ضمها إلى الكويت فى العام ١٨٦٥[1] الميلادى ، هى فى حقيقة الأمر جزء من وادى الدواسر الكبير ، الذى يقع إلى الجنوب الغربى من هذه المنطقة . واقع الأمر ، أن هذه المنطقة فيها موصلات بئرية . أما بالجريف الذى وجد أن هذه المنطقة عبارة عن أرض لها طبيعة الواحة ، فقد أورد عن بعض الرواة أن هناك حزامًا صحراويًا يصل عرضه إلى حوالى عشرين ميلاً ، هو الذى يفصل هذه المنطقة عن وادى الدواسر ، الذى يمتد هو الآخر مسافة مائتى ميل فى الاتجاه الجنوبى الغربى

إلى حدود نجران ، وتحفه على طول مجراه من ناحية الجنوب صحراء رملية . وهذا الحزام عامر بالأبيار وفيه أيضًا مناطق واحية على بعد مسافات قصيرة ، ويسكنها أناس أجلاف ، متشددين ، وكتومين ؛ وهؤلاء البشر يبنون لأنفسهم أكواخا من سعف النخيل ، ويقومون على تزويد القوافل العاملة بين نجد واليمن بالمؤن والتموينات ؛ [١] وهذا هو دوتي الذي تحدث مع رجل من قبيلة قحطان في حائل ، يورد لنا هنا ذلك الذي جاء على لسان ذلك الرجل : –

عندما كانوا يسكنون ويقيمون في البلاد الجنوبية ، كانوا يحصلون على إمدادات التمر من وادي الدواسر ؛ وقال أخبرني أحدهم أن النخيل هناك – في ظل مسافات قصيرة متقطعة – يتواصل على امتداد ثلاث رحلات بالنياق ؛ [٢] المكان عبارة عن قاع رملي ، كما أن المياه هنا تأتي من الأبيار . هؤلاء الذين يقيمون في الوادي ويعيشون فيه ليسوا أناسا سيئين ، ولكنهم يكرمون الضيف ".

أضاف راوي دوتي ، أن قرويي الأفلاج هم من وادي الدواسر ، وأن الرحلة من الرياض إلى وادي بيشة ، أي إلى الحد الشرقي لبلاد عسير ، تقدر بمسير اثنتي عشرة رحلة من رحلات الإبل ، – وربما كان ذلك صحيحًا ، نظرًا لأن المسافة الفعلية في اتجاه طيران الغراب تقدر بحوالي أربعمائة وخمسين ميلا . حصل دوتي أيضًا على أسماء المحطات الأربعة في وادي الدواسر ، والتي جرى توقيعها على بعد مسافات متساوية ، في أحدث الخرائط .

الرحال الوحيد الذي اقترب من وادي الدواسر من ناحية الجنوب هو هاليفي ، الذي أدت الرحلة التي قام بها إلى نجران في العام ١٨٧٠ الميلادي ، إلى تأكيد الأقوال التي جاءت على لسان من سبقوه ، والتي مفادها أن هناك طريقًا من طرق القوافل يوصل مباشرة بين اليمن ونجد . وقد أفهموا هاليفي Halevy أن هناك حزامًا صحراويا ضيقا يفصل نجران عن وادي الدواسر ، غير أن مياه منطقة نجران ، التي شاهدها في وادي حابونا Habuna، الذي ينساب في اتجاه الشرق ، تواصل مسيرها مع مياه وادي الدواسر . كان شيديفو Chedufau قد أبلغ من قبل أن الصرف

الرئيسى من عسير يصل إلى وادى الدواسر عن طريق وادى بيش[Bishe؛ وإذا ما كان الراوى هو وهاليفى على صواب ، فلك يعنى أن هناك ملتقى للمياه فى مكان ما من شبه جزيرة العرب الأمر الذى يشكل احتمال وجود بحيرة فى مثل ذلك المكان ، أو بحر Bahar سالوم Salume كما يقولون ، وهو ما جعل الفرنسى ، هاليفى ، يقنع جومار بتوقيع تلك البحيرة ، أوبالأحرى البحر على الخارطه . كل هذه التساؤلات يتعين تركها للمستكشفين المستقبليين . ومن يدرى ، فقد يتيسر فى يوم من الأيام تتبع كل من وادى Wady تربة Taraba ووادى بيشة إبتداءً من عسير وعلى امتداد الانحدار فى الاتجاه الشمالى الشرقى من الهضبة ، بل وتتبع وادى الدواسر أيضًا بدءاً من نجران . والأرجح أن مسارات تلك الوديان لا تمر خلال الصحارى الرملية وإنما خلال سهوب خلال صحراء من النوع الذى يمر خلاله الطريق القادم من مكه إلى الرياض .

سيكون أمام المستكشف الحظيظ مشكلة جبلية ومشكلة هيدروغرافية يتعين عليه حلها . هى سلاسل الجبال الجيرية فى جنوبى نجد متصلة أم غير متصله بمرتفعات عسير ؟ ما زالت أحدث الخرائط توضح ، وذلك على مسئولية الجغرافيين المسلمين ، سلسلة جبلية طويلة تمتد من الطائف إلى وادى حنيفة . ترى ، هل هذه السلسلة موجودة بحق على شكل ضلع من منحدر الهضبة ، أم أن هذا المنحدر غير متباين اللهم باستثناء القنوات العميقة المحفورة التى تشكل وديان عسير ؟

الإقليم المأهول من المساحة المجهولة ، لا يحيط به خط وادى الدواسر الأفلاج . هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن هناك سلسلة داخلية أخرى من الأراضى الخصبة هى التى تحول دون انسياب الرمال العظيمة ، وأن استكشاف هذه الأراضى سيصبح أمرًا ضرورياً لإكمال حل المشكلة الهيدروغرافية . وفى مكان ما من جنوب شرقى وادى الدواسر يقع ذلك الذى عرفه الجغرافيون المسلمون الأوائل على إنه إقليم واحى مأهول بالسكان أطلقوا عليه اسم وادى Wady يبرين Yabrin . يقول أبو الفدا عن هذا الوادى إنه منطقة نخيل مالحة وفيها عينان مائيتان تقعان على بعد مسير

ثلاثة أيام من اليمامة ومسيرة ثلاثة أيام من الأحساء : وكتاب " وصف العالم" يشير إلى هذا المكان من منطلق هذه النقاط أيضًا . وقد فهم ليوس بيلى من الحديث الذى جرى بينه وبين بعض أفراد عشائر آل - مرة ، الذين التقاهم وهو فى طريقه إلى الرياض فى العام ١٨٦٥ الميلادى أن وادى يبرين هذا كان ملاذا من ملاذاتهم . قال ولسون بيلى : إن "جبل يابرين" يقع فى الصحراء الجنوبية ؛ "وأن ذلك الوادى "كان خصيبًا فى يوم من الأيام ، وكان الماء فيه وفيرًا ، بل وكانت فيه مدينة مترامية الأطراف فى الزمن القديم . غير أن تلك المدينة تحولت إلى حطام ولم يبق منها حاليا سوى أطلالها ،" بسبب قفل تلك الممرات أو المجارى المائية ؛ ومع ذلك ما تزال الواحة تعطى محصولاً سنويًا من التمور . وهذا إلى حد كبير هو ما سمعه الرحال مايلز Miles عندما كان فى شمال عمان فى العام ١٨٧٥ الميلادى ، ولكن رواة مايلز أبلغوه أن سبب التخلى عن المدينة هو مرض الملاريا .

الموقع الذى حدده أبو الفدا ليبرين Yabrin لا يمكن أن يكون فى الناحية الغربية بالشكل الذى جاءت عليه فى الخريطة التى جرى إعدادها بواسطة واحد من رسامى الخرائط . مفروض لموقع يابرين هذا أن يكون على المدار ، أى على خط طول ٥٠ َ ٤٩ ْ ، ومن الطبيعى هنا أن نقول إن وادى يبرين هذا يرتبط بعلاقة هيدروغرافية مع واحة الحريق ، فى الشمال الشرقى ، ومستنقع "السبخة" Sabkhah من ناحية الشرق ، والذى يصرف ماءه فى الخليج عند خور Khor الدوان ed-Duan (راجع صفحة ٢٣٤) . الحريق هى الأخرى ، تقع فى ذلك الجزء المجهول من الجزيرة العربية . أما بالجريف فقد سمع أن الحريق عبارة عن أرض حارة خصبة ، التى تعد من الناحية الشكلية جزءًا لا يتجزأ من بلاد وادى حنيفة ، ولكنها فى حقيقة الأمر تمتد إلى مسافة بعيدة فى اتجاه الجنوب والجنوب الشرقى ؛ وقد ورد فى أحد التقارير أن منطقة الحريق تطبق على الصحراء إلى أن "تتصل بأطراف الحدود القطرية وحدود الحكم العُمانى ." بروز كل من اليمامة Yemama والخرج Kharj اللتين حكم ملوكها أرض هذا الوادى كله فى العصور الوسيطة ، انتقل إلى الحريق وإلى الحوطة مستوطنتها الرئيسية .

والحوطة يتردد اسمها حاليًا باعتبارها صنواً لأية مدينة أو بلدة من مدائن أو بلدان وادى حنيفة . وقد سمع دوتى ونولد أن الحريق كانت بلدة عظيمة مثل عنيزة ، وذكر نولد أنه سمع أن شيخ الحريق كان صاحب قدر عال فى مخيم الأمير . ونقلاً عن لويس بيلى ، كانت الحريق أخر المدن التى تبرأت ، بناء على طلب وهابى ، من الوثنية التى قضت عليها نجد .

مثل بالجريف صرف الحريق باعتباره يتم من خلال منظومة من الوديان المستقله عن وداى حنيفة ؛ ولكن رواة مايلز Miles أبلغوه أن وادى حنيفة ينهى نفسه مختلطًا "بالسبخة" ، ومن بعدها إلى الخليج . من هنا لا تصبح منظومة وادى حنيفة أو منظومة وادى السَّلَّىّ Soley اللتان تكلم عنهما بالجريف مستقلتان تمامًا ، ونحن نفضل القول : إن الحريق إنما تجرى تغذيتها من المياه نفسها التى هى سبب ثراء المستوطنات الكبيرة الأخرى جنوبى نجد ، كما أن "المجارى المائية الجارية" هناك وفى اليمامة ، والتى سمع بيلى عن أنها لا تأتى من وادى الدواسر ، وإنما هى جزء من منظومة وادى حنيفة . كما أن هذه المياه هى التى أنشأت وبلا أدنى شك قصة وادى "عفتان" Aftan، الذى يُنَصِّف اليمامه . من هنا فإن وادى يبرين Yabrin يصبح مجرد رقعة (قطعة) من الأرض موجودة على المجرى البعيد لوادى حنيفة أو على جانب خط مستقل من خطوط الصرف القادمة من الغرب . واقع الأمر ، أن وادى يبرين هذا يمكن أن يكون مجرد امتداداً لمنظومة وادى الدواسر المهمة ، وأن ذلك الامتداد مآلة إلى الانضمام إلى مياه وادى حنيفة فى مستنقعات السبخة ليذهب مع تلك المياه إلى خور Khor الدُّوان ed-Duan .

أيًا كانت العلاقة الهيدروغرافية بين هذه المنظومات ، فإن هناك سلسلة من النقاط يمكن الحصول على الماء منها فى جنوبى واحات نجد ؛ والسبب فى ذلك أن هناك طريقًا مرجحًا وربما كان مطروقًا يتجه مباشرة من عُمَان إلى محطة موجودة فى أعالى وادى الدواسر ، ومن هذه المحطة يستطيع الرحَّال مواصلة سيره فى اتجاه الغرب إلى الطائف وإلى مكة ، أو إلى الجنوب الغربى إلى كل من نجران واليمن . هذا

بالإضافة إلى العبارة الواضحة التي وردت على لسان حاجي Hajji خليفة Khalfah في كتاب " وصف العالم" والتي مفادها أن الحجاج كانوا يقطعون إحدى وعشرين مسيرم على طريق مباشر من عمان Oman إلى مكة ، وأن هذا الطريق لا يلتقي بطريق الحج النجدي أو طريق الحج اليمني ؛ ونحن لدينا تسجيلات حديثة عن ذلك الطريق . يقول بالجريف : إنه التقى في قطر "بدويين ذكيين" قطعا الرحلة من عمان إلى اليمن ، في ثلاثة أشهر عن طريق سلسلة من الواحات القسم الأكبر منها غير مأهول بالسكان وفيها نخيل بري ، كان البعض منه ملكًا لبعض العبيد السود . كما سمع مايلز Miles في البريمي عن نجدي شهير ، يدعي سعود بن جلوي ، الذي وصل في العام ١٨٧٠ الميلادي ، قادمًا من نجران إلى أبي ظبي Abu Thabi، قاطعا ستة وخمسين مسيره بطيئة ، ليصل في النهاية إلى ساحل "القراصنة" في الخليج الفارسي ، وقد وجد سعود الماء وفيرًا في ذلك الطريق حتى المراحل الإحدى عشر الأخيرة منه .

الجزء الثاني الأكبر من تلك المساحة المجهولة يبدأ من جنوب وادي يبرين هو والواحات المجاورة له في الشرق وفي الغرب ، هذا الجزء الثاني موقع على الخرائط الحديثه باعتباره صحراء رملية بلا تضاريس ، ويطلقون عليه بصفة عامة اسم الربع الخالي Roba el-Khali . الجزء الغربي من الربع الخالي يعرف باسم الأحقاف Ahkaf، بمعنى "بلاد الكثبان" ، وقد سمع كل من فيرد Wrede وهاليفي الناس في كل من حضرموت ونجران يتكلمون عن الأحقاف . أما في الوسط ، وفي الشرق ، فالناس يكتبون الدهناء Dahna بدلاً من الأحقاف ، وأنا لا أدري إن كان ذلك معمولاً به لدى السلطة المحلية . ولويس بيلي يرى أن استعمال كلمة الدهناء يقتصر على الصحراء الصلبة التي تتخللها مخاد رملية . مساحة هذه المنطقة كلها تغطي ما يزيد على ثلاثمائة ميل مربع . ويقول ثلاثة من المستكشفين إنهم شاهدوا رمال الدهناء العجيبة من بعد . - فقد شاهدها ولستد Wellsted من قمة الجبل الأخضر في عمان في العام ١٨٣٦ الميلادي ، وشاهدها فيرد Wrede من نقطة في شمالي وادي حضرموت الرئيسي في العام ١٨٤٣ الميلادي ، كما شاهدها هاليفي أيضًا

أثناء مروره من جوف اليمن إلى نجران فى العام ١٨٧٠ الميلادى . وقد جرى اقتباس أوصافهم لآمالهم المرتقبة . فقد نظروا جميعهم إلى رمال لا حدود لها ، كما قالوا كلهم إنهم اكتشفوا أن البدو الذين كانوا يقومون على خدمتهم كانوا يرتعدون من مجرد فكرة المخاطرة بالسير خلال تلك الرمال ، سواء أكان ذك الخوف عقلانيًا أم خرافيًا . ولا يمكن أن نقطع بأن أحدًا من هؤلاء الثلاثة درس أو أعمل فكره فى تلك الصحراء الحقيقية . هذا هو ولستد كان يقف فوق أرض مرتفعة وعلى بعد مسافة كبيرة تصبح معها تفاصيل خصائص السهول أشياء غير واضحة تماما ؛ ولو قدر أن لا تكون هناك واحات على مرمى البصر فى اتجاه الغرب من المكان الذى كان يقف عليه فى الجبل الأخضر ، فإن هناك أجزاء أخرى يمكن منها رؤية مثل هذه الواحات على بعد مئات الأميال نحو الداخل . قال هيرش Hirsch عن فيرد إنه لا يمكن أن يكون قد وصل إلى الأحقاف الحقيقية ؛ لأن هذه الأحقاف تقع على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الشمال ، وأن تلك المسافة أبعد بكثير عما أسماه بحر السافى Bahr as- Safi؛ أما هاليفى الذى يتسم بقدر أكبر من الحكمة والعقل ، فإن غموض كلامه وافتقاره إلى المعلومات الخاصة بالصرف الذى شاهده ينساب شرقى نجران يوحيان بأن الرجل كان راضيًا ، عن طيب خاطر ، عن التأكيدات التى وردت على ألسنة مرشديه ، إلى حد أنهم كانوا يريدون منعه من الخروج على المسار المباشر . وفى ذات الوقت فإن المعلومات التى جمعها السواد الأعظم من الرحالة الآخرين المهتمين بالجزيرة العربية تتفق مع أقوال هؤلاء الثلاثة الذين زعموا أنهم رأوا الدهناء رأى العين .

"أنا لم أعثر مطلقًا على أى أحد من الجزيرة العربية لدية أى شىء كى يقوله لى ، حتى وإن كان ذلك عن طريق السماع ، عن تلك البلاد المخيفة . إنها عبارة عن نفود ذات رمال متنقلة ، يمكن الدخول فيها واجتيازها عن طريق نياق الإبل خلال فصل الربيع الذى يستمر بضعة أسابيع" .

وهذا هو يوتنج استطاع أن يجمع من بعض أفراد القحطان ومن عرب وادى الدواسر الذين التقاهم فى حائل ، ما مفاده أن الصحراء الجنوبية كلها غير مأهولة

بالسكان . هؤلاء الناس قالوا ليوتنج إنهم لم يسمعوا عن أى أحد عبر هذه الصحراء من أى اتجاه من الاتجاهات . وأخيرا أنا أورد هنا أقوال فان Van دن Den بيرج Berg التي تؤكد الشيء نفسه ؛ وهذه الأقوال أقيم من حيث أنها تعتمد على أقوال أناس أذكياء بشكل غير عادى وأنفقوا حياتهم كلها على الحواف الجنوبية لتلك المساحة المجهولة من الجزيرة العربية : - "هذه الصحراء لم يرها أى عربى ممن قابلتهم ، ولا يعرف عنها أى شيء سوى الاسم .

فهى تتكون من وديان من رمال متحركة أطلق فيرد Werde عليها اسم " بحر السافى" أو "بحر الرمال" . وحسبما قيل لى ، ليس هناك اتصال من ناحية الشمال بين حضرموت وبلاد الوهابيين ، كما لا يوجد اتصال أيضًا من ناحية الشمال بين حضرموت ومسقط . كل ما نعرفه هو أن بدو نجد قد حضروا قديمًا إلى هذه المدينة الأخيرة ، وأن هذه الرحلة استغرقت حوالى خمس عشرة رحلة ، حيث لا طرق ولا دروب محددة ، كما لا توجد أية مواصلات أرضية فى هذه الجهة ."(*)

على كل حال ، تلقى بيرتون وبالجريف بعض المعلومات الأقل سلبية . وبيرتون يقول فى رسالته إلى أمين الجمعية الجغرافية بعد أن انتهى من أداء فريضة الحج : -

"سمعت من بعض الرواة الثقات أن هذه الصحراء الشرقية الضخمة (تلك البقعة البيضاء الموجودة على الخرائط تحت اسم الربع الخالى أو الإقليم غير المأهول بالسكان) فيها منخفضات يعيش فيها أناس جوعا ، وأن المستكشف القوى الجسور هو الذى يمكنه الترحال بينهم ، وأن تلك الصحراء عبارة عن منظومة من التلال الصخرية ، ووديان غير خصبة تمامًا ، وصحارى وسهول من الصلصال الصلب ، تغطيها حياة نباتية ضعيفة بفضل أمطار الشتاء الشحيحة . وفى المدينة (المنورة) سمعت أنه كان هناك فى الماضى طريقًا مباشرًا يمتد من المدينة ، ويمر خلال إقليم

(*) العبارة المحددة بعلامات تنصيص وردت باللغة الفرنسية ، وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ الدكتور فاروق عزب . (المترجم)

حضرموت البرى . وأن ذلك الطريق هجره الناس منذ عصور طويلة ؛ وظن المرشدون أننى أصبت بمس من الجنون عندما تكلمت عن الترحال خلال الدهناء ."

إذا كان بالجريف يصف المساحة كلها بأنها "صورة مبالغ فيها من النفود" ، فقد عرف الرجل من بعض أفراد عشائر مرة ، الذين التقاهم أثناء مروره متجهًا إلى الأحساء ، أن القبيلة التى ينتمى إليها هؤلاء الأفراد لها "مطلق الحرية وبلا منازع ، فى الواحات التى توجد هناك (فى الدهناء) من حين لآخر ، والتى تنمو فيها الأعشاب والشجيرات الصغيرة والنخيل القزم حول بئر شحيحة الماء مالح الطعم . هذه الواحات تكفى لإعاشة بدوى ضال أو تائه وتحفظ عليه حياته ؛ ومع ذلك فإن هذه الواحات لا تكفى أن تكون علامات أرضية على طريق منتظم عبر وسط الدهناء" .

هذا الرحال أوضح فى بحثه الذى ألقاه أمام الجمعية الجغرافية أنه بالرغم من وجود أماكن كثيرة لم يسبق زيارتها من قبل مطلقا ، إلا أننا نصادف بين الحين والآخر بعض واحات النخيل والحياة النباتية الصحراوية فى الأراضى الجيرية الخالية من الرمال . وأردف صاحب البحث قائلا : - "يقال إن هذه البقع الأرضية تقع على خط يتجه من الجنوب الشرقى إلى ناحية الشرق بدءًا من عُمان ومتجهًا صوب اليمن ." فى المناطق المجاورة لحضرموت تكثر هذه الواحات ، فى حين "تتخلل القمم الصخرية الرمال بين الحين والآخر" .

هذا هو كل ما نعرفه عن الصحراء الجنوبية الكبيرة . هذه الصحراء تصل مساحتها إلى ما قال به الإصطخرى فى القرن العاشر ، ولكنها تقل قليلاً عما ورد على لسان حاجى خليفة فى كتاب " وصف العالم" ، الذى صدر فى القرن السابع عشر . وهنا يجب أن نعلم أن منطقة شاسعه من النفود عبارة عن رمال خالصة ؛ ولما كانت التركيبات الجيولوجية هنا وكذلك الرياح السائدة هى التراكيب نفسها والرياح نفسها السائدة فى صحراء الشمال ، فإننا يمكننا القول إن الرمال هنا فى الدهناء أكثر عمقًا من الشمال وأكثر تكويمًا على شكل كثبان ، ولكنها أقل ثباتًا واستقرارًا فى الجنوب وفى الأجزاء الغربية عنها فى أى مكان آخر ، وهذه النتيجة يؤيدها

ويساندها اسم الأحقاف فى الناحية الغربية وحدها . من هنا فإن القسم الشرقى من الصحراء سيكون هو الأصلب ، أى دهناء حقيقية ، لا يكشف عن رماله إلا على شكل أشرطة ومخاد ، ثم يختفى فى سهب صلب قبل أن يصل إلى حدود الصرف الداخلى ألقادم من الجبل الأخضر . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نقول إن هناك رقعه كبيرة من المراعى الصحراوية تقع إلى الشمال مباشرة من حضرموت ، والناس يطلقون عليها هنا اسم نجد ، ويرتادها بدو الكثيرى ، أما الجزء الشرقى من ذلك النجد فتعيش فيه قبائل المهرة ؛ وهناك مراعى أخرى شبيهة بتلك المراعى تمتد فى اتجاه الغرب صوب الجبل الأخضر . في هذا القسم الشرقى ، وعلى حد ما سمعه مايلز Miles، تقوم قبائل العوامي Awami وآل – مرة بتربية الإبل فى سهب متباين تتخلله شجيرات السنط القزمة ، ويوفر الماء للرحالة كل ثلاثة أو أربعة أيام ، وبخاصة أولئك الرحالة الذين يقطعون مسافة خمسة وعشرين رحلة هى المسافة بين نجد وبلاد المهرة٣٧٧٣٧٧ .

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) يضيف كتاب "ترحال فى أنحاء العالم" أن نقص الماء هو الذى أدى إلى عدم ذيوع صيت الطريق المؤدى من مكه إلى عُمان ، وقد علم بركخاردت أن ذلك الطريق تخلى الناس عنه ، قبل القيام برحلته ، وأصبحوا يستعملون طريقا ساحليا بدلا منه .

(٢) راجع الرسالة المرسلة إلى السير هـ . راولنسون فى مجلة الجمعيه الجغرافية الملكية فى العام ١٨٦٠ ص ١٨٧ .

(٣) هذا إلى حد كبير ما تقرأه فى كتاب "تجوال فى العالم" والمقصود بالمؤن والتموينات هنا ، هو التمر فى تلك الأيام .

(٤) المقصود بالنياق هنا ، هو الإبل الأصيلة : هذا يعنى أن مسافة الرحلات الثلاثة تقدر بحوالى مائة وعشرين ميلا .

الفصل الخامس عشر

موجـــــز

شبه جزيرة العرب التى سوف لا ننظر إليها بعد الآن باعتبارها قطعا منفردة ، وإنما ككل واحد ، هـى عبارة عن هضبة ، تنحدر انحداراً طويلًا وهينا من الغرب والجنوب إلى الشرق والشمال . أعلى نقاط ارتفاعها تتدرج من خمسة آلاف قدم إلى ثمانية آلاف قدم فوق مستوى البحار الغربية والجنوبية ، التى تنحدر الأرض نحوها انحداراً شديداً ، لتظهر على شكل أرض جبلية منحوتة بفعل الأمطار الموسمية ، عندما تنساب فى منحدرات حادة من المادة المتداعية ؛ ونظرا لأن التكثيف أكبر ، ونظرا أيضًا لأن الارتفاع العام لوجه الهضبة أعلى من ناحية الجنوب الغربى عنه فى أى مكان آخر ، فنحن نجد اليمن هى أكثر الأراضى الساحلية "العارضة" Accidented .

من غربى هذه الهضبة أو بالأحرى من حافتها لا ينزل المنحدر نحو الداخل نزولاً هينًا لينًا فى هذا المكان ، أى فى غربى الهضبة نجد حافة شبه مستمرة ، هى بمثابة هيئة أو بالأحرى مظهر لسلسلة جبلية ليست قادمة فقط من ناحية الساحل . هذا الملمح ، أو بالأحرى تلك الخاصية ترجع إلى سببين : أولهما ومثلما يحدث فى المنحدرات الطويلة فى كل أنحاء الدنيا ، فإن عامل التعرية ، الذى يكون سريعًا فى البداية تقل قوته فى المستويات المنخفضة بفعل الحُتات نفسه الذى يحدث تدرجات بل يحفرها فى الناحية الغربية ؛ ثانى هذين السببين ، أن هناك بعض التعديات الناتجة عن مادة حديثة متخلفة عن طفح بركانى شقت لنفسها طريقا فى الكتلة الرئيسية من

شبه الجزيرة العربية – هذه التعديات مقصورة فقط على الجانب الأعلى من الهضبة وذلك تمشيًا مع القانون الذى مفاده أن أجزاء الأرض الأكثر انثناءً فى قشرة الأرض هى الأكثر تعرضًا للاضطرابات البركانية . بقع الطفح البركانى هذه ، تنتشر على سطح الأحجار الرملية ، كما أنها تكون أكثر صلابة من هذه الأحجار ، وبالتالى فإن هذا الطفح البركانى لم يقاوم التعرية وحدها ، وإنما حمى أيضًا ذلك الموجود تحته أو أسفله ؛ من هنا فإن بقع الطفح البركانى تظهر على شكل ارتفاعات مجدولة ، ظاهرها من مخلفات الحمم البركانية وباطنها مكون من الحجر الرملى ؛ وهذه البقع تقع على بعد مسافات قصيرة فى المساحة ما بين خطى عرض إحدى وعشرين وثمانية وعشرين درجة ، الأمر الذى يزيد إلى حد كبير من التأثير الجبلى لتلك الحافة .

لما كان التشكيل السطحى للقسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية مكونًا من الحجر الرملى ، الذى يتأثر تأثرًا كبيرًا بعوامل التعرية ، – مثل الماء، والشمس ، والرياح ، التى لها تأثير تفتيتى فى المناخ الحار الجاف ، فى ظل المدى الحرارى الكبير ، – فإن ذلك يؤدى إلى وجود رقع من الرمل مفككة القوام فى كل أنحاء الجزيرة العربية ؛ ولولا هذه البقع البركانية التى أتينا على ذكرها ، لأصبح وسط هضبة الجزيرة العربية مغطى بحطام تلك الحافة الغربية العالية . واقع الأمر ، أنه فوق دائرة العرض ثمانية وعشرين درجة وأسفل دائرة العرض إحدى وعشرين درجة ، وهى المنطقة التى لا توجد فيها تلك الرقع من الحمم البركانية ، نجد أن هذا الغطاء موجود بالفعل ، كما أن الطرفين الشمالى والجنوبى للهضبة اكتسيا بأحواض عميقة من الرمل المنجرف ، الذى يصل إلى أبعد أعماقه فى الناحية الغربية ويأخذ فى التدرج ناحية الشرق ، ويستمر الحال على هذا المنوال طوال مائة ميل تقريبا ، يسمح بعدها ذلك الطفح البركانى للأرض الجيرية بالظهور مرة ثانية . هذان الحوضان الرمليان الشاسعان اللذان يغطيان فيما بينهما ، أكثر من نصف الهضبة الوسطى ، قد محيا الخصائص الطبيعية لهذه الرقع الشاسعة ، وامتصا فى عمقيهما المياه السطحية ، ولم يقوما بتصريف تلك المياه إلى البحر عن طريق مجرى واضح من

مجارى الصرف . هذا يعنى أن حياة الاستقرار تصبح أكثر ترجيحاً بين جنبات هذين الحوضين حيث تسبب وجود ملجأ عارض فى تعرية طبقة الحجر الجيرى كما هو الحال فى واحتى جُبة Jubbe وتيماء .

المسافة التى ما بين هذين الحوضين الرمليين ، اللذين تحميهما الحمم البركانية من الناحية الغربية ، هما بمثابة الكتلة الوسطى الرئيسية من الجزيرة العربية ، التى فيها منظومة صرف سطحية ، وبالتالى يوجد فيها مجتمع بشرى مستقر : هذه المسافة هى ما يطلق عليه اسم نجد Nejd، التى جرت فيها تعرية الأحجار الجيرية منذ زمن بعيد ، اللهم باستثناء بعض المسافات والأشرطة الرملية (وبخاصة فى المنخفضات المحمية) . الحزام الشمالى من هذا الإقليم المفضل يرجع إلى تعد قديم ناتج عن أحجار الجرانيت ، التى تكون سلسلتين جبليتين ، وتحدث شيئاً من التكثيف المستقل للرطوبة ، كما تسببت أيضاً فى وجود شىء من التربة فائقة الخصوبة ؛ وهذه التربة هى التى تعول مستوطنات كثيرة بالإضافة إلى بلدة واحدة ، هى بلدة حائل . هذا هو جبل الشمر ، الذى ينصرف ماءه من خلال فيومرات Fiumaras قصيرة فى الشرق والغرب تتجه صوب المنظومة الرئيسية فى شمالى الهضبة الوسطى ، أو بالأحرى وادى الرمة ، الذى يبدأ عند حافة خيبر ويسير بطول المنحدر كله فى الاتجاه الشمالى الشرقى إلى أن يصل إلى الخليج الفارسى . على امتداد المجرى الأوسط لوادى الرمة ، الذى تعترضه الرمال المنجرفة فى كثير من الأحيان ، يوجد حزام خصب آخر ، يتمثل فى منطقة القصيم Kasim بكل مستوطناتها الحضرية وبكل قراها أيضاً ؛ ولكن فى الجزء المنخفض من مجرى وادى الرمة ، الذى يمر خلال الزلط الماص ، فى إقليم منخفض قفر ، ينزلق بعده عن طريق التعريات المتتالية ، إلى أن يصل إلى الخليج ؛ فى هذا الجزء يمكن الوصول إلى الماء عن طريق حفر الأبيار العميقة فقط .

إلى الجنوب من منظومة وادى الرمة ، هناك منظومة صرف ثانية وربما أكثر من منظومة تسير موازية لمسار وادى الرمة ؛ والسبب فى ذلك أنه عند الحافة Rim فى

كل من عسير واليمن ، حيث يزداد الارتفاع ويغزر المطر ، يوجد كثير من المصادر . ولكن مسألة أن هذه المنظومة (أو المنظومات) الصرفية شقت طريقها ، مثل وادى الرمة ، عن طريق قنوات سطحية إلى الخليج الفارسى ما زال يعتريها الكثير من الشكوك . ولكن مسألة أن هذه المنظومة تفعل ذلك من خلال قنوات تحت سطح الأرض أمر مرجح بدرجة كبيرة . ولكن الجغرافيين المسلمين فى العصور الوسيطة هم ومن جاءوا بعدهم من المحدثين وإلى القرن التاسع عشر كانوا يظنون أن تلك المنظومة تسير فوق سطح الأرض ؛ ونحن بدورنا حاولنا إثبات أن رأى هؤلاء الجغرافيين لا يتعين التخلى عنه بمثل هذه السهولة . وجهة النظر الحديثة هذه نشأت عن اكتشاف سلسلتين من الحجر الجيرى الصلب ، سلسلة العارض وسلسلة الطويق ، اللتان تمتدان من الشمال إلى الجنوب فى الجزء الشرقى من جنوبى نجد . هاتان السلسلتان بالرغم من أنهما تكونان منظومة تصريفية مهمة خاصة بهما فى وادى حنيفة ، إلا أنهما تسدان أو تمنعان سقوط المياه مباشرة نحو الخليج الفارسى ، وبذلك تحرفان هذه المياه ناحية الجنوب . وفى الجنوب يشيع أن تلك المياه يجرى امتصاصها بواسطة الرمال ، ولكن الأسباب التى أمكن التوصل إليها توضح أن ذلك ليس هو المآل الأخير لتلك المياه ؛ هذا يعنى أن مياه وادى حنيفة تنضم فى نهاية المطاف إلى المياه الأخرى التى تكون قد عبرت شبه الجزيرة العربية قادمة من الجنوب الشرقى ، وبعد أن تنضم كل هذه المياه إلى بعضها تتجه نحو الخليج الفارسى فى المنطقة القريبة من خور الدوان . Khor ed-Duan هذا التصريف المائى ، يرجح أن يكون القسم الأكبر منه من تحت سطح الأرض ، وبالتالى لا يكشف عن شكل أو مظهر أى نهر من الأنهار ؛ ولكن ذلك يعد مبرراً كافياً لما أسماه الجغرافيون المسلمون "وادى عفتان" ، الذين حسبوا أنه ينقل مياه العارض واليمامة إلى البحر الشرقى . والذى لاشك فيه أيضاً أن جزءاً من هذا الماء ، والذى يسلك منحدر الهضبة الرئيسى ، يتسرب من خلال السلاسل الجبلية التى تعترض طريقه ، ليظهر بعد ذلك خلال الزلط والحصى بالقرب من الساحل ، ليصنع تلك الواحات الغنية فى كل من

الأحساء والقطيف ، كما يصنع أيضًا تلك العيون والينابيع الموجودة تحت البحر فى منطقة البحرين Bahrein .

وجود هذه السلاسل الجبلية الجيرية فى جنوب شرقى نجد ، بالإضافة إلى التكثيف ، هما اللذان أديا إلى وجود حزام ثالث مستقر فى هذه المنطقة ، يمتد بطول مجرى منظومة وديان وادى حنيفة . هذا الإقليم الموجود فى جنوبى نجد أغنى من الأقاليم الأخرى وأكثر منها ازدحامًا بالسكان بحكم أنه هو الأكثر قربًا من منطقة الرياح الموسمية ، كما أنه هو الأوفر ماءً عن جبل الشمر ، فى الوقت الذى يتشابه مناخه مع مناخ ذلك الجبل . هذا الإقليم ، أو بالأحرى ذلك الإقليم الذى يقع جنوبى نجد يقاوم منذ زمن طويل أية محاولة للسيطرة على منطقة القصيم الخصبة المنخفضة ، التى تقع فى منتصف هذا الإقليم لتصبح بمثابة الجائزة فى عيون الجيران الذين يحيطون بها .

ونحن إذا ما استثنينا تلك الأحزمة الثلاثة ، التى تنفصل عن بعضها البعض بواسطة أراضى جدباء بلا ماء ، كما أن الأراضى التى تفصل الرمال الشمالية الكبيرة عن الرمال الجنوبية هى عبارة عن سهب كبير ، وأن هذا السهب لا يخلو من الأعشاب أو المياه الجوفية التى توجد على أعماق متباينة ، ولكنها لا تصلح أو تناسب سوى حياة الرعى فقط . فى فصول معينة من العام ، وبعد سقوط الأمطار ، تصبح تلك الأحزمة الرملية منتجة لكثير من الأعشاب الغزيرة والغنية على نحو يفوق تلك الأعشاب التى تنمو فى سهوب الحجر الجيرى . على كل حال ، ونظرًا لأن هذه الأعشاب ، شأنها شأن حفر المياه الضحلة التى يحدثها البدائيون من الناس ويحافظون عليها ، يمكن استنفادها بسرعة ، فإن ذلك يجعل البشر الذين يمارسون حرفة الرعى يتسمون بطابع الترحل من مكان إلى آخر . هذا يعنى أن وسط الجزيرة العربية هو منشأ وأساس الطابع البدوى فى الحياة الإنسانية .

فى الشرق أو بالأحرى فى الشمال الشرقى ، تنحدر الهضبة انحدارًا متدرجًا ناحية الخليج الفارسى ، الذى تشكل رفاً فوق مياهه الضحلة . من هنا فإن الشاطئ

على هذا الجانب ليس سوى الأرض الداخلية ، ولكنها أكثر قفرًا وجدبًا بسبب انخفاضها وبعدها الكبير عن مصادر التصريف والصرف . ولكن فى الناحية الغربية وعلى السواحل الجنوبية التى يمثل الرف القارى المرتفع وجهين عاليين منحدرين ، نجد أن الرقع الحدودية شديدة التباين من حيث الخصائص الطبيعية ومن حيث الخصائص الاجتماعيه أيضًا . وفى أقصى شمال الساحل الغربى نجد تعديًا لصخور نارية قديمة ، شبيهه تمامًا بصخور سيناء المجاورة لها . هذه الصخور النارية استطاعت مقاومة التعرية وهى تقف حاليًا بطول شاطئ مدين وكأنها حرس من حرّاس المقدمة أمام الواجهة الجيرية للهضبة ، التى لا تطاول هذه الصخور ارتفاعها بدرجة كبيرة . صمود هذه الصخور النارية ومقاومتها للتعرية هى وبعد الساحل نفسه عن منطقة الرياح الموسمية كل ذلك هو الذى أدى إلى رسوبيات قليلة على شكل دلتا ؛ كما نجد أيضًا على ساحل مدين أن الخصوبة أقل ، أو مجتمعًا إنسانيًا مستقرًا ، منها فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية فيما عدا المناطق الشرقية .

وبعد أن تتوقف هاتين السلسلتين الناريتين ، يبدأ شريط ساحلى منخفض ، مكون فى بعض أجزائه من رسوبيات الحجر الجيرى ، وفى البعض الآخر من المكونات المرجانية . هذا الشريط الساحلى يستمر بطول غربى الجزيرة العربية كلها ، بلا اعتراض من أى نوع كان . ولكن بالرغم من أن خصوبة هذه "التهامة" تتزايد فى اتجاه الجنوب مع سقوط الأمطار ، وبالرغم من أن ذلك الشريط يضم بعضًا من البلدان الداخلية الكبيرة ، التى من قبيل بيت Beit الفقية el-Fakih وزبيد Zabid، إلا أن حرارة هذا الشريط الشديدة وتربته المسامية تتسببان فى قفرة وفى جدبه النسبى فى كل ركن من أركانه . فى النصف الشمالى من هذه "التهامة" يندر وجود المستوطنات المستقرة ، بفضل وجود المنحدرات الواقعة خلف هذه التهامة ، والتى تأوى عددا كبيرا من المجتمعات التى هى بحاجة إلى الموانئ . وهذا هو ميناء ينبع ، وميناء جدة ، وميناء القنفذة ، وميناء جيزان ، وميناء لوحية Loheia وميناء الحُديِّدة كل هذه الموانئ جرى إنشاؤها والمحافظة عليها لخدمة كل من المدينة (المنورة) ومكة

(المكرمة) ، كما تخدم أيضاً قرى وبلدان عسير والأراضى المرتفعة فى اليمن . وبقية هذه التهامة من ناحية الحجاز هى كل مباح للحياة البدوية المترحله ، ولكن من النوع غير الخفيف وغير الكثيف ، يضاف إلى ذلك أن خصوبة المنحدرات الموجودة فى الخلف تعد قليلة جداً فى الشمال . وكل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) تقعان فى رقعتين عاريتين وسط تلال قفر جدباء فى أعالى وجه الهضبة ، ولولا ارتفاع مناطق الحرات المجاورة ، لتعذر على كل منهما الحصول على الماء الذى لا يكفى سوى نصف سكان كل مدينة من هاتين المدينتين . ولولا الطابع المقدس لهاتين المدينتين ولولا أيضاً اعتراف سكان وأناس من غير ، أهل الجزيرة العربية ، بقدسية هاتين المدينتين لما كانتا بحاجة إلى هذا الماء كله الذى لا يحتاج أهل المدينتين الوطنيين منه سوى معشار هذه الكمية فقط . وتحت أى ظرف من الظروف الأخرى فإن وسط الحجاز ، الذى حسبه بركخاردت أقل الأراضى العربية إنتاجاً ، يمكن أن يكون غير مستقر شأنه شأن الجزء الشمالى من المنطقة ، أو واجهة عسير من ناحية البحر .

الارتفاع الزائد للتضاريس وهبوب الرياح الموسمية ، اللذان يزيدان من معدل التكثيف هما وشىء من تباين التربة ، والذى يرجع إلى نتوء التراكيب الأخرى بين الحين والآخر ، أكثر منه إلى الحجر الجيرى فى هذا الجزء من وجه الهضبة ، هما اللذان يشكلان فارقاً كبيراً فى الرقع الساحلية الجنوبية الغربية ، سواء أكانت الرقع الممتدة بطول البحر الأحمر أم تلك التى تمتد بطول ساحل المحيط الهندى . المياه الدائمة هنا تجرى بين التلال ، بالرغم من أنها يندر أن تصل إلى البحر ، والزراعة هنا لا تعتمد اعتماداً كليًا على الرى الصناعى . ومن ثم يوجد فى غربى اليمن وفى جنوبه عدد كبير من السكان المستقرين استقراراً تامًا ، وفى هذا الجزء على وجه الخصوص من الجزيرة العربية ، يكاد يكون المجتمع البدوى غير معروف تماما ، اللهم إلا إذا كان يشكل عنصراً متعدياً . يضاف إلى ذلك أن الارتفاع الكبير لكتلة الوسط عند هذا الركن هو الذى يضفى طابع جبال الألب على الأكتاف المتجهة صوب البحر ، يضاف إلى ذلك أن حواف هذه الأكتاف جيدة التغطية هى ووديان الأراضى العالية

التى تحيط بها تلك الأكتاف ، تكفى لإعالة بلدان وقرى أكبر وأكثر من القرى التى فى الأماكن الأخرى من الجزيرة العربية ، اللهم باستثناء جزء صغير من عُمان Oman، حيث توجد الخصائص الطبيعية نفسها .

هذه الظروف المواتية تتواصل على امتداد أربعمائة ميل أخرى على طول الساحل الجنوبى ، الذى يتخلل وحده الأحجار الجيرية هى والمنحدر المستوى الجانب المواجه للبحر فى القسم الغربى منها صخور جوفية نارية . وأفضل مثال للوديان الطويلة الخصبة ، التى تعد الكتلة الشبيهة بالألب فى جنوب غرب اليمن يتمثل فى منظومة حضرموت ، التى تمتد ناحية الشرق ، وتأخذ فى الانحدار التدريجى نحو البحر ليبلغ طولها الإجمالى ما يقرب من خمسمائة ميل . الروافد الفرعية لهذه المنظومة تضم عدداً كبيراً من المستوطنات الكبيرة باعتبار أن هذه المستوطنات هى أفضل أجزاء اليمن ؛ ولكن قرب السهب من هذين الذراعين ينتج عنصرا بدويا قويا من السكان . ولكن قبل أن يصل وادى حضرموت إلى المنطقة ما بين سيحوت Sihut وقشن Kishin، يكون الجدب ، الذى هو بمثابة لعنه لجزء كبير من شبه الجزيرة العربية ، قد بدأ يلعب دوره من جديد . ونحن لا نعرف شيئًا كثيراً عن القسم الشرقى من الساحل الجنوبى ، ولكننا على يقين من أننا إذا ما استثنينا شريطًا أو اثنين من الأشرطة الساحلية ، فإننا نجد ظروفا سهوبية إن لم تكن صحراوية ، مع مجتمع بدوى متناثر ، هى التى تتسود هذه المنطقة إلى حدود عمان Oman . الرياح الموسمية تجتاح هذا الجزء من الجزيرة العربية ، ولكننا ينبغى أن لا نسلم أن مرتفعات اليمن ، ومرتفعات عمان هما وحدهما اللتان تتسببان فى الانحراف ، وإنما ليس هناك أيضًا حاجز بارد من الأكتاف الجبلية فى الإقليم نفسه حتى يقوم بتكثيف الرطوبة ، ولكن الموجود بالفعل هو مجرد هضبة معتدلة الارتفاع تكسوها الرمال الساخنة . والمرجح أيضًا أن الحافة الوافية التى تحمى حضرموت من الانحراف الرملى للأحقاف ، موجودة فى هذا المكان . يضاف إلى ذلك أن غياب الوديان المهمة المنتهية إلى هذا الساحل توحى بأن الصحراء توجد فى كل مكان ولكنها لا تمتد إلى مسافة بعيدة نحو الداخل .

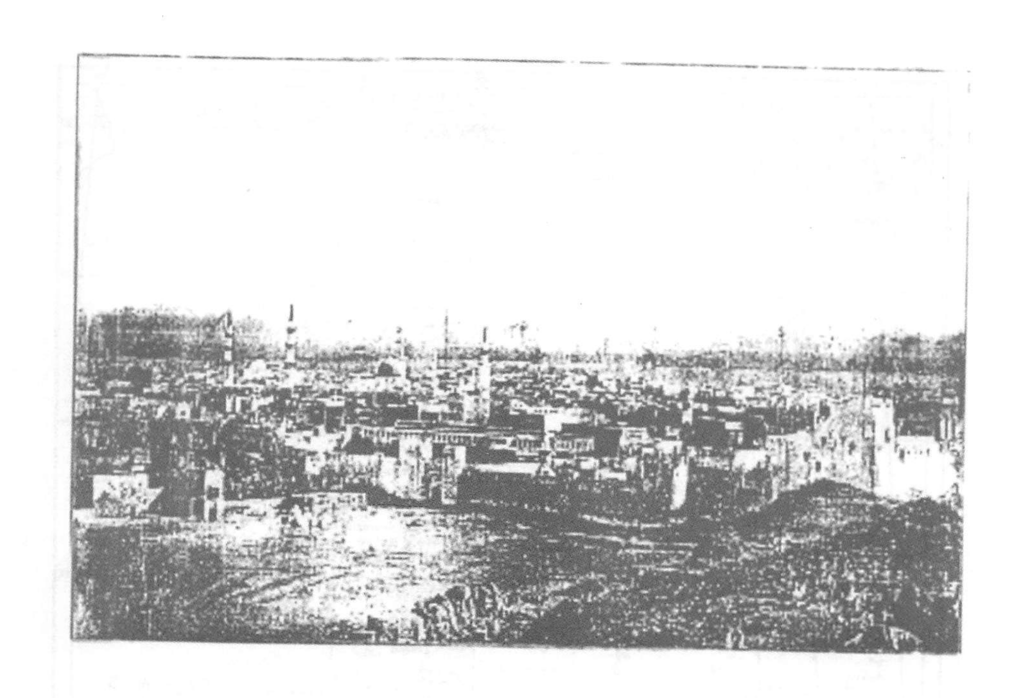
ونحن بدورنا يجب أن نتوقع خلف هذا الإقليم المجهول العثور على منحدر متدرج يتجه شرقًا ناحية البحر ، كما هو الحال فى الجزء الشمالى من الهضبة . على كل حال ، فإن البَّحار الذى يقترب من شاطئ خليج عمان ، يرى الأرض أمامه ترتفع على شكل كتف يطاول فى ارتفاعه تلك الارتفاعات الموجودة فى اليمن ، كما يرى أيضًا الوديان الخصبة الطويلة المنحدرة ناحية البحر . وهنا يمكن القول : إن الحزام الجنوبى كله فى الهضبة يحتفظ بارتفاعه العام من الغرب إلى الشرق ، وأن الجبل الأخضر فى عمان لم يكن سوى مجرد حافة مرتفعه ، مثل المرتفعات الموجودة فى غرب صنعاء . ومرتفعات عمان ليست أكثر وعورة وحسب من مرتفعات اليمن ، وأن امتدادها نحو الداخل أقل ارتفاعا من مرتفعات اليمن ، وأنها أكثر انحدارا من المرتفعات المتجهة صوب الساحل ، ولكن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الهضبة تنخفض انخفاضا متدرجا من الغرب إلى الشرق ، وأن ارتفاعها عادى جدًا فى المنطقة التى يعبر فيها خط الطول ٥٦ْ تلك الهضبة .(١)

العمود الفقرى فى عمان هو نفسه من التكوين المكونة منه كتلة شبه الجزيرة العربية ، ولا يرجع إلى أى تعد من تعديات المواد القارية أو المواد الغريبة ؛ ولكن اتجاه ذلك العمود الفقرى ليس هو اتجاه الخطوط التكوينية الأخرى فى الهضبة ؛ والسبب فى ذلك أن ذلك العمود الفقرى ينحنى نحو الخارج مبتعدا عن الشمال الغربى متجها صوب الشمال مباشرة ، ثم يمتد ناحية البحر الشرقى على ارتفاع كبير ، وعلى نحو يكاد يسد مصب الخليج الفارسى . وهنا يمكن لنا أن نرى شبه الجزيرة العمانية على إنها جزء منفصل عن بلاد فارس على الشاطئ الآخر ، ويمكن لنا القول أيضًا : إن هضبة الجزيرة العربية الحقيقية تنحدر نحو الأسفل ويحدها منخفض فى الصحراء المجهولة ، وأن ذلك المنخفض يقع فى الجانب الشرقى من الجبل الأخضر . ارتفاع عمان Oman، فى ظل ظروف مناخية شبيهة بظروف اليمن المناخية ، يساعد على وفرة المياه والخصوبة ، كما يساعد أيضًا على وجود سكان مستقرين أيضًا يمتهنون حرفة الزراعة . أما مسألة أن هذا الجزء يخضع لنفوذ البدو أكثر منه فى

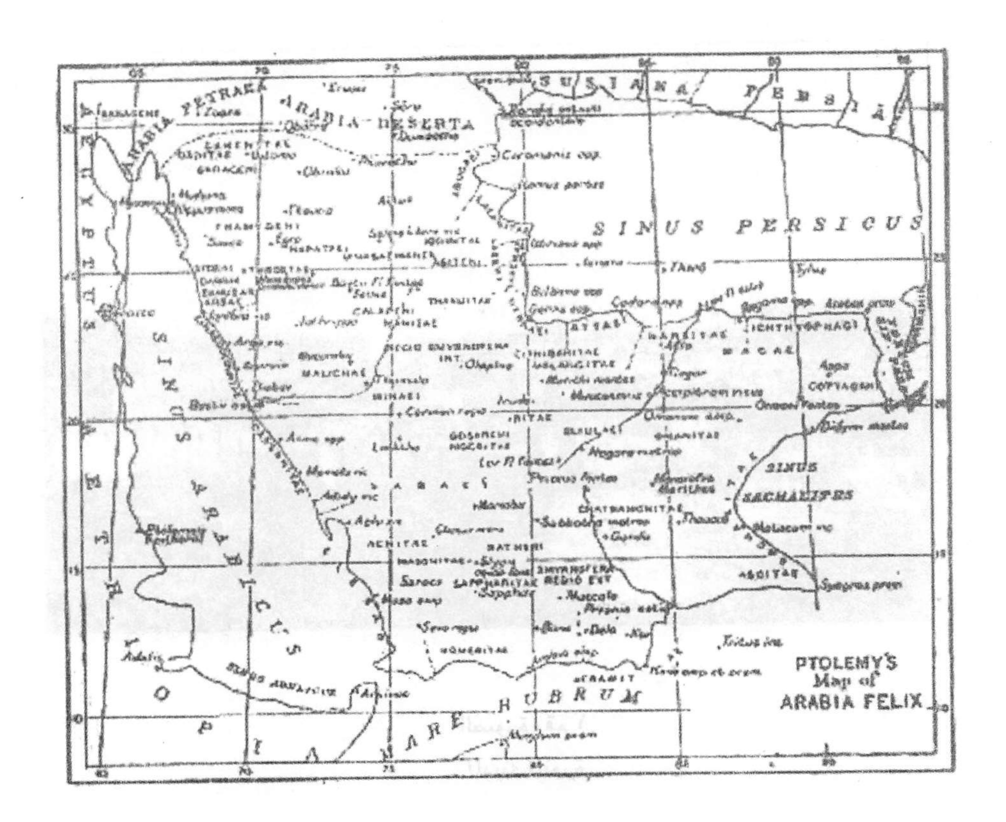
هوامش الفصل الخامس عشر

(١) سمع الدكتور هـ. جى. ل. كارتر (جمعية بومباى الفلكية فى العام ١٨٥١ ، ص ٢٤٥) من المواطنين أن القسم الشرقى من الصحراء الكبرى كان يطلق عليه اسم 'بطن' ، وهذا الاسم لا يطلق إلا على إقليم منخفض بين أقاليم عالية .

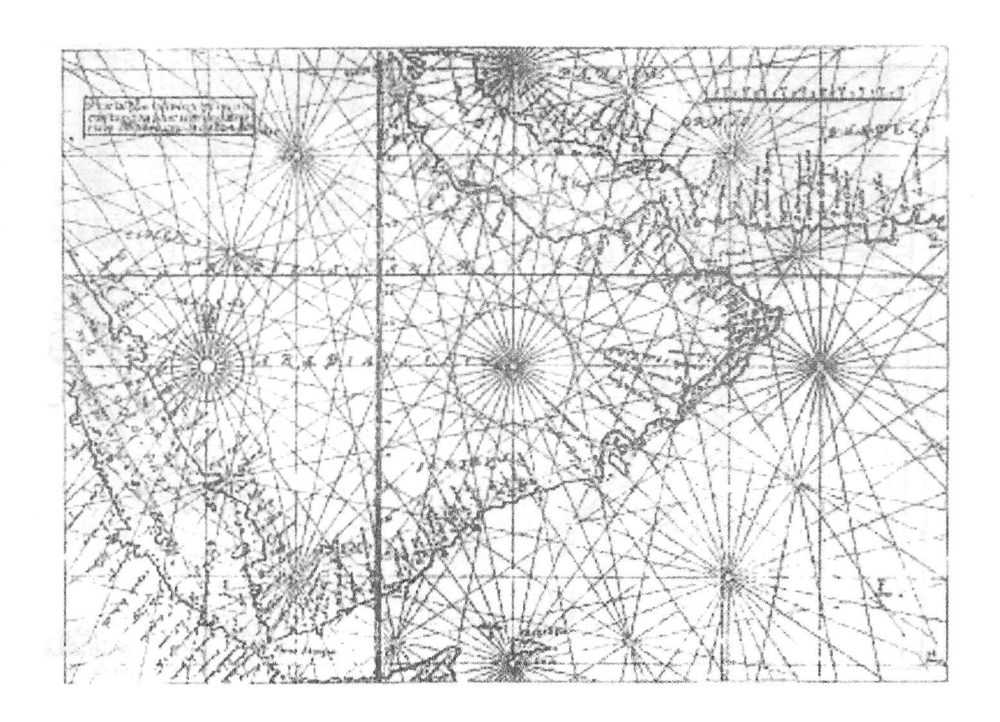
ملحق الصور



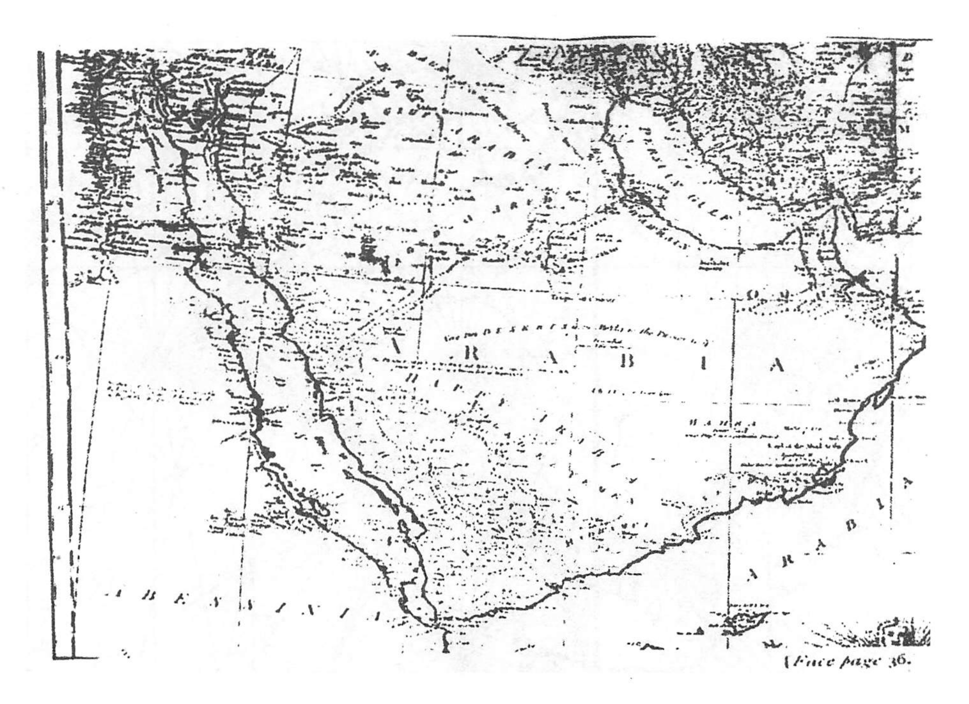
الصورة رقم ١
المدينة المنورة



الصورة رقم ٢
خريطة بطليموس نقلا عن سيرنجر



الصورة رقم ٣
خريطة بارسيلوس للجزيرة العربية



الصورة رقم ٤

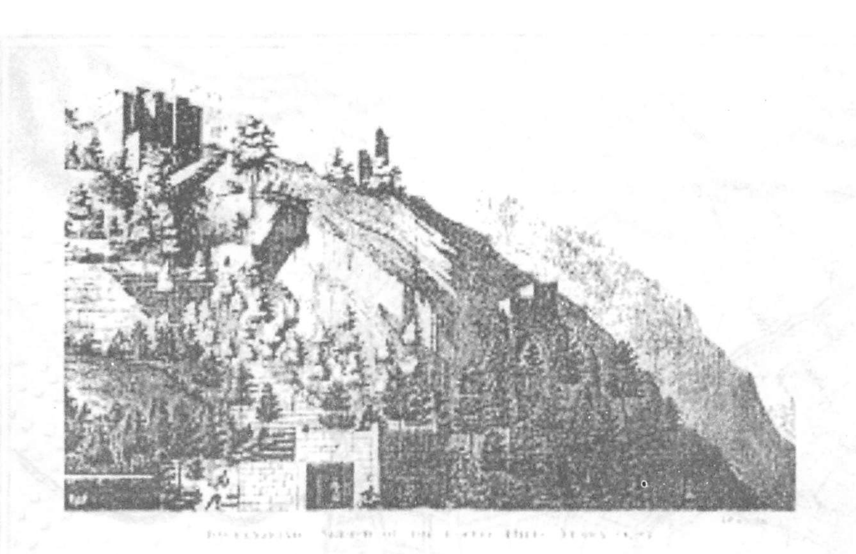
خريطة دانفيل للجزيرة العربية (١٧٥٥)



الصورة رقم ٥
خريطة لاروك لليمن (١٧١٦)

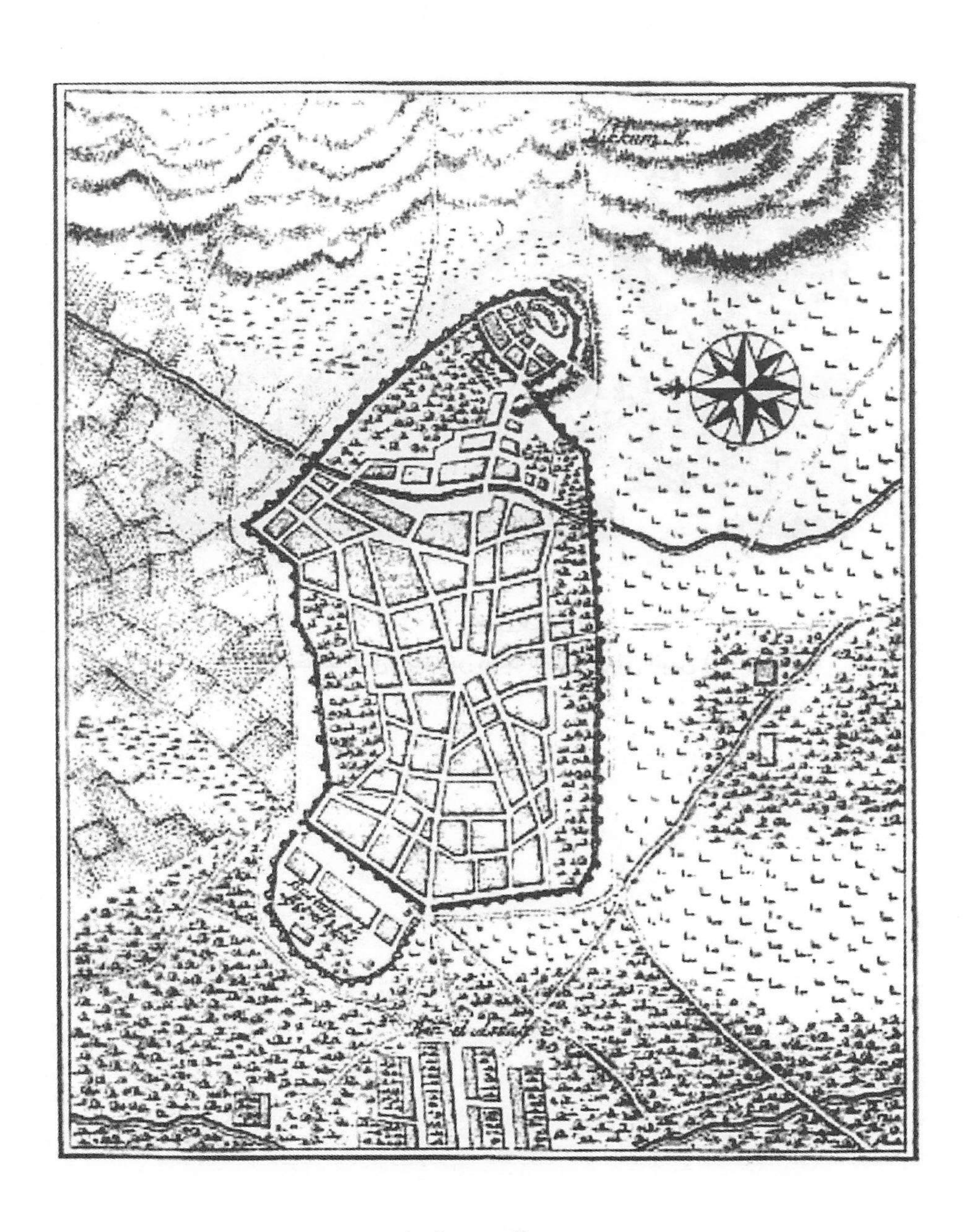


الصورة رقم ٦
كارستان نيبور



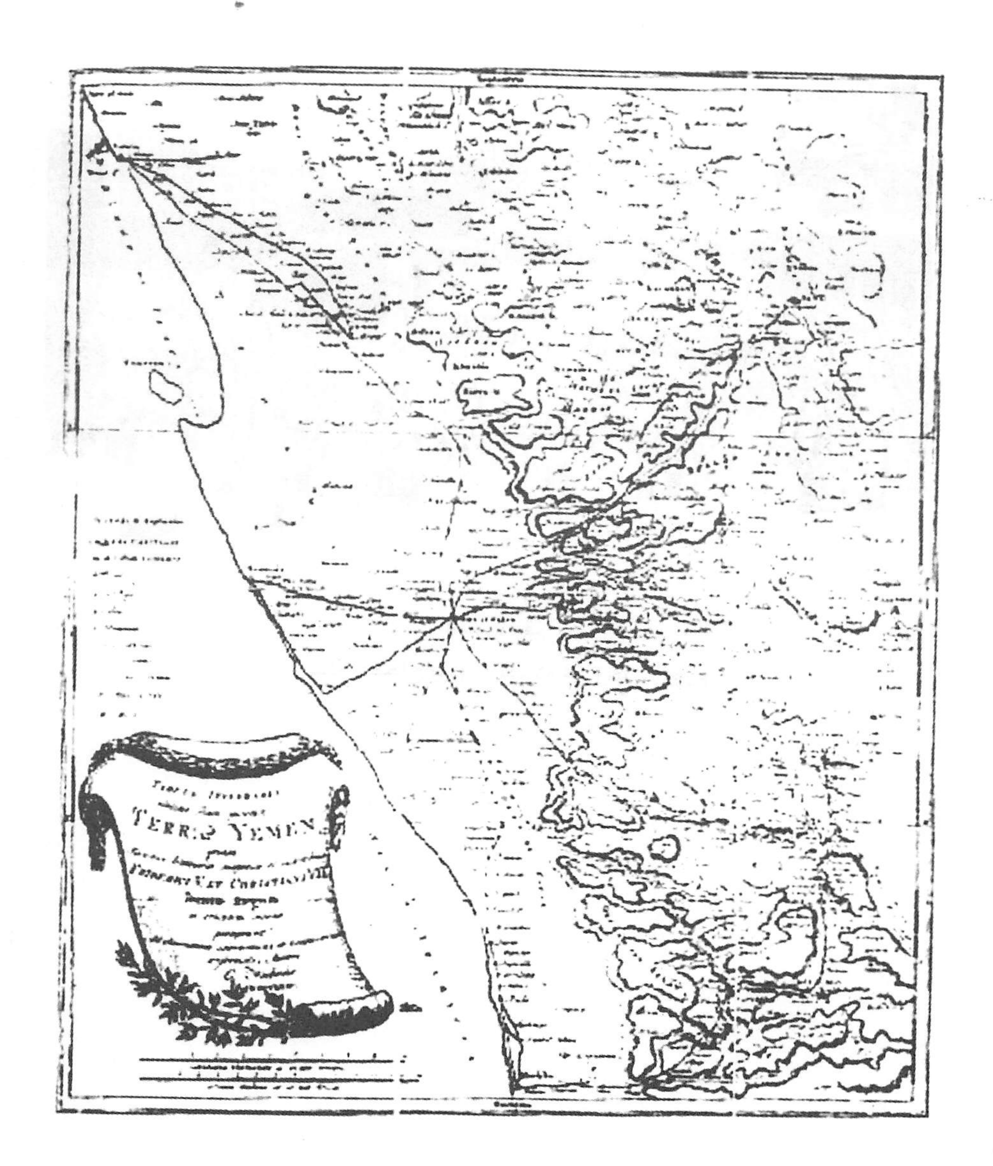
الصورة رقم ٧

المخطط الذى رسمه بورنيفيد لتلال البن فى اليمن (١٧٦٣)



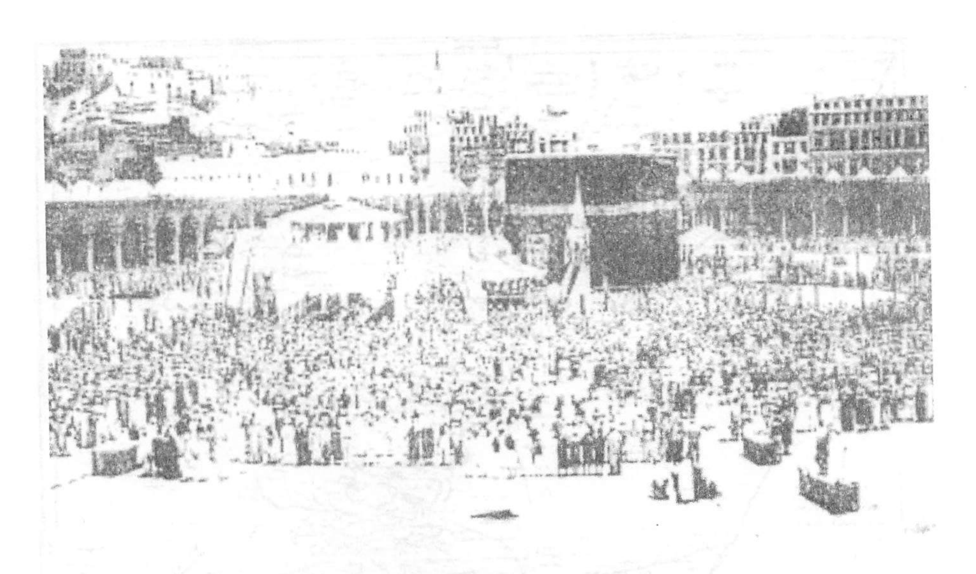
الصورة رقم ٨

المخطط الذى رسمه نيبور لصنعاء (١٧٦٣)



الصورة رقم ٩

الخريطة التى رسمها نيبور لليمن (١٧٦٣)

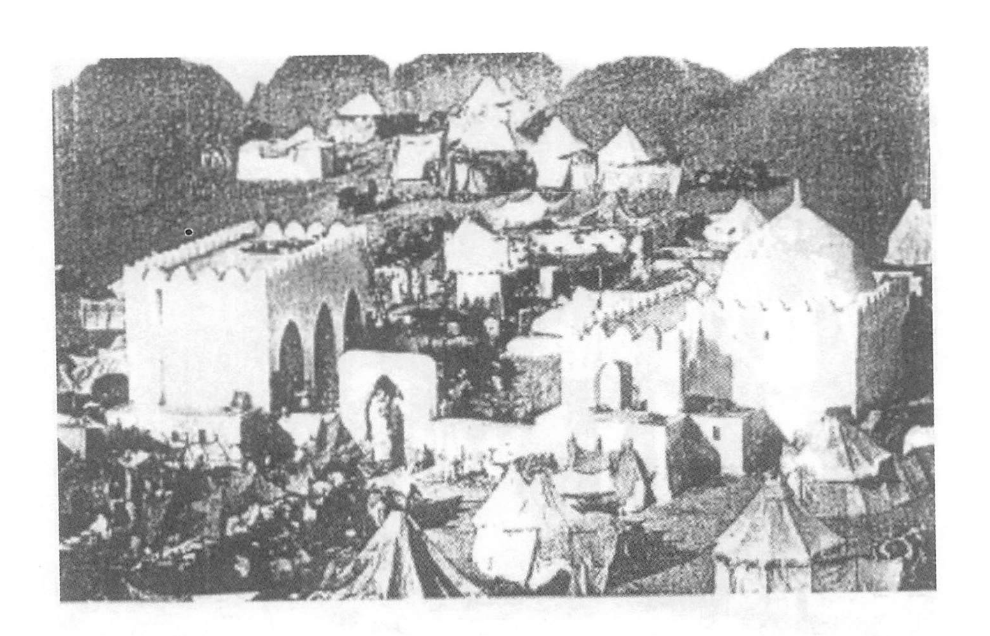


الصورة رقم ١٠

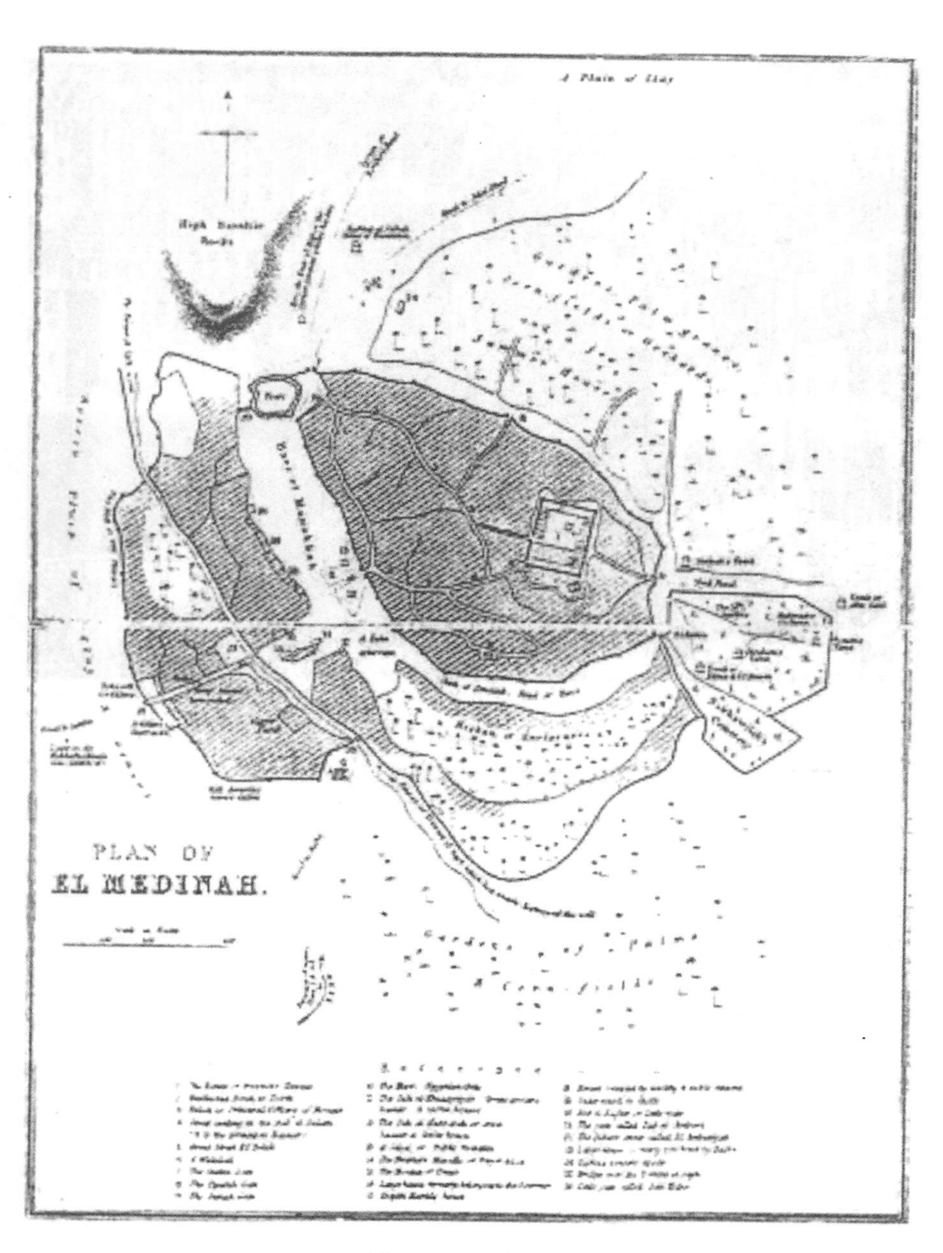
مكة : حجاج يؤدون الصلاة فى رحاب الحرم



الصورة رقم ١١
حجاج مكة

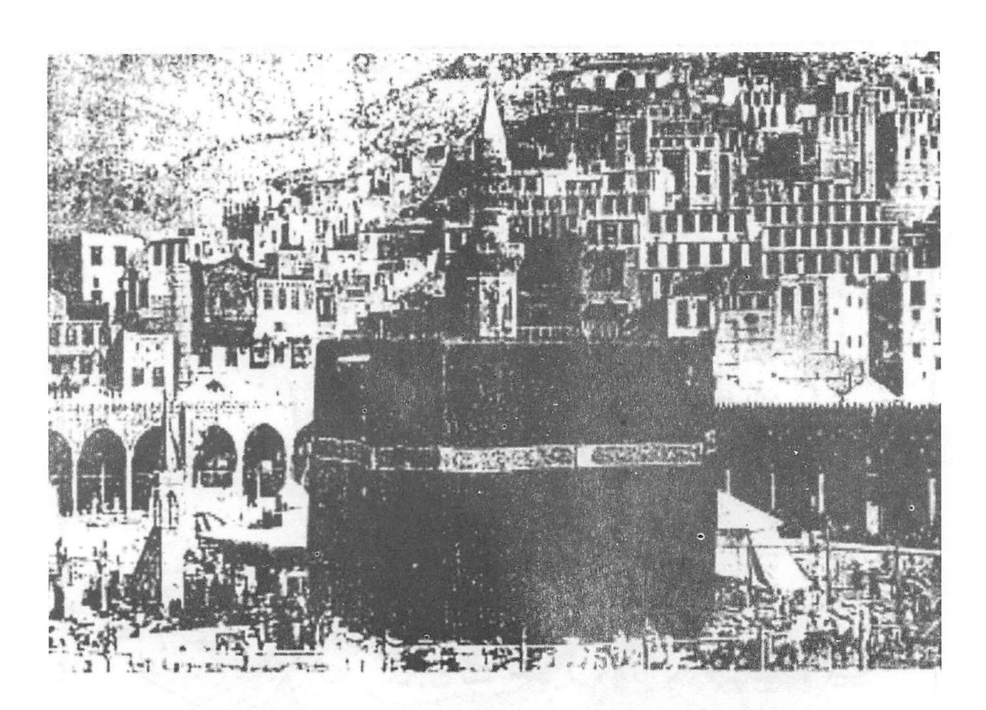


الصورة رقم ١٢
حجاج مكة عند قبر سنتا ميمونة



الصورة رقم ١٣

المخطط الذى رسمه بيرتون للمدينة المنورة (١٨٥٤)



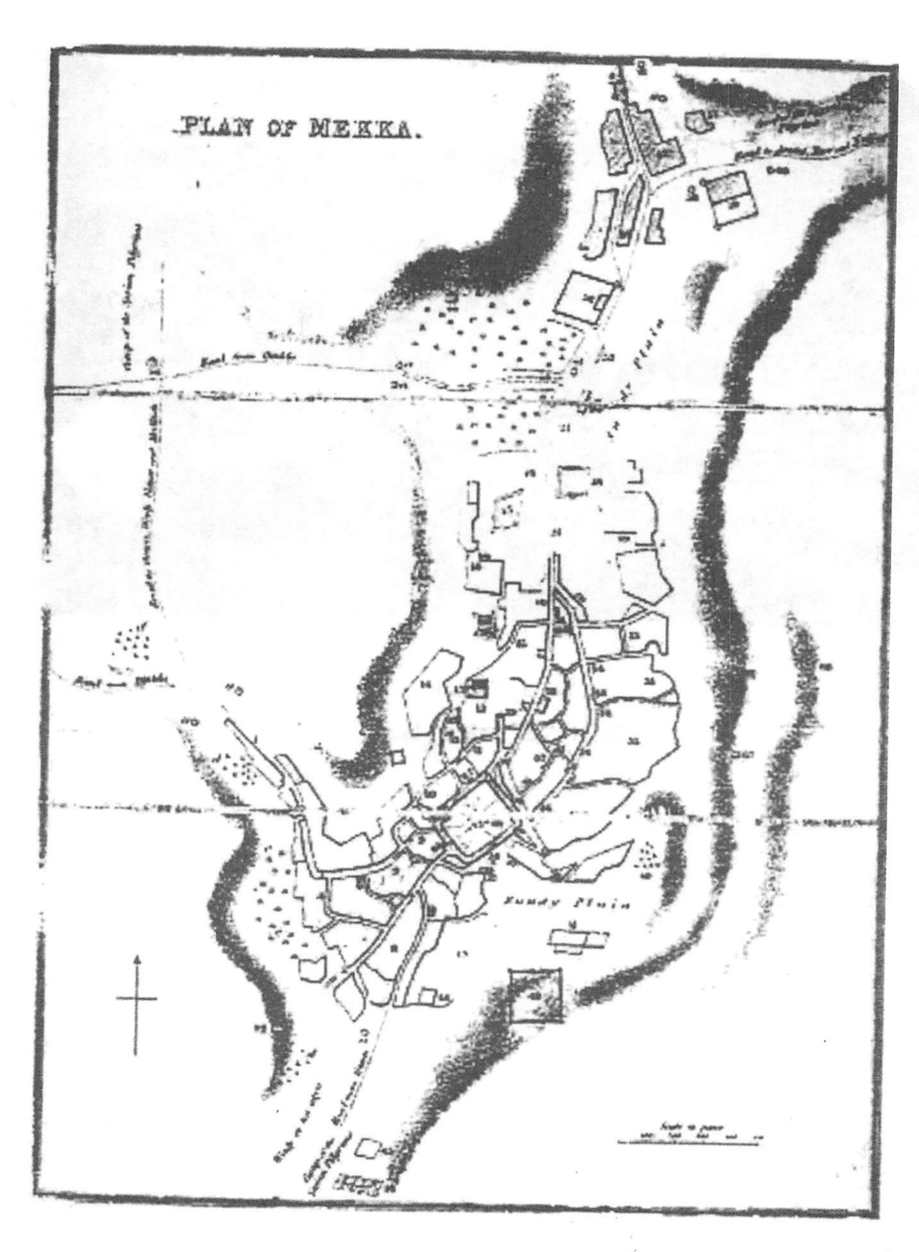
الصورة رقم ١٤
الكعبة : فى مكة المكرمة



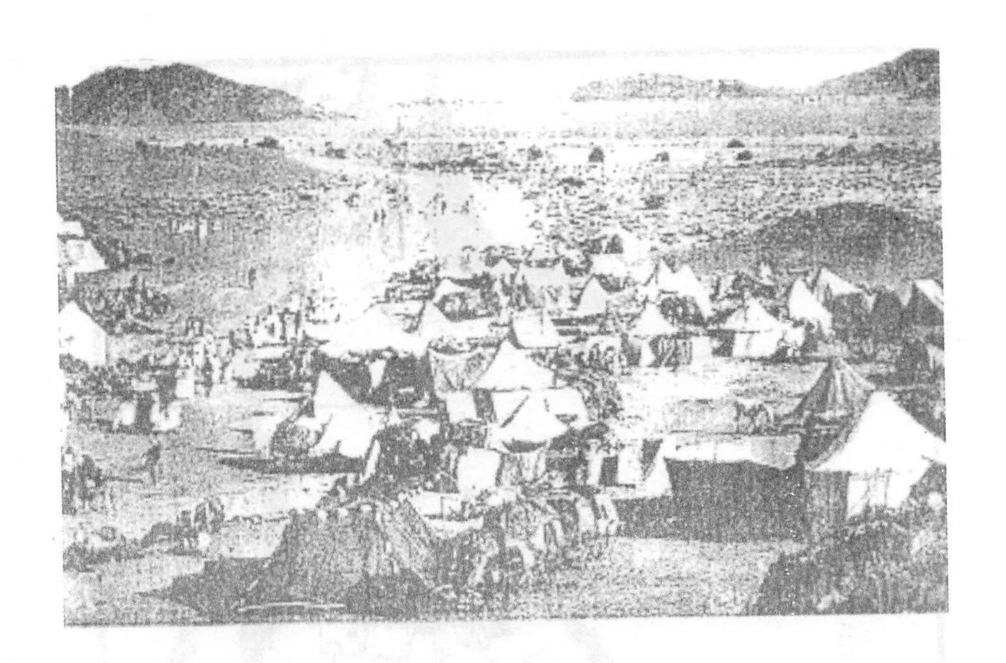
الصورة رقم ١٥
أولريش جاسبار سيتزن



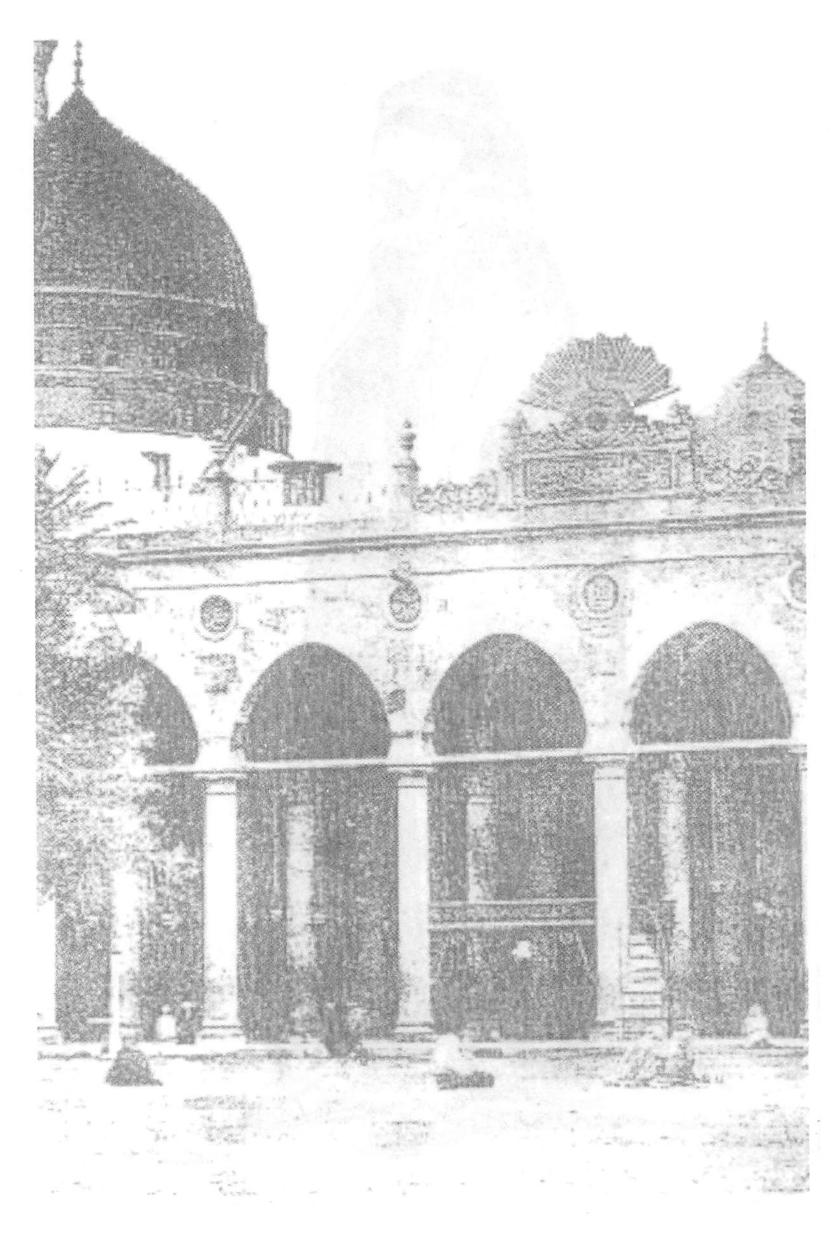
الصورة رقم ١٦
جوهان لودفيج بركخاردت



الصورة رقم ١٧
المخطط الذى رسمه بركخاردت لمكة (١٨١٤)



الصورة رقم ١٨
حجاج مكة فى مخيم المدينة



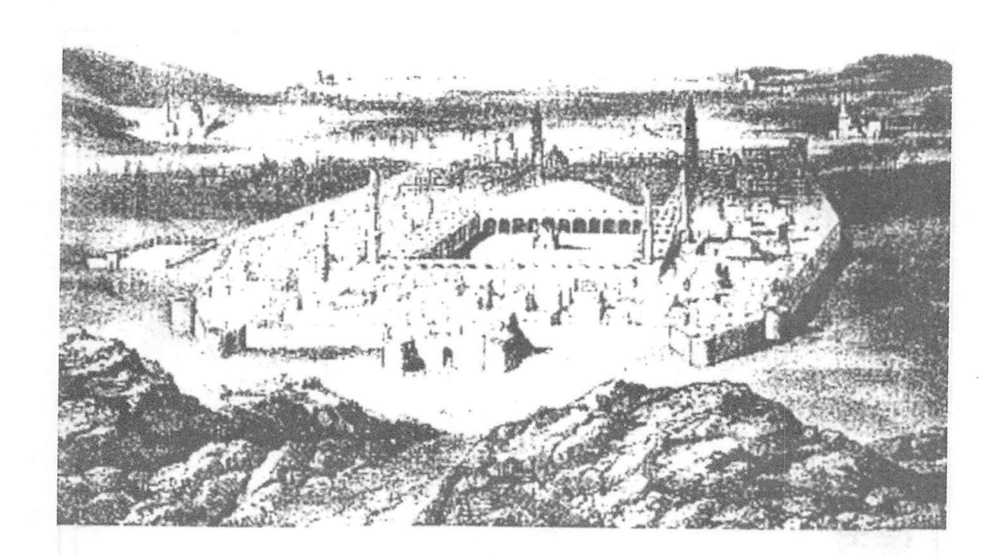
الصورة رقم ١٩

مسجد قبر النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المنورة



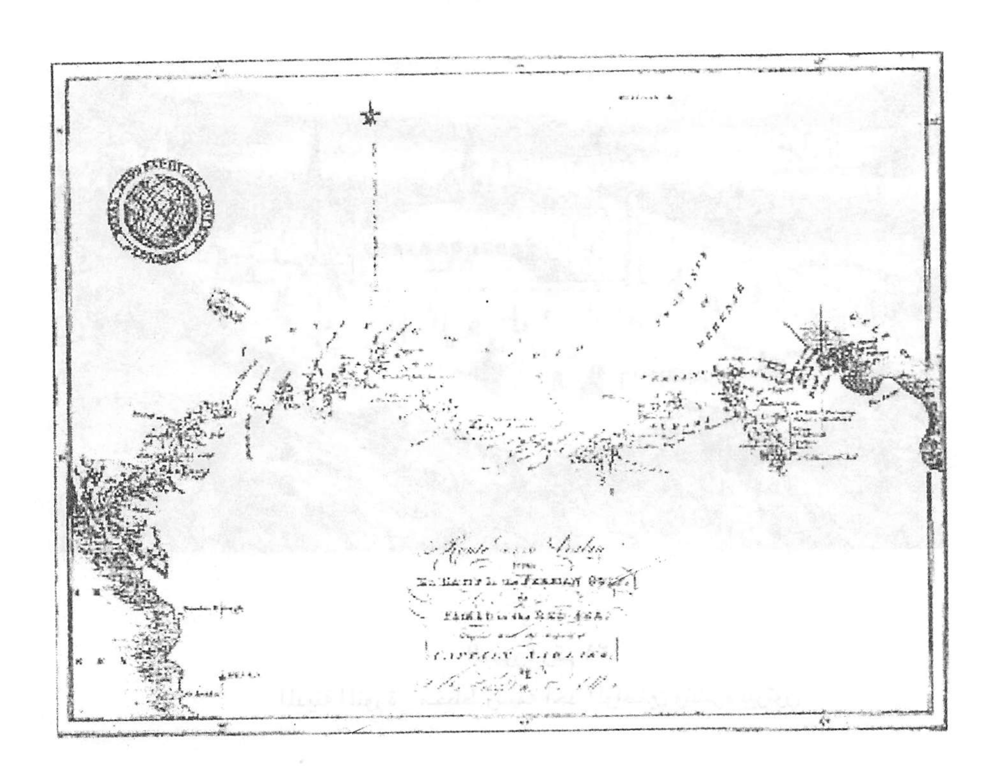
الصورة رقم ٢٠

الأمير الوهابى عبد الله بن سعود

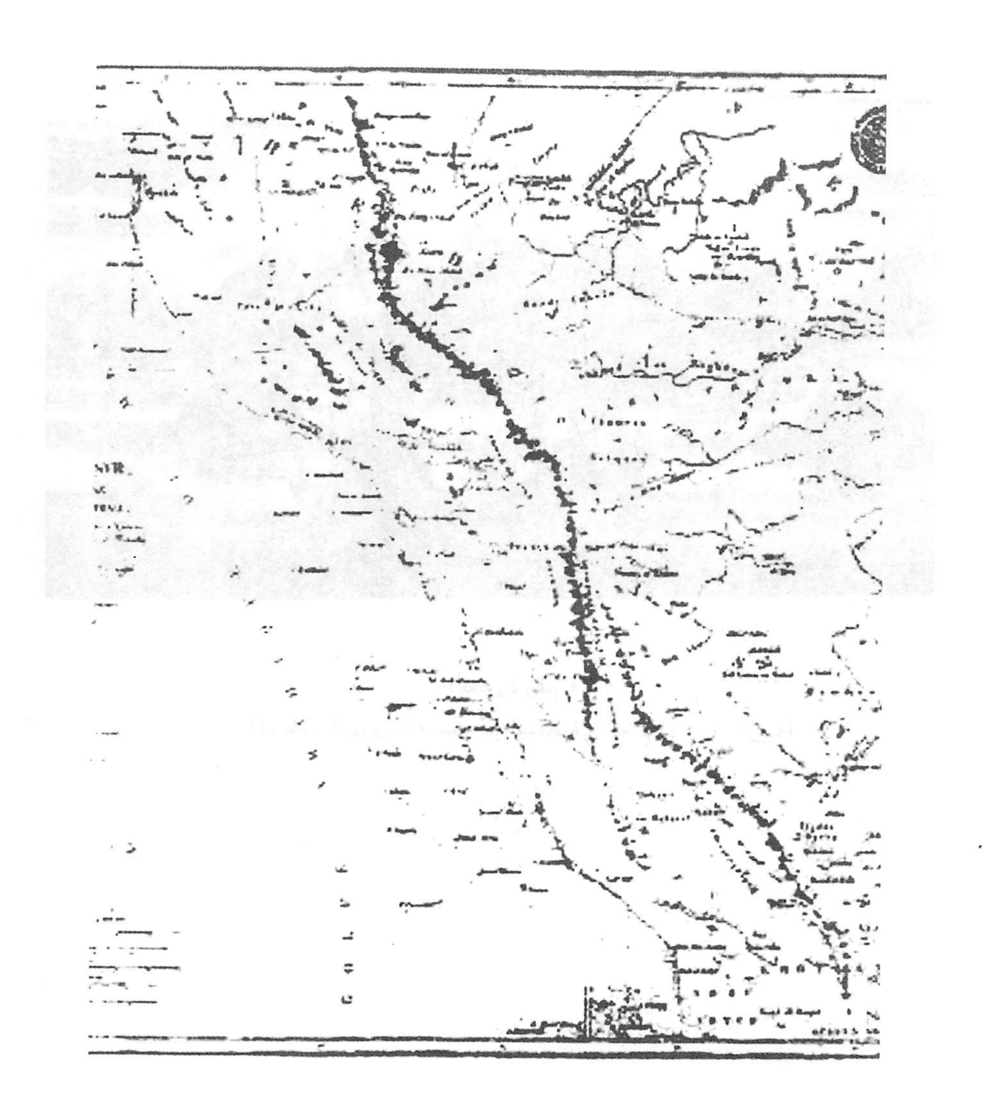


الصورة رقم ٢١

المدينة المنورة : مخطط رسمه أحد المواطنين ونشره بيرتون

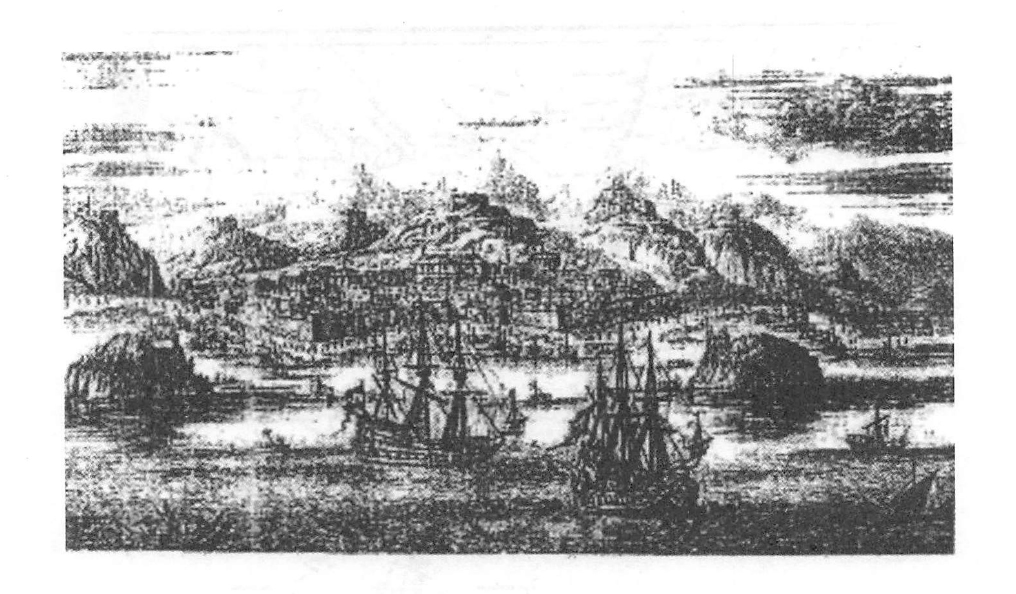


الصورة رقم ٢٢
الطريق الذى سلكه سادلير

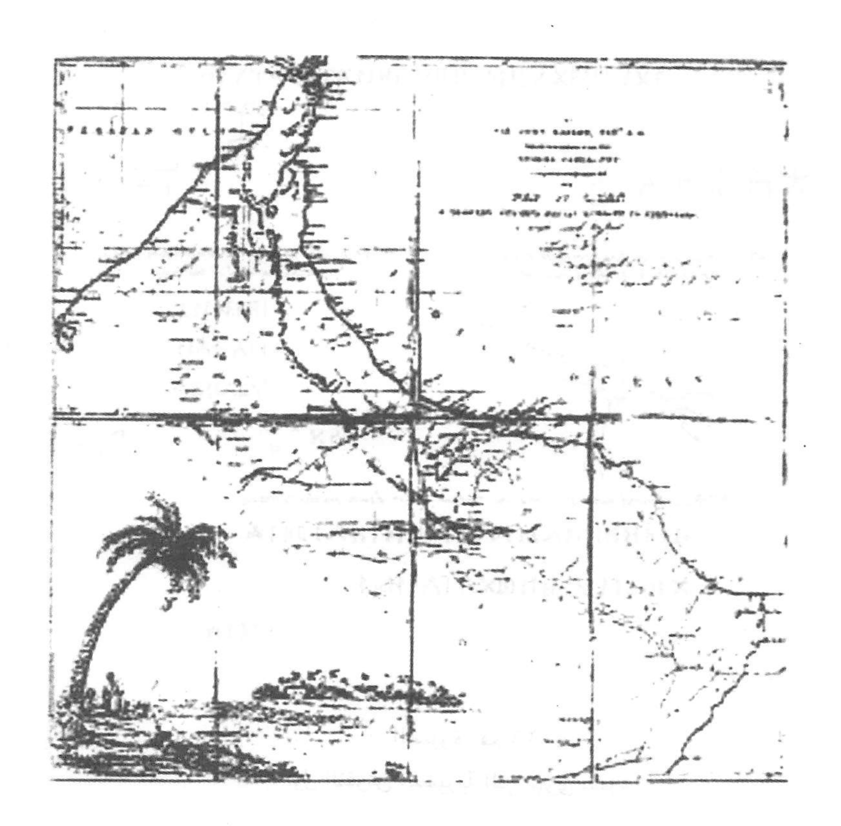


الصورة رقم ٢٣

الخريطة التى رسمها جومار لعسير وجنوب الحجاز (١٨٣٩)



الصورة رقم ٢٤
المخطط الذى رسمه سترويز لمسقط فى العام (١٦٥٥ تقريبا)

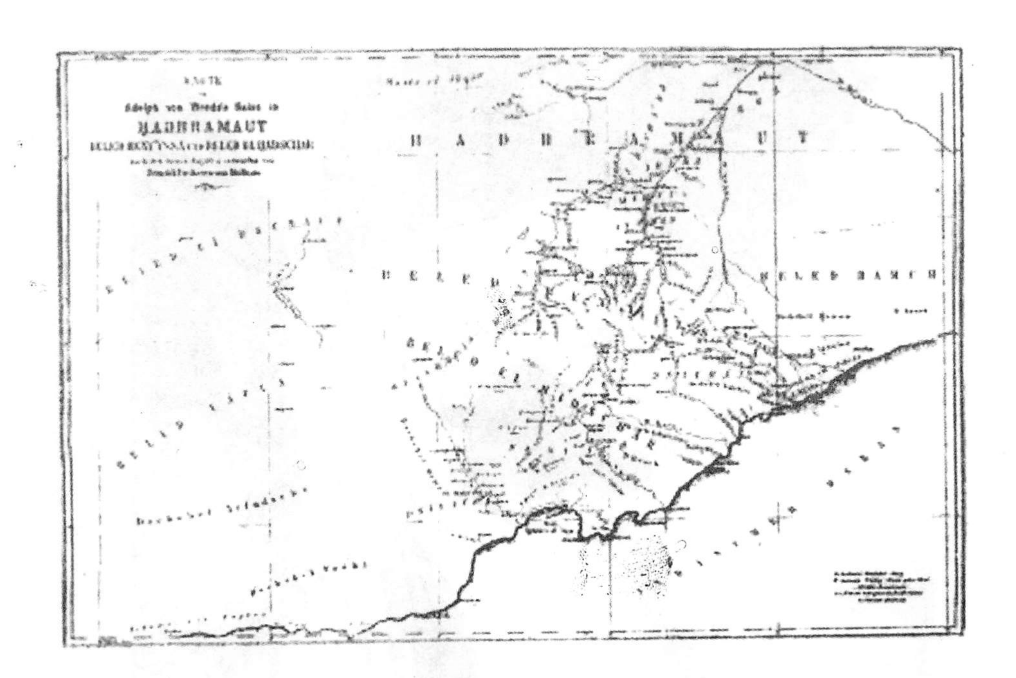


الصورة رقم ٢٥

الخريطة التى رسمها ولستد لعمان (١٨٣٨)

الصورة رقم ٢٦

أول النقوش الحميرية التى جرى نشرها

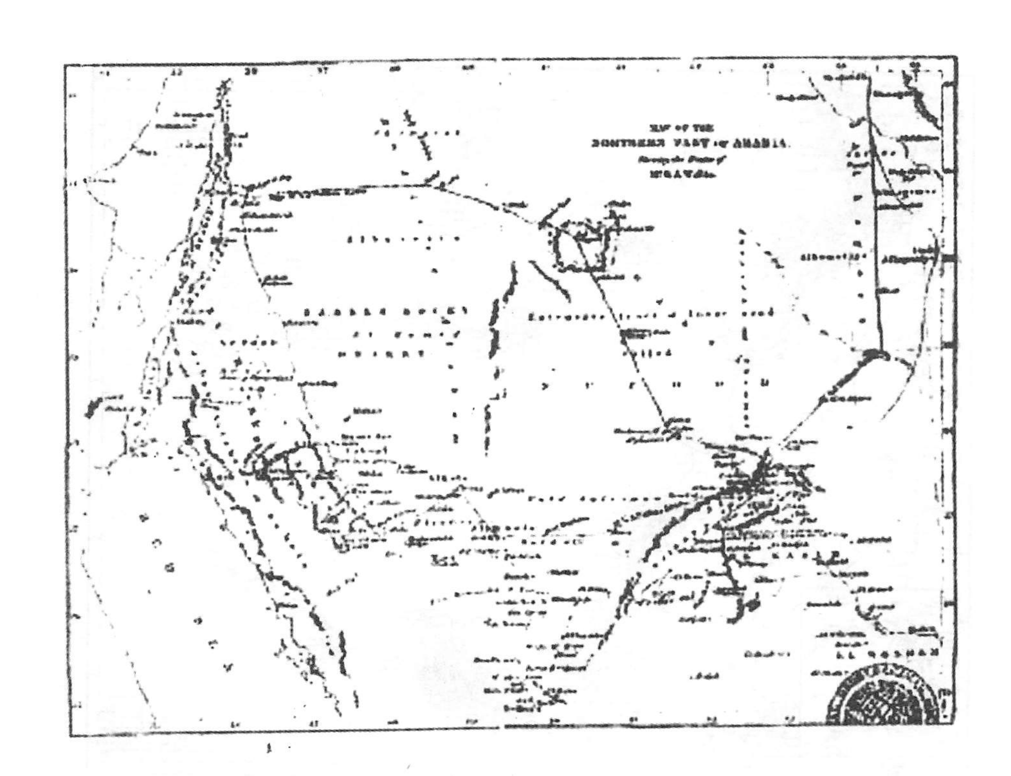


الصورة رقم ٢٧

الخريطة التى رسمها فون مالتزان للمسارات التى سلكها فون فيرد

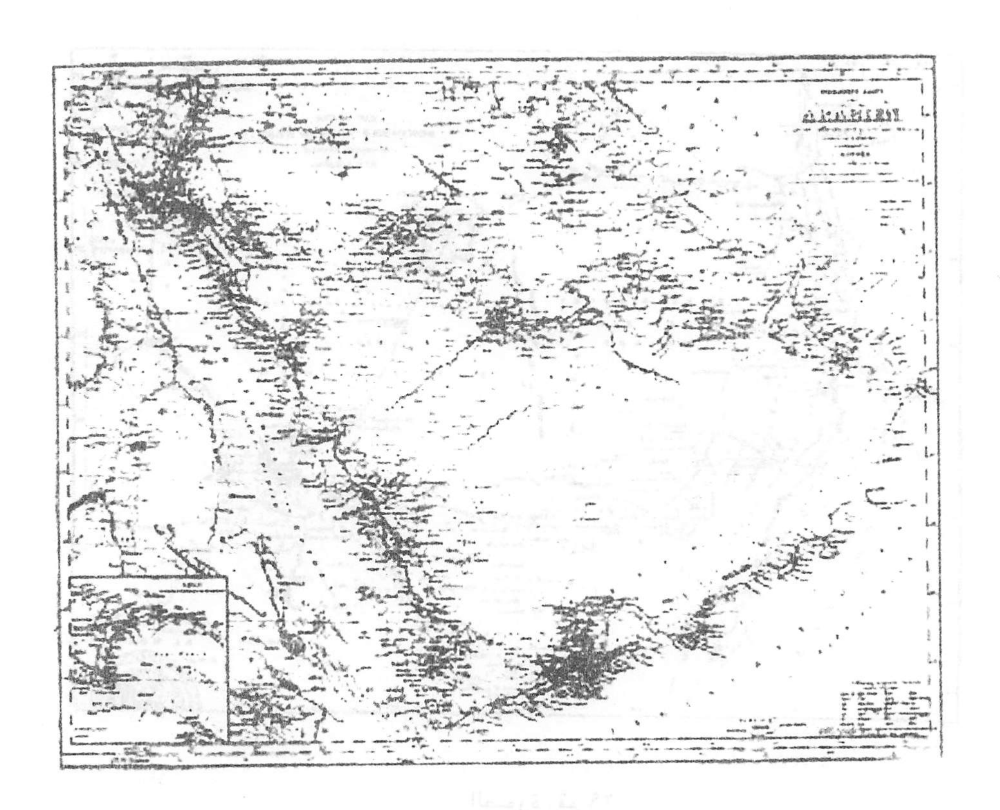


الصورة رقم ٢٨
جورج أو جستون والين
(صورة ملتقطة من صورة له فى جامعة هلستجفورس)

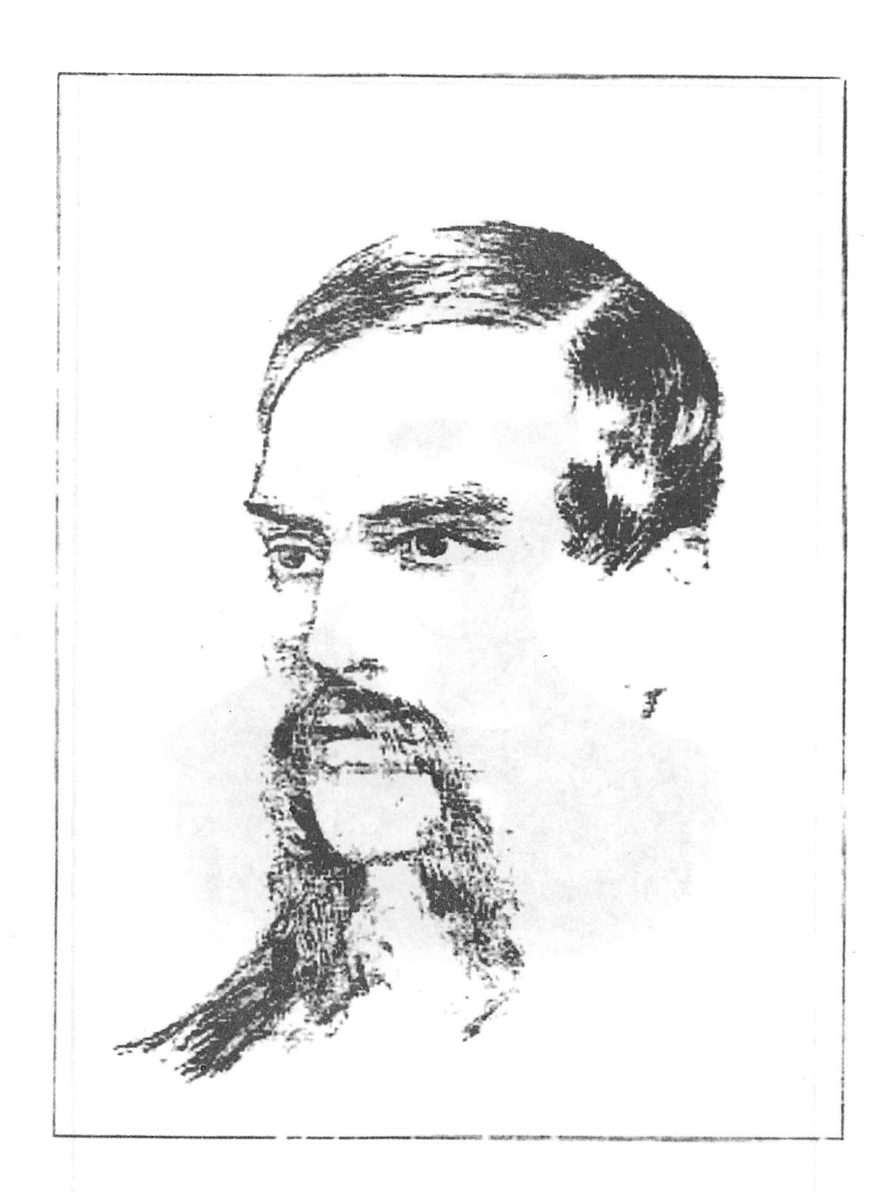


الصورة رقم ٢٩

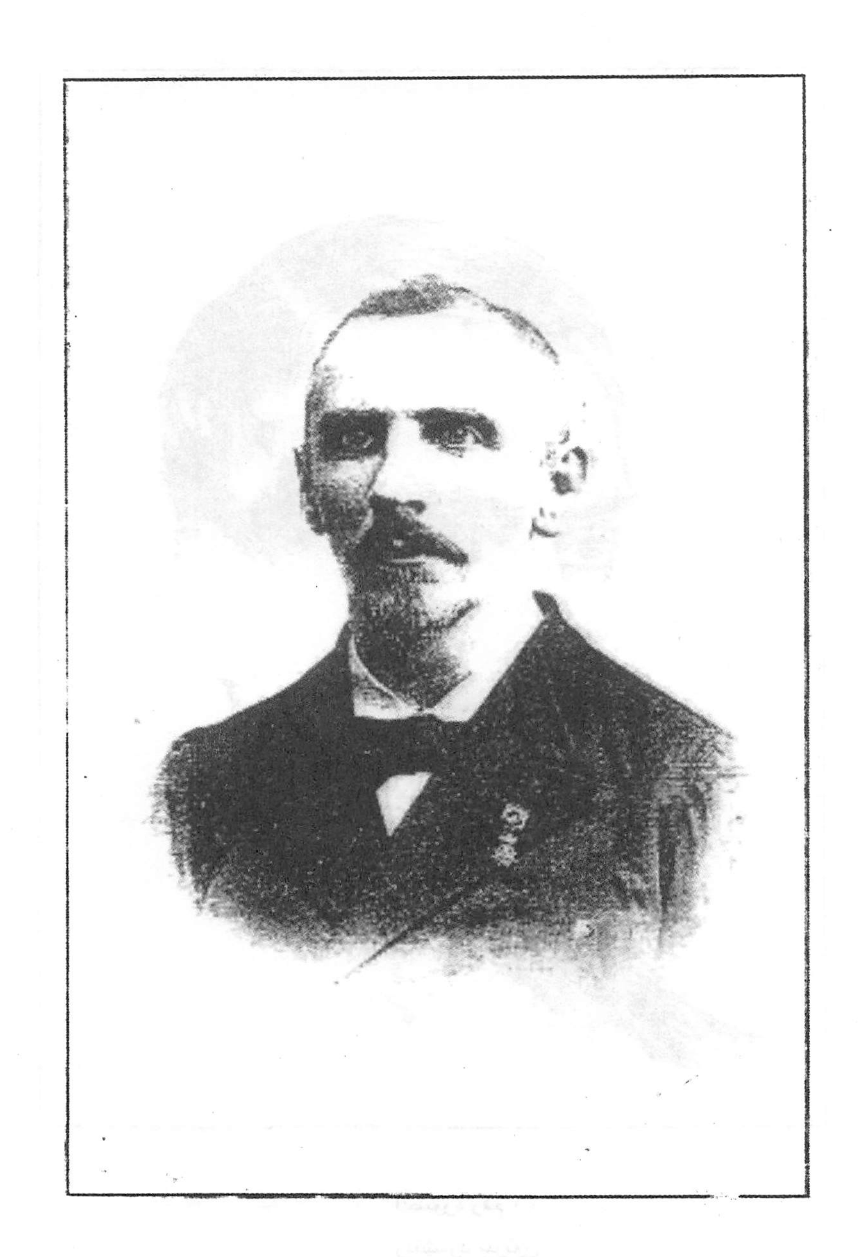
مسارات والين



الصورة رقم ٣٠
الخريطة التى رسمها ريتر للجزيرة العربية



الصورة رقم ٣١
ريتشارد بيرتون



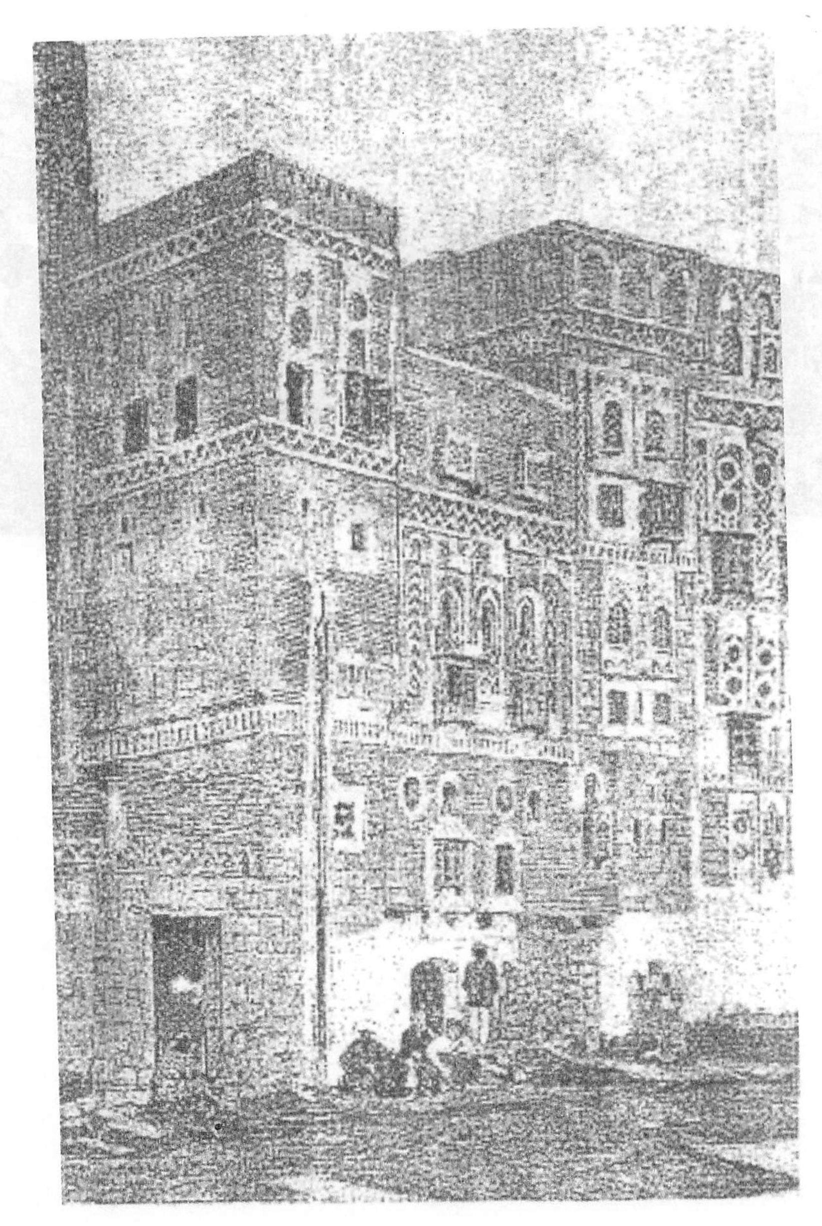
الصورة رقم ٣٢

سى سنوك هيرجورنجى

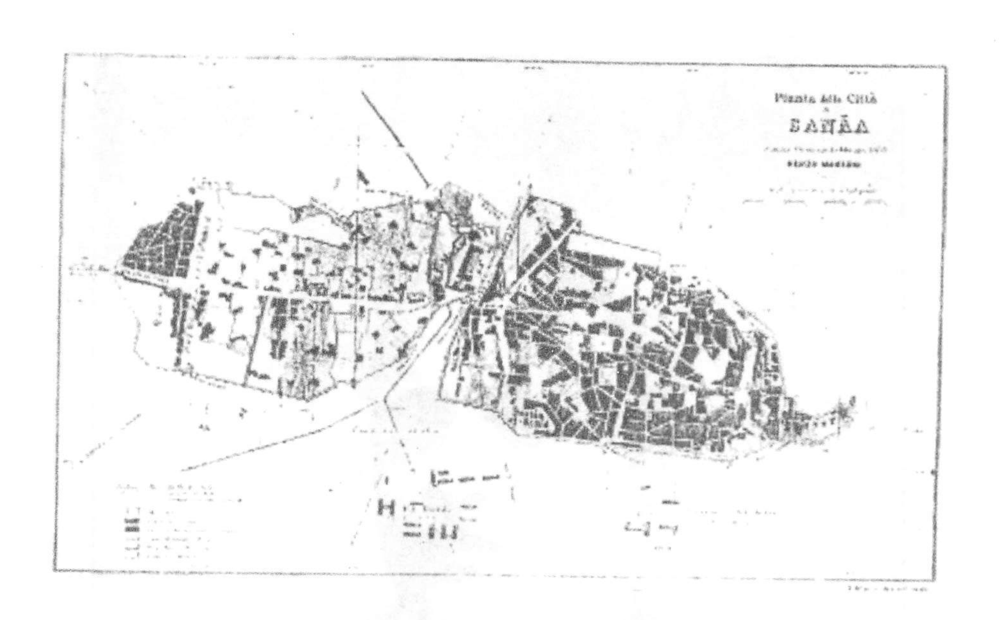


الصورة رقم ٣٣

مكة : صورة مأخوذة عن سنوك هيرجورنجى



الصورة رقم ٣٤
منازل في صنعاء

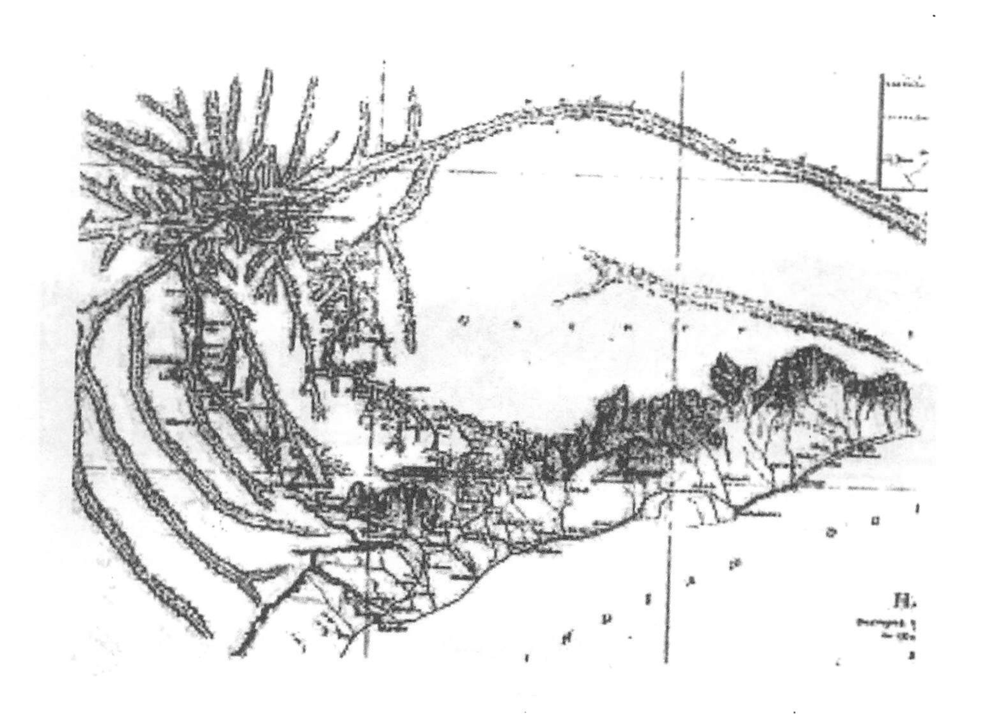


الصورة رقم ٣٥

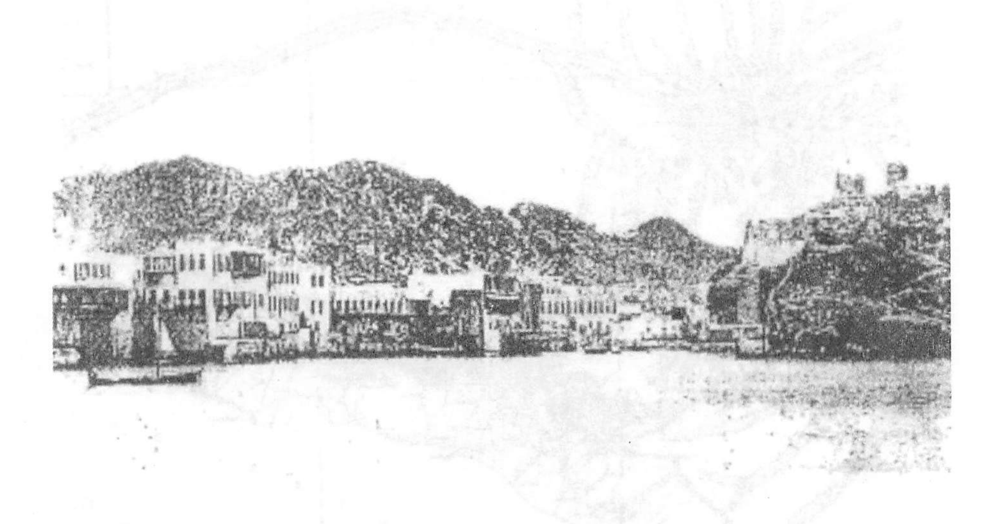
مخطط مانزوني لمدينة صنعاء



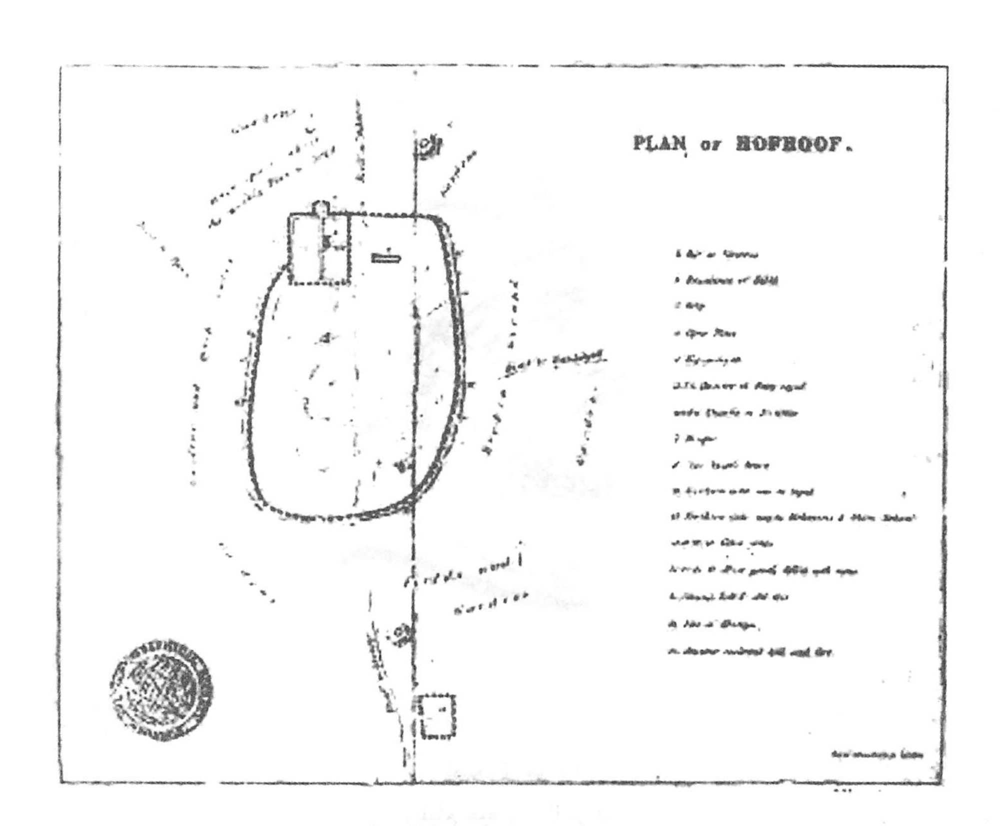
الصورة رقم ٣٦
جوزيف هاليفى



الصورة رقم ٣٧
استطلاع الإمام الشريف لحضرموت (١٨٩٣)



الصورة رقم ٣٨
مسقط



الصورة رقم ٣٩

المخطط الذى أعده بالجريف الهفوف (١٨٦٢)



الصورة رقم ٤٠

ويليام جيفورد بالجريف



الصورة رقم ٤١
ولفريد كاون بلنت



الصورة رقم ٤٢
السيدة آن بلنت



الصورة رقم ٤٣
شارل هوبر

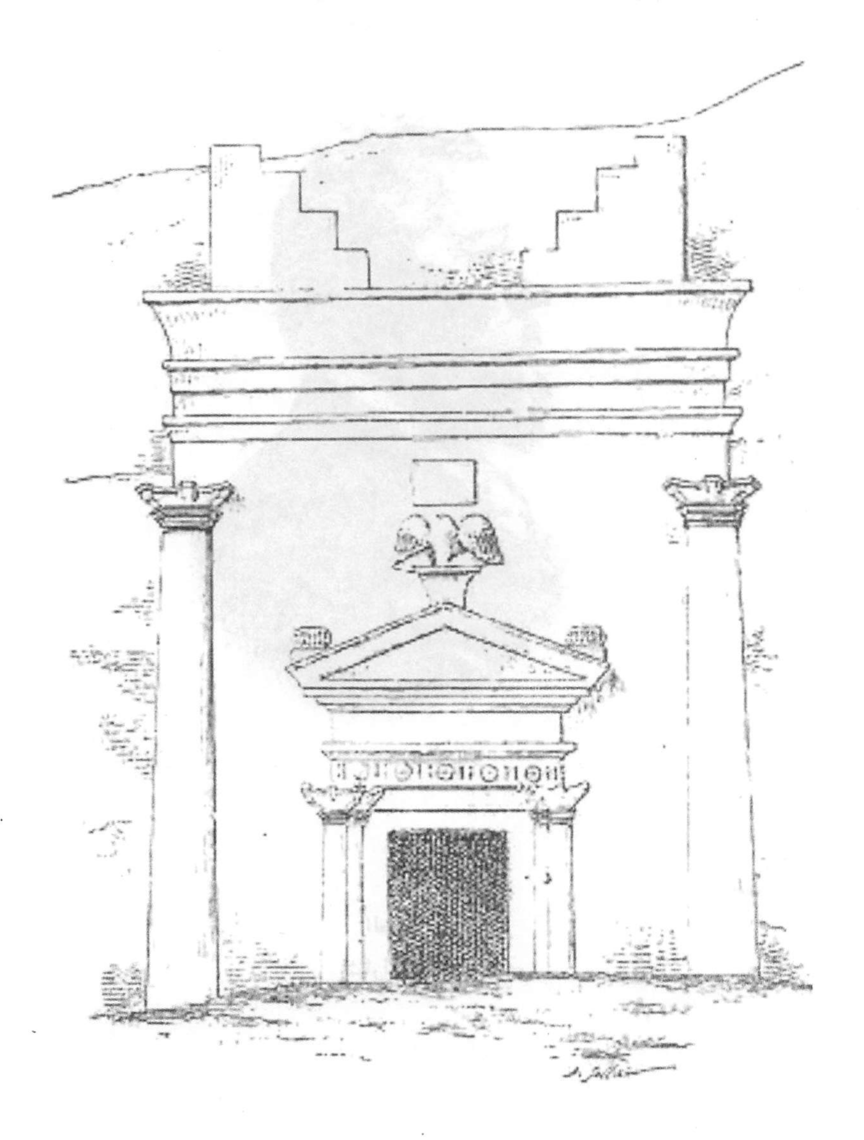


الصورة رقم ٤٤

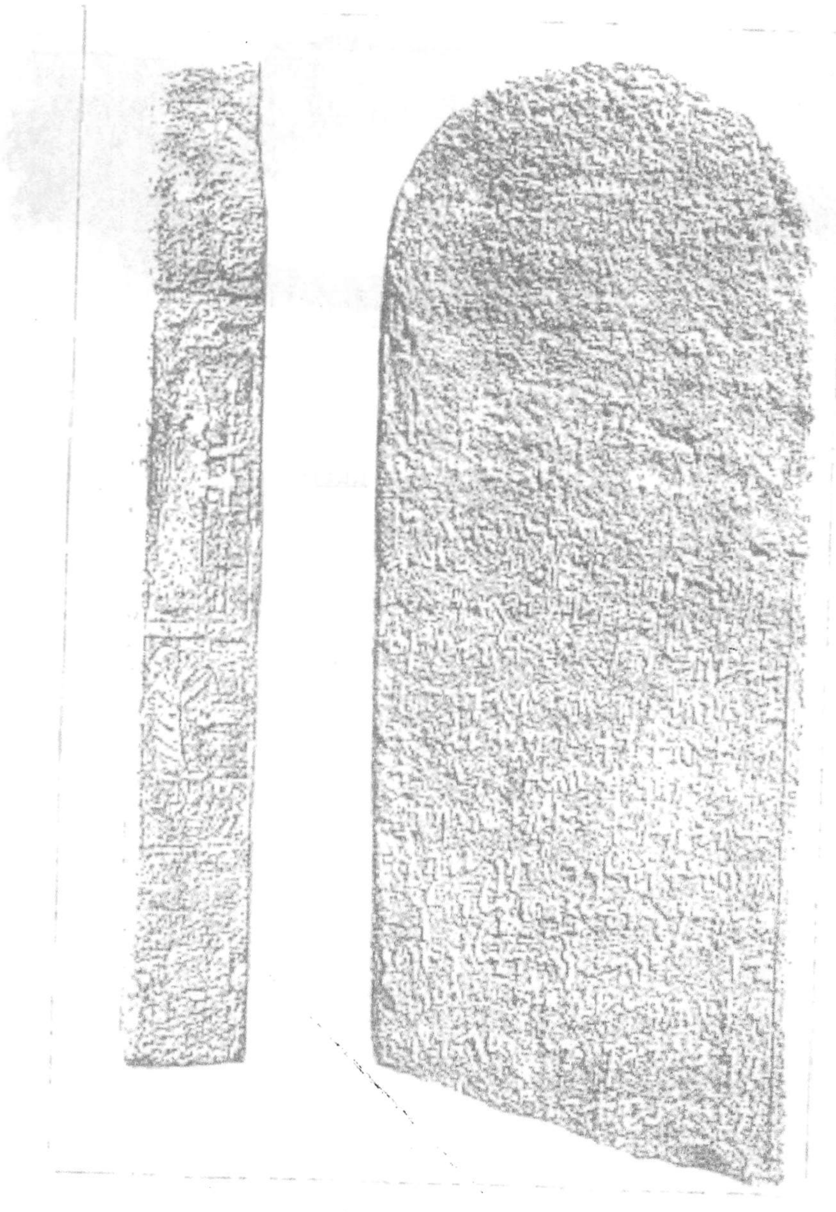
جوليوس يوتنج



الصورة رقم ٤٥
شارلز مونتاجو دوتي



الصورة رقم ٤٦
مخطط رسمه دوتي لواجهة من واجهات القبور فى الحجر

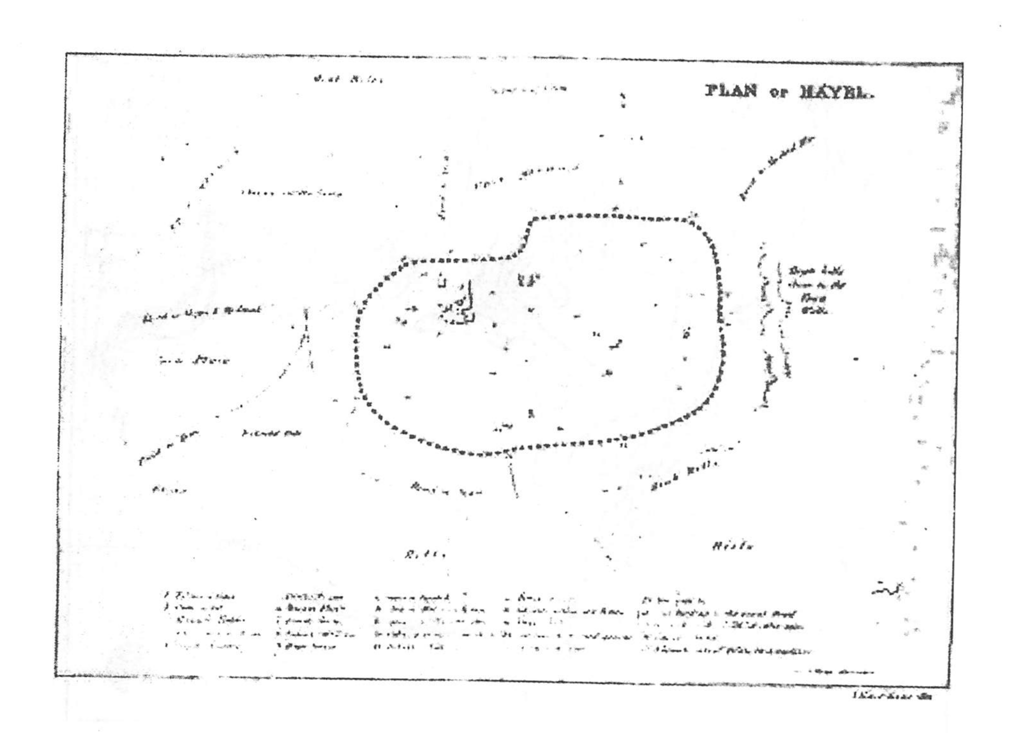


الصورة رقم ٤٧

حجر تيماء

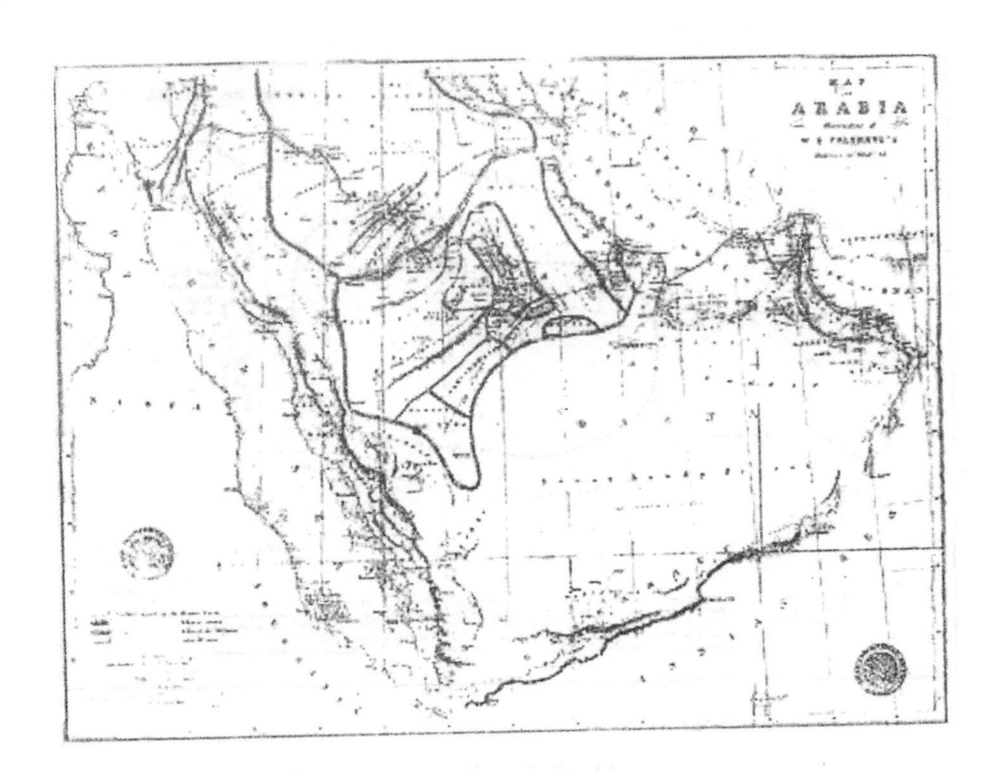


الصورة رقم ٤٨
المخطط الذى رسمه دوتى لبلدة خيبر

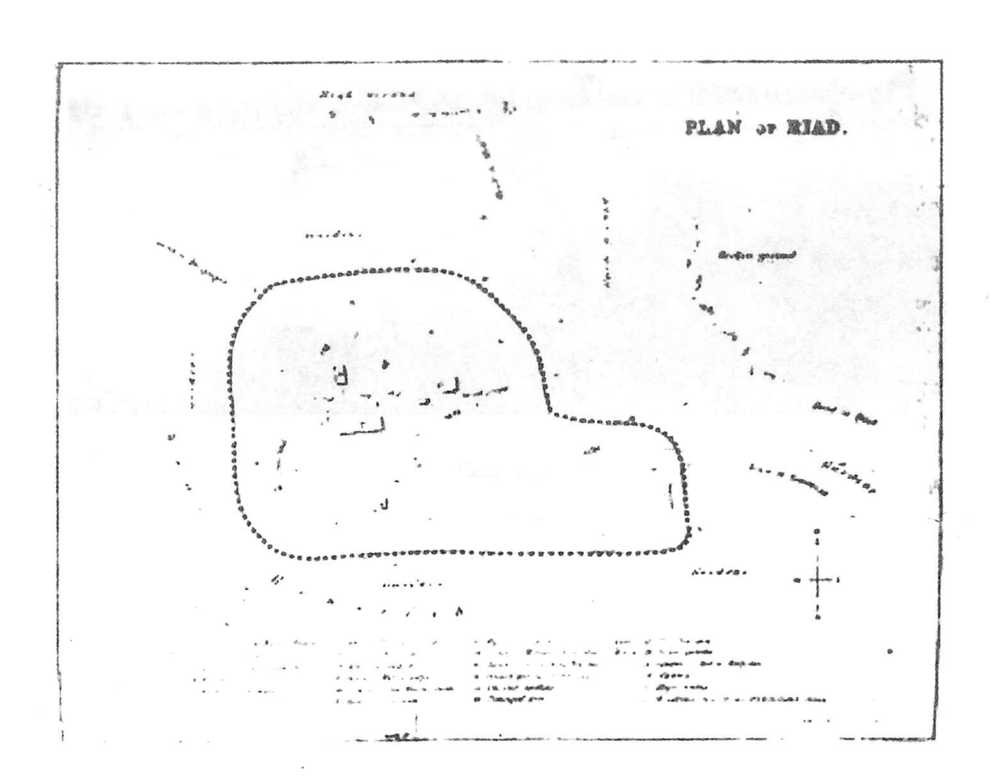


الصورة رقم ٤٩

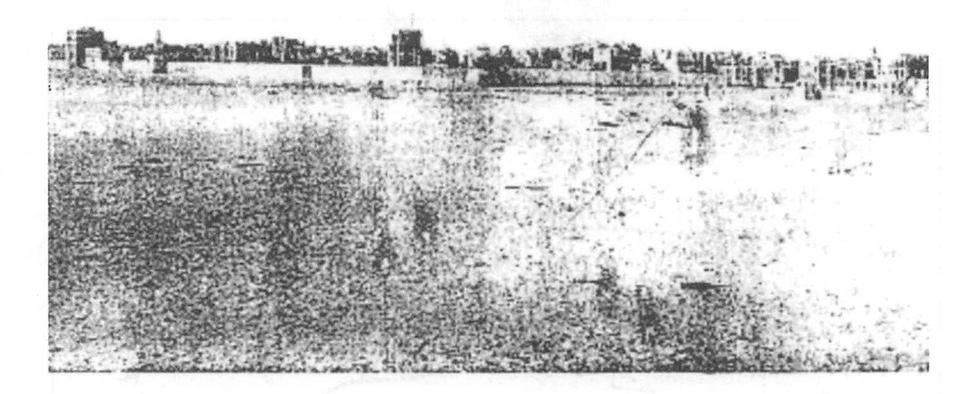
المخطط الذى رسمه بالجريف لحائل (١٨٦٢)



الصورة رقم ٥٠
الخريطة التى رسمها بالجريف للجزيرة العربية



الصورة رقم ٥١
الخريطة التى رسمها بالجريف للرياض



الصورة رقم ٥٢
جـدة

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف : كرسيتوفر نوريس ، دار المريخ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم - دار المريخ .

٣ - الإستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه - دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١ - المعطف المشاكس   ٢ - عمل الفريق الفعال .

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى : حســن كامــــل